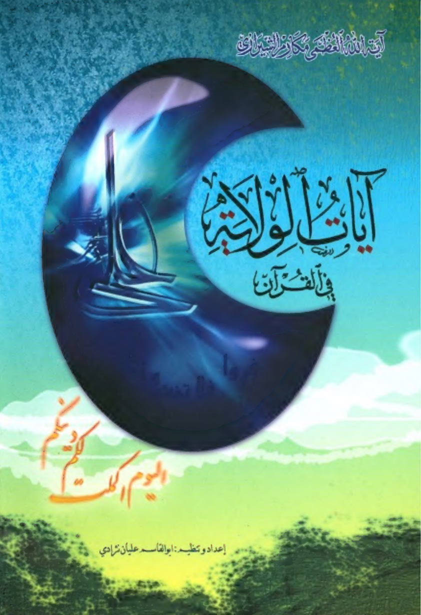
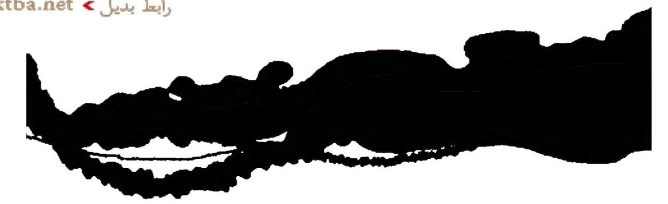


آية الله العظمى مكارم الشيرازي
آيات الولاية
في القرآن
اليوم أكملت لكم دينكم
إعداد و تنظيم: ابوالقاسم عليان نژادي







آية الله العظمى مكارم الشيرازي

إعداد وتنظيم: ابوالقاسم عليان نژادي

مكارم شيرازى، ناصر، ١٣٠٥ -
آيات الولاية في القرآن / ناصر مكارم الشّيرازى؛ إعداد ابوالقاسم عليان‌نژادى. - قم: مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٥ ق. = ١٣٨٣.
٣٧٦ ص. ISBN 964-8139-32-6
فهرستنويسى بر اساس اطّلاعات فيپا.
عنوان اصلى: آيات ولايت در قرآن
كتابنامه به صورت زيرنويس.
١. ولايت -- جنبه‌هاى قرآنى. ٢. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- اثبات خلافت. الف. عليان نژادى، ابوالقاسم، ١٣٤٣ - گردآورنده. ب. عنوان
BP ١٠٤ / ٨ م ٧٠٤٣ ٢٩٧/١٥٩

هوية الكتاب

إسم الكتاب: .... آيات الولاية في القرآن

المؤلف: .... آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

المطبعة: .... سليمانزاده

الطبعة: .... الاولى

الكمية: .... ٢٠٠٠ نسخة

عدد الصفحات: .... ٣٧٦ صفحة

حجم الغلاف: .... كبير

الناشر: .... مدرسة الامام على ابن أبي طالب عليه السلام

عنوان الناشر: .... قم، شارع الشّهداء، فرع ٢٢، تلفكس: ٧٧٣٢٤٧٨-٢٥١-٩٨-٠٠

ردمك: ٦-٣٢-٨١٣٩-٩٦٤

عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com

السّعر: ٣٠٠٠ تومان


بسم الله الرحمن الرحیم



المقدمة

سُمّي عام ١٣٧٩ هـ. ش في الجمهورية الإسلامية بعام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك لأنه تضمّن عيد الغدير في بدايته وفي نهايته فتحقق فيه عيد الغدير مرتين[١].

ولهذا كان من المناسب جداً أن يتحرك المفكّرون وعشّاق هذا الإمام الهمام على مستوى تعريف الناس بفضائله وأحاديثه وأخلاقه وسيرته وسائر شؤونه والقيام بدور فاعل في هذا المشروع الحضاري الإسلامي.

ومن هذا المنطلق وطبقاً للمعتاد في شهر رمضان من كلّ عام شرع سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي مدّظلّه بالقاء محاضراته بعد صلاة الظهر والعصر بما يخصّ الأبحاث التفسيرية المتعلقة بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام لأن شهر رمضان هو شهر القرآن وهو الشهر الذي استشهد فيه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فكان البحث تفسيراً للقرآن من جهة، ودراسة متعمقة لمسألة الولاية والإمامة في دائرة المفاهيم القرآنية من جهة أُخرى.

نأمل أن يشرق نور القرآن في قلوبنا أكثر وأكثر ببركة القرآن الكريم ومفسّره الأوّل أميرالمؤمنين عليه السلام ويساهم في ترشيد مسارنا في خطّ الرسالة والإيمان وهداية الأُمّة الإسلامية في حركتها الحضارية الصاعدة.

---

١. لأن السنة القمرية أقل من السنة الشمسية في عدد أيّامها.

الكتاب الحاضر

وهكذا تمّ بحمد الله تدوين تلك البحوث الجذّابة والشيّقة والعميقة المحتوى. وبعد إخراج المنابع والمصادر وإجراء بعض الاصلاح والتهذيب المتعلّق بتحويل الخطاب الكلامي إلى خطاب كتابي تمّ طبع الكتاب وإخراجه بالشكل المطلوب.

ملاحظات

١ ـ لعلّ البعض يتصور أنه مع وجود الجزء التاسع من نفحات القرآن الذي يتحدّث عن مفهوم الولاية والإمامة في القرآن الكريم، وكذلك ما ورد في التفسير الأمثل ذيل الآيات المتعلّقة بمسألة الإمامة لما الداعي لتأليف كتاب آخر يتناول هذه المسألة بالذات؟

ولكن الحقيقة أن الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب أوسع وأشمل ممّا ورد في ذينك الكتابين، والأهم من ذلك البعد العملي والتطبيقي للآيات الكريمة الواردة في هذا الكتاب ممّا يمنحه قدرة على معالجة مساحات واسعة من اهتمامات المجتمع الإسلامي المعاصر، مضافاً إلى المواضيع الجديدة التي تناولها هذا الكتاب لم تذكر في الكتابين السابقين، ولهذا وجدنا أن من الضروري نشر هذه البحوث القيّمة للقرّاء الأعزاء.

٢ ـ إن القرآن الكريم يتميّز بطراوة وحيوية على مدى الدهور والأعصار حيث يفيض على قارئيه في كلّ عصر وزمان مطالب جديدة، وعليه لا ينبغي القناعة والإكتفاء بما أورده المفسّرون من مفاهيم سامية في تفسير آياته الكريمة، بل علينا مواصلة البحث والتنقيب في معادنه الثمينة مع الإسترفاد من تفاسير الأعاظم وما تركه لنا العلماء من جهود فكرية في هذا السبيل وكذلك الإستفادة من العلوم والمعارف الجديدة في عملية استخراج المفاهيم القرآنية الكامنة واستجلاء مضمونها الحضاري.

٣ ـ تمّ تقسيم آيات الولاية والإمامة في هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام وبحثها في ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: آيات الخلافة والولاية على المسلمين.

الفصل الثاني: آيات فضائل أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الثالث: آيات الفضائل الخاصّة بأميرالمؤمنين ﷺ.

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع الأُخوة الذين أعانوني على انجاز هذه المهمة ولا سيّما أبنائي الأعزاء الذين تكفّلوا مهمة مطابقة الكتاب، وأرجو أن نتحرك جميعاً في خطّ الرسالة والصراط المستقيم بالاستنارة من الأنوار الإلهية للقرآن الكريم من أجل تحويل ولاية أميرالمؤمنين ﷺ إلى واقع حيّ يشمل كلّ تطلعات الإنسان ويعيش أجواء العناية الربانية في آفاقها الواسعة.

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

قم ـ الحوزة العلمية

أبو القاسم عليان نژادي

ربيع الثاني ١٤٢٢

الفصل الأول

آيات الخلافة والولاية على المسلمين

- ✓ آية التبليغ
- ✓ آية إكمال الدين
- ✓ آية الولاية
- ✓ آية أولي الأمر
- ✓ آية الصادقين



آية التبليغ

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ «سورة المائدة / الآية ٦٧»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة المشهورة التي تُعرف بآية التبليغ تتحدث عن أهم مسألة وقضية في العالم الإسلامي بعد مسألة النبوّة، و تخاطب النبي الأكرم في أواخر عمره الشريف بإصرار بالغ أن يتحدث للناس بصراحة تامة عن مسألة الخلافة والخليفة الذي يليه، ويبيّن للناس تكليفهم الشرعي، وقد ذكر علماء السنة والشيعة مطالب مختلفة في تفسير هذه الآية كما سيأتي.

الشرح والتفسير

إنتخاب الخليفة مرحلة نهائية للرسالة

إنّ القرآن الكريم يخاطب النّبي الأكرم ﷺ في آياته الشريفة بعناوين مختلفة منها:

﴿يا أيُّها المُزَّمِّل﴾[1].

---

١. سورة المزمل: الآية ١.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾[٣].

فالخطاب الأول والثاني يشيران إلى حالة خاصة من حالات الرسول الأكرم ﷺ الظاهرية. ولكن الخطاب الثالث والرابع يشيران إلى الشأن المعنوي والمقام الإلهي لرسول الله ﷺ حيث ورد هذا النحو من الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ مرات عديدة في القرآن الكريم.

ولكن خطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ لم يرد في القرآن سوى في آيتين أحدهما الآية محل البحث، والأخرى الآية ٤١ من سورة المائدة والتي تنسجم في مضمونها مع هذه الآية الشريفة وهذا يدلّ على أهمّية الموضوع الذي يتضمنه هذا الخطاب الإلهي للرسول الأكرم ﷺ حيث يقول بعده:

﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ وهذه المهمّة التي أُمر النّبي بإبلاغها لم تكن سوى تعيين الخليفة من بعده.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ إنّ هذه المهمّة إلى درجة من الأهمّية بحيث إنّه لو لم يؤدّها للناس فكأنّه لم يؤدّ الرسالة الإلهية بشكل عام حيث تبق أتعاب ثلاثة وعشرين سنة من تبليغ الرسالة ناقصة.

ومن الواضح أنّ النّبي الأكرم ﷺ كان يبلّغ جميع ما نزل عليه من الوحي للناس ويبيّن تعاليم الشريعة المقدسة ولكن هذا التعبير الذي يُفهم من سياق الآية يوحي للمسلمين بأهمية الموضوع الذي تضمنته الآية الشريفة.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ فبما أنّ هذه المهمّة حساسة جدّاً وفي غاية الأهمّية فمن الطبيعي أن تحوطها الأخطار ومن المتوقع أن تكون هناك ردود فعل شديدة من قبل المنافقين ومن في قلوبهم مرض سواءً كان بصورة علنية أم بصورة سرّية،

---

١. سورة المدثر: الآية ١.

٢. كرر هذا الخطاب في أكثر من ١٠ آيات قرآنية.

٣. ورد هذا الخطاب مرتين في القرآن الكريم.

ولذلك فانّ الله سبحانه وتعالى قد وعد نبيّه الكريم ﷺ بأن يحفظه من هذه الأخطار المحتملة.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فعلى الرغم من أنّ الله تعالى يمنّ على جميع الناس بالهداية إلى الحق إلّا أنّ الأشخاص الذين يصرّون العناد والإصرار على عقائدهم الزائفة وأفكارهم الباطلة لا يستحقون الهداية وسوف لا ينالون نعمة الهداية من الله تعالى.

ومع قليل من التدبر في مضمون وأجواء الآية محل البحث تتجلى هذه الحقيقة المهمة، وهي أنّ الآية الشريفة تتحرك نحو الإخبار عن موضوع مهم جداً، لأنّها تتضمّن في سياقها تأكيدات كثيرة لم يسبق لها مثيل:

١ ـ تبدأ الآية الشريفة بخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وكما تقدم أنّ هذا الخطاب يدل على الأهمّية الفائقة لمضمون هذا النص الشريف بحيث استلزم أن يقع الرسول الأكرم ﷺ مورداً للخطاب الإلهي مباشرة.

٢ ـ كلمة «بَلِّغْ» إشارة أُخرى إلى خصوصية المضمون الذي تحمله الآية الشريفة لأنّه:

أوّلاً: أنّ هذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم سوى في هذه الآية الشريفة.

ثانياً: كما يقول الراغب في كتابه «مفردات القرآن» إنّ هذه الكلمة في الواقع فيها تأكيد أشدّ من كلمة «أَبْلِغْ» لأنّه بالرغم من أنّ هذه الكلمة أيضاً لم ترد إلّا مرّة واحدة في القرآن الكريم[١]، إلّا أنّ كلمة «بَلِّغْ» مضافاً إلى مفهوم التوكيد فيها تتضمّن التكرار أيضاً، أي أنّ هذا الموضوع إلى درجة من الأهمّية بحيث يجب إبلاغه إلى الناس دفعات وبصورة مكررة[٢].

ثالثاً: جملة ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ شاهد ثالث على الخصوصية المهمّة في هذه الآية، فانّ النبي الأكرم ﷺ يؤمر في هذه الآية بإبلاغ رسالة خاصة تمثّل أساس ومحور الرسالة والنبوّة، لأنّه لو لم يبلّغ النبي الأكرم ﷺ هذه الرسالة الخاصة فكأنّما لم يبلّغ الرسالة كلّها.

---

١. سورة التوبة: الآية ٦.

٢. وهكذا عمل النبي الأكرم ﷺ، حيث ذكر موضوع خلافة علي عليه السلام على الناس مراراً من الأيّام الاولى لظهور الإسلام وحتى وفاته.

رابعاً: ومن العلامات الأُخرى على عظمة وأهمية مضمون هذه الآية الكريمة هو ما ورد فيها من ضمانات إلهية لحفظ الرسول الأكرم من الأخطار المحدقة به.

إنّ مضمون المأمورية التي كلّف بها النّبي الأكرم ﷺ في هذه الآية الشريفة إلى درجة من الأهمّية بحيث يخشى على النّبي من الخطر على حياته من جراء ردود الفعل المختلفة التي ستثيرها هذه المهمّة الرسالية، ولكن الله تعالى يعد نبيّه الكريم بحفظه من جميع الأخطار وردود الفعل المحتملة.

فما هو الموضوع المهم الذي تضمنته هذه الآية الشريفة؟

ما هي المأمورية المهمّة للنّبي الأكرم ﷺ التي تستلزم ضمانات إلهية صريحة بحفظ النّبي من الخطر؟

ما هو المطلب المهم الذي يجب أن يبلّغه النّبي الأكرم ﷺ للناس بحيث يساوي جميع الرسالة الإلهية؟

ماذا أراد الله سبحانه وتعالى من النّبي الأكرم ﷺ بحيث هدده من جهة ووعده بحفظ حياته من جهة أُخرى؟

والخلاصة ما هو موضوع هذه الآية الشريفة الذي ورد بكل هذه التأكيدات الشديدة؟

ومن أجل استجلاء الجواب الصحيح على هذه الأسئلة هناك طريقان:

الأوّل: هو التفكر والتأمل والتدبر في مضمون الآية نفسها بقطع النظر عن ما ورد من طرق الفريقين من السنة والشيعة من الروايات الشريفة في تفسير هذه الآية ومع قطع النظر عن كلمات المفسّرين والمؤرّخين.

والآخر: هو أن نقوم بتفسير هذه الآية الشريفة مع ما ورد حولها من روايات وأحاديث في شأن نزولها.

الطريق الأوّل: تفسير الآية بغض النظر عن الشواهد الأخرى

إنّ التدبّر والتعمق والدقة في الآية الشريفة نفسها وبدون الإستعانة بأُمور أخرى بإمكانه أن يجيب على جميع الأسئلة الواردة أعلاه بشرط الابتعاد عن التعصّب في تحكيم عقولنا لاستجلاء الحقيقة، لأنّه:

أوّلاً: أنّ الآية مورد البحث هي الآية (٦٧) من سورة المائدة وكما نعلم فإنّ سورة المائدة هي آخر سورة[١] نزلت على النّبي الأكرم ﷺ أو من أواخر السور التي جاء بها الوحي إلى الرسول الكريم ﷺ، أي أنّ هذه الآية نزلت في السنة العاشرة من البعثة وهي آخر سنة من عمر النبي الأكرم ﷺ وبعد ثلاثة وعشرين سنة من تبليغ الرسالة الإلهية.

والسؤال هو: ما هو الموضوع المهم الذي لم يبلّغه الرسول الأكرم ﷺ إلى الناس بعد ثلاثة و عشرين سنة من عمر النبوّة والرسالة؟

هل أنّ هذا الموضوع المهم يتعلق بالصلاة، في حين أنّ المسلمين كانوا يصلّون قبل ذلك بعشرين سنة؟

هل يتعلق بالصيام في حين أنّ حكم الصوم قد وجب بعد الهجرة وقد مضى على تشريعه ثلاثة عشر سنة؟

هل يتعلق بأمر تشريع الجهاد ونحن نعلم أنّ الجهاد قد شُرّع في السنة الثانية للهجرة؟

هل يتعلق بالحج ؟

الجواب: كلّا، إنّ الانصاف يدعونا إلى إنكار أن يكون هذا الموضوع يتعلق بواحدة من هذه الأُمور فلابدّ من التأمل في هذه الحقيقة، ونتسائل: ما هي المسألة المهمّة التي بقيت بعد ثلاثة وعشرين سنة من أتعاب الرسالة بدون تبليغ ؟

ثانياً: ويستفاد من أجواء الآية الشريفة أنّ هذه المأمورية للنبي الأكرم ﷺ إلى درجة من الأهمّية والخطورة بحيث تعادل الرسالة والنبوّة نفسها، وأمّا الإحتمالات التي ذكرها العلماء في تفسير واكتشاف مضمون هذه المأمورية كما تقدم آنفاً فانّها رغم أهمّيتها ولكنّها لا تعادل بثقلها الرسالة نفسها، فيجب أن نتفكّر في ماهيّة هذا الأمر المهم الذي يعادل الرسالة والنبوّة الذي لم يؤدّه النبي لحد الآن.

ثالثاً: الخصوصية الأخرى لهذه المأمورية الإلهية هي أنّ بعض الناس سيتحركون من

---

١. حسب الروايات، نزلت هذه السورة بصورة كاملة في حجة الوداع (الحجة الاخيرة للنبي الأكرم ﷺ) بين مكة والمدينة (المنار: ج ٦، ص١١٦).

موقع الرفض والإعتراض ويكون اعتراضهم إلى درجة من الشدّة والجدّية بحيث أنّهم مستعدون لقتل النبي والقضاء عليه ونحن نعلم أنّ المسلمين لم يعترضوا على تشريعات سابقة من قبيل الصلاة والصوم والحج والجهاد وأمثال ذلك.

إذن هذه المأمورية تتضمن مسألة سياسية بحيث تدفع بالبعض إلى الإعتراض والإستنكار والتحرك نحو القضاء على النبي الأكرم ﷺ لمنعه من إمتثال هذا التكليف الإلهي.

وعندما نأخذ بنظر الإعتبار جميع هذه الأبعاد المذكورة في أجواء الآية الشريفة ونتدبّر في هذا الموضوع من موقع الانصاف والحياد التام ونسعى لفهم الحقيقة بعيداً عن التعصّب والعناد لا نصل إلّا إلى مسألة الولاية والخلافة بعد النبي الأكرم ﷺ والتي قام النبي بتبليغ هذه الرسالة في غدير خم بصورة رسمية.

أجل! إنّ الموضوع الذي لم يبلّغه النبي الأكرم ﷺ للمسلمين إلى آخر عمره الشريف بصورة رسمية والذي يعادل الرسالة والنبوّة والذي تمادى الكثير من الناس لمنع الرسول الأعظم ﷺ من أداء هذه المهمّة والذي وعد الله عزّ وجلّ نبيّه الكريم بأن يحفظه من الأخطار التي تكتنف أداء هذه الرسالة هي المسألة المصيرية والمهمّة في دائرة الخلافة، لأنّه بالرغم من أنّ النبي الأكرم ﷺ قد ذكر للناس مسألة ولاية الإمام علي في السابق إلّا أنّه لم يبلّغها لجميع المسلمين بصورة رسمية لحد الآن، ولهذا السبب فانّه عندما كان عائداً من حجة الوداع قام بتبليغ هذه المأمورية الإلهية الكبيرة في صحراء غدير خم بأفضل صورة حيث أعلن لجميع المسلمين عن نصبه للإمام علي عليه السلام خليفة على المسلمين، وبتبليغ هذه المأمورية كمُلت رسالته.

٭٭٭

تطبيق العلامات الثلاث على مسألة الولاية

إنّ مسألة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام تنطبق عليها العلائم الثلاث الواردة في آية التبليغ تماماً لأنّها:

أوّلاً: إنّ الرسول الأكرم كما مرّ آنفاً لم يعلن عن مسألة الخلافة بعده طيلة عمره المبارك بشكل صريح ورسمي وبتلك الأبعاد الواسعة، وهذه هي المسألة المهمة التي بقيت على عاتقه في الأيّام الأخيرة من عمره الشريف.

ثانياً: إنه ليس من بين القضايا والأمور الإسلامية مسألة تعادل في أهميتها وشأنها مسألة النبوة سوى مسألة الخلافة والولاية التي تعتبر استمراراً لمسار النبوة، ومقام الإمامة يرادف مقام النبوة حيث يتكفل الإمام بأداء الوظائف والمسؤوليات التي كانت على عاتق النبي.

ثالثاً: منذ زمان طرح مسألة الإمامة لأميرالمؤمنين بدأت ردود الفعل والمخالفات المتعددة تبرز على السطح بل قد ظهرت في غدير خم أيضاً حيث جاء شخص إلى النبي الأكرم معترضاً عليه وقال: «اللّهم إن كان هذا من عندك فأنزل علينا حجارة من السماء» فنزلت عليه حجارة فأهلكته.

وهكذا هلك هذا الشخص كما سيأتي تفصيل القصة لاحقاً.

وإذا ضممنا الآية ٤١ من سورة المائدة إلى هذه الآية يتضح المطلب بصورة جيدة.

والنتيجة هي أنّ الآية الشريفة محل البحث مع غض النظر عن الروايات والأقوال وآراء المفسّرين وما أورده المؤرخون في كتبهم تدلّ على خلافة وولاية الإمام علي عليه السلام.

❀

سؤال: قد يقال المراد بالمسألة المهمة في هذه الآية هو إشارة إلى الخطر الكامن في عدوّين كبيرين للإسلام والمسلمين وهما: اليهود والنصارىٰ الّذين كانوا يتحركون دوماً من موقع العداء للإسلام ومنع تقدّم المسلمين ومع هذا كيف تكون هذه الآية مرتبطة بشأن الولاية والخلافة؟

الجواب: إنّ من كانت له أدنىٰ مطالعة ومعرفة بتاريخ الإسلام يعلم جيداً أنّ مشكلة اليهود والنصارىٰ تم حلّها في السنة العاشرة للهجرة حيث تم إخراج قبائل اليهود من بني قريظة وبني النظير وبني قينقاع ويهود خيبر وسائر قبائل اليهود والنصارى من الجزيرة العربية حيث أسلم الكثير منهم وأُجبر الباقي على الهجرة إلى مناطق أُخرى، وعلى هذا

الأساس فطبقاً لما ورد في الآية ٤١ من سورة المائدة أن خوف النبيّ ﷺ لم يكن من خارج دائرة المسلمين بل كان خوفه يتمثل في الأفراد الذين دخلوا الإسلام.

وعلى هذا الأساس فإنّ تفسير الآية باليهود والنصارى لا يكون منسجماً مع أجواء الآية، وكذلك سائر التفاسير الأُخرىٰ التي أوردها البعض سوىٰ القول بأن المقصود هو خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام، وعليه فإنّ الآية الشريفة محل البحث تمثّل جواباً قاطعاً ومستدلاً ومتيناً على جميع الأشخاص الذين أنكروا إمامة وخلافة الإمام علي بن أبي طالب بعد رسول الله.

الطريق الثاني: تفسير آية التبليغ في دائرة الروايات

الطريق الثاني لتفسير الآية الشريفة يتم بالاستعانة بالأحاديث والروايات الشريفة الواردة في شأن نزول هذه الآية وكذلك نظريات وآراء المفسّرين وعلماء الإسلام والمؤرخين الذين دوّنوا هذه الحادثة...

هناك العديد من المحدّثين في صدر الإسلام ذهبوا إلى أن الآية أعلاه نزلت في شأن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ومن هؤلاء:

١ ـ «ابن عباس» الراوي والمفسّر المعروف كاتب الوحي الذي هو مورد قبول الشيعة وأهل السنّة.

٢ ـ «جابر بن عبدالله الأنصاري» وهو الشخصية المعروفة والمقبولة لدى جميع الطوائف الإسلامية.

٣ ـ «أبو سعيد الخدري» الذي يعدّ من كبار صحابة النبي ويتمتع باحترام بالغ.

٤ ـ «عبدالله بن مسعود» وهو أحد كتّاب الوحي وأحد المفسّرين المعروفين.

٥ ـ «أبو هريرة» الراوي المعروف والمقبول لدى أهل السنّة.

٦ و ٧ ـ «حذيفة» و «البراء ابن عازب» صحابيان من مشاهير صحابة النبي، وهناك جمع آخر من الصحابة والعلماء الذين يذعنون بهذه الحقيقة وهي أنّ الآية الشريفة محل البحث نزلت في ولاية الإمام علي.

والجدير بالذكر أنّ الروايات الواردة في هذه الاسناد والتي أشرنا إلى بعض رواتها آنفاً وردت من طرق مختلفة، فمثلاً الرواية أعلاه وردت بأحد عشر طريقاً عن ابن عبّاس وجابر بن عبدالله الأنصاري.

ومن بين المفسّرين من أهل السنّة جماعة ذكروا الرواية المتعلّقة بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام ومن بينهم «السيوطي» في «الدرّ المنثور» / الجزء الثاني / الصفحة: ٢٩٨، و«أبوالحسن الواحدي النيشابوري» في «أسباب النزول» / الصفحة: ١٥٠، و«الشيخ محمّد عبده» في «تفسير المنار» / الجزء السادس / الصفحة: ١٢٠، و «الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»، وغيرها من التفاسير الأُخرى.

وهنا نورد مقطعاً من كلام الفخر الرازي الذي أورده في تفسيره كنموذج منها:

يعتبر الفخر الرازي من أساطين المفسّرين وعلماء الإسلام بين أهل السنّة ويعتبر تفسيره متين ومفصّل ويحكي عن كثرة علمه واطّلاعه على الأُمور «بالرغم من تعصبه الشديد الذي اسدل على فكره حجاباً في بعض الأحيان» فإنّه بعد استعراض تسعة احتمالات في تفسير الآية أعلاه يذكر ولاية أميرالمؤمنين في الاحتمال العاشر ويقول:

نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ولمّا نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يابن أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة...[1]

وطبقاً لما ورد في كتاب شواهد التنزيل يقول زياد بن منذر:

كنت عند أبي جعفر محمّد بن علي (الباقر) عليه السلام وهو يحدّث الناس إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى ـ كان يروي عن الحسن البصري ـ فقال له: يا ابن رسول الله جعلني الله فداك إن الحسن يخبرنا أنّ هذه الآية نزلت بسبب رجل ولا يخبرنا من الرجل. فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به ولكنه يخاف (من حكومة بني أُمية مضافاً إلى أنه

---

١. التفسير الكبير: ج ١١، ص ٤٩.

لم تكن له علاقة جيدة مع الإمام علي عليه السلام)... إلى أن قال: فلما ضمن الله [له] بالعصمة وخوّفه أخذ بيد علي بن أبي طالب ثمّ قال: يا أيّها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه...[١].

والملاحظة الملفتة هنا هي أنّ الحاكم الحسكاني مؤلف كتاب شواهد التنزيل الذي أورد الرواية أعلاه هو من أهل السنّة، كما ذكر هذه الرواية جمع آخر من أهل السنّة.

❊❊❊

والنتيجة هي أن الأحاديث والروايات وأقوال الصحابة والروايات وآراء المفسّرين والعلماء كلّها تحكي أنّ آية التبليغ نزلت في موضوع ولاية أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام.

توصيتان في آية التبليغ

وبإمكاننا أن نستوحي ملاحظتان أو توصيتان من أجواء الآية الشريفة:

١ ـ أنّه بالرغم من أنّ المخاطب في هذه الآية الشريفة هو رسول الله بشخصه إلّا أنّ وظيفة تبليغ مسألة الولاية والإمامة والإجابة على علامات الإستفهام والشبهات التي تثار حولها لا تختص بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بلا شك، بل هي وظيفة جميع العلماء وأهل النظر على طول التاريخ.

٢ ـ الأُخرى في هذه الآية الشريفة هي أنّ المؤمنين الواقعيين هم الأشخاص الذين يتحركون في خط الطاعة لله تعالى من موقع التسليم والاذعان للحقّ لا من موقع التعصّب والعناد والميول الفئوية والطائفية والحزبية بحيث يسلّمون أحياناً ويخالفون أحياناً أُخرى.

وأساساً فإنّ السرّ في وصول نبي الإسلام لتلك المقامات العالية والمنازل المعنوية الرفيعة تكمن في عبوديته وتسليمه المحض لله تعالى وهو ما نشهد به في كلّ صلاة قبل الشهادة برسالته ونقول: «اشهد أن محمّداً عبده ورسوله».

ونحن إذا أردنا نيل تلك المرتبة السامية من القرب الإلهي وأردنا أن نعيش الإيمان

---

١. شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٥٣، ح ٢٤٨.

الحقيقي والواقعي وتطبيق إدعائنا في الإستنان بسنّة النبي الأكرم ﷺ فيجب أن نسلّم لأمره على كلّ حال حتّى لو كان على خلاف رغباتنا ومزاجنا وميولنا العاطفية.

ﮋﮊ

ولغرض تكميل هذا البحث نستعرض خلاصة لقصّة الغدير كما وردت في تفسير «نفحات القرآن»....

واقعة الغدير

أدركنا من البحث الآنف بشكل إجمالي أن هذه الآية وعلىٰ ضوء الشواهد التي لا تحصىٰ قد نزلت بحقّ علي عليه السلام، وانّ الروايات التي نُقلت في الكتب المعروفة لأهل السنّة ـ فضلاً عن كتب الشيعة ـ أكثر من أن يستطيع أحدٌ انكارها.

وبالاضافة إلى الروايات أعلاه، فلدينا روايات أُخرىٰ تفيد بصريح القول: إنّ هذه الآية وردت أثناء واقعة الغدير وخطبة النبي ﷺ في التعريف بعلي عليه السلام علىٰ أنه الوصي والولي، وعددها يربو على الروايات السابقة، حتّى أنّ المحقّق الكبير العلّامة «الأميني» ينقل في كتاب الغدير، حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله ﷺ بالاسناد والوثائق الحية، وكذلك عن ٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من مشاهير علماء المسلمين ومؤلفيهم.

إنّ كلّ من يلقي نظرةً علىٰ مجموعة هذه الأسانيد والوثائق يدرك بأنّ حديث الغدير من أكثر الروايات الإسلامية جزماً، ومصداقاً واضحاً للحديث المتواتر ومن يشك في تواتره، فعليه أن لا يؤمن بأيّ حديث متواتر.

وحيث إنّ الولوج في هذا البحث بنحوٍ واسعٍ يخرجنا عن أُسلوب كتابة تفسير موضوعي، فنكتفي بهذا القدر بشأن اسناد الرواية وشأن نزول هذه الآية، ونتطرق إلى مضمون الرواية، ونحيل الذين يريدون المزيد من المطالعة حول اسناد الرواية إلى الكتب التالية:

١ ـ كتاب الغدير، ج ١.

٢ ـ إحقاق الحقّ، تأليف العلّامة الكبير القاضي «نورالله الشوشتري» مع شرح مفصلٍ لآية الله النجفي، ج ٢ و ٣ و ١٤ و ٢٠.

٣ ـ المراجعات للمرحوم السيّد «شرف الدين العاملي».

٤ ـ عبقات الأنوار للعالم الكبير «ميرحامد الحسيني الهندي» (من الأفضل مراجعة خلاصة العبقات، ج ٧ و ٨ و ٩).

٥ ـ دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ٢.

مضمون روايات الغدير

وهنا نأتي بقصّة الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات أعلاه، (وطبقاً فإن هذه الواقعة قد وردت في بعض الرويات بشكل مفصّل ومطوّل، وفي بعضها بشكل مختصرٍ وقصير، وفي بعضها اشير إلى جانبٍ من هذه القصة وفي البعض إلى جانب آخر، ومنها جميعاً يستفاد ما يلي):

في السنّة الأخيرة من حياة النبي ﷺ أقيمت مراسم حجة الوداع بكلّ جلال بمشاركة النبي ﷺ، وكانت الأفئدة تمتلئ بالمعنويات ولم تزل اللذة المعنوية لهذه العبادة العظيمة ينعكس إشعاعها في النفوس.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ الذين كان عددهم كثيراً للغاية لا تسعهم أنفسهم نتيجة لادراكهم هذا الفيض والسعادة العظيمة[1].

ولم يكن أهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول الله ﷺ في هذا السفر، بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية برفقته ﷺ لنيل هذا الفخر التاريخي العظيم.

وكانت شمس الحجاز تضفي على الجبال والأودية حرارة لا تطاق، إلّا أن حلاوة هذا السفر المعنوي النادر كانت تيسّر كلّ شيء، وقد اقترب الظهر، وأخذت منطقة الجحفة، وصحراء «غدير خم» الجافة الرمضاء تبدو للعيان.

وهذا المكان يعدّ مفرق طرق لأهل الحجاز حيث يتشعب إلى أربعة طرق، فطريق يتجه إلى الشمال نحو المدينة، وطريق إلى الشرق نحو العراق، وطريق إلى الغرب نحو مصر، وطريق

---

١. ذكر البعض ان عدد الذين كانوا مع رسول الله ﷺ ٩٠ ألفاً، والبعض ١١٢ ألفاً، وبعضٌ ١٢٠ ألفاً، وبعضٌ ١٢٤ ألفاً.

إلى الجنوب نحو اليمن، وهنا يجب أن تُطرح آخر المستجدات في هذا السفر، ويتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم، وهو في واقع الأمر كان خط النهاية في الواجبات الناجحة للنبي ﷺ.

كان ذلك في يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت عشرة أيّام على عيد الأضحى، وفجأة صدر الأمر من الرسول ﷺ إلى الذين معه بالتوقف، ونادى المسلمون بأعلى أصواتهم أصحابَهم الذين تقدّموا الركب بالتوقف والعودة، وأمهلوا المتأخرين حتى يصلوا، وزالت الشمس وصدح صوت مؤذن رسول الله ﷺ بالأذان: الله أكبر، داعياً الناس إلى صلاة الظهر، وسرعان ما استعد الناس للصلاة، إلاّ أن حرارة الجو كانت إلى الحدّ الذي أُجبر البعض على أن يغطي أرجله بقسم من ازاره ويستر رأسه بالقسم الآخر، وإلاّ فإن حصى الصحراء وأشعة الشمس ستحرق أرجلهم ورؤوسهم.

فلا خيمة في الصحراء، ولا خضرة، ولا نبات، ولا شجرة، سوى بعض الأشجار البرية الجرداء التي تقاوم حرارة الصحراء، والتي لاذ بها البعض، ووضعوا قطعة من القماش على أحداها وجعلوها ظلاً لرسول الله ﷺ، إلاّ أن الرياح اللاهبة تهب تحتها وتلفها بحرارة الشمس المحرقة.

وانتهت صلاة الظهر، وعزم المسلمون على اللجوء إلى خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم، بيد أن النبي ﷺ أوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ إلهي جديد يُوضَّح ضمن خطبة مفصلة، ولم يكن بمقدور البعيدين عن رسول الله ﷺ رؤية وجهه الملكوتي وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من أربعة من أحداج الإبل، فارتقاهُ النبي ﷺ، وفي البداية حمد الله وأثنى عليه واستعاذ به، ثمّ خاطب الناس قائلاً:

أيّها الناس: يوشك أن أُدعى فأُجيب.

أنا مسؤول، وأنتم مسؤولون.

فكيف تشهدون بحقّي؟

فصاح الناس: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، ثمّ قال:

ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله إليكم، وأن البعث حق، وأن الله

يبعث من في القبور؟! فقالوا: نشهد بذلك، قال: اللّهمّ اشهد، ثمّ قال:

أيّها الناس أتسمعوني؟ قالوا: نعم، ثمّ عمّ السكوت الصحراء فلم يُسمع إلّا صوت الريح، فقال ﷺ: فانظروا ماذا صنعتم بالثقلين من بعدي؟

فقال رجل من بين القوم: ما هذا الثقلان يا رسول الله؟!

قال ﷺ: أما الثقل الأكبر فهو كتاب الله حبل ممدود من الله إليكم، طرفه بيد الله والطرف الآخر بأيديكم، فلا تدعوه، وأما الثقل الأصغر فهم عترتي وقد أخبرني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا.

ونظر الناس إلى رسول الله ﷺ وهو يلتفت حوله، وكأنه يبحث عن أحد، ولما وقعت عيناه على علي عليه السلام التفت إليه وأخذ بيده ورفعها حتّى بان بياض أبطيهما، وشاهدهما جميع القوم، وعرفوا أنه ذلك الفارس المقدام، وهنا ارتفع صوت النبي ﷺ، وقال: أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟

قالوا: الله ورسوله أعلم،

فقال النبي ﷺ: الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين وأولى منهم بأنفسهم، ثمّ قال: فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ، وكرر هذا الكلام ثلاث مرّات، وكما قال أرباب الحديث: انه كرره أربعاً، ثمّ رفع رأسه نحو السماء، وقال:

اَللّهمّ والِ مَنْ والاه وَعادِ مَنْ عاداهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَه وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دارَ.

ثمّ قال ﷺ: أَلا فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الْغائِبَ.

هنا انتهت خطبة الرسول ﷺ وكان العرق يتصبب من النبي ﷺ والجميع، ومازال الناس لم يتفرقوا من ذلك المكان حتّى نزل عليه الوحي وقرأ هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال رسول الله ﷺ:

اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى إِكْمالِ الدِّيْنِ وَإِتْمامِ النِّعْمَة وَرِضَى الرَّبِّ بِرِسَالَتِي وَالْوِلايَةِ لِعَلِيٍّ مِنْ بَعْدِي.

في هذه الأثناء عم الناس النشاط والحركة، وأخذوا يهنئون علياً عليه السلام بهذا المقام، وكان من الذين هنئوه، أبو بكر وعمر حيث نطقا بهذه العبارة أمام أعين الحاضرين:

بَخٍ بَخٍ لَكَ يَابْنَ أَبي طالِبٍ أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلايَ وَمَوْلا كُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ.

أثناء ذلك قال ابن عبّاس: «والله إنه عهد سيبق في أعناقهم». واستاذن النبي صلى الله عليه وآله الشاعر المعروف «حسان بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثمّ استهل قصيدته المعروفة:

يُنادِيْهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ ... بِخُمٍّ وَأَسْمِعْ بِالرَّسُولِ مُنادِيا
فَقالَ فَمَنْ مَوْلاكُمْ وَنَبِيُّكُمْ؟ ... فَقالُوا وَلَمْ يَبْدُوا هُناكَ التَّعامِيا:
إِلٰهُكَ مَوْلانا وَأَنْتَ نَبِيُّنا ... وَلَمْ تَلْقَ مِنّا فِي الْوَلايَةِ عاصِيا
فَقالَ لَهُ قُمْ يا عَلِيُّ فَإِنَّني ... رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدي إِماماً وَهادِيا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهذا وَلِيُّهُ ... فَكُونُوا لَهُ اتْباعَ صِدْقٍ مُوالِيا
هُناكَ دَعا اَللّٰهُمَّ وَالِ وَلِيَّهُ ... وَكُنْ لِلَّذي عادا عَلِيّاً مُعادِيا[1]

توضيحات

١ ـ معنى الولاية والمولى في حديث الغدير

لقد اطلّعنا بشكل إجمالي على حديث الغدير المتواتر، والعبارة المشهورة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع الكتب وهي: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» توضح الكثير من الحقائق وإن أصرّ كثيرٌ من كتّاب أهل السنّة على تفسير كلمة «المولى» هنا بمعنى «الصديق والمحبّ والناصر»، لأنّ هذا أحد المعاني المعروفة لـ«المولى».

ونحن نسلّم بأنّ إحدى معاني «المولى» الصديق والمحب والناصر، إلّا أنّ ثمة قرائن عديدة تثبت أنّ المولى في الحديث أعلاه تعني «الولي والمشرف والقائد» وهي كما يلي بإيجاز:

١ . روى هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنّة منهم: الحافظ «أبو نعيم الاصفهاني»، والحافظ «ابوسعيد السجستاني»، و«الخوارزمي المالكي»، والحافظ «أبو عبدالله المرزباني»، و«الكنجي الشافعي»، و«جلال الدين السيوطي»، و«سبط بن الجوزي»، و«صدرالدين الحموي».

١ ـ إن قضية محبة علي عليه السلام مع جميع المؤمنين لم تكن أمراً خفياً وسرياً ومعقّداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد والايضاح، وبحاجة إلى إيقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة وإلقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرار بالولاية له من ذلك الجمع.

فالقرآن يقول بصراحة: ﴿إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١].

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٢].

والخلاصة: إنّ الأُخوة الإسلامية ومودة المسلمين مع بعضهم من أكثر المسائل الإسلامية بداهة، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما أكد عليها النبيُّ صلى الله عليه وآله مراراً، بالاضافة إلى عدم كونها مسألة تحتاج إلى بيان بهذا الأُسلوب الحاد في الآية، وأن يشعر النبي صلى الله عليه وآله بالخطر من البوح بها (تأملوا جيداً).

٢ ـ إن عبارة «أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْـفُسِكُمْ» الواردة في الكثير من الروايات لا تتناسب أبداً مع بيان مودّة عادية، بل انه يريد القول بأن تلك الأولوية والتصرف الذي لي تجاهكم وأنني إمامكم وقائدكم، فإنه ثابت لعلي عليه السلام وأي تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الإنصاف والواقعية، لا سيّما مع الأخذ بنظر الإعتبار جملة «أَنَا أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ».

٣ ـ التهاني التي قدمها الناس لعلي عليه السلام في هذه الواقعة التاريخية، لا سيّما التهاني التي قدمها أبوبكر وعمر، إذ إنها تبرهن علىٰ أن القضية لم تكن سوىٰ تعيين الخلافة التي يستحق التبريك والتهاني، فالاعلان عن المودة الثابتة لجميع المسلمين بشكل عام لا يحتاج إلى تهنئة.

وجاء في مسند الامام أحمد أن عمراً، قال لعلي بعد خطبة النبي صلى الله عليه وآله:

هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولىٰ كلّ مؤمن ومؤمنة[٣].

ونقرأ في العبارة التي ذكرها الفخر الرازي في ذيل الآية: ﴿ياأيُّها الرسولُ بلّغْ ما أُنزلَ

---

١. الحجرات: الآية ١٠.

٢. التوبة: الآية ٧١.

٣. مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٨١ (على ضوء نقل الفضائل الخمسة: ج ١، ص ٤٣٢).

إليك﴾ أن عمراً قال: «هَنيئاً لَكَ يَابْنَ أبي طالِبٍ أصْبَحْتَ وَأمْسَيْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ».

وبهذا فإن عمراً يعدُّ علياً مولاه ومولى المؤمنين جميعاً.

وفي تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل:

بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا ابْنَ أبي طالِبٍ! أصْبَحْتَ مَوْلايَ وَمَوْلى كُلِّ مُسْلِمٍ[1].

وجاء في «فيض القدير»، و«الصواعق»، أن أبا بكرٍ وعمراً باركا لعلي بالقول: «أمْسَيْتَ يَابْنَ أبي طالِبٍ مَوْلا كُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ»[2].

ومن نافلة القول إن المودة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لا ينسجم إلّا مع الولاية التي تعني الخلافة.

٤ ـ إن الشعر الذي نقلناه آنفاً عن «حسان بن ثابت» بذلك المضمون والمحتوى الرفيع، وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر على هذا الادعاء، وتشير إلى هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الأبيات مرّة أُخرى).

٢ ـ سورة المعارج تؤيد حديث الغدير

روى كثيرٌ من المفسّرين ورواة الحديث في ذيل الآيات الأُولى من سورة المعارج: ﴿سَألَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ * لِلْكافِرِيْنَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِن اللهِ ذِي المَعَارِجِ﴾ أنّ شأن النزول في هذه الآيات هو ما يلي:

إن النبي ﷺ عيّن علياً خليفة يوم غدير خم وقال بحقّه: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاه»، فما لبث أن انتشر الخبر، فجاء «النعمان بن الحارث الفهري» ـ (وكان من المنافقين)[3] ـ إلى النبي ﷺ وقال: لقد أمرتنا أن نشهد ان لا إله إلّا الله وأنك محمّد رسول الله، فشهدنا، ثمّ

---

١. تاريخ بغداد: ج ٧، ص ٢٩٠.

٢. فيض القدير: ج ٦، ص ٢١٧، الصواعق: ص ١٠٧.

٣. جاء في بعض الروايات انه «الحارث بن النعمان» وفي بعضها «النضر بن الحارث».

أمرتنا بالجهاد والحجّ والصلاه والزكاة فقبلنا، فلم ترض بكلّ ذلك، حتّىٰ أقمت هذا الفتىٰ «مشيراً إلى عليّ عليه السلام» خليفة لك، وقلت: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه فهل هذا منك أم من الله»؟ قال النبي صلى الله عليه وآله «والله الذي لا معبود سواه انه من الله»، فالتفت إليه «النعمان بن الحارث»، وقال: «إلهي إن كان هذا حقّاً منك فأنزل علينا حجارة من السماء»!

وفجأةً نزلت حجارة من السماء على رأسه وقتلته، فنزلت آية «سأل سائل بعذاب واقع».

ما ورد أعلاه هو ما ذكره صاحب «مجمع البيان» عن أبي القاسم الحسكاني[1] وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسّري أهل السنّة ورواة الأحاديث مع شيء من الإختلاف، مثل: القرطبي في تفسيرهِ المعروف[2]، والآلوسي في تفسير روح المعاني[3]، وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره[4].

وينقل العلّامة الأميني هذه الرواية في كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنّة (مع ذكر المصدر ونص العبارة)، منها: «السيرة الحلبية»، «فرائد السمطين» للحمويني، «درر السمطين» للشيخ محمّد الزرندي، و«السراج المنير» لشمس‌الدين الشافعي، «شرح الجامع الصغير» للسيوطي، و«تفسير غريب القرآن» للحافظ أبوعبيد الهروي، و«تفسير شفاء الصدور» لأبي بكر النقاش الموصلي، وكتب أُخرىٰ.

وقد أورد بعض المفسّرين أو المحدّثين الذين يَقرّون بفضائل علي عليه السلام على مضض اشكالات مختلفة على شأن النزول هذا، أهمها الإشكالات الأربعة التالية التي أوردها صاحب تفسير المنار وآخرون بعد ذكرهم للرواية أعلاه.

الإشكال الأوّل: إن سورة المعارج مكية، ولا تتناسب مع واقعة غدير خم.

والجواب: إن كون السورة مكية لا يعتبر دليلاً على أن جميع آياتها نزلت في مكّة،

---

١. مجمع البيان: ج ٩ و ١٠، ص ٣٥٢.

٢. الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠، ص ٦٧٥٧.

٣. روح المعاني: ج ٢٩، ص ٥٢.

٤. وفقاً لنقل نور الأبصار للشبلنجي: ص ٧١.

فلدينا العديد من سور القرآن الكريم التي تدعىٰ بالمكية وكتبت في جميع المصاحف على أنها مكية، بيد أن عدداً من آياتها نزلت في المدينة، وكذا العكس، فعلىٰ سبيل المثال: إن سورة العنكبوت من السور المكية، والحال أن آياتها العشر الأُولىٰ نزلت في المدينة، علىٰ ضوء قول الطبري في تفسيره المعروف،والقرطبي في تفسيره وآخرين من العلماء[١].

أو سورة الكهف المعروفة بأنها مكية بينما نزلت آياتها السبع الأُولىٰ في المدينة استناداً لتفسير «القرطبي»، و«الاتقان» للسيوطي، وتفاسير عديدة[٢].

وهكذا فهنالك سورٌ عُدت بأنها مدنية بينما نزلت آيات منها في مكة، مثل سورة «المجادلة» فهي مدنية كما هو معروف، إلّا أن الآيات العشر الأُولىٰ منها نزلت في مكّة، طبقاً لتصريح بعض المفسّرين[٣].

وموجز الكلام أنه توجد حالات كثيرة بأن تذكر سورة علىٰ أنها مكية أو مدنية، ويكتب عليها في التفاسير والمصاحف هذا الاسم إلّا أن جانباً من آياتها قد نزل في موضع آخر.

وعليه فلا مانع أبداً من أن تكون سورة المعارج هكذا أيضاً.

الإشكال الثاني: جاء في الحديث أن الحارث بن النعمان جاء إلى النبي ﷺ في الابطح، ومعلوم أن الأبطح اسم لوادي في مكّة، وهذا لا يتلاءم مع نزول الآية بعد واقعة الغدير بين مكّة والمدينة.

الجواب: أوّلاً إن عبارة الابطح وردت في بعض الروايات فقط لا في جميعها.

وثانياً: إن «الإبطح والبطحاء» تعني الأرض الرملية التي يجري فيها السيل، وهنالك مناطق في المدينة وغيرها يطلق عليها اسم الأبطح أو البطحاء أيضاً، واللطيف انه قد اشير إليها مراراً في الشعر العربي.

---

١. تفسيرالطبري: ج ٢٠، ص ٨٦، القرطبي: ج ١٣، ص ٣٢٣.

٢. للمزيد من الاطلاع على الموضوع: راجعوا الجزء الأوّل من كتاب الغدير: ص ٢٥٦و٢٥٧.

٣. تفسير أبي السعود الذي كتب على هامش تفسيرالرازي: ج ٨،ص ١٤٨، والسراج المنير: ج ٤، ص ٢١٠.

منها الشعر المعروف الذي انشده «شهاب‌الدين» المشهور بـ«حيص بيص»[١] في رثائه لأهل البيت ﷺ، عن لسانهم في مخاطبة قاتليهم:

مَلَكْنا فَكانَ الْعَفْوُ مِنّا سَجِيَّةً   فَلَمّا مَلَكْتُمْ سالَ بِالدَّمِ أَبْطَحُ
وَحَلَّلْتُمُ قَتْلَ الأُسارى وَطالَما   غَدَوْنا عَنِ الأَسْرى نَعْفُوا وَنَصْفَحُ[٢]

ومن الواضح أن مقاتل أهل البيت ﷺ كانت على الأغلب في العراق وكربلاء والكوفة والمدينة، وما أُريق دمٌ في ابطح مكّة أبداً، نعم إن بعض أهل البيت ﷺ استشهدوا في واقعة «فخ» التي تبعد عن مكّة ما يقرب من فرسخين، والحال أنّ الابطح يجاور مكّة.

وشاعرٌ آخر يرثي الإمام الحسين ﷺ سيّد الشهداء قائلاً:

وَتَسِانُّ نَفْسي لِلرُّبُوعِ وَقَدْ غَدا   بَيْتَ النَّبِيِّ مُقَطَّعُ الأَطْنابِ
بَيْتٌ لِآلِ الْمُصْطَفى فِي كَرْبَلا   ضَرَبُوهُ بَيْنَ أَباطِحٍ وَرَوابي[٣]

وثمّة أشعار أُخرىٰ كثيرة ورد فيها تعبير «الابطح» أو «الاباطح» لا تعني منطقة خاصة في مكّة.

وملخّص الكلام، صحيح أن أحد معاني الابطح هو بقعة في مكّة، إلّا أنّ معنىٰ ومفهوم ومصداق الابطح لا ينحصر بتلك البقعة.

ﮓﮔ

٣ ـ كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها

إن بعض المفسّرين ومن أجل مجانبة الحقيقة الكامنة في هذه الآية توسّل بمبرر آخر

---

١. اسمه «سعد بن محمّد بن سعد بن صيفي التميمي» ويلقّب بـ«شهاب‌الدين» ومشهور بلقب «حيص بيص»، وكان من فقهاء الشافعية وله معرفة واسعة بالعلوم ولكنه كان أعلم بالشعر والبلاغة، أما السبب في شهرته بلقب «حيص بيص» فقد ذكروا أن الناس كانوا في عسر وضيق فقال: ما للناس في حيص وبيص؟ فعرف بهذه الكلمة، توفي عام ٥٥٤ أو ٥٧٤ أو ٥٧٧ هـ. ق. ودفن في مقابر قريش. (ريحانة الأدب: ج ٢، ص ٩٧).

٢. الغدير: ج ١، ص ٢٥٥.

وهو: إن سياق الآيات السابقة واللاحقة بشأن أهل الكتاب لا تنسجم مع قضية الولاية والخلافة والإمامة، ولا تتناسب هذه الاثنينية في الخطاب مع بلاغة وفصاحة القرآن[١].

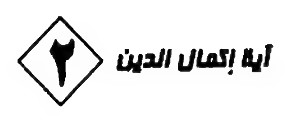
الجواب: إن كافة المطّلعين على كيفية جمع آيات القرآن يعرفون أن آيات القرآن نزلت تدريجياً وبمناسباتٍ مختلفة، من هنا فكثيراً ما تتحدث سورةٌ ما حول قضايا مختلفة، فجانبٌ منها يتحدث عن الغزوة الفلانية، والجانب الآخر حول الحكم والتشريع الإسلامي الفلاني، وجانبٌ يخاطب المنافقين، وآخر يخاطب المؤمنين، فمثلاً لو طالعنا سورة النور لوجدناها تحتوي على جوانب متعددة، كلٌّ منها ناظرٌ إلى موضوعٍ، بدءاً من التوحيد والمعاد ومروراً بتنفيذ حدّ الزنا وقصة «الافك»، والقضايا المتعلّقة بالمنافقين، والحجاب وغيرها، (وكذلك سائر السور الطوال إلى حدٍ ما) بالرغم من وجود ارتباط عام بين مجموعة أجزاء السورة.

والسرّ وراء هذا التنوع في المحتوى ما قيل من أن القرآن نزل تدريجياً وحسب المتطلبات والضرورات وفي مختلف الأحداث، وليس على هيئة كتاب كلاسيكي أبداً بحيث يتابع موضوعاً معداً سلفاً، على هذا الأساس لا مانع على الاطلاق من أن تنزل مقاطع من سورة المائدة بشأن أهل الكتاب، ومقاطع منها في واقعة الغدير، بالطبع لمن وجهة النظر العامة انهما يرتبطان معاً إذ انّ تعيين خليفة لرسول الله ﷺ يترك أثره على قضايا أهل الكتاب أيضاً، لأنه سيؤدي إلى يأسهم من انهيار الإسلام برحيل النبي ﷺ[٢].

---

١. تفسير المنار: ج ٦، ص ٤٦٦.

٢. نفحات القرآن: ج ٩، ص ١٧٥.



﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ «سورة المائدة / الآية ٣»

أبعاد البحث

تتحدّث هذه الآية الشريفة عن يوم عظيم جداً لدى المسلمين حيث يمثل نقطة عطف في تاريخ الإسلام، وهو اليوم الذي عاش فيه أعداء الدين اليأس الكامل، وهو يوم إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية ورضى الله تعالى، فأي يوم هو هذا اليوم المبارك؟

فيما يلي نجيب على هذا السؤال:

الشرح والتفسير

يوم إكمال الدين والنعمة

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ فبالرغم من أنّ أعداء الإسلام والكفّار المعاندين لم يتوانوا في التصدي للدعوة السماوية منذ بدايتها وإلى آخر أيّام حياة النبي الأكرم ﷺ وبوسائل مختلفة، وفي كلّ مرّة كانوا يهزمون ويولّون الأدبار ولكنهم مع ذلك لم يفقدوا الأمل في الإنتصار على الإسلام والمسلمين، ولكن عند نزول هذه الآية الشريفة ندرك جيداً وقوع حادثة مهمة بحيث إنّ هؤلاء الأعداء لم ينهزموا فقط بل فقدوا أملهم بالنصر نهائياً.

وعلى هذا الأساس فإنّ هؤلاء الكفّار والمشركين قد تملّكتهم حالة من اليأس المطبق في تحقيق النصر على هذه الدعوة الجديدة.

﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فمع هذا النصر الكبير الذي حصل لكم في هذا اليوم فلا ينبغي لكم بعد ذلك أن تعيشوا حالة الخوف والخشية من الأعداء لأنهم سوف لا يشكلون خطراً عليكم إطلاقاً بل عليكم أن تتحركوا في امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى من موقع الخشية لله والتقوىٰ لأنّ الخطر الأساس في هذه المرحلة يتمثل في الأهواء والشهوات والابتعاد عن خط الطاعة والتقوىٰ والمسؤولية.

﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ففي هذا اليوم العظيم والمهم أكمل الله لكم دينكم وأتم نعمته عليكم.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ إنّ عظمة هذا اليوم وأهمية هذه الحادثة إلى درجة بحيث إنّ الله عزّوجلّ رضي لكم الدين الإسلامي إلى الأبد.

أيّ يوم هو ذلك اليوم؟

إن اليوم الذي تتحدث عنه الآية الشريفة له خصائص مهمة أربع:

١ ـ إن هذا اليوم هو اليوم الذي شعر فيه الكفّار والمشركون باليأس الكامل.

٢ ـ اليوم الذي أكمل الله لكم الدين.

٣ ـ اليوم الذي أتم الله تعالى نعمته على جميع المسلمين.

٤ ـ اليوم الذي رضي به الله تعالى أن يكون الإسلام ديناً خالداً لجميع الناس فأيّ يوم هذا اليوم المبارك الذي يتمتع بهذه الخصوصيات الأربعة؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا اختيار طريقين:

الطريق الأوّل: التأمل والتدبّر في مضمون الآية الشريفة نفسها ومطالعة ما يمكن استيحاؤه من أجوائها بغض النظر عن الروايات والأحاديث الشريفة الواردة في تفسير هذه الآية وبغضّ النظر كذلك عن آراء المفسّرين وعلماء الإسلام وسائر العلائم والقرائن الأُخرىٰ التي تحيط بهذه الآية الشريفة.

الطريق الثاني: تفسير الآية الشريفة بالاستعانة بالروايات الواردة بشأن النزول وكذلك آراء ونظريات المفسّرين وعلماء الإسلام.

الطريق الأوّل: تفسير الآية بدون الاستعانة بالقرائن الخارجية

نتساءل مع أيّ حادثة من الحوادث التاريخية في زمن النزول يمكن تطبيق هذه الآية الشريفة؟

وفي مقام هذا الجواب على هذا السؤال فالفخر الرازي له رأيان والمرحوم الطبرسي ذكر رأياً ثالثاً، ونحن بالتوكل على الله تعالى وبالإستعانة بالعقل والمنطق والإبتعاد عن التعصّب ولغة الأحساسات والإبتعاد عن كلّ ما يخلّ بوحدة المسلمين نبحث هذه الآراء والنظريات الثلاث بدقّة:

النظرية الأُولى: وهي أحدىٰ النظريات التي ذكرها الفخرالرازي في تفسيره للآية الشريفة، وهي أنّ كلمة «اليوم» الواردة في هذه الآية لم ترد بمعناها الحقيقي بل وردت بالمعنى المجازي، أي أنّ كلمة «اليوم» هنا تعني «المرحلة» أو البرهة من الزمان لا مقطع خاص منه بما يحكي عن ليلة ونهار واحد.

وطبقاً لهذه النظرية فإنّ اليوم هنا لا يقصد به يوم معين أو حادثة خاصّة بل يشير إلى بداية مرحلة تحكي عن عظمة الإسلام ويأس الأعداء والكفّار من تحقيق النصر على هذه الدعوة السماوية، لا سيّما وأن هذا الإستعمال المجازي لكلمة «اليوم» هو استعمال متداول بين الناس كما يقال مثلاً «كنت بالأمس شاباً واليوم أصبحت شيخاً» أي أنني كنت في مرحلة سابقة من عمري شاباً وفي هذا الزمان أصبحت شيخاً، فلا تعني كلمة اليوم أو الأمس يوماً معيناً من الأيّام الزمانية.

ولكن الجواب على هذه النظرية واضح لأنّ المعنى المجازي يحتاج إلى قرينة لصرف الإستعمال عن المعنى الحقيقي، فما هي هذه القرينة الواضحة التي استند عليها الفخرالرازي للقول بالمعنى المجازي؟

النظرية الثانية: أن المراد بكلمة اليوم في الآية الشريفة هو المعنى الحقيقي، أي هو يوم

خاصّ ومعين وهو «يوم عرفة» الثامن من شهر ذي القعدة، في حجّة الوداع في السنة العاشرة للهجرة.

ولكن هذه النظرية بدورها لا تتضمن إقناعاً كافياً لأنّ يوم عرفة في السنة العاشرة للهجرة لا يختلف عن أيّام عرفة الأُخرىٰ في السنة التاسعة والثامنة للهجرة، ولولم تحدث في هذا اليوم حادثة خاصة فكيف ذكرته الآية الشريفة بلغة التعظيم والتبجيل ؟

والخلاصة هي أنّ هذه النظرية غير مقبولة وغيرمنطقية وبالتالي فإنّ كلا النظريتين للفخرالرازي لا تعيننا في استجلاء مضمون الآية الشريفة واكتشاف السر المستودع فيها.

النظرية الثالثة: وهي التي ذكرها الطبرسي الذي يعد من أساطين المفسّرين لدى الشيعة، فإنّه بعد أن نقل القولين السابقين للفخرالرازي وردّهما ذكر تفسير أهل البيت في مورد هذه الآية الشريفة الذي هو تفسير جميع مفسّري الشيعة وعلمائهم.

يرى أصحاب هذه النظرية أن المراد بـ«اليوم» في هذه الآية الكريمة الذي تحقق فيه يأس الكفّار واستوجب رضى الله تعالىٰ وكمل فيه الدين وتمت فيه النعمة هو اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجّة من السنة العاشرة للهجرة أي يوم عيد الغدير، وهو اليوم الذي نصّب فيه رسول الله الإمام عليّ خليفة له على المسلمين وأعلن فيه خلافته وولايته بصورة رسمية.

سؤال: هل هذه النظرية تتطابق مع مضمون الآية الشريفة ؟

الجواب: إذا نظرنا بعين الإنصاف إلى هذه الآية الشريفة وابتعدنا عن المسبوقات الفكرية والرواسب التراثية لرأينا الآية الشريفة تنطبق تماماً على واقعة الغدير لأنها:

أوّلاً: لأنّ أعداء الإسلام بعد أن فشلوا في جميع مؤامراتهم وانهزموا في حروبهم ضد الإسلام والمسلمين وفشلت خططهم في بثّ التفرقة والإختلاف في صفوف المسلمين فإنّهم لم يبق لهم سوى شيء واحد يحيي أملهم في الإنتصار والتغلب على هذا الدين الجديد، وهو أن النبي الأكرم بعد رحيله من هذه الدنيا وخاصّة مع أخذ بالنظر الإعتبار أنّه لم يكن له ولد يخلفه في أمر الدعوة واستمرارية الرسالة ولم يعيّن لحد الآن خليفة له من بعده فيمكنهم والحال هذه أن يسددوا ضربة قاصمة للإسلام والدعوة السماوية بعد رحيل الرسول ﷺ،

ولكنّهم عندما شاهدوا أنّ النبي الأكرم قد جمع المسلمين في صحراء غدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة في السنة العاشرة للهجرة واختار خليفة له على المسلمين وهو أعلمهم وأقدرهم في تدبير أمور المجتمع الإسلامي فإنّ أملهم هذا قد تبدلّ إلى يأس كامل، وتبخرت حينذاك طموحاتهم وتمنياتهم وأغلقت فيه النافذة الوحيدة للأمل لديهم فيأسوا من هزيمة الإسلام إلى الأبد.

ثانياً: مع انتخاب الإمام علي عليه السلام خليفة ووصياً للرسول فإنّ النبوة لن تنقطع بل استمرت في سيرها التكاملي لأن الإمامة هي تكميل للنبوة وبالتالي فالإمامة هي السبب في كمال الدين، وعلى هذا الأساس فإن الله تعالى قد أكمل دينه بنصبه الإمام علي خليفة على المسلمين وهو الشخصية المتميزة من بين المسلمين بالعلم والقدرة والتقوى والفضيلة بما لا يدانيه أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثاً: إن النعم الإلهية قد تمت على المسلمين بنصب الإمام علي خليفة وإماماً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

رابعاً: إنّ الإسلام بلا شك سوف لا يكون ديناً عالمياً وشمولياً وخاتم الأديان بدون عنصر الإمامة، لأن الدين الذي يعتبر نفسه خاتم الأديان يجب أن يتضمن أجابات كافية على حاجات الناس المتكثرة والمتوالية في جميع الأزمان، وهذا المعنى لا يتسنى من دون إمام معصوم في كلّ زمان من الأزمنة.

والنتيجة هي أن تفسير الآية الشريفة بواقعة الغدير هو التفسير الوحيد والمقبول من جميع الجهات.

المراد من إكمال الدين

وقد ذكر المفسّرون في تفسير هذا المقطع من الآية الشريفة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ ثلاث نظريات:

١ ـ إن المراد من «الدين» هو القوانين، أي أن ذلك اليوم كملت فيه قوانين الإسلام فلا يوجد في الإسلام خلأ قانوني وفراغ تشريعي بعد الآن.

ولكنّ الجواب على هذه النظرية يمكن أن يثير سؤال وهو:

ما هذا القانون المهم أو الحادثة المهمة التي وقعت في ذلك اليوم وأدّت إلى تكميل القوانين الإلهية والتشريعات السماوية؟

وفي الجواب على هذا السؤال يكمن مضمون الآية الشريفة ومدلولها.

٢ ـ ذهب البعض إلى أن المقصود من كلمة «الدين» في الآية أعلاه هو «الحجّ» أي أنّ الله تعالى قد أكمل حجّ المسلمين في ذلك اليوم العظيم.

ولكن هل أنّ الدين يستعمل بمعنى الحجّ واقعاً، أو أنّ الدين هو مجموعة العقائد والأعمال والعبادات التي يشكل الحجّ أحدها؟

من الواضح أن احتمال الثاني هو الصحيح، وعليه فإن تفسير الدين بمعنى الحجّ هو تفسير غير مقبول ولا يقوم على دليل متين.

٣ ـ إنّ تحقق مضمون الآية الشريفة في إكمال الدين وإتمام النعمة في هذا اليوم بأنّ الله تعالى نصر فيه المسلمين على أعدائهم وخلّصهم من شرّ هؤلاء الأعداء.

ولكن هل يصحّ هذا الكلام؟ فمن هم الأعداء الذين غلبوا وشعروا باليأس؟ فبالنسبة إلى المشركين فقد استسلموا ودخلوا في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة عند فتح مكـة، وبالنسبة إلى يهود المدينة وخيبر وقبائل بني النظير وبني قينقاع وبني قريظة فإنّهم قد هزموا في سنوات سابقة في معركة خيبر والأحزاب فتركوا الجزيرة العربية وخرجوا إلى خارج الحكومة الإسلامية، وأمّا بالنسبة إلى النصارى فقد أمضوا معاهدة الصلح مع المسلمين، وعليه فإن جميع أعداء الإسلام قد استسلموا قبل السنة العاشرة للهجرة.

نعم، بقي خطر المنافقين الذين يمثّلون أخطر أعداء الإسلام حيث لا زال خطرهم ماثلاً أمام المسلمين، ولكن كيف يمكن القول بأنهم قد انهزموا وأصابهم اليأس؟

هنا نجد أن هذا السؤال بقي بلا جواب مقنع كما هو حال السؤال المطروح في النظرية الأولى والذي لم يتقدم أصحاب هذه النظرية بالجواب على هذا السؤال.

أما تفسير علماء الشيعة فكما تقدّم آنفاً فإنّه يجيب على جميع الأسئلة ويلقي ضوءاً خاصّاً على مفهوم الآية وأجواءها.

أجل! فإنّ واقعة غدير خم ومسألة الولاية وخلافة أميرالمؤمنين تعتبر أفضل تفسير بل هي التفسير الصحيح لهذه الآية الشريفة، لأنّ مع وقوع هذه الحادثة المهمة فإنّ آمال المنافقين وأعداء الإسلام قد تبددت وتبدلت إلى يأس.

اعتراف جذّاب من الفخر الرازي

يقول الفخر الرازي المفسّر السنّي المعروف:

«قال أصحاب الآثار انّه لمّا نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ لم يعمر بعد نزولها إلّا أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ[1] ولا تبديل البتّة[2]».

وعلى وفق مقولة الفخر الرازي هذه فإنّ الآية الشريفة قد نزلت قبل رحلة النبي ﷺ بواحد وثمانين يوماً أو أثنين وثمانين يوماً، وعلى هذا الأساس فيمكن حدس وقت نزول الآية الشريفة، ولإيضاح هذا المطلب يلزمنا التعرف على زمن رحلة النبي الأكرم ﷺ فإنّ

---

١. وفي هذه الأيّام نرى بعض الجهال والمغرضين يطرحون شبهات مختلفة، وأحدها أن الإسلام لا يتحدد بما وصل إلينا من النصوص الدينية في تراثنا الديني بل لابدّ من الاستعانة بالعقل والفكر لانتاج المزيد من القوانين الشرعية في دائرة الدين وأن النبي ﷺ لو كان قد عاش أكثر ممّا عاش فإن الوحي سيرفده بقوانين وأحكام جديدة أكثر ممّا هو موجود الآن، وبالتالي فإن الإسلام ليس ديناً كاملاً بل يجب العمل على إكماله.

الجواب: ويتّضح الجواب عن هذه الشبهة والمغالطة بالرجوع إلى ما ذكره الفخر الرازي في هذا المجال لأن النبي حسب الرواية المذكورة عاش بعد نزول آية إكمال الدين ثمانين يوماً ونيفاً، ولو كانت هنالك قوانين شرعية لم تصل إليه بعد لنزل الوحي بها عليه في هذه المدّة، وهذا يعني عدم وجود قوانين إلهية وآيات قرآنية لم تنزل على النبي ﷺ وأن مهمات المسائل والتعاليم السماوية قد بيّنت بحيث لو فرض أن النبي كان يعيش أكثر من المدّة المقرّرة ما كان سيزداد شيئاً على قوانين الإسلام.

وهنا لابدّ من إظهار التأسف على أن بعض الأشخاص غير المطلعين على المصادر الدينية يبدون برأيهم من دون تحقيق، فلماذا يكون المرجع في كلّ علم وفن هم أهل الخبرة والمتخصصين في ذلك العلم والفن ويكون الحقّ معهم فيما يقولون وليس كذلك في المسائل الدينية حيث نرى أن كل من هبّ ودبّ يدلي بدلوه ويصرّح برأيه في هذا الميدان؟!

٢. التفسير الكبير: ج ١١، ص ١٣٩.

أهل السنّة يرون أنّ النبي الأكرم ﷺ قد ولد في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل واتفق أنّ وفاته كان في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل أيضاً.

وبالطبع فإنّ بعض الشيعة أيّد هذا الرأي ومنهم الكليني الذي يرى أن تاريخ وفاة النبي ﷺ كان في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل بالرغم من أنّه يرى أن ولادة رسول الله ﷺ كانت في اليوم السابع عشر من ربيع الأوّل طبقاً لما هو المشهور من علماء الشيعة، وعلى هذا الأساس لابدّ من الرجوع واحداً وثمانين يوماً أو أثنين وثمانين يوماً من الثاني عشر من ربيع الأوّل، ومع الإلتفات إلى أن الأشهر القمرية لا تكون ثلاثين يوماً على التوالي في ثلاثة أشهر وكذلك لا تكون تسعة وعشرين يوماً على ثلاثة أشهر متوالية ينبغي أن يكون هناك شهران كاملان وبينهما شهر واحد منه تسعة وعشرين يوماً، أو بالعكس بأن يكون هناك شهران لتسعة وعشرين يوماً وشهر واحد لثلاثين يوماً.

فلو أخذنا بنظر الإعتبار شهر محرم وصفر وفرضنا أنّ كلّ واحد منهما تسعة وعشرين يوماً، فالمجموع يكون ثمانية وخمسين يوماً، ومع إضافة أثنى عشر يوماً من شهر ربيع الأوّل يكون المجموع سبعين يوماً، وبالالتفات إلى أن شهر ذي الحجّة لابدّ وأن يكون ثلاثين يوماً فلو توغلنا فيه اثنى عشر يوماً ليكون المجموع اثنين وثمانين يوماً يصادف هذا اليوم هو يوم عيد الغدير الثامن عشر من ذي الحجّة، وعلى هذا الأساس وطبقاً لنظرية علماء السنّة فإنّ الآية الشريفة أعلاه تتعلّق بيوم الغدير لا بيوم عرفة.

وإذا كان المعيار هو واحداً وثمانين يوماً فإنّه يتفق مع اليوم الذي يتلو يوم الغدير لا يوم عرفة حيث تفصله مع يوم عرفة فاصلة كبيرة.

وإذا أخذنا شهر محرم وصفر لكلّ واحد منهما ثلاثون يوماً وشهر ذي الحجّة تسعة وعشرين يوماً فطبقاً لعدد اثنين وثمانين يوماً يكون اليوم التاسع عشر من ذي الحجّة هو المراد وطبقاً لواحد وثمانين يوماً فإنّ يوم عشرين ذي الحجّة يكون هو زمان الآية الشريفة، أي أن الآية الشريفة نزلت بعد يوم واحد أو يومين بعد واقعة الغدير ونصب الإمام علي ﷺ خليفة على المسلمين وناظرة إلى هذه الحادثة التاريخية المهمة ولا ترتبط إطلاقاً بيوم عرفة.

والنتيجة هي أنّ القرائن المختلفة التي تحف بهذه الآية الشريفة تشير إلى أن هذه الآية

تتعلّق بواقعة الغدير وأنها نزلت في شأن خلافة أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام.

سؤال: إنّ بداية الآية الثالثة من سورة المائدة تتحدّث عن اللحوم المحرمة[١]، وفي آخرها تتحدّث عن الاضطرار والضرورة وأحكامها[٢]، وفيما بينهما تتحدّث الآية عن ولاية وإمامة أميرالمؤمنين، فأيّ تناسب وانسجام بين مسألة الولاية والإمامة وخلافة النبي صلى الله عليه وآله مع مسألة اللحوم المحرمة وحكم الاضطرار والضرورة؟ ألا يكون هذا شاهداً على أن العبارة مورد البحث في هذه الآية لا يرتبط بمسألة الولاية بل يشير إلى مطلب آخر؟

الجواب: إنّ آيات القرآن الكريم لم ترد بصورة كتاب منظم كما هو الحال في الكتب المتعارفة الكلاسيكية بل نزلت متفرقة وعلى فترات مختلفة وقد تكون آيات سورة واحدة قد نزلت في أوقات متباينة وكان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يوصي بكتابة كلّ آية في سورة معيّنة، وعلى هذا الأساس فيمكن أن يكون صدر الآية مورد البحث الذي يتحدّث عن الأسئلة التي كان المسلمون يسألون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عنها وعن اللحوم المحرمة قد نزل قبل واقعة الغدير، وبعد مدّة حدثت واقعة الغدير ونزلت الآية محل البحث وذكرها كتّاب الوحي بعد آية تحريم اللحوم، ثمّ حدثت مسألة الاضطرار أو حدث مصداق من مصاديقها وحكم هذا الاضطرار، لذلك نجد أن ذيل الآية الشريفة يتضمن هذا الحكم الشرعي وقد كتبه كتّاب الوحي بعد الحديث عن واقعة الغدير المذكور في وسط الآية، وبملاحظة النكتة أعلاه فليس بالضرورة أن يكون هناك إنسجاماً معيناً في سياق الآية الشريفة.

ومع الإلتفات إلى هذه الملاحظة سوف تنحل كثير من الشبهات والإشكالات المتعلّقة بآيات القرآن الكريم.

سؤال آخر: رأينا فيما سبق أن الآية الثالثة من سورة المائدة هي آخر الآيات التي نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومع نزول هذه الآية يكون الدين قد كمل وتكون الشريعة

---

١. والآية المذكورة هي: ﴿حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما اهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السّبع إلّا ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾.

٢. يتحدث في نهاية الآية محل البحث من قوله تعالى: ﴿فمن اضطرّ في مخمصة غير متجانف لإثم فإنّ الله غفور رحيم﴾.

الإسلامية بمجموع مقرراتها وقوانيها قد نزلت بصورة كاملة على النبي الأكرم ﷺ. فإذا كان كذلك إذن فلماذا ورد بعد هذه الآية مورد البحث وفي ذيلها حكم الاضطرار والضرورة؟ أي إذا كانت آية إكمال الدين هي آخر آية وتخبرنا عن إكمال الدين والشريعة، إذن لماذا يعني هذا القانون الجديد الذي نزل بعدها؟

الجواب: يمكن الإجابة عن هذا الإشكال بصورتين:

الجواب الأوّل: إنّ مسألة الاضطرار في زمان القحط والذي ورد في هذه الآية الشريفة لا يورد حكماً جديداً بل هو حكم تأكيدي لما سبق من الأحكام الشرعية، لأنّ هذا الحكم قد ورد قبل ذلك في ثلاث آيات من القرآن الكريم:

الف) نقرأ في آية ١٤٥ من سورة الأنعام وهي سورة مكية قوله تعالى:

﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فكما تلاحظون أنّ هذه الآية الشريفة قد نزلت في مكّة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وتبين حكم الاضطرار أيضاً.

ب) نقرأ في الآية ١١٥ من سورة النحل التي نزل قسم منها في مكّة المكرّمة وقسم منها في المدينة قوله تعالى:

﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ففي هذه الآية الشريفة التي نزلت قبل الآية مورد البحث قد ذكر فيها حكم الاضطرار.

ج) ونقرأ في الآية ١٧٣ من سورة البقرة والتي نزلت في أوائل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة الحكم الشرعي للاضطرار أيضاً وهي تشبه إلى حدّ كبير الآية التي ذكرناها آنفاً مع تفاوت يسير ولذلك فلا نكررها.

النتيجة: هي أن الحكم الشرعي للاضطرار قد ورد في القرآن الكريم قبل هذه الآية

مورد البحث في ثلاث موارد أُخرى[1]، وعليه فإنّ الحكم الشرعي في الآية المذكورة لا يعدّ حكماً جديداً ولا يتنافى مع آية إكمال الدين حيث لم ينزل أيّ قانون جديد بعد هذه الآية على النبي الأكرم ﷺ.

الجواب الثاني: إن آيات القرآن الكريم لم تجمع على حسب ترتيب نزولها بل طبقاً للأمر النبيّ الأكرم ﷺ وعلى سبيل المثال فالآية ٦٧ من سورة المائدة تقول: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ ومن المعلوم أن هذه الآية نزلت قبل الآية مورد البحث «الآية الثالثة من سورة المائدة».

ولكنّها عند تدوينها قد كتبت بعد تلك الآية، وعليه فلا مانع أن يكون حكم الاضطرار قد نزل قبل آية إكمال الدين ولكن في حال تدوينها قد كتبت بعد الآية الشريفة.

الطريق الثاني: تفسير الآية في ضوء الروايات الشريفة

إن الأحاديث والروايات الشريفة الواردة في شأن نزول هذه الآية الشريفة كثيرة، وقد ذكر العلّامة الأميني في كتابه القيّم «الغدير»[2] هذه الروايات مع الأبحاث المتعلّقة بها بصورة واسعة، فقد أورد حديث الغدير في هذا الكتاب من مائة وعشرة راوٍ من أصحاب النبي مضافاً إلى ذلك فقد نقله من ثمانين شخصاً من التابعين[3]، وقد ذكر العلّامة الخبير الأحاديث المتعلّقة بهذه الحادثة التاريخية من ثلاثمئة وستين من المصادر الروائية والتاريخية لدى

---

١. إن مضمون الآيات الكريمة الأربع في بيان حكم الاضطرار هو أن الإنسان يمكنه أن يتناول من هذه اللحوم المحرّمة عند الضرورة بمقدار رفع الحاجة والاضطرار، وطبعاً فهذا الحكم قليل المصاديق في العصر الحاضر، ولكن بالنسبة إلى السفر إلى البلاد الأجنبية حيث لا يوجد هناك لحم مذبوح بالطريقة الشرعية، يواجه بعض الأشخاص حرجاً فيما لو انقطعوا عن تناول اللحوم وتكون صحتهم البدنية مهددة، فهنا يجوز لهم تناول مقدار من هذه اللحوم من باب الاضطرار، ولكن بمقدار رفع هذا الاضطرار فقط لا أكثر.

٢. بالرغم من وجود كتب ومصادر غير الغدير تذكر هذه الواقعة مثل: عبقات الأنوار، المراجعات، إحقاق الحقّ وغيرها، إلّا أنها لا تصل إلى مستوى كتاب الغدير لأن العلّامة الأميني أكثر دقّة وأجود تنظيماً.

٣. الفرق بين «الصحابة» و«التابعين» أن الصحابة رأوا رسول الله ﷺ وكانوا يعيشون في زمانه، وأما التابعين فانهم لم يشاهدوا رسول الله ﷺ ولم يعيشوا في زمانه بل عاشوا في زمن الصحابة.

المسلمين وبعضها من مصادر أهل السنّة والبعض الآخر من مصادر الشيعة، ولكنّ الملاحظة المهمة هنا هي أنّ جميع هذه الروايات التي تتحدّث عن واقعة الغدير العظيمة لا ترتبط ببحثنا هذا بل الروايات التي تتحدّث عن نزول هذه الآية الشريفة هي التي ترتبط ببحثنا، ولحسن الحظّ أنّ عدد هذه الروايات ليس بالقليل فقد ذكر المحقّق العلّامة الأميني في كتابه المذكور ستة عشر رواية في هذا المجال[١]، ونحن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ ـ ما أورده السيوطي وهو من علماء أهل السنّة وكان يعيش في مصر ويعدّ من كبار علماء أهل السنّة، فقد ذكر هذه الرواية في كتابه:

«يقول أبو سعيد الخدري:

لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً ﷺ يَوْمَ غَديرِ خُمٍّ فَنادَىٰ لَهُ بِالوِلاَيَةِ، هَبَطَ جَبْرَئيلُ بِهذِهِ الآيَةِ: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾[٢]».

وطبقاً لهذه الرواية الواردة في كتب أهل السنّة يكون المراد من كلمة «اليوم» في الآية الشريفة هو يوم الغدير، والآية مورد البحث تتحدّث عن ولاية وخلافة أميرالمؤمنين ﷺ.

٢ ـ وقد أورد هذا العالم السنّي رواية أُخرى عن أبي هريرة الراوي المقبول لدىٰ أهل السنّة. «يقول أبو هريرة:

لَمّا كان يَوْمَ غَديرِ خُمٍّ وَهُوَ يَوْمُ ثَماني عَشَرَ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهذا عَلِيٌّ مَوْلاهُ، فَأنْزَلَ اللهُ: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و...﴾[٣]».

وهذه الرواية أيضاً تدلّ بوضوح على المطلوب.

٣ ـ وروى الخطيب البغدادي وهو أحد علماء أهل السنّة في القرن الخامس[٤] الهجري في

---

١. الغدير في الكتاب والسنّة: ج ١، ص ٢٣٠.

٢. الدرّ المنثور: ج ٢ ص ٢٥٩.

٣. نفس المصدر السابق.

٤. بُذلت عناية خاصة بأحاديث الغدير في القرن الخامس الهجري، ولهذا تمّ تأليف كتب متعددة في هذا القرن تختص بهذه الواقعة.

كتابه المعروف «تاريخ بغداد» نقلاً عن أبي هريرة حيث قال:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «مَنْ صامَ يَوْمَ ثَمانَ عَشَرَةَ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ كُتِبَ لَهُ صِيامُ سِتِّينَ شَهْراً»[١] وَهُوَ يَوْمُ غَديرِ خُمٍّ لَمّا أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِب فَقالَ: «أَلَسْتُ وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ» قَالُوا: بَلىٰ يا رَسُولَ اللهِ. قالَ ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَولاهُ، فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» فَقالَ عُمَرُ بْنُ خَطّاب[٢]: بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَابْنَ أَبي طالِبٍ أَصْبَحْتَ مَوْلايَ وَمَوْلاى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾.[٣]

٤ ـ وذكر الحاكم الحسكاني وهو من علماء القرن الخامس ومن علماء أهل السنّة روايات صريحة في هذا المجال في كتابه. ولكننا نصرف النظر عن ذكرها هنا طلباً للاختصار[٤].

٥ ـ وذكر أبوحافظ النعيم الاصفهاني في كتابه «مانزل من القرآن في عليّ» عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري أنّ النبي الأكرم نصب في يوم غدير خم علي بن أبي طالب وصياً وخليفة له وقبل أن يتفرّق الناس في غدير خم نزلت الآية الشريفة ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و...﴾ وهنا قال:

اَللهُ أَكْبَرُ عَلىٰ إِكْمالِ الدّينِ وَإِتْمامِ النِّعْمَةِ وَرِضَى الرَّبِّ بِرِسالَتي وَبِالْوِلايَةِ لِعَلِيٍّ ؑ مِنْ بَعْدي، ثُمَّ قالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ، اللّٰهُمَّ والِ مَنْ والاهُ وَعادِ مَنْ عاداهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ[٥].

---

١. من الواضح أن السبب في فضيلة الصيام في هذا اليوم وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة إنما هو من أجل الشكر على هذه النعمة العظيمة، وهذا يعني وقوع حادثة عظيمة في هذا اليوم، وإلّا فمن البعيد أن يترتب كلّ هذا الثواب العظيم على صوم هذا اليوم.

٢. من العجيب جداً أن عمر بن الخطاب الذي أسس الإنحراف عن خط الولاية فهم من كلمة الولي في خطبة الغدير معنى الرئاسة والزعامة لأنه قال: «أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن...» فالصداقة والمحبة لم تكن بالشيء الجديد بين علي وعمر وباقي المسلمين. ولكن اتباع عمر الذين هم أعلم من عمر قطعاً تأوّلوا هذه الكلمة بمعنىً آخر تعصباً وعناداً.

٣. تاريخ بغداد: ج ٨، ص ٢٩٠.

٤. شواهد التنزيل: ج ١، ص ١٥٧.

٥. التفسير الأمثل: ذيل الآية الشريفة.

والنتيجة هي أن الروايات التي وردت في هذا المجال توحي بصورة جليّة أنّ آية إكمال الدين نزلت في واقعة الغدير وتدلّ بوضوح على إمامة وخلافة الإمام عليّ ﷺ.

كلام الآلوسي العجيب

وعلى رغم القرائن والشواهد البيّنة في هذه الآية الشريفة «والتي سبق ذكرها» والروايات المتعددة الواردة في مصادر الشيعة والسنّة فإنّ بعض المحدّثين وبسبب التعصّب والعناد قد فسّروا الآية الشريفة وفقاً لميولهم النفسانية وخرجوا عن منهج البحث المنطقي، ومن هؤلاء «الآلوسي» المفسّر السنّي المعروف وكاتب تفسير «روح المعاني» الكبير فقد ذكر في تفسير الآية ٦٧ من سورة المائدة عن واقعة الغدير وقال:

«فقد اعتنىٰ بحديث الغدير أبوجعفر بن جرير الطبري فجمع فيه مجلدين أورد فيهما سائر طرقه وألفاظه وصاغ الغث والسمين والصحيح والسقيم على ما جرت به عادة الكثير من المحدّثين، فإنهم يوردون ما وقع لهم في الباب من غير تمييز بين الصحيح والضعيف، وكذلك الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة (ولكننا نقبل من الأحاديث التي ذكرها إلّا ما كان لا يتحدث عن خلافة علي)»[١].

وهذا الكلام يثير العجب والحيرة لدى كلّ إنسان منصف.

فهل يمكننا الإعراض عن كتاب بأجمعه بسبب وجود بعض الأحاديث الضعيفة وغير معتبرة فيه؟

ألا توجد روايات ضعيفة وأحاديث غير معتبرة في المصادر الحديثية لأهل السنّة؟

هل يصحّ أن ترفض جميع هذه المصادر بهذه الذريعة الواهية؟

الإنصاف أن هذا الكلام هو كلام مضحك ولكن ما هو أسوأ منه هو كلامه عن روايات ابن عساكر الذي يحكي عن منتهى العناد والتعصّب والعداوة مع الحقّ والحقيقة وأهل البيت ﷺ، ففي أيّ مكان من العالم يقول أحد الأشخاص: إنني أقبل فقط كلّ ما يتفق مع ميولي وهوىٰ نفسي ولا أقبل ما يخالف ذلك؟

---

١. روح المعاني: ج ٦، ص ١٩٥.

هل يقبل هذا الكلام من الإنسان العادي فكيف يقبل من عالم كبير مثل الآلوسي ؟

ولعلّ القارئ العزيز يتعجب كثيراً ويتساءل أن شخصاً كالآلوسي كيف يتحدّث بمثل هذا الحديث الضعيف والكلام الواهي ؟ ولكن في مقام الجواب نقول إن كلّ إنسان يقف في مقام القضاء ولا يتجنب المسبوقات الفكرية والرسوبات الذهنية فإنّه قد يقع بمثل هذا المصير.

توصية الآية الشريفة

١ ـ الولاية تبعث على يأس الأعداء

إذا أردنا أن يعيش الأعداء اليأس فعلينا بالتمسّك بالولاية وإحيائها لأنّ الولاية كما أدّت في ذلك اليوم إلى بث اليأس في صفوف الأعداء فإنّها في هذا اليوم أيضاً ومن خلال التمسّك بها وإحيائها ستبعث على نفوذ اليأس في قلوب المنافقين وأعداء الإسلام.

ينبغي علينا في هذا اليوم أن نقصر أنظارنا على الإمام الغائب عن الأنظار والحاضر في القلوب، وهو الإمام الحجّة بن الحسن العسكري (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وندور حول هذا المحور الإلهي لأن ولاية هذا الإمام العظيم تعد أفضل حلقة وصل لجميع الشيعة في العالم على اختلاف أذواقهم وسلائقهم، وعلى هذا الأساس فإنّ إحياء هذه الولاية سوف يشرق الأمل بوحدة واتحاد المؤمنين ويكون ذلك أساساً لسعادتهم وباعثاً على غرس الأمل في قلوبهم، كما أنّ اختلافهم وتفرقهم يؤدي إلى تعاستهم وانحطاطهم.

إذا تمسّك المسلمون في بلدان العالم الإسلامي بهذا الأصل الأساسي وعملوا به والتفوا حوله فإنّ حادثة مثل حادثة فلسطين المؤسفة سوف لا تتكرر بعد ذلك ولا يقع المسلمون في دائرة المظلومية أمام أنظار العالم، وعليه فإن يأس الكفّار لا يتحقّق إلّا من خلال التمسّك بالولاية.

٢ ـ إتمام الدين وإكمال النعمة في ظلّ الولاية

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ إكمال النعمة وإتمام الدين في ذلك اليوم قد تحقق في ظلّ

الولاية، وفي هذا اليوم أيضاً فإنّ إتمام النعمة سواءٌ النعمة المادية أو المعنوية وكذلك إكمال الدين في جميع أبعاده وفروعاته يتحقّق بظلّ الولاية أيضاً وبدونها حتّى لو عمل الإنسان بأوامر الشريعة وتعاليم الدين ظاهراً إلّا أنها بلا شك سوف لا تكون مقبولة لدى الحقّ جلّ وعلا، وعلى هذا الأساس فإن إتمام النعمة وإكمال الدين يتحقّق في كلّ عصر وزمان في ظلّ التمسّك العملي بالولاية.

مباحث تكميلية

١ـ الولاية مسألة أساسية في الإسلام

بالنسبة إلى أهمية الولاية فقد وردت روايات كثيرة تتحدّث عن هذا الموضوع وكمثال ونموذج لهذه الروايات نذكر الرواية الواردة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام حيث يقول زرارة نقلاً عن الإمام الباقر أنّه قال:

بُنِيَ الإسْلامُ عَلىٰ خَمْسَةِ أشياءَ: عَلَى الصَّلاةِ وَالزَّكاةِ والصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوِلايَةِ. قَالَ زُرارَةُ: فَقُلْتُ: وَأيُّ شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أفْضَلُ؟ قالَ عليه السلام: اَلْوِلايَةُ اَفْضَلُ لِأنَّها مِفْتاحُهُنَّ وَالْوالي هُوَ الدَّليلُ عَلَيْهِنَّ...[١]

وهنا بالإمكان استيحاء نقطتين من هذه الرواية:

ألف) إنّ هذه القضايا الخمسة التي وردت فيها هذه الرواية ترتبط فيما بينها برابطة معيّنة، فالصلاة تمثّل رابطة الإنسان مع الله بل إنّ أفضل وقت لتحقيق الإرتباط مع الله تعالى هو وقت الصلاة.

«الزكاة» بدورها تمثل العلاقة بين الإنسان والآخرين من الأفراد والمجتمع من المحتاجين والمساكين حيث يحققون لهم حياة معقولة وطبيعية بإجراء قانون الزكاة وبذلك يتمكنون من التغلب على مشكلاتهم الاقتصادية التي يفرضها الواقع الصعب.

«الصوم» يمثّل علاقة الإنسان مع نفسه، ومع تقوية هذه العلاقة بالصوم فإنّ الإنسان

---

١. أصول الكافي: ج ٣، ص ٣٠، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، حديث ٥.

سيوفق في مجال مجاهدة النفس والإنتصار على نوازعه المادّية والدنيوية بل إنّ الصوم هو رمز لمجاهدة النفس وقوّة الأرادة.

«الحجّ» يمثّل الرابطة التي تربط جميع المسلمين فيما بينهم حيث يجتمعون في كلّ عام لمبادلة الأفكار والرؤىٰ وتبادل وجهات النظر واستعراض المشاكل والتحديات المصيرية التي يواجهها العالم الإسلامي والتفكير الجاد في حلّها.

«الولاية» هي الضامن الحقيقي والصحيح لتنفيذ وتبيين أحكام هذه المسائل.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأُصول الخمسة المذكورة أعلاه لم تجتمع في هذا الحديث الشريف اعتباطاً بل تربطها رابطة منطقية ومعقولة.

ب: لماذا كانت الولاية أفضل من الأُصول الأربعة الأُخرىٰ؟

إن الرواية الشريفة نفسها تصرّح بأن عنصر الولاية هو الذي يحقّق محتوىٰ الصلاة والصوم والحجّ والزكاة، أي أنه بدون أمر الولاية والحكومة الإسلامية ستكون هذه الدستورات والتعليمات بمثابة الكتابة على الماء وليس لها رصيد على مستوى الممارسة والعمل كما هو الحال في نسخة الطبيب التي لا تشافي من المرض بدون العمل بها.

الولاية تعني تنفيذ قوانين الإسلام بتوسط الأئمّة المعصومين عليهم السلام وخلفائهم، وعلى هذا الأساس فإنّ الولاية هي أفضل وأسمىٰ من الصلاة والصوم والحجّ والزكاة، الولاية هنا تعني الحكومة الإسلامية والولاية التي انبثقت من غدير خم في عملية نصب الإمام علي عليه السلام والياً على المسلمين.

٢ ـ الولاية ذات جهتين

وطبقاً للتفسير المذكور آنفاً فإنّ الولاية لها جهتان:

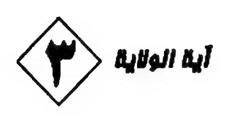
فمن جهة يتكفّل الولي والإمام والقائد للأُمّة الإسلامية هداية المسلمين ويجيب على أسئلتهم الدينية ويقوم بتحصين الأُمّة من الأخطار والمؤامرات التي يحيكها الأعداء ويتحرّك على مستوىٰ إقرار النظم والإنضباط في المجتمع الإسلامي ويعيد حقوق المستضعفين والمظلومين ويجري الحدود الإلهية ويقيم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن جهة أُخرى فإنّ الواجب على الناس هو السعي على مستوى الممارسة والنشاطات الفردية والاجتماعية لتجسيد أقوال وسلوكيات وأفكار ذلك الإمام والقائد ويتحركون في خطاهم بموازاة خطوات الإمام وإلّا فلا يمكن إدعاء الولاية للأئمّة المعصومين بمجرد الكلام في حين أن الإنسان يرتكب أنواع الذنوب والخطايا.

والملفت للنظر أن رئيس جهاز الساواك في حكومة الشاه قال لي يوماً حين التحقيق معي: «انني أعشق الإمام علي عليه السلام وأصرّح بحبّه وولايته ولكن إذا رأيت بعض الأشخاص الذين يخالفون الشاه فإني مستعد أن أقتل مليون شخص من هؤلاء». فهل أنّ مثل هذه السلوكيات والأفكار تتناغم وتنسجم مع ولاية أميرالمؤمنين أو أنّها ولاية كاذبة وزائفة؟

أجل! فإنّ الولاية الحقيقية هي التي تعني إنطباق جميع الأعمال والأقوال والأفكار على أعمال وأقوال وأفكار المعصومين عليهم السلام.

ﮘﮗ



﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

«سورة المائدة / الآية ٥٥»

أبعاد البحث

إنّ سورة المائدة تشتمل على قسم مهم من آيات الولاية لأنّ هذه السورة كما رأينا نزلت في أواخر عمر الرسول الأكرم ﷺ، ومن جهة أُخرى فإنّ مسألة الوصي والخليفة تطرح بشكل طبيعي في أواخر عمر القائد، ولهذا فإنّ هذه السورة تتضمن آيات متعددة من آيات الولاية، وعلى أية حال فإنّ الآية الشريفة أعلاه نموذج آخر من الآيات التي تدلّ بوضوح على ولاية أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

الشرح والتفسير

علائم الولي

﴿إنّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

نحن نعلم أنّ كلمة «إنّما» تدلّ على الحصر، وعليه فإنّ وليكم أيّها المؤمنون هم الثلاثة المذكورون في هذه الآية الشريفة لا غير، وهؤلاء الثلاثة عبارة عن:

١ ـ الله عزّوجلّ.

٢ ـ رسول الله ﷺ.

٣ ـ الذين آمنوا.

وبالطبع ليس المراد جميع المؤمنين بل بعضهم الذي يتمتع بالشروط المذكورة في نفس الآية.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

فالطائفة الثالثة من أولياء الله المؤمنين ليس هم جميع المؤمنين بل المؤمنين الذين يقيمون الصلاة أوّلاً، ويؤتون الزكاة ثانياً، وأن يكون إيتاء الزكاة في حال الركوع ثالثاً.

والنتيجة، هي أنّ ولي المؤمنين هم هؤلاء الثلاثة فقط:

١ ـ الله عزّوجلّ ٢ ـ النبي الأكرم ﷺ ٣ ـ المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

سؤال: ما هو المراد من «الذين آمنوا» في هذه الآية؟ وما معنى الولي هنا؟

إن الآية الشريفة أعلاه تتضمن نقطتين مبهمتين: الأولى: ما هو المراد من كلمة «الولي» في هذه الآية؟ حيث نعلم لكلمة الولي معانٍ مختلفة ولهذا يجب السعي لتشخيص المعنى المراد من هذه الكلمة في هذه الآية.

والآخر هو: ما المراد بعبارة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والذين تتوفر فيهم الشروط الثلاثة المذكورة آنفاً؟ هل المراد بهؤلاء شخص معين، أو أيّ شخص تتوفر فيه هذه الصفات الثلاث؟

الجواب: هنا بالإمكان أن نسلك طريقين للجواب عن هذا السؤال كما تقدّم فيما سبق، ثمّ نجيب على بعض الأسئلة الأخرىٰ الذي يطرحها بعض الأشخاص المتعصبين الذين أسدل حجاب التعصّب ستاراً على عقولهم ومنعهم من فهم العقائد الجلية.

الطريق الأوّل: تفسير الآية مع غض النظر عن الروايات الشريفة

في البداية نأتي لكلمة «ولي» ونبين المراد منها لأنه لو اتضح معنى هذه الكلمة فإن الكثير من المسائل والتعقيدات في هذه المسألة سوف تجد لها طريقاً إلى الحلّ، فبعض المفسّرين من أهل السنّة وبهدف إبعاد أذهان مخاطبيهم عن المعنى الواضح للآية الشريفة

فإنّهم ذكروا معانٍ كثيرةٍ لهذه الكلمة وصلت إلى سبعة وعشرين معنى [1] لكي يقول أن هذه الكلمة هي لفظ مشترك بين معان مختلفة ولا نعلم مراد الله عزّوجلّ منها وأن أيّ معنى من هذه المعاني هو المقصود في الآية الشريفة، إذن فإنّ هذه الآية مبهمة ولا تدلّ على شيء، ولكن عندما نراجع كتب اللغة وكلمات ونظريات اللغويين نرى أنهم لم يذكروا لمعنى الولي سوىٰ اثنين أو ثلاث معان، وعليه فإن سائر المعاني المذكورة لهذه الكلمة تعود إلى هـذه المعاني الثلاثة وهي:

١ ـ «ولي» بمعنى ناصر والولاية بمعنى النصرة.

٢ ـ «الولي» بمعنى القيّم وصاحب الإختيار.

٣ ـ أنها تأتي بمعنى الصديق والرفيق حتّى لو لم يؤد هذا الإنسان حقّ النصرة لرفـيقه ولكن بما أنّ الصديق في دائرة الرفاقة والصداقة ينهض لنصرة صديقه غالباً فـإن المـعنى الثالث يعود للمعنىٰ الأوّل أيضاً، وعليه فإنّ كلمة «ولي» في نظر أرباب اللغة تطلق على معنيين، وسائر المعاني المذكورة لها تعود إلى هذين المعنيين.

«ولي» في استعمالات القرآن

والآن نعود إلى القرآن الكريم لنرىٰ موارد استعمال هذه الكلمة في الكتاب الكريم.

إنّ كلمة «ولي» و «أولياء» جاءت في سبعين مورداً في القرآن الكريم وبمعان مختلفة:

١ ـ نقرأ في بعض الآيات الشريفة أن كلمة «ولي» جاءت بمعنى الناصر والمعين كما في الآية ١٠٧ من سورة البقرة حيث يقول تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

٢ ـ وجاءت هذه الكلمة في آيات أُخرى بمعنى المعبود كما في الآية ٢٥٧ مـن سـورة البقرة:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

---

١. وقد ذكر العلّامة الأميني في كتابه القيّم «الغدير»: ج ١، ص ٣٦٢ جميع هذه المعاني السبعة والعشرين.

فكلمة الولي في هذه الآية جاءت بمعنى المعبود، فالمعبود للمؤمنين هو الله عزّوجلّ، ومعبود الكفّار هم الطواغيت والشياطين والأهواء النفسانية.

٣ـ وجاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى الهادي والمرشد أيضاً كما نقرأ في آية ١٧ من سورة الكهف:

﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾.

فنرى في هذه الآية الشريفة أنّ كلمة «ولي» جاءت بمعنى الهادي والمرشد.

٤ـ وقد وردت هذه الكلمة في كثير من الآيات الشريفة بمعنى القيّم وصاحب الإختيار كما في الآيات التالية:

ألف) نقرأ في الآية الشريفة ٢٨ من سورة الشورىٰ قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ب) ونقرأ الآية ٣٣ من سورة الإسراء في حديثها عن الولاية التشريعية:

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً﴾.

فالولي في هذه الآية جاء بمعنى القيّم وصاحب الإختيار لأن حقّ القصاص لم يرد في الشريعة لصديق المقتول بل لوارثه ووليه.

ج) ونقرأ في أطول آية من آيات القرآن الكريم وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة وهي تتحدث عن كتابة وثيقة الدَين والقرض[١] وتقول:

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

أي أن من كان الحقّ في ذمته ولا يستطيع أن يملل على الكاتب فيجب أن يملل وليه نيابة عنه مع رعاية العدالة، ففي هذه الآية الشريفة وردت هذه الكلمة بمعنى القيّم وصاحب الإختيار.

د) ونقرأ في الآية ٣٤ من سورة الأنفال قوله تعالى:

---

١. بالرغم من أن أطول آية في القرآن تتحدّث عن كتابة وثيقة الدّين والقرض ولكن المؤسف أن هذا الحكم الإسلامي قد أصبح مهجوراً بين المسلمين وكانت النتيجة هي تورطهم بمشكلات كثيرة وبلايا جمّة بسبب تركهم لهذا الحكم الشرعي.

﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾.

فالولي هنا بمعنى القيّم والمسؤول وصاحب الإختيار وإلّا فمن الواضح أنّ الكفّار والمشركين ليست لديهم أدنىٰ علاقة وصداقة مع هذا المكان المقدّس.

هـ: ونقرأ في الآية ٦ و ٥ من سورة مريم:

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

ومن الواضح أنّ الورثة يرثون المال بعد موت الولي فلا تأتي هنا بمعنى الصديق والناصر.

والنتيجة هي أن كلمة «الولي» استعملت في الآيات الشريفة بمعان مختلفة ولكنّها وردت في أكثر هذه الموارد بمعنى القيّم وصاحب الإختيار.

المراد من الولي في الآية محل البحث

ونظراً لما تقدّم آنفاً فما هو المراد من كلمة «ولي» في آية الولاية؟ هل أنّ المراد منها هو الصديق والناصر؟

إنّ هذا المعنى يخالف أكثر موارد استعمال هذه الكلمة في جميع الآيات القرآنية. إذن فالإنصاف يدعونا إلى فهم الولي في هذه الآية بمعنى القيّم وصاحب اختيار لا بمعنى الصديق والناصر لأنّه:

أوّلاً: كلمة «إنّما» الواردة في صدر الآية تدلّ على الحصر، أي حصر الولي للمؤمنين بهؤلاء الثلاثة لا غير. في حين أنّه لو كان المراد من كلمة الولي بمعنى الصديق فلا معنى للحصر حينئذٍ، لأنّ من الواضح وجود طوائف أُخرى غير هذه الطوائف الثلاثة المذكورة في الآية يمكن أن يكونوا من أصدقاء وأنصار المؤمنين، مضافاً إلى أنه لو كان كلمة «الولي» بمعنى الصديق أو الناصر فلا معنى لورود كل هذه القيود لكلمة «الّذين آمنوا» بأن يشترط فيهم دفع الزكاة في حال الركوع لأن جميع المؤمنين بل وغير المؤمنين من الذين لا يصلّون يمكنهم أن يكونوا من أصدقاء المسلمين، وعلى هذا الأساس فيستفاد من كلمة «إنّما» التي تدلّ على الحصر وكذلك القيود العديدة لكلمة «الذين آمنوا» أنّ الولاية في الآية الشريفة لم تستعمل بمعنى الصديق والناصر بل بمعنى القيّم والقائد وصاحب الإختيار، لذلك يكون

مراد الآية أن الله تعالى والنبي والمؤمنين الذين تتوفر فيهم الشروط المذكورة في الآية هم أوليائكم والقيميّين على أُموركم.

ثانياً: أن الآية ٥٦ من سورة المائدة التي وردت بعد الآية محل البحث أفضل قرينة وشاهد على المدّعىٰ فإنّ الله تعالى ذكر في هذه الآية الشريفة:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾.

الحزب هنا بمعنى جمع من الناس، ونصرة الحزب بمعنى تفوّقه ونجاحه في حركته السياسية والإجتماعية، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية الشريفة ترتبط بالآية التي قبلها وهي الآية محل البحث، والظاهر أنّهما نزلتا سوية فيستفاد منها أنّ الولاية المذكورة فيها هي الولاية السياسية فيكون معنى الآية هو:

إنّ الأشخاص الذين يتقبلون بحكومة الله والنبيّ وحكومة الذين آمنوا فإنّ هؤلاء الأشخاص والطوائف هم الغالبون.

والنتيجة هي أننا لو تدبرنا وتعمقنا في كلّ كلمة من كلمات هذه الآية الشريفة مع غض النظر عن الروايات الكثيرة الواردة في تفسيرها يتضّح جيداً أنّ الولي في هذه الآية جاء بمعنى الإمام والقائد والقيّم، وكلّ من يقبل حكومة الله والرسول والذين آمنوا، الذين تتوفر فيهم الشرائط المذكورة في الآية الشريفة هم الغالبون والمنتصرون.

مصداق «الّذين آمنوا» في الآية الشريفة

لقد اتّضح فيما سبق معنى كلمة «إنّما» و«ولي» ولكن مازال الإبهام يحيط بمعنى وتفسير الآية الشريفة لأنّه لم يتضح لحد الآن المراد من عبارة «والذين آمنوا» في هذه الآية.

وللإجابة على هذا السؤال يجب القول بأنه ليس بين الرواة والمفسّرين وعلماء الإسلام من الشيعة وأهل السنّة إلا ويرى «الإمام عليّ» هو المصداق لهذه الآية الشريفة، وعلى هذا الأساس فهذه الآية تدلّ بالإجماع واتفاق جميع علماء الإسلام على أنّ الإمام علي عليه السلام هو المصداق لهذه الآية الشريفة، ومن جهة أُخرى فإنّ جملة «والذين آمنوا» لا تتحمّل سوىٰ مصداق واحد وليس هذا المصداق سوىٰ عليّ بن أبي طالب.

والنتيجة ممّا تقدّم آنفاً هو أنه يستفاد من الآية الشريفة ثلاثة أُمور «بغضّ النظر عن الآيات وروايات المفسّرين».

١ ـ إن كلمة «إنّما» تدلّ على الحصر والولاية هنا منحصرة في ثلاث طوائف.

٢ ـ إن هذه الولاية في الآيات الشريفة وردت بمعنى القائد والقيّم وصاحب الإختيار كما في أكثر موارد استعمالها في القرآن الكريم.

٣ ـ إن مصداق «الّذين آمنوا» في هذه الآية هو الإمام عليّ عليه السلام بلا شك.

الطريق الثاني: تفسير الآية بلحاظ الروايات الشريفة

ينقل المحدّث البحراني في «غاية المرام» أربع وعشرين حديثاً من منابع أهل السنّة، وتسعة عشر حديثاً من منابع الشيعة فتشكل بمجموعها ثلاثة وأربعين حديثاً، وعليه فإنّ الروايات الواردة في شأن هذه الآية متواترة[1]، ومضافاً إلى ذلك فإنّ العلّامة الأميني أورد في كتابه القيّم «الغدير» روايات من عشرين مصدراً من المصادر الروائية المعروفة لدى أهل السنّة تتحدّث في شأن الآية الشريفة محل البحث من قبيل تفسير الطبري، تفسير أسباب النزول، تفسير الفخرالرازي، التذكرة لسبط ابن الجوزي، الصواعق لابن حجر، نور الأبصار للشبلنجي، وكذلك تفسير ابن كثير وغيرها من المصادر المعتبرة لدى أهل السنّة، وأما رواة هذه الأحاديث فهم عشرة أشخاص من الصحابة المعروفين.

١ ـ ابن عباس، ٢ ـ عمّار بن ياسر، ٣ ـ جابر بن عبدالله الأنصاري، ٤ ـ أبوذرّ الغفاري «الذي نقل أدقّ وأطول رواية في هذا المجال»، ٥ ـ أنس بن مالك، ٦ ـ عبدالله ابن سلام، ٧ ـ سلمة بن كهيل، ٨ ـ عبدالله بن غالب، ٩ ـ عقبة بن حكيم، ١٠ ـ عبدالله ابن أُبي.

ومضافاً إلى ذلك فإنّه قد وردت روايات من الإمام علي عليه السلام أيضاً في شأن نزول هذه الآية الشريفة وقد استدلّ بها الإمام عليّ كراراً.

١. عندما تكون الروايات في مورد معيّن من الكثرة بحيث يحصل للشخص اليقين بمضمونها فمثل هذه الروايات تسمى «متواترة» ولا حاجة حينئذٍ للتحقيق في سندها.

وأما مضمون الروايات أعلاه فهو أنه: كان الإمام علي عليه السلام يوماً يصلي في مسجد النبي، فدخل سائل إلى المسجد وطلب حاجته من المسلمين فلم يعطه أحد شيئاً[١]، وكان الإمام في حال الركوع فأشار للسائل إلى خاتمه فجاء وانتزع الخاتم من إصبع الإمام وخرج من المسجد، فنزلت حينئذٍ الآية الشريفة.

وهذا المضمون للروايات الشريفة ورد في أكثر من أربعين رواية من الروايات التي وردت في شأن نزول الآية محل البحث، ونحن نقتصر هنا على استعراض ثلاث روايات منها، وهي ما أورده الفخر الرازي في تفسيره:

١ ـ رَوىٰ عَطا عن اِبْنِ عَبّاسْ أنها نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبي طالِب[٢].

٢ ـ روي أن عبدالله بن سلام قال: لَمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ، قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ أَنَا رَأَيْتُ عَلِيّاً تَصَدَّقَ بِخاتَمِهِ عَلىٰ مُحْتاجٍ وَهُوَ راكِعٌ فَنَحْنُ نَتَوَلاّهُ[٣].

٣ ـ وهي الرواية الأهم من بين الروايات في هذا الباب وهي نقلاً عن أبي ذرّ الغفاري وهذه الرواية أوردها الفخر الرازي عن أبي ذرّ أنه قال:

قالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله يَوماً صَلاةَ الظُّهْرِ، فَسَأَلَ سائِلٌ فِي الْمَسْجِدِ فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ فَرَفَعَ السّائِلُ يَدَهُ إِلَى السَّماءِ وَقالَ: «اللّهُمَّ اشْهَدْ أنّي سَأَلْتُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ فَما أَعْطانِي أَحَدٌ شَيْئاً» وَعَلِيٌّ كانَ راكِعاً، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِخِنْصِرِهِ الْيُمْنىٰ وَكانَ فِيها خاتَمٌ فَأَقْبَلَ السّائِلُ حَتّى أَخَذَ الْخاتَمَ بِمَرْأى النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فَقالَ صلى الله عليه وآله: اللّهُمَّ إِنَّ أَخِي مُوسىٰ سَأَلَكَ فَقالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٤] فَأَنْزَلْتَ قُرْآناً ناطِقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً﴾[٥] اللّهُمَّ وَأَنَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّكَ وَصَفِيُّكَ فَاشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، عَلِيّاً، اُشْدُدْ

---

١. حيث كان الوضع المادي والإقتصادي للمسلمين في ذلك الوقت عسيراً وكانوا يعيشون في ضائقة شديدة حتّى في ضروريات الحياة.

٢ و ٣ ـ التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٢٦.

٤. سورة طه: الآيات ٢٥ ـ ٣٢.

٥. سورة القصص: الآية ٣٥.

ظَهْرِي. قَالَ أَبُو ذَر: فَوَاللهِ مَا أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ هذِهِ الْكَلِمَةِ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَئِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: اِقْرَأْ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ...﴾.[١]

وبعد أن ينقل الفخرالرازي هذه الروايات الثلاثة يقول: إنّ جميع الروايات الواردة في هذه المسألة هي هذه الروايات الثلاثة فقط.

ملاحظتان

١ ـ إن رواية أبي ذرّ تشير إلى أنّ صدقة الإمام علي ﷺ في حال الصلاة لم تكن صدقة عاديّة لمسكين من الناس بل أدّت إلى حفظ وجاهة وقدسيّة مسجد النبيّ الذي يعد مركز الإسلام والصحابة والمسلمين لأنّ المسكين عندما خرج من مسجد النبي لم يجد من يمدّ له يد العون، ولهذا اشتكى إلى الله من ذلك، فعليه فإنّ صدقة الإمام في حالة الركوع مضافاً إلى أنها رفعت حاجة السائل فإنّها أدّت إلى حفظ اعتبار مسجد النبي ﷺ وقداسته وحرمة أصحاب النبي الأكرم ﷺ أيضاً.

٢ ـ إنّ ادعاء الفخرالرازي المبني على أنّ مجموع الروايات الواردة في هذا الباب ليس بأكثر من ثلاث روايات هو كلام بلا أساس لأنّه كما تقدّم آنفاً أن الوارد من الروايات في هذا الباب أكثر من أربعين رواية، والملفت للنظر أنّ أكثر هذه الروايات وردت في كتب ومصادر أهل السنّة ولكنّ التعصّب والعناد إذا أخذ بناصية الإنسان أدّى إلى أن ينطق بكلمات غير مسؤولة وغيرمتوقعة رغم كونه علّامة كبير مثل الفخر الرازي، مضافاً إلى أنه يمكننا أن ندّعي أنّه إذا قد وصلت لنا أكثر من أربعين رواية في شأن نزول الآية محل البحث فإنّ هناك عدد أكثر من هذا قد اختفى في طيّات التاريخ ولم يصل إلينا وخاصّة في فترة الحكم الأموي الذي كان بنوأمية يتحركون بصراحة وشدّة في حذف فضائل ومناقب أهل البيت ﷺ وطمس معالمها فلم يتجرأ أحد على بيان هذه الفضائل ونشرها.

وكم من الأشخاص الذين لم يكونوا يمتلكون الجرأة على بيان فضائل ومناقب أميرالمؤمنين ﷺ وذهبت تلك الفضائل معهم إلى القبر!! إنّ أجواء الإرهاب كانت إلى

---

١. التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٢٦.

درجة من الشدّة بحيث إن من يذكر فضيلة واحدة لأهل البيت كـان يـتعرض للـعقاب الشديد بل لو أنّ أحداً سمّى ابنه عليّاً كان يتعرض للعقاب أيضاً.

ومع هذه الظروف الصعبة فعندما تصل إلينا أربعين رواية فيمكن أن نحدس أنّ أضعاف هذا المقدار قد تلف في طيّات التاريخ

والنتيجة هي أنه مع الأخذ بنظر الإعتبار كثرة الروايات التي تصل إلى حدّ التواتر وقد أوردنا بعضها بالتفصيل فلا يبقى شكّ أن الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ﴾ نزلت في شأن أميرالمؤمنين وأنه عليه السلام هو الولي بعد الله ورسوله.

شبهات واشكالات

وعلى الرغم من وضوح دلالة الآية الشريفة على ولاية أميرالمؤمنين فإنّ بعض العلماء قد ذكر بعض الشبهات والإشكالات حول دلالة هذه الآية، وفي الواقع فإنّ الكثير من هذه الإشكالات ليست سوىٰ ذرائع وحجج واهية[1].

وعلى سبيل المثال:

الإشكال الأوّل: كلمة إنّما لا تدلّ على الحصر

رأينا في عملية الإستدلال بالآية أعلاه أنها تقوم على ثلاث دعائم: أحدها أن كـلمة «إنّما» في الآية الشريفة تدلّ على الحصر وأنّها تحصر الولاية بثلاث موارد، وعليه فـإنّ الولاية مورد البحث لا تثبت لغيرهم.

---

١. طبعاً لاشك في أن السؤال نافذة للعلم ومفتاح حلّ المشكلات والمجهولات، ولذا ورد الحث عليه فـي القرآن الكريم بصورة مطلقة، حيث يقول تعالى في الآية ٤٣ من سورة النحل، وكذلك في الآية ٧ من سورة الأنبياء: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾

هذه الآية الشريفة مطلقة من كلّ جهة، فكلّ من لديه سؤال يمكنه أن يسأل أهل العلم والخبرة، وقد ورد في هذا المورد روايات عديدة، ولكن المهم هو أن يكون السؤال بقصد التوصل إلى الحقيقة لا بدافع من العناد والتعصّب كما في الكثير من أسئلة علماء أهل السنّة حول آية الولاية.

ولكنّ بعض المفسّرين من أهل السنّة قالوا بأنّ «إنّما» في الآية لا تدلّ على الحصر لأنّ في القرآن آية أُخرى أيضاً وردت فيها كلمة «إنّما» وليس لها دلالة على الحصر. وهي الآية الشريفة ٢٠ من سورة الحديد حيث يقول الله تعالى:

﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...﴾.

فهنا نرى أنّ كلمة «أنّما» في الآية أعلاه لا تدلّ على الحصر لأننا نعلم أن الحياة الدنيا لا تنحصر في هذه الموارد المذكورة في الآية الشريفة بل تشمل لذّات أُخرى وعبادات ونشاطات وتحصيل علم وغير ذلك من الأُمور، وعليه فكما أنّ كلمة «أنّما» في هذه الآية لا تدلّ على الحصر فكذلك في آية الولاية لا تدلّ على الحصر، فالإستدلال بهذه الآية على المطلوب ناقص.

الجواب: هذا الإشكال من جملة الإشكالات الواهية التي لا تقوم على أساس متين لأننا نعتقد بأنه:

أوّلاً: إنّ كلمة «إنّما» في هذه الآية أيضاً وردت بمعنى الحصر، فالدنيا في نظر الإنسان المؤمن والعارف ليست في حقيقتها سوى اللهو واللعب وأمثال ذلك، وقد يتصور الإنسان المتورط في حبائل الدنيا أُموراً أُخرىٰ في هذه الدنيا ولكن لو نظر بعين الحقيقة لرأى أنّ جميع أشكال الحكومات والمقامات الدنيوية والقصور الفخمة وأمثالها من مظاهر الدنيا ليست سوى لهو ولعب حيث يلهو بها أبناء الدنيا.

ثانياً: وعلى فرض أنّ كلمة «إنما» هنا لم ترد في معناها الحقيقي فهذا لا يدلّ على أنّ الموارد الأُخرى في استعمال هذه الكلمة تحمل على غير معناها الحقيقي.

والنتيجة هي أنّ كلمة «إنّما» الواردة في الآية الشريفة تدلّ على الحصر بلا شكّ والإستدلال بهذه الآية كامل.

الإشكال الثاني: إعطاء الخاتم فعل كثير مبطل للصلاة

أمّا الإشكال الثاني الذي ذكره بعض المفسّرين من أهل السنّة فهو أننا سلّمنا أن الآية

الشريفة نزلت في شأن الإمام عليّ ﷺ ولكن القيام بهذا الفعل من قبل عليّ بن أبي طالب في الصلاة «إنّما هو فعل كثير» والفعل الكثير يؤدي إلى بطلان الصلاة فهل يعقل أن الإمام علي ﷺ يتصرف في صلاته بما يؤدي إلى بطلان الصلاة.

الجواب: أوّلاً: إن فعل الكثير كما هو الظاهر من هذه الكلمة يطلق على أداء أعمال كثيرة لا ربط لها بالصلاة بحيث تهدم هيئة الصلاة للمصلّي كأن يقوم شخص في أثناء الصلاة وبسبب سماعه لخبر مفرح بالتصفيق والقفز ويمتلكه الهياج وأمثال ذلك. وأما أن يشير إلى السائل والمسكين ليأخذ خاتمه من يده بحيث إنّ الإمام نفسه لم يخرج الخاتم من يده، فهل يقع ذلك في دائرة «الفعل الكثير»[1]؟

كيف يكون مثل هذا العمل فعلاً كثيراً في حين أنّ الروايات الشريفة تبيح للمصلّي بأن يغسل أنفه فيما لو خرج الدم منه بالماء في أثناء الصلاة ويستمر في صلاته؟ ولو أنه واجه حيواناً خطراً على مقربة منه جاز له قتله والاستمرار في الصلاة.

هل هذه الأفعال ليست بأفعال كثيرة ولكن الإشارة هي فعل كثير؟

ثانياً: إنّ أمثال هذه الحجج والمعاذير ترد على الله أيضاً لأن الله تعالى مدح الإمام عليّ ﷺ في هذه الآية على عمله، فلو كان ذلك العمل باعثاً على بطلان الصلاة فهل أن الله تعالى يمدحه ويثني عليه وينزل في حقّه آية من القرآن؟!

النتيجة هي أن هذا الإشكال بمثابة ذريعة وتبرير نابع من التعصّب واللجاجة لا أكثر.

الإشكال الثالث: الخاتم الثمين

طبقاً لبعض الروايات أن ذلك الخاتم كان ثميناً جداً حتّى أنه ورد أن ثمنه يعادل خراج منطقة بكاملها مثل الشام، ألا يعتبر تملك مثل هذا الخاتم الثمين من قبل عليّ بن أبي طالب من الإسراف المحرّم؟

أمّا جواب هذه الشبهة فواضح لأنه:

---

١. وقد اعترف الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: ج ١، ص ٦٤٩ أن هذا العمل ليس من الفعل الكثير.

أوّلاً: لم يرد هذا المطلب في أيّة رواية معتبرة بل الظاهر أن الخاتم المذكور لم يكن سوى خاتماً عادياً لأنه لم يتم للمسلمين في ذلك الزمان فتح ايران والشام وأمثال ذلك ولم تصل مثل هذه الثروات الكبيرة إلى أيدي المسلمين بل الفتوحات المذكورة حدثت بعد رحلة الرسول وفي عصر الخلفاء، مضافاً إلى أن الإمام علي عليه السلام الذي كان طعامه في أيّام حكومته وخلافته بسيطاً إلى درجة أنه لا يأكل سوى من إدام واحد والغالب انه كان يكتفي بقرص الشعير ويلبس الثياب البسيطة من الكرباس والليف فكيف يعقل أن يمتلك مثل هذا الخاتم الثمين ؟!

وعلى هذا الأساس فلا شكّ في ضعف الرواية التي لا تنسجم مع روايات الباب ولا مع سيرة الإمام علي عليه السلام ولا تتناغم مع أجواء تاريخ النزول، ولذلك فانها قد وضعت تحت ظروف خاصّة.

ثانياً: كيف يعقل أن يمتلك الإمام علي مثل هذا الخاتم الثمين بحيث يدخل في باب الإسراف المحرم ثمّ يتصدّق به في سبيل الله وينال الثناء الإلهي ؟ وعليه فإنّ المستفاد مما ورد من المدح والثناء في هذه الآية الشريفة على هذا العمل كذب هذه الرواية وزيفها وأنها وضعت لتحقيق أغراض معيّنة.

الإشكال الرابع : إنّ هذا العمل لا ينسجم مع حضور القلب

بما أن الإمام علي عليه السلام كان عندما يصلّي خاصّة يتوجه إلى الله تعالى بكلّ قلبه ويغرق في صفات جلاله وجماله ولا يكون له التفاتٌ إلى غيره أبداً بحيث إنهم كانوا يخرجون السهام من بدنه الشريف في حال الصلاة[1] ولم يكن يتسنىٰ لهم ذلك في الحالات العادية لصعوبته وشدّة ألمه، فمثل هذا الإنسان العارف والمتعلق بالله تعالى إلى هذه الدرجة كيف يلتفت أثناء الصلاة إلى كلام السائل ويتصدّق عليه في حال الركوع بالخاتم ؟ والخلاصة أن هذه المسألة تتنافى مع حضور القلب في الصلاة لأمير المؤمنين عليه السلام.

---

١. ذكرنا تفاصيل هذه الحادثة مع وثائقها المعتبرة في كتاب «١١٠ قصة من سيرة الإمام علي عليه السلام».

الجواب: أوّلاً: إن السائل بعد أن تملكه اليأس من الحصول على مساعدة الأصحاب توجه إلى الله تعالى بالشكاية وشرع بالقول «اللّهُمّ أشهد....» وعليه فإنّ هذا الكلام وذكر اسم الله ألفت نظر الإمام عليّ إلى وجود السائل، وهذا لا يتقاطع مع حضور قلبه واستغراقه في عالم العبودية في الصلاة.

مضافاً إلى ذلك ألا يعقل أن يسمع المأموم في صلاة الجماعة صوت المكبّر أو صوت الإمام ليتابعه في أعمال الصلاة؟ إذا لم يكن يسمع ذلك فكيف يمكنه الاقتداء به في الصلاة؟ وإذا كان يسمع فهل يعني هذا أن حضور القلب غير ممكن في كلّ صلاة جماعة؟

ثانياً: هل أن سماع صوت السائل الذي ورد التعبير عنه في الرواية الشريفة بأنه رسول من الله فيه إشكال؟ إن سماع صوت الرسول الإلهي كيف يتقاطع مع حضور القلب في الصلاة؟[1]

ثالثاً: ألا يكون سماع صوت المظلوم وحل مشكلته حتّى في أثناء الصلاة من العبادة؟[2] فلو كان هذا العمل عبادة فالإمام عليّ عليه السلام قد يستغرق في هذه العبادة ويأتي بها من دون أن يكون هناك إشكال في البين بل هي عبادة ضمن عبادة.

أمّا ما يمكن أن يكون محل إشكال هو التوجّه إلى النفس والذات الفردية أثناء العبادة والصلاة، وأمّا التوجّه إلى المظلوم وقضاء حاجته الذي يعد في نفسه عبادة فلا إشكال فيه.

والنتيجة هي أن هذا الإشكال مردود أيضاً، وفي الحقيقة أن هدف المغرضين من طرح هذا الإشكال والإشكالات الأُخرى هو تهميش هذا العمل وتضعيف دلالة الآية الشريفة على ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام.

---

١. ورد في الحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «إن المسكين رسول الله إليكم فمن منعه فقد منع الله، ومن أعطاه فقد أعطى الله» (وسائل الشيعة: ج٦، أبواب الصدقة، باب ٢٢، ح ١١).

٢. هنالك روايات كثيرة في فضيلة الصدقة وآثارها، منها ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لأن أحج حجّة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة حتّى انتهى إلى عشر ومثلها حتّى انتهى إلى سبعين، ولإن أعول أهل بيت من المسلمين اشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحجّ حجّة وحجّة حتّى انتهى إلى عشر ومثلها حتّى انتهى إلى سبعين. (وسائل الشيعة: ج ٦، أبواب الصدقة، الباب ٢، ح ٣).

الإشكال الخامس: لماذا تعود الضمائر في الآية إلى الجمع؟

وكما تقدّم في الآية الشريفة أنها تقرر الولاية لثلاث طوائف، وفي الثالثة تعود الضمائر في الأفعال واسم الموصول إلى الجمع كما في قوله:

١ ـ الّذين ٢ ـ آمنوا ٣ ـ الّذين ٤ ـ يقيمون ٥ ـ يؤتون ٦ ـ هم ٧ ـ راكعون.

فالكلمات السبعة المذكورة في الآية تتناسب مع الجمع، ومعنى هذه الكلمات هي أن هناك أشخاصاً متعددين قد تصدّقوا على الفقير في حال الركوع في حين أن جميع الروايات تذكر الإمام عليّ عليه السلام فقط كمصداق للآية الشريفة حيث تصدّق بخاتمه على الفقير في حال الركوع وبالالتفات إلى هذا المطلب فهل هناك روايات أُخرى وردت في شأن نزول الآية الشريفة تتناغم مع أجواء الآية؟ ومن الواضح أنه لو كان هناك اختلاف وتباين بين الآية الشريفة والروايات التي تتحدّث في شأن نزولها فلابدّ من الإعراض عن الرواية أو الروايات والعمل بمضمون الآية الشريفة. إذن فالتعارض المذكور بين الآية الشريفة والروايات المذكورة يتسبب في عدم اعتبار هذه الروايات.

الجواب: إنّ العلماء والمفسّرين من أهل السنّة قد أجابوا على هذا الإشكال فالفخر الرازي يقول في الجواب على هذا السؤال:

«إنّ الجمع يطلق أحياناً على المفرد للاحترام وعلى سبيل التعظيم والآية مورد البحث من هذا القبيل»[1].

ويذكر الآلوسي في روح المعاني جواباً آخر ويقول:

«قد يستعمل الجمع في المفرد لبيان عظمة الشخص تارة، ولبيان عظمة العمل أُخرى، وهذا مشهور في لغة العرب ولكن بما أن هذا الإستعمال على سبيل المجاز فيحتاج إلى قرينة»[2].

وأمّا جوابنا على هذا السؤال فهو:

أوّلاً: أنه كما رأينا أن استعمال صيغة الجمع بدل المفرد قد يكون متداولاً لبيان احترام

---

١. التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٢٨.

٢. روح المعاني: ج ٦، ص ١٦٧.

المخاطب وبيان عظمته، وفي الآية مورد البحث قد ورد مثل هذا الإستعمال في سياقها والقرينة على مجازية هذا الإستعمال الوارد في الآية هو أن أيّ واحد من العلماء حتّى المتعصبين من أهل السنّة لا يرون غير الإمام علي عليه السلام مصداقاً لها والذي تصدّق بخاتمه في حال الركوع، وهذا هو أفضل قرينة على استعمال لفظ الجمع في مورد المفرد.

ثانياً: هناك موارد كثيرة وردت في القرآن الكريم واستعملت فيها صيغة الجمع للمفرد، وكمثال على ذلك نكتفي بذكر سبعة موارد منها:

١ ـ نقرأ في الآية ٢١٥ من سورة البقرة قوله تعالى:

﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

في هذه الآية الشريفة وردت جملة «يسألونك، ينفقون، انفقتم وما تفعلوا» بصورة الجمع، وفي البداية يظهر من الآية أن جماعة من المسلمين طرحوا السؤال المذكور ولكن طبقاً لشأن نزول الآية فلم يكن السائل سوى شخص واحد واسمه «عمرو بن جموح»[١] الذي كان رجلاً ثرياً، وعليه ففي هذه الآية الشريفة ورد لفظ الجمع واستعمل في المفرد إما على أساس بيان عظمة هذا العمل وهو الانفاق أو بيان الاحترام للسائل وهو عمرو بن جموح.

ملاحظة: إنّ الموضوع الملفت للنظر في هذه الآية الشريفة هو أن الله تعالى في مقام جوابه على سؤال عمرو بن جموح ذكر مطلباً آخر لأن عمرو سأل عن نوع المال الذي يجب انفاقه، والله تعالى تحدّث عن الأشخاص الذين يجب الإنفاق عليهم، فعليه فمثل هذا الجواب يبين أهمية مصرف الإنفاق وأن الإنسان يجب أن يهتم بالدرجة الأُولى بأبيه وأُمّه وأقربائه ثمّ يتوجّه إلى الآخرين في عملية الإنفاق.

٢ ـ يقول سبحان وتعالى في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

١. الكشّاف: ج ١، ص ٢٥٧.

في هذه الآية الشريفة نقرأ عبارات من قبيل «الّذين، ينفقون، أموالهم، فلهم، أجرهم، ربّهم، عليهم، هم، يحزنون» فكلّها جاءت بصيغة الجمع ولكنّ الكثير من المفسّرين قالوا بأن المراد منها هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان ينفق بالليل والنهار وسرّاً وعلانيةً، وطبقاً لرواية واردة في هذا المجال أن الإمام كان يمتلك أربعة دراهم فتصدّق بأحدها ليلاً وبالآخر نهاراً وبالثالث علانية وبالرابع سرّاً فنزلت الآية أعلاها لتشير إلى شأن هذا الإنفاق[1].

سؤال: هل يعقل أن تنزل آية قرآنية على بعض الأعمال الجزئية من قبيل إنفاق أربعة دراهم؟

الجواب: إنّ المهم في نظر الإسلام هو كيفية العمل لا مقداره، وعليه فإذا كان العمل قد أتى به المكلّف بإخلاص بالغ فيمكن أن تنزل آية قرآنية حتّى على إنفاق أقل من أربعة دراهم ولو أن شخصاً أنفق جبلاً من ذهب ولكن لم يكن يتزامن مع الإخلاص والتوجّه القلبي إلى الله تعالى فليس له أية قيمة ولا تنزل في حقّه آية شريفة.

٣ـ ونقرأ في الآية ١٧٣ من سورة آل عمران:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

هذه الآية الشريفة نزلت في حرب أُحد عندما تخلّف بعض المسلمين عن امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وتركوا مواقعهم واشتغلوا بجمع الغنائم الحربية فاستفاد الأعداء من هذه الفرصة ومن غفلة المسلمين وداروا حول جبل أُحد وهجموا على المسلمين من ورائهم وحقّقوا نصراً كبيراً على المسلمين وقتلوا سبعين مسلماً في تلك الواقعة.

إن الكفّار والمشركين لم يقنعوا بهذا النصر على المسلمين فعندما كانوا يعودون إلى مكّة قال أحدهم: نحن الذين حقّقنا هذا النصر فلماذا لم نقتل محمّداً لنختم على هذه الدعوة الجديدة ونقلعها من جذورها؟ فإذا لم نفعل ذلك في هذا اليوم فالإسلام والمسلمين سوف

---

١. الكشّاف: ج ١، ص ٣١٩.

يزدادون قوّة ويتفوّقون علينا في المستقبل.

وقد أثر كلامه هذا في أفراد جيش المشركين وعزموا على العودة إلى المسلمين وقتالهم، ولكن كان بينهم شخص يدعى «نعيم بن مسعود» أو «معبد الخزاعي» الذي لم يقبل باستمرار القتال وقبل أن يصل الكفّار إلى المسلمين أخبر هذا الشخص المسلمين بعزم الكفّار وتصميمهم على القتال فخاف من ذلك بعض المسلمين واصابهم الرعب وقالوا: إننا قد خسرنا المعركة وكنّا أقوياء وسالمين ولكن الآن وبعد الهزيمة وكثرة القتلى والجروحين كيف يمكننا الوقوف أمام جيش الكفّار، ولكن بعضاً آخر من المسلمين قالوا: «نحن لسنا على استعداد فقط لقتالهم بل سوف نذهب إليهم ونتحرك لقتالهم مع الجروحين من جيش الإسلام، فعندما فهم الأعداء ذلك وأن المسلمين توجّهوا إليهم مع الجروحين منهم دبّ في قلوبهم الخوف والرعب وقنعوا بذلك المقدار من النصر وانصرفوا عن قتال المسلمين مرّة أخرى.

الآية الشريفة أعلاها تتحدّث عن هذه الواقعة وتعبّر عن «نعيم ابن مسعود» أو «معبد الخزاعي» الذي أبلغ المسلمين بعزم الكفّار بكلمة «الناس» في حين انه لم يكن سوىٰ نفر واحد ولكن بما أن عمله هذا كان عظيماً للغاية. فلأجل بيان أهمية هذا العمل ذكرت الآية الشريفة كلمة الجمع بدل المفرد.

٤ ـ يقول تعالى في الآية ٦١ من سورة آل عمران:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

هذه الآية الشريفة نزلت في واقعة المباهلة، ففي هذه الواقعة كما هو معروف لدى الجميع أن النبيّ الأكرم ﷺ جاء مع عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لميدان المباهلة، والمراد من «أبناءنا» في الآية الشريفة هم الحسن والحسين عليهما السلام والمراد من «نساءنا» فاطمة الزهراء عليها السلام والمراد من «أنفسنا» عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وهكذا ترىٰ أنها كلمات وردت بصيغة الجمع وأُريد بها المفرد[1].

---

١. الكشّاف: ج ١، ص ٣٦٨.

٥ ـ ونقرأ في أول آية من سورة الممتحنة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾.

ذكر الكثير من المفسّرين أن هذه الآية الشريفة نزلت في «حاطب ابن أبي بلتعة» وكان رجلاً واحداً واستعملت في حقّه صيغة الجمع «الّذين، آمنوا، لا تتّخذوا، عدوّكم» وهذا يدلّ على العمل العظيم الذي أراد القيام به، وهو أن رسول الله ﷺ عندما عزم على فتح مكّة قام بسد المنافذ والطرق المؤدية إلى مكّة لكي لا يصل خبر تجهيز جيش المسلمين إلى الكفّار والمشركين في مكّة ليتم الفتح بسهولة ويسر ومن دون إراقة دماء، ولكن (حاطب) الذي كان يمتلك بعض المال والثروة في مكّة قال في نفسه: إنني لو أخبرت أهل مكّة عن استعداد جيش المسلمين لقتالهم فأضمن سلامة أموالي وأتمكن من إخراجها من أيدي المشركين وكما يقول السياسيون في عصرنا الحاضر: «أربح امتيازاً».

ولهذا كتب رسالته بهذا الغرض إلى رؤساء مكّة وسلّمها لامرأة تدعى «سارة» لتوصلها إلى مكّة فاخفت الرسالة في طيات شعرها وتوجهت إلى مكّة.

فنزل جبرئيل وأخبر النبي ﷺ بالمؤامرة المذكورة فارسل الإمام عليّ ؑ وبعض الأشخاص لكشف هذه المؤامرة، فتوجّهوا نحو المرأة المذكورة وأخيراً استطاعوا أن يكتشفوا الرسالة ويعودوا إلى المدينة، وهنا نزلت الآية الشريفة في توبيخ حاطب وقال بعض الأصحاب: دعنا نقتل حاطب ولكن النبي ﷺ الذي رأى حالة الندم على حاطب وكان من المجاهدين سابقاً واشترك في حرب بدر عفى عنه وأطلقه[1].

في هذه الآية نرى أيضاً أن «حاطب» رجل واحد ولكنّ الآية وردت بصيغة الجمع.

٦ ـ نقرأ في الآية ٥٢ من سورة المائدة:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...﴾.

حيث أمر النبي الأكرم ﷺ المسلمين بقطع علاقاتهم وروابطهم مع الكفّار والمشركين

١. الكشّاف: ج ٤، ص ٥١١.

ولكن أحد المنافقين وهو «عبدالله بن أُبي» قال: إذا قطعنا العلاقة معهم فإنّ حياتنا ومعيشتنا ستتعرض للاهتزاز والارتباك ونصاب بمشكلات عديدة. فنزلت الآية المذكورة في شأن هذا المنافق[١].

وهكذا نرى أن الشخص الذي كان يتحدّث عن ضرورة إبقاء الرابطة مع الكفّار والمشركين شخص واحد، ولكن الآية الشريفة وردت بصيغة الجمع «الّذين، قلوبهم، يسارعون، يقولون، نخشى وتصيبنا» وهذا يعني أن استخدام صيغة الجمع في حقّ المفرد لا بأس به.

٧ ـ ويقول تبارك وتعالى في الآية ٨ من سورة المنافقين:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية أعلاها نزلت بعد غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة في منطقة «قديد» وكان هناك اختلاف بين أحد المهاجرين وأحد الأنصار فما كان زعيم المنافقين «عبدالله بن أُبي» إلّا أن قال: أوقد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل[٢].

وهكذا نرى أن القائل لم يكن سوى رجلاً واحداً ولكن الآية تحدّثت عنه بصيغة الجمع «يقولون، رجعنا».

والنتيجة هي أن القرآن الكريم أورد في هذه الآيات السبعة المذكورة آنفاً وفي آيات أُخرى أيضاً صيغة الجمع بدل المفرد، وهذا يدلّ على أن مثل هذا الإستعمال شائع في أجواء الآيات القرآنية.

وعلى هذا الأساس فإنّ آية الولاية إذا ذكرت صيغة الجمع في حقّ المفرد وهو «عليّ بن أبي طالب» الذي تصدّق في ركوعه فلا يوجد محذور في مثل هذا الإستعمال بل يدلّ على عظمة هذا العمل الذي قام به الإمام علي عليه السلام.

---

١. الكشّاف: ج ١، ص ٦٤٣.

٢. انظر تفاصيل هذه القصة في التفسير الأمثل: ج ١٨، سورة المنافقين، الآية ٥، ص ٣٥٦.

الإشكال السادس: ماذا تعني ولاية الإمام عليّ عليه السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله؟

الإشكال الآخر الذي أورده الفخر الرازي وآخرون هو: «أنا لو حملنا الولاية على التصرف والإمامة لما كان المؤمنون المذكورون في الآية موصوفين بالولاية حال نزول الآية، لأن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ما كان نافذ التصرف حال حياة الرسول، والآية تقتضي كون هؤلاء المؤمنين موصوفين بالولاية في الحال. أما لو حملنا الولاية على المحبة والنصرة كانت الولاية حاصلة في الحال، فثبت أن حمل الولاية على المحبة أولى من حملها على التصرف»[1].

الجواب: وجواب هذا الإشكال واضح لأن ولاية الولي والوصي والخليفة تكون بالقوّة لا بالفعل، وأساساً فإنّ هذا المطلب موجود ضمن سياق الآية الشريفة حيث إنّ زكريّا الذي طلب من الله تعالى الولي والوارث واستجاب الله تعالى لطلبه وأعطاه يحيى[2] فهل أنّ يحيى كان وارثاً وولياً لأبيه في حياة زكريا أو أن ذلك تحقّق له بعد وفاة الأب؟

من الواضح أن هذه الأمور تحققت له بعد وفاة أبيه.

وهذه المسألة سائدة في العرف وسيرة العقلاء، فمن يكتب وصية ويعين وصياً له فهل أن هذا الوصي له ولاية واختيار قبل وفاة صاحب الوصية أو أن هذه الوصية تتعلق بما بعد الوفاة؟ الفخر الرازي كان قد كتب وصيته حتماً وقد عيّن وصياً له، فهل أن ذلك الوصي وهذه الوصية كانت فعلية في زمن حياته أو بعد مماته؟ وأكثر من ذلك فإنّ جميع القادة والزعماء والملوك في العالم يتحركون في أواخر حياتهم لتعيين خليفة لهم، ولكنّ هؤلاء الخلفاء لم يكونوا أصحاب قدرة فعلية في حياة هؤلاء الملوك والزعماء بل كانت قدرتهم ومسؤولياتهم تتحقق لهم بعد وفاة القائد الفعلي.

وعلى هذا الأساس فإن الولاية في الآية الشريفة جاءت بمعنى القيّم وصاحب الإختيار وإمام الأمّة ولكن جميع هذه المعاني لا تكون فعلية للإمام عليّ عليه السلام إلّا بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

١. التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٢٨.

٢. سورة مريم: الآية ٥ و ٦.

مضافاً إلى ذلك فإنّ مسألة تعيين الخليفة لا تختص بهذه الآية الشريفة بل إنّ النبيّ الأكرم ﷺ وطيلة زمن نبوته ٢٣ سنة كان يذكر مسألة الوصية بالخلافة للإمام علي عليه السلام دائماً، وأوّل مورد لذلك هو ما ورد في حديث يوم الدار، وذلك عندما تحرك النبي الأكرم ﷺ بعد ثلاثة سنوات من الدعوة السرية إلى الإعلان والإجهار بإبلاغ الرسالة وفي أوّل خطوة لذلك جمع قادة قريش ودعاهم إلى ضيافته وبعد أن انتهوا من تناول الطعام طرح مسألة النبوّة والرسالة وقال لهم في آخر المطاف:

أَيُّكُمْ يُوازِرُنِي عَلىٰ هٰذَا الْأَمْرِ.

فلم يكن يجيب بالإيجاب على هذا الطلب سوى أميرالمؤمنين عليه السلام، فما كان من رسول الله إلّا أن قال له في ذلك المجلس:

«أَنْتَ وَصِيّي».

في حين أن النبي الأكرم كان على قيد الحياة، وماذا يصنع بالوصي والخلافة في ذلك الوقت؟

النتيجة أن الجواب على مثل هذه الإشكالات والشبهات واضح، وفي الحقيقة أنها لا تعدو سوى حجج وتبريرات غير منطقية وبعيدة عن خط الحقّ والإنصاف.

الإشكال السابع: ما هو المراد من الزكاة؟

رأينا أنّ البعض أورد حجج وشبهات مختلفة حول دلالة آية الولاية بحيث أنهم ذكروا شبهات لكلّ كلمة من كلمات الآية محل البحث من قبيل «إنّما»، «وليّ»، «راكعون»، «الزكاة» فكلّها وردت في حقها إشكالات وشبهات.

ويتساءل الفخرالرازي وآخرون: ما المراد من الزكاة في هذه الآية الشريفة؟ هل المقصود الزكاة المستحبة أو الواجبة. ومعلوم أنه ليست لدينا زكاة مستحبة، وعليه فإنّ المراد من الزكاة هنا هو الزكاة الواجبة، وإذا كان كذلك وقلنا بأن الآية الشريفة نزلت في عليّ ابن أبي طالب عليه السلام سنقع في تناقض لأنّ الإمام علي لم يكن من حيث التمكّن المادي والاقتصادي بحيث تجب عليه الزكاة وتتعلق الزكاة الواجبة في أمواله لأنه طبقاً لما ورد في

شأن نزول سورة الإنسان (سورة الدهر) بأن الإمام علي وأهله كانوا قد صاموا في ذلك اليوم وجاء سائل على الباب وطلب منهم طعاماً فأعطوه طعامهم الذي كانوا قد أعدّوه للافطار وأفطروا ذلك اليوم بالماء القراح، والخلاصة أن الامام علي لم يكن يمتلك طعاماً ليوم آخر، فكيف تتعلق في ماله الزكاة الواجبة حتّى يؤديها في حال الركوع؟

الجواب: في مقام الجواب على هذا الإشكال وبالأحرىٰ هذه الشبهة نقول:

أوّلاً: إنّ الأحكام الشرعية في الإسلام تتضمن الزكاة الواجبة والمستحبة لأن جمع الزكاة تم بعد هجرة النبي إلى المدينة في حين أن السور المكيّة تتحدّث عن الزكاة أيضاً وكانت تحث المسلمين على أداء الزكاة في مكّة، والمراد منها حتماً الزكاة المستحبة أو الزكاة الواجبة التي لم تكن تجمع قبل زمن تشكيل الحكومة الإسلامية.

ونلفت النظر إلى ثلاث نماذج من الآيات الشريفة النازلة في مكّة:

ألف) نقرأ في الآية الرابعة من سورة المؤمنون التي هي سورة مكيّة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.

في هذه الآية الشريفة ذكرت صفة من صفات المؤمنين وهي أداء الزكاة، وبما أن هذه السورة مكيّة والآية نزلت قبل تشريع حكم الزكاة فنعلم أن المراد من الزكاة هنا هي الزكاة المستحبة.

ب) ونقرأ في الآية الثالثة من سورة النمل في وصف المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

ومعلوم أن سورة النمل من السور المكيّة، وعليه يكون المراد من الزكاة هنا هي الزكاة المستحبة.

ج) ونقرأ في الآية ٣٩ من سورة الروم:

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

فهذه السورة من السور المكيّة أيضاً والمراد من الزكاة هنا الزكاة المستحبة.

وعليه فطبقاً لما ورد في القرآن الكريم أن الزكاة تشمل الواجبة والمستحبة كما ورد في فقه الشيعة أن بعض الأجناس تتعلق بها الزكاة الواجبة وبعضها تتعلق بها الزكاة المستحبة.

ثانياً: أنه ليس من الصحيح قياس الحالة الاقتصادية للإمام علي عليه السلام عند نزول آية الولاية التي نزلت في أواخر عمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع زمان نزول آيات سورة الدهر لأن وضع المسلمين في بداية ظهور الإسلام في مكّة لم يكن وضعاً مناسباً بصورة عامة وكان أغلب المسلمون يعيشون في ضائقة مالية وخاصة أنهم كانوا في مكّة يعيشون الحصار الإقتصادي، ولكنهم عندما هاجروا إلى المدينة وتخلّصوا من الحصار الإقتصادي الذي فرضه عليهم المشركون في مكّة واشتغلوا بالزراعة والتجارة تحركت حالتهم الإقتصادية وانفتحت عليهم أبواب الرزق وتحسنت حالتهم المعيشية بحيث إن وضع أغلب المسلمين في أواخر عمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان جيداً من الناحية الإقتصادية، ونظراً إلى أن آيات سورة المائدة نزلت في أواخر عمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فإنه لم يكن من البعيد أن تتعلق الزكاة الواجبة بأموال الإمام علي عليه السلام ولا ينبغي قياس حالة الإمام عليّ عليه السلام الإقتصادية في هذا الزمان الذي كان المسلمون يعيشون في حالة الإنفتاح الإقتصادي والتمكّن المالي مع زمان نزول آيات سورة الإنسان (التي نزلت في أوائل الهجرة كما يقول الشيعة أو قبل الهجرة كما يقول بعض أهل السنّة).حيث كان المسلمون يعيشون أزمة اقتصادية ومالية لأن ذلك يعني أن التناقض المزعوم يفتقد بعض شروط الوحدة وهي الوحدة في المكان والآخر الوحدة في الزمان لكي يصح دعوة التناقض، وهنا لا يوجد مثل هذا التوحّد في الزمان والمكان.

مضافاً إلى كلّ ذلك فقد ورد في الروايات الواردة في شأن أميرالمؤمنين عليه السلام أنه «أَعْتَقَ أَلْفَ مَمْلُوكٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ»[١].

فمن الواضح أن الإمام عليّ عليه السلام لم يتسنَ له العمل والكسب في زمان خلافته لكي يمكن القول بأنه أعتق هذا المقدار من العبيد من كدّ يده، إذن فهذا العمل كان قد صدر منه قبل تصديه للحكومة والخلافة قطعاً.

والنتيجة هي أن دفع الخاتم من قبل الإمام علي عليه السلام حتّى لو قلنا بأنه من قبيل الزكاة الواجبة لم يكن ذلك بمستبعد وعجيب.

---

١. بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٤٣.

والحقيقة أن هؤلاء المخالفين وقعوا في تناقضٍ بيّن، فإنهم من جهة يذكرون أن الإمام علي قد دفع خاتماً ثميناً جداً إلى الفقير بحيث يدخل في دائرة الإسراف والتبذير، ومن جهة أُخرى يشكّون في أصل هذا العمل بسبب عدم التمكّن المالي للإمام علي ﷺ.

✻

والنتيجة هي أنه على رغم الإشكالات والشبهات الكثيرة التي احتفت بدلالة آية الولاية والتي ذكرنا أهمها آنفاً وأجبنا عنها فإن دلالة الآية الشريفة على الولاية لا تخفى على أحد حيث تقرر الآية الشريفة الولاية والقيادة والإمامة لثلاث أولياء: ١ ـ الله تعالى ٢ـ النبي الأكرم ﷺ ٣ ـ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

ملاحظة مهمة جداً

إذا كان من المقرر أن تطرح مثل هذه الشبهات والإشكالات التي مرت آنفاً حول كلّ آية من آيات القرآن الكريم فإنّ أوضح الآيات وأحكمها كآيات التوحيد لا تتخلص من الإشكال، فلا يبق شيء يصلح للاستدلال، في حين أننا نرى أن مثل هذه الإشكالات والشبهات لا تطرح حول سائر الآيات القرآنية، والظاهر أن هذا الأُسلوب من طرح الشبهات يختص بالآيات المتعلقة بفضائل أهل البيت ﷺ وولايتهم فقط.

وإذا أردنا استكشاف السبب في مثل هذه المواجهة المتباينة مع الآيات القرآنية فلابدّ من القول أن مثل هؤلاء الأشخاص لم يذعنوا للقرآن الكريم ولم يتعاملوا معه بأدبٍ ونزاهة كما هو المتوقع، والمفروض على المسلم أن يجلس أمام القرآن كالتلميذ أمام أُستاذه بل يريد هؤلاء أن يكونوا أساتذة للقرآن ويستخرجوا منه ما يؤيد مسبوقاتهم الفكرية، وهذا هو التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه بشدّة في الروايات الإسلامية[١].

أيها القارئ الكريم! إذا أردنا أن نستفيد من القرآن والوحي أو روايات المعصومين ﷺ استفادة صحيحة ونتوصل من خلالها إلى كشف الحقيقة فيجب علينا أن نتتلمذ على يد

---

١. انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتاب (التفسير بالرأي) لمؤلفه آية الله العظمى مكارم الشيرازي «مدّ ظلّه».

القرآن والأحاديث الشريفة ونستوحي مفاهيمنا الدينية من هذين المنبعين الغنيين بتعاليم الوحي والدين حتّى لو كانت على خلاف رغباتنا وميولنا وإلّا فإنّ التفسير بالرأي وبذر الإشكالات والشبهات حول مدلول الآيات الشريفة سينتهي إلى عواقب وخيمة وإنكار المسلّمات الدينية.

وورد في رواية شيّقة تتحدّث عن عاقبة نوعين من أنواع التعامل مع القرآن الكريم حيث قال رسول الله ﷺ:

«... مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ».[١]

والحقيقة أن هذه الرواية الشريفة يجب أن تهز كيان الأشخاص الذين يتعاملون مع القرآن من موقع التفسير بالرأي وإسقاط مفاهيمهم وأحكامهم المسبقة على الآيات الشريفة.

توصية آية الولاية

إنّ الآية الشريفة محل البحث مضافاً إلى أنها تثبت ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام فإنها تتضمن توصية مهمة لشيعة وأتباع هذا الإمام بل لجميع المسلمين في العالم وهي:

إن الإمام علي عليه السلام لم يكن ولياً وإماماً للمسلمين وخليفة للنبيّ الأكرم ﷺ بصورة اعتباطية بل وصل إلى هذا المقام بسبب عوامل مهمة قد ذكرت في الآية نفسها، فالايمان الراسخ وإقامة الصلاة والمحافظة على الارتباط الوثيق بين العبد وخالقه ودفع الزكاة وتوثيق العلاقة بين الإنسان وأفراد المجتمع كلّها من الأسباب التي رشّحت الإمام عليّ عليه السلام ليكون أميراً للمؤمنين[٢].

وعليه فإن الآية الشريفة أعلاه توصي شيعة أميرالمؤمنين بأنه إذا أردتم أن تكونوا من

---

١. بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ١٣٤.

٢. كما في اصطلاح الفقهاء «أن التعليق على الحكم مشعر بالعلية» أي إذا ورد حكم لوصف، فمفهومه أن هذا الوصف علّة لهذا الحكم، مثلاً لو قيل: احترم العلماء. فمعنى ذلك أن العلم في هؤلاء الأشخاص هو السبب في لزوم الإحترام.

شيعة هذا الإمام وتصلوا إلى المراتب العليا من الكمالات المعنوية والإلهية، فيجب عليكم أن تتحلوا بالإيمان الراسخ والقوي، وتسعوا إلى تقوية هذا الإيمان وتعميق الرابطة مع الله تعالى وعدم الغفلة عن الصلاة والعبادة، وكذلك عدم الغفلة عن دفع حقوق الآخرين من قبيل الزكاة حتّى في أثناء الصلاة وخاصّة في شهر رمضان المبارك شهر العبادة واليقظة وتهذيب النفس، فيجب مضاعفة السعي في هذا المجال والتدبّر في مضامين الأدعية الواردة في هذا الشهر الكريم ليتسنّىٰ للإنسان أن يخطو عملاً نحو رفع الفقر والمحرومية عن المساكين والمحتاجين والمرضى والذين لا يستطيعون أداء ديونهم وأن نتحرك في دعاءنا ومناجاتنا مع الله تعالى في طلب المغفرة للمرحومين والذين انتقلوا إلى الدار الأُخرىٰ ونسعى في التقليل من مصاب البائسين ونواسيهم في آلامهم وهمومهم.

﷽



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ «سورة النساء / الآية ٥٩»

أبعاد البحث

الآية أعلاه تسمّى «آية الإطاعة» وهي آية أُخرى تدلّ على ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام، ومحور البحث في هذه الآية هي جملة «أُولي الأمر» حيث تتضمن نظريات وآراء مختلفة سيأتي شرحها وبيانها وما ذكر حولها من إشكالات.

الشرح والتفسير

من هم أولي الأمر؟

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وَأطيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾.

يخاطب الله تعالى في هذا المقطع من الآية الشريفة جميع المؤمنين في أقطار العالم وفي جميع الأزمنة والأعصار إلى يوم القيامة بتقديم الطاعة المطلقة لثلاثة من الأولياء:

الأوّل: إطاعة الله تعالى، ثمّ إطاعة النبي، والثالث إطاعة أُولي الأمر.

والقسم الثاني من الآية الشريفة يبيّن المرجع للمسلمين في حال نشوب الإختلاف

والنزاع وكأن الغرض هو تأسيس جهاز قضائي مستقل للمسلمين ويقول:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فلا ينبغي التوجّه في حلّ الإختلافات التي تحدث بين المسلمين إلى الأجانب ومرجعيات غير إسلامية.

وبالإلتفات إلى قيد الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يتضح جيّداً أن المسلمين الذين يتوجهّون في اختلافاتهم إلى غير المنابع والمحاكم الإسلامية فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

والملاحظة الأُخرى الملفتة للنظر هي أن الآية الشريفة أوردت في صدرها وجوب إطاعة أُولي الأمر من جملة الأولياء الثلاثة ولكنها عند ذكرها لمرجع الإختلاف في المقطع الثاني لم تذكر أُولي الأمر، وهذا المطلب هو الذي أثار علامات استفهام مهمة في تفسير الآية الشريفة أعلاه وسوف يأتي تفصيل ذلك في المباحث القادمة.

﴿ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ هذه الجملة في الحقيقة هي تعليل للجملتين السابقتين، فلماذا يجب على المؤمنين إطاعة الله ورسوله وأُولي الأمر؟

ولماذا يحرم على المسلمين اختيار مرجعية أُخرى في حلّ اختلافاتهم غير الله ورسوله؟ لأنّ الآية توضح ذلك وتقول إن هذا الحكم هو خير للمؤمنين وهو أفضل عاقبة لهم.

حدود إطاعة أولي الأمر

النقطة المبهمة في الجملة المذكورة أعلاه تكمن في المراد من أُولي الأمر وعندها يتّضح تفسير الآية بصورة جيّدة، ولذلك نجد أن المفسّرين قد اهتموا ببيان مصداق أُولي الأمر وطرحوا لذلك سبع نظريات.

سؤال: قبل الدخول في تفاصيل نظريات المفسّرين حول معنى أُولي الأمر لابدّ من توضيح حقيقة مهمة لها دورٌ في فهم معنى أُولي الأمر، وهي: هل أن إطاعة أُولي الأمر مقيّدة ومشروطة، أو أنها مطلقة كما في إطاعة الله ورسوله؟ وبعبارة أُخرى هل أنّ إطاعة أُولي الأمر مقيّدة بقيود زمانية ومكانية وغير ذلك، أو أنها واجبة على الإنسان في كلّ زمان ومكان وفي مختلف الظروف؟

الجواب: الظاهر أن الآية الشريفة أطلقت وجوب إطاعة أُولي الأمر ولم تقيّدها بقيد وشرط معيّن، وبيبان آخر أن إطاعة أُولي الأمر في الآية الشريفة لم يقيد بعدم الإشتباه والخطأ الحاصل لدى أُولي الأمر، وبيبان ثالث كما أن إطاعة الله ورسوله واجبة مطلقاً فكذلك إطاعة أُولي الأمر أيضاً قد وردت في الآية بصورة مطلقة، وعليه فلابدّ أن يكون أُولو الأمر من المعصومين لأن إطلاق وجوب الإطاعة لا يصحّ إلّا إذا كان المطاع معصوماً، لأنه لا يصحّ فرض طاعة الشخص الذي يرتكب الخطأ والإشتباه في أحكامه، ولذلك نحن نعتقد بأن القاضي إذا أخطأ في إصدار حكمه وعلم أحد طرفي الدعوة بخطأ القاضي في صدور الحكم له على صاحبه، فلا يمكنه بمجرد إصدار القاضي لحكمه أن يتملك ما حكم له أو يلقي بالذنب على صاحبه.

وحتّى مراجع التقليد الذين يجب على المكلّفين تقليدهم لو أنهم أخطأوا في مسألة من المسائل فإنه لا يجب اتباعهم وطاعتهم في هذه المسألة كما في رؤية الهلال إذا لم يثبت لمرجع التقليد رؤية الهلال في الليلة الثلاثين من شهر رمضان المبارك وحكم بصوم اليوم الثلاثين ولكنّ بعض المقلدين يرىٰ بعينه هلال شوّال في الليلة الثلاثين، فهنا لا يمكنه التمسّك بفتوى مرجعه واتباعه في صوم اليوم الثلاثين بل يجب عليه أن يفطر في ذلك اليوم لأنه يعلم بخطأ المرجع في هذه الفتوىٰ.

وعلى هذا الأساس فإنّ الإطاعة المطلقة لا تصحّ إلّا من المعصومين، وبما أن الآية الشريفة ذكرت إطاعة أُولي الأمر بصورة مطلقة فلذلك نعلم بأن أُولي الأمر يجب أن يكونوا من المعصومين.

اختلاف النظريات حول معنى أُولوا الأمر

أما بالنسبة إلى تفسير ومعنى كلمة أُولي الأمر، فكما تقدّم هناك نظريات مختلفة في هذا المجال ونشير إلى بعضها:

الأوّل ـ المراد من أُولي الأمر قادة الأمّة: فإن كلُّ من استلم زمام الحكم في المجتمع الإسلامي يطلق عليه «أُولي الأمر» ويجب إطاعته بصورة مطلقة حتّى لو أنه تسلّم هذا

المقام بالقوّة والقهر ومن دون رضى الناس وحتّى لو كان من أفسق الناس فتجب إطاعته، وعليه فإن إطاعة الحكام حتّى لو كانوا من أمثال المغول والتتر فيما لو تسلطوا على المجتمع الإسلامي تكون واجبة.

وقد ذهب إلى هذه النظرية جمع من علماء أهل السنّة.

ولكن هل يصحّ الإلتزام بهذه النظرية عقلاً؟

أليس مراد الله ورسوله إقامة العدل والقسط في المجتمع الإسلامي[1]؟ إذن فكيف يمكن للظالم والحاكم بالجور أن يصبح خليفة لرسول الله ويقلع أُسس العدالة من المجتمع الإسلامي ويقيم حكمه على الظلم والجور؟

إنّ هذا التفسير لمعنى أُولي الأمر لا ينسجم مع أيّ برنامج إصلاحي في الإسلام فهل أن القائلين بهذا الكلام يرون أنه لو تسلط الحاكم الظالم بقوّة السيف على المجتمع الإسلامي وسحق جميع القيم الإسلامية تحت قدمه وأشاع الفحشاء والمنكر وقضى على المعروف والقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية واستهان بالواجبات الإلهية، فمع ذلك يجب على المسلمين أن يعترفوا بأنه من أُولي الأمر وأنه خليفة رسول الله وعليهم أن يطيعوا هذا الإنسان الظالم والمنحرف؟

مع الأسف إنّ هؤلاء يرون وجوب إطاعة مثل هذا الشخص الفاسد والظالم كما هو الحال في معاوية وابنه يزيد حيث يرون أنهم من أُولي الأمر.

ليت أن هؤلاء العلماء لم يذكروا مثل هذا التفسير للآية الشريفة.

الثاني ـ وذهب بعض المفسّرين إلى عصمة أُولي الأمر ورفضوا النظرية السابقة وبما أن الناس بصورة عامة غير معصومين فلذلك يكون المراد بأُولي الأمر مجموع الأُمّة الإسلامية، وبديهي أن الأُمّة الإسلامية معصومة من الخطأ فلا يمكن أن يقع جميع المسلمين في وادي الضلالة والخطأ رغم أن كلّ فرد غير معصوم، وعلى هذا الأساس فكما أن إطاعة الله ورسوله واجبة فكذلك يجب اتباع الأُمّة الإسلامية أيضاً.

---

١. ورد هذا المعنى في الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ولكن نقول في مقام الجواب على هذه النظرية: كيف يمكن تحصيل رأي جميع أفراد الأمّة الإسلامية؟ ألا يجب تحصيل جميع آراء ونظريات المسلمين؟ وإذا لم يجب تحصيل رأي كلّ فرد من المسلمين وانتخب المسلمون وكلاء ونوّاب عنهم وقلنا بكفاية اتفاق وإجماع هؤلاء الوكلاء والنوّاب للأُمّة الإسلامية فإنه يقال: هل يمكن أن يحصل اتفاق في آراء هؤلاء الوكلاء للأُمّة الإسلامية؟

إنّ الغالب هو عدم إمكانية تحصيل الإتفاق في الآراء حتّى لوكلاء ونوّاب الأُمّة الإسلامية، فلو قيل إنّ اتفاق الآراء غير لازم بل المعيار هو الأكثرية، فكلما رأت أكثرية النوّاب للأُمّة الإسلامية في مسألة معيّنة الحلّ بصورة معيّنة فيجب اتباعهم بعنوانهم أُولي الأمر، فهل أن معنى أُولي الأمر يصدق حقيقةً على أكثرية النوّاب والوكلاء للأُمّة الإسلامية؟

الثالث ـ وذهب البعض إلى أكثر من ذلك وبسبب ضعفهم عن مواجهة الثقافة الغربية فإنّهم رأوا أن الديمقراطية الغربية هي مصداق أُولي الأمر ألا تكون مثل هذه النظريات من التفسير بالرأي؟ ألا تكون هذه الآراء من قبيل تحميل المسبوقات الفكرية على القرآن؟ ألا تعتبر مثل هذه النتائج ظالمة بحقّ القرآن؟

مضافاً إلى ذلك فإنّ الديمقراطية الغربية ليست سوى فكرة برّاقة وأنيقة في الظاهر فحسب والغربيون أنفسهم لا يرون أن ديمقراطيتهم منهج مثالي للحكومة بل وجدوا أنفسهم مضطرين لقبولها لأنهم رأوا أنهم لولم يتمسّكوا بالديمقراطية لعاشوا في ظروف أسوأ منها، فهي من قبيل قبول «أقل ضرراً» وإلّا فأيُّ إنسان عاقل يقبل أنّ ٥٠٪ من أفراد الشعب يشتركون بالإنتخابات فيفوز مرشح ٢٦٪ ثمّ يكون هذا المرشح هو الحاكم على جميع أفراد الشعب!! فهل هذا من العدالة والإنصاف؟!

إنّ الأشخاص الذين يعيشون الإستيلاء وضعف الشخصية في مقابل الديمقراطية الغربية يرون في حكومة أمريكا النموذج الكامل للديمقراطية، ولحسن الحظّ ففي الآونة الأخيرة تجلت فضيحة كبيرة لهذه المزاعم في عملية الإنتخابات الأمريكية لرئاسة الجمهورية وتجلّت الماهية الحقيقية لهذا النوع من الديمقراطية لجميع الشعوب بالعالم حيث إن الحكومة

الأمريكية التي تقوم بإدارة جميع المصانع والإدارات بأحدث الأجهزة الالكترونية والكامبيوترية وصل بهم الحال أن يختلفوا في عشرة إلى خمسة عشر ألف رأي وأنه هل يحسبونها بجهاز الحاسوب أو باليد؟ فماذا يعني هذا الإختلاف؟ ولماذا كلّ هذه المناقشات والمنازعات على هذا الأمر بحيث أقاموا الدنيا وأحدثوا ضجة في العالم؟

إنّ هذه الأُمور تعدّ علامة على زيف المدّعين للديمقراطية بحيث إنهم لا يعتمدون حتّى على أجهزتهم الفنية!! يجب على العالم أن يضحك على هذه الإنتخابات الزائفة والديمقراطية الكاذبة ويجب على المحقّقين أن يدرسوا هذه الحادثة بدقّة حتّى يكشفوا حقيقة هؤلاء المدّعين للديمقراطية وخاصّة لمن يرىٰ أن الغرب هو كعبة آماله وطموحاته، والإنصاف أن تفسير أُولي الأمر بالديمقراطية هو خلاف ظاهر الآية الشريفة بل ظلم كبير للقرآن الكريم.

الرابع: نظرية جميع علماء الشيعة، وهي أن المراد بأُولي الأمر هم المعصومون عليهم السلام ولا يمكن أن يكون في كلّ زمان إلّا شخص واحد معصوم، وهذا الشخص كان في زمن نزول القرآن وبعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أميرالمؤمنين عليه السلام وبعده أحد عشر من ذرّيته من الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

التوضيح: ألف) كما تقدّم في أن أُولي الأمر (وبمقتضى الآية الشريفة أن إطاعة الله ورسوله وأُولي الأمر واجب بصورة مطلقة) يجب أن يكونوا معصومين ليتسنّىٰ للمكلّفين إطاعتهم بدون سؤال وترديد، أي أن وليّ الأمر يجب أن يكون مصوناً من الخطأ والذنب والإشتباه، وبعبارة أُخرى أن العصمة هي قدرة معنوية ومرتبة سامية من التقوى بحيث إن الشخص المعصوم لا يصدر منه أي ذنب أو خطأ أو اشتباه بالرغم من أنه مختار في سلوكه العملي وغير مجبر ويمكنه ارتكاب الذنب والخطأ، ولكنه ببركة هذه المرتبة السامية من التقوى فإنه لا يقدم على ذلك.

وبعبارة ثالثة أن التقوى لها مراتب مختلفة، أحدها هو التقوى من الذنوب الكبيرة وعدم ارتكابها بحيث أنه لو اتفق وأن أذنب في بعض الأحيان فإنه يتوب فوراً من ذلك، وفي المرحلة الثانية مضافاً إلى عدم ارتكابه للذنوب الكبيرة فإنه يجتنب الذنوب الصغيرة أيضاً، فلو صدر منه أحياناً ذنب صغير فإنه يتوب كذلك، والمرحلة الثالثة هي أعلى ممّا تقدّم بأن

يكون مضافاً إلى اجتنابه الذنوب الكبيرة والصغيرة فإنّه يجتنب المكروهات أيضاً، وهكذا يتدرج الإنسان المؤمن في مراتب التقوى إلى أن يبلغ الذروة وهي مرتبة العصمة المطلقة من الذنوب والخطأ والإشتباه، وعليه فإنّ العصمة لا تعني الجبر كما يتوهم البعض بل هي أعلى مرتبة من مراتب التقوى.

ب) إنّ أُولي الأمر المعصومين كما تقدّم آنفاً لا يمكن أن يكونوا جميع الأمّة الإسلامية أو العلماء والمفكرين من وكلاء ونوّاب الأمّة أو أكثريتهم بل يجب أن يكون المعصوم شخصاً خاصاً وفرداً معيناً منهم.

ج) بما أن العصمة مرتبة معنوية عالية ودرجة كاملة من التقوى فإنّه لا يمكن للناس تشخيص المصداق لهذا المعيار، ولذلك فإنّ أُولي الأمر يجب أن يعيّنوا من قبل الله تعالى أو النبي الأكرم ﷺ، وهكذا يقوم كلّ معصوم بتعيين المعصوم الذي يليه للناس.

والنتيجة هي أوّلاً: يجب أن يكون أُولوا الأمر معصومين.

ثانياً: يجب أن يكون المعصوم فرداً خاصاً ومعيّناً.

ثالثاً: إنّ تعيين المعصوم من أُولي الأمر يجب أن يكون من قبل الله تعالى.

❊❊❊

وهنا يجب التوجه إلى القسم الثاني من هذا البحث، أي الروايات الواردة في شأن نزول الآية الشريفة لنرى هل أن هذه الروايات عيّنت مصداق أُولوا الأمر للمسلمين؟ وهل أن الله تعالى أو نبيّه الكريم قد نصب هذا القائد المعصوم للناس؟

تفسير الآية في ظلال الروايات

هناك روايات متعددة في دائرة تعيين المعصوم المراد من الآية ﴿اطيعوا الله...﴾ وأهمها «حديث الثقلين».

وطبقاً لما ورد في هذا الحديث فإنّ النبي الأكرم ﷺ صرّح للمسلمين في أواخر عمره الشريف وقال:

«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقْلَيْنِ ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي... كِتابَ اللهِ... وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».[1]

---

١. ميزان الحكمة: الباب ١٦١، حديث ٩٦٧.

ومعنى هذا الحديث أن القرآن الكريم مصون من الخطأ والإشتباه، ولذلك فإنّ الشخص الذي يتحرك في خط القرآن فإنّه مصون من الوقوع في الخطأ أيضاً، إذن فلابد أن يكون أهل البيت معصومين أيضاً من الخطأ والإشتباه كيا يصحّ التمسّك بهم ويكون التحرّك في خطّهم مصوناً من الوقوع في أشكال الزلل والزيغ وإلّا فلا معنى أن يكون أهل البيت غير معصومين والشخص الذي يسير في خطّهم ويتبعهم يكون مصوناً من الوقوع في الخطأ.

إذن فطبقاً لهذه الرواية فإنّ أهل البيت معصومون، وكما تقدّم في شرح الآية الشريفة ﴿اطيعوا الله...﴾ يجب أن يكون هذا الفرد المعصوم معيّن من قبل الله تعالى،وهذا يعني أن الأئمّة المعصومين معيّنون ومنتخبون بأفرادهم من قبل الله تعالى.

أهمية حديث الثقلين

إن حديث الثقلين يعتبر من الأحاديث المهمّة جدّاً في دائرة موضوع الولاية والإمامة بحيث لا نجد نظيراً له بين الروايات والأحاديث الواردة في هذا الشأن، فهذا الحديث من جهة الدلالة قويٌّ جدّاً وصريح، ومن جهة السند فإنّ الرواية متواترة ومذكورة في جميع مصادر الفريقين (السنّة والشيعة) بشكل واسع، ويستفاد من مجموع الروايات الواردة في هذه المصادر أن النبي الأكرم ﷺ لم يتحدّث بهذا الحديث مرّة واحدة بل تكرر منه ذلك مرّات عديدة، والرواية أعلاه وردت في المصادر الأصلية والمعتبرة للشيعة (تهذيب الأخبار، الإستبصار، الكافي، من لا يحضره الفقيه)[1] وفي مصادر أهل السنّة (الصحاح الستّة) أيضاً. وهذه الصحاح الستّة عبارة عن:

١ ـ «صحيح البخاري» الذي يعدُّ أهم كتاب من بين هذه الصحاح الستّة وكاتبه هو «البخاري» الذي توفي سنة ٢٥٦ هجرية.

---

١. «التهذيب» و«الاستبصار» من تأليف الشيخ الطوسي، و«من لا يحضره الفقيه» من تأليف الشيخ الصدوق، و«الكافي» للشيخ الكليني، وهؤلاء الثلاثة من أساطين علماء الشيعة، والجدير بالذكر أن ما يقال من أن هذه الكتب الأربعة من المصادر المعتبرة لدى الشيعة لا يعني أن جميع رواياتها صحيحة ومعتبرة ولا حاجة إلى التحقيق في سندها، بل المراد أن أغلب روايات هذه الكتب معتبرة، ويتبيّن ذلك بعد التحقيق في إسنادها.

٢ ـ «صحيح مسلم» الذي يأتي بعد صحيح البخاري في الأهمّية، ومؤلفه هو «مسلم ابن حجار» الذي توفي سنة ٢٦١ هجري ويسمى هذين الكتابين بالصحيحين، ويطلق على مؤلفيها لقب «الشيخين».

٣ ـ «سنن ابن داود» وقد توفي ابن داود سنة ٢٧٥ هجري.

٤ ـ «سنن الترمذي» الذي توفي سنة ٢٧٩ هجري.

٥ ـ «سنن النسائي» الذي توفي سنة ٣٠٣ هجري.

٦ ـ «سنن ابن ماجة» الذي توفي سنة ٢٧٣ هجري.

إنّ جميع الروايات المذكورة في هذه الكتب الستّة هي من الصحاح ومن الروايات المعتبرة لدى أهل السنّة، ولكن جميع الروايات المعتبرة لديهم لا تنحصر في هذه الكتب الستّة، ولذلك كتب «الحاكم» كتاباً باسم «مستدرك الصحيحين» وذكر فيه روايات معتبرة أُخرى لم تذكر في صحيح البخاري ومسلم[1].

ويذكر مؤلف هذا الكتاب: إنّ جميع الروايات المذكورة في مستدرك الصحيحين متطابقة مع المعايير المذكورة في البخاري وصحيح مسلم.

وقد ذكرت رواية الثقلين في ثلاث من هذه الكتب السبعة أي صحيح مسلم وسنن الترمذي[2] ومستدرك الصحيحين[3] وكمثال على ذلك نذكر ما ورد في صحيح مسلم:

«يقول يزيد بن حيان: انطلقت أنا وحصين بن مسيرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلمّا جلسنا إليه قال حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه، حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي كبر سنّي وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما

١ . يقول ابن أبي الحديد: سألت استاذي عبدالوهاب: هل أن جميع الأحاديث الصحيحة واردة في الصحاح الستّة، أو هنالك روايات صحيحة أُخرى في غيرها من الكتب؟ فقال: هناك روايات صحيحة كثيرة لم تذكر في الصحاح، فقلت: هل أن حديث (لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي) صحيح؟ فقال: نعم هو صحيح ومعتبر.

٢ . سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٢، الحديث ٣٧٨٦ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩).

٣ . مستدرك الصحيحين: ج ١، ص ٩٣ و ج ٣، ص ١٠٩.

حدثتكم فانقلوه وما لا فلا تكفلونيه ثمّ قال ﷺ: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً بين مكّة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثمّ قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشَكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثِقْلَيْنِ أَوَّلُهُما كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِه «فَحَثَّ عَلىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي....»[١].

مضافاً إلى هذه الكتب الثلاثة فإنّ الرواية محل البحث وردت أيضاً في خصائص النسائي[٢]، والملفت للنظر أن ابن حجر وهو رجل متعصب جدّاً وقد كتب كتاباً ضد الشيعة باسم «الصواعق المحرقة» قد أورد الرواية أعلاه أيضاً[٣].

والأهم من ذلك أن ابن تيميّة مؤسس فرقة الوهابية المنحرفة أورد رواية الثقلين أيضاً في كتابه «منهاج السنّة»[٤].

والخلاصة أن هذا الحديث الشريف والعميق المغزى «حديث الثقلين» هو رواية متواترة في كتب الشيعة وأهل السنّة[٥].

وهذا المطلب يدلّ على أن الرواية المذكورة تتمتع بأهمية خاصّة، ولهذا نجد الإمام الراحل بدأ في وصيته التاريخية بهذا الحديث الشريف لأنه محدّث خبير ويعلم أن هذا الحديث هو رواية محكمة لا يدخل فيها الشكّ والريب.

ومن خلال حديث الثقلين يثبت أن المراد من أُولي الأمر هم الأئمّة الأطهار الذين يجب إطاعة كلّ واحد منهم في زمانه ولا يشترط في إطاعتهم واتباعهم أي شرط.

ومضافاً إلى حديث الثقلين هناك روايات أُخرى واردة في شأن هذه الآية الشريفة ولكننا نذكر هنا اثنين منها:

---

١. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٧٣.

٢. خصائص النسائي: ص ٢٠ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٦٦).

٣. الصواعق المحرقة: ص ٢٢٦، طبع عبداللّطيف مصر (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٦٧).

٤. منهاج السنّة: ج ٤، ص ١٠٤ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٦٩).

٥. ومضافاً إلى ما ذكر أعلاه من الكتب والمصادر، فإن هنالك كتب مهمة أُخرى لدى أهل السنّة تذكر حديث الثقلين، ولمعرفة المزيد من التفاصيل يراجع «نفحات القرآن: ج ٩»، و«احقاق الحقّ: ج ٤، ص ٤٣٨».

١ ـ يقول الشيخ سليمان الحنفي القندوزي في «ينابيع المودّة» الصفحة ١١٦:

«سمعت عليّاً صلوات الله عليه يقول: وأتاه رجل فقال: أرني أدنىٰ ما يكون به العبد مؤمناً وأدنى ما يكون به العبد كافراً وأدنى ما يكون به العبد ضالاً. فقال له: قد سألت فافهم الجواب: أما أدنىٰ ما يكون به العبد مؤمناً أن يعرفه الله تبارك وتعالى نفسه فيقر له بالطاعة ويعرفه نبيه ﷺ فيقر له بالطاعة ويعرفه إمامه وحجته في أرضه وشاهده على خلقه فيقر له بالطاعة.... قلت يا أميرالمؤمنين: صفهم لي، قال: الذين قرنهم الله تعالى بنفسه وبنبيه، فقال: يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم، فقلت له جعلني الله فداك أوضح لي. فقال: الذين قال رسول الله ﷺ في مواضع وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عزّوجلّ إليه:

إِنّي تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلّوا بَعْدِي إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما كِتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَعِتْرَتي أَهْلَ بَيْتي.

فنرىٰ في هذه الرواية الرابطة الوثيقة بين حديث الثقلين وأُولي الأمر.

٢ ـ ينقل أبوبكر المؤمن الشيرازي عن ابن عبّاس قوله:

«إن هذه الآية [آية الإطاعة] نزلت في علي عليه السلام حيث خلفه رسول الله ﷺ في المدينة (في غزوة تبوك) فقال يا رسول الله: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال رسول الله ﷺ:

أَما تَرْضىٰ أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ، حِينَ قالَ: أُخْلُفْنِي فِـي قَـوْمِي وَأَصْلِحْ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ وَأُولُوا الْأَمْرِ مِنْكُمْ».[1]

يعني أن الآية الشريفة ناظرة إلى عملك وسعيك وأنت مصداق أُولي الأمر.

والنتيجة هي أن الآية الشريفة مع قطع النظر عن الروايات تدلُّ على أن أُولي الأمر يجب أن يتحدد بمصداق معيّن ومعصوم ومنصوب من قبل الله تعالى، وكذلك يفهم من خلال الروايات الشريفة أن المراد هو فرد معيّن ومنصوب بالنصب الإلهي، وهم الأئمّة الاثنا عشر، أي الإمام عليّ وأحد عشر من ذرّيته وأبنائه الطاهرين.

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٤٢٥.

أسئلة وأجوبة

هناك أسئلة وعلامات استفهام عديدة قد تثار حول مدلول هذه الآية الشريفة وأهمها ثلاثة أسئلة:

السؤال الأوّل: إذا كان الإمام عليّ عليه السلام هو مصداق أُولي الأمر كما يقول الشيعة إذن فلماذا لم تكن إطاعته واجبة في زمان حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في حين أن الآية الشريفة تقرر وجوب إطاعة أُولوا الأمر كما هو الحال في وجوب إطاعة الله ورسوله؟

وبعبارة أُخرىٰ أن الإمام عليّ عليه السلام كان في عصر النبي مأموراً أيضاً ولم يكن آمراً وقائداً تجب إطاعته على المسلمين، وعليه فإنّ التفسير المذكور للآية لا ينسجم مع وجوب الإطاعة الفعلي لأُولي الأمر.

الجواب: ويمكن الجواب عن هذا السؤال بنحوين:

ألف) لابدّ في البداية من معرفة المراد من «الرسول» و «أُولوا الأمر»، فلو فهمنا الفرق بين هاتين الكلمتين سيتضح لنا الجواب على السؤال أعلاه، «الرسول» هو الشخص المرسل من قبل الله تعالى لبيان أحكامه وإبلاغ دينه وإنذار الناس، أي أنه مضافاً إلى «النبوّة» وتبليغ الأحكام فإنه مرسل لإنذار الناس من العذاب الإلهي وببيان أوضح أن الرسول هو الشخص المأمور لبيان الأحكام وتبليغ الرسالة.

وأمّا «أُولوا الأمر» فلا يتحملون مسؤولية التقرير والتشريع بل مسؤولية حراسة هذا القانون وتجسيده على مستوى الواقع الإجتماعي، وبعبارة أوضح يمكن القول أن «النبي» يمكن تشبيهه بالمشرّع والمقنن، بينما «أُولوا الأمر» هم القائمون على تنفيذ وإجراء هذه القوانين.

ومع الإلتفات إلى هذا البيان فإنّ المقنن في زمن الرسول هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك كان النبي الأكرم مسؤولاً عن تنفيذ القانون وإجرائه في الوسط الإجتماعي، وعلى هذا الأساس ففي زمن حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان صلى الله عليه وآله رسولاً وفي نفس الوقت «ولي الأمر» أيضاً كما في مورد النبي إبراهيم عليه السلام أيضاً حيث يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة وهو أنه قد نال مقام الإمامة مضافاً إلى مقام النبوّة، أي أنه مضافاً إلى مرتبة التشريع والتقنين نال مرتبة

مسؤولية إجراء القانون، إذن فمقام الرسالة هو مقام التقنين، ومقام الإمامة وأُولوا الأمر هو مقام إجراء القانون، وفي زمن حياة النبي ﷺ كان النبي «رسولاً» و «ولي الأمر» ولكن بعد رحلت النبي ﷺ فإنّ الشخص المعصوم المنصوب من قبل الله تعالى ورسوله هـو المـعني بـ«أُولي الأمر» ولم يكن ذلك إلّا الإمام علي عليه السلام ومن بعده سائر الأئمّة المعصومين واحداً بعد الآخر، لأنه لم يرد إدعاء النصب الإلهي لهذا المقام إلّا للإمام علي وذريته الطاهرين.

والنتيجة هو أن ادّعاء فعلية الإطاعة لا يضر بتطبيق كلمة «أُولوا الأمر» على الإمام علي عليه السلام بعد رحلة الرسول ﷺ وعلى أبنائه الطاهرين بعد رحلة الإمام علي عليه السلام كما هو المستفاد من الأحاديث الشريفة.

ب) أما الجواب الآخر فهو أن الإمام علي عليه السلام كان في حياة النبي ﷺ أيضاً مـن أُولي الأمر، وعلى الأقل في فترة معيّنة من حياته الشريفة، وذلك عندما توجه النبي الأكرم ﷺ إلى غزوة تبوك وأبقى الإمام علي عليه السلام على المدينة بعنوان خليفته. ولتوضيح المطلب أكثر لابدّ من إلقاء بعض الضوء على واقعة تبوك:

غزوة تبوك

إن هذه الغزوة هي آخر غزوة من غزوات النبي الأكرم ﷺ طيلة فترة رسالته حيث وقعت أحداثها في السنة الأخيرة من سنوات عمره الشريف، ومكانها يقع في أعلى نقطة من منطقة الحجاز وفي الحدود المشتركة بين الجزيرة العربية والروم الشرقية.

عندما اتسعت رقعة الإسلام واستحكمت دعائمه في المدينة وانتشر خـبره في أرجـاء المعمورة أحست الدول المجاورة لدولة الإسلام ومنها الروم الشرقية «سورية وفلسطين» بالخطر من هذه الدعوة الجديدة وفكروا في الهجوم على المسلمين لصد هذا الخـطر الذي يهدد عروشهم وتيجانهم[1] ولذلك أقدم الروم على تشكيل جـيش مـقداره أربـعين ألف

---

١. لم تكن بلاد الحجاز مطمعاً للدول الكبيرة في ذلك الزمان، لأنها لم تكن تشكل خطراً مهماً من جهة سكّانها ولا يوجد فيها موارد اقتصادية مهمة ولا حضارة متفوقة، بل كان أهل الحجاز نصف متوحشين حيث يعيشون ←

جندي بكامل العدّة والعدد وتحركوا باتجاه الحجاز.

وعندما وصل هذا الخبر إلى المسلمين وإلى النبيّ الأكرم ﷺ أمر النبيّ ﷺ المسلمين بأن يستعدوا لمواجهة هذا العدو وبالتحرك باتجاهه ولا يجلسوا في المدينة بانتظار قدومه، وكانت هذه الاستراتيجية العسكرية مناسبة جداً لهذه الواقعة لأنه ليس من المناسب التقوقع في حالة دفاعية وانفعالية اتجاه هذا الخطر بل ينبغي أن يقابل هذا الهجوم بهجوم آخر.

واتفق في زمن وقوع هذه الحرب أنها كانت في أجواءٍ صعبة وغير مناسبة لأنها من جهة كانت حرارة الصيف على أشدها في الحجاز، ومن جهة أُخرى فإن المحصولات الزراعية لهذه السنة على وشك النضج وقد فرغت المخازن الغذائية للسنة الماضية لدى المسلمين، ومن جهة ثالثة فإنّ الفاصل بين المدينة ومنطقة تبوك فاصلة كبيرة جداً حيث ينبغي على المسلمين طي هذا المسير مشياً على الأقدام غالباً لأنه لم يكن لكلّ عشرة أشخاص سوى مركب واحد، وعلى هذا الأساس عليهم أن يتناوبوا في الركوب، وعلى أية حال فقد صدر الأمر بالتوجه إلى منطقة تبوك فجمعوا ما تبقى لديهم من الأغذية من قبيل بعض التمر اليابس وقد يكون فاسداً أيضاً وتوجه المسلمون بجيش بلغ مقداره ثلاثين ألف شخص بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك. وكان العطش والجوع يلم بجيش الإسلام وقد تورمت أقدام الكثير منهم بسبب المشي في الصحراء المحرقة ولكنهم وبالرغم من هذه الصعاب والمشاكل استمروا في طريقهم وقد تحمل جنود الإسلام في ذهابهم وإيابهم الكثير من الصعاب وواجهوا تحديات الواقع المفروض عليهم ولهذا سمّي هذا الجيش بـ«جيش العسرة»[1].

الحروب الدائمة بينهم، فلم تكن والحال هذه تشكل خطراً على البلدان المجاورة، فحتّى لو أُعطيت الحجاز مجاناً إلى البلدان الأُخرى لم تقبل بها، ولهذا كانت بعيدة عن أهداف الحكومات الاستعمارية، ولكن مع ظهور الإسلام واتحاد القبائل العربية فيما بينها تحت لواء الإسلام وظهور حضارة جديدة، أحسّ الأعداء بالخطر.

١. بدون شك لولا تلك الإستقامة والصبر من المسلمين في تلك الواقعة لم يكن الإسلام يصل إلينا بالتأكيد، ولهذا لا ينبغي التساهل في أمر حفظ هذا الدين لأنه لم يصل إلينا بيسر.

وعندما وصل الخبر إلى جيش الروم بأن جيش المسلمين الذي يبلغ ثلاثين ألف نفر قادم إليهم من المدينة وبأقل مقدار من الإمكانات العسكرية ومشياً على الأقدام وبقلوب مليئة بالعشق إلى الجهاد ضد أعداء الله عزموا على العودة والتراجع. حيث أصدر «أي القيصر» ملك الشام الأمر بذلك، وعندما وصل المسلمون إلى تبوك علموا بفرار العدو وتراجعه وشكروا الله على هذا التوفيق العظيم.

ثمّ إن النبي الأكرم استشار أصحابه بالنسبة إلى الرجوع إلى المدينة أو مواصلة الطريق والهجوم على العدو في الشام، وكانت نتيجة الشورىٰ هي التصميم على العودة إلى المدينة لأن الإسلام لم يزل في بداياته ولم تكن للمسلمين القدرة الكافية والتجربة الوافية لفتح البلدان والمناطق الأُخرى، وعلى هذا الأساس كان هذا الاقدام العسكري في غاية الخطورة بالنسبة إلى الدولة الإسلامية الفتية.

وبملاحظة ما تقدّم فإن غزوة تبوك كانت تختلف تماماً عن غزوات الإسلام الأُخرى «وخاصّة لطول مدّة عدم حضور النبيّ والمسلمين في المدينة وبُعد المسافة بين المدينة وتبوك» فكان من المحتمل جداً أن يتآمر المنافقون في المدينة بالتوافق مع الأعداء خارج المدينة، ولهذا كان من المفروض أن يخلف النبي الأكرم أقوى وأشجع المسلمين ليحفظ دار الإسلام وعاصمة البلد الإسلامي من شر الأعداء ومؤامرات المنافقين المحتملة، ولم يكن هذا الشخص سوى الإمام علي عليه السلام ولهذا فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عينه على المدينة كما تقدّم في رواية أبي بكر المؤمن الشيرازي المتقدّمة بعنوان أنه أُولوا الأمر.

وعلى هذا الأساس فإن الإمام علي عليه السلام كان يتصف بصفة «أُولوا الأمر» حتّى في زمان النبي الأكرم رغم أن ذلك كان بشكل مؤقت فكانت طاعته مترادفة مع إطاعة الله ورسوله وواجبة على المسلمين في المدينة، وعليه فإن هذا الإشكال أي إشكال فعلية الإطاعة في الآية الشريفة يتضح جوابه ممّا تقدّم بيانه.

السؤال الثاني: إن كلمة «أُولوا الأمر» تدلّ على الجمع والإمام عليّ شخص واحد، فهل المراد من «أُولوا الأمر» هو الإمام علي لوحده؟

الجواب: صحيح أن كلمة «أُولوا الأمر» صيغة للجمع ولكن المراد ليس هو الإمام عليّ

فقط بل تشمل جميع الأئمّة الاثنا عشر للشيعة الذين يقول بهم الشيعة كما ورد ذلك في حديث الثقلين بعنوان «عترتي أهل بيتي» حيث لا تختص بالإمام علي بل تشمل جميع الأئمّة المعصومين.

والشاهد على هذا الكلام الرواية التي وردت آنفاً في «ينابيع المودّة» حيث ذكر فيها أن أُولوا الأمر هم المقصودين من حديث الثقلين وقلنا أن المراد من «عترتي أهل بيتي» في حديث الثقلين هم جميع الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

والنتيجة هي أن المراد من أُولي الأمر جميع الأئمّة الاثنا عشر كلّ واحد في زمانه الخاصّ حيث يجب إطاعته بدون قيد أو شرط على جميع المسلمين.

السؤال الثالث: لماذا لم تتكرر كلمة «أُولوا الأمر» في ذيل الآية بحيث يرجع إليهم المسلمون في حلّ اختلافهم ومشاكلهم؟

الجواب: أوّلاً: إن هذا الإشكال لا يرد على الشيعة بالخصوص بل على أهل السنّة أيضاً لأنهم بأي معنى فسّروا كلمة «أُولوا الأمر» فهذا الإشكال وارد عليهم.

ثانياً: إنّ علّت عدم تكرار «أُولوا الأمر» في المقطع النهائي من الآية الشريفة هو ما تقدّم من الفرق بين «الرسول» و «أُولوا الأمر» فالرسول هو المسؤول عن تقنين الشريعة و «أُولوا الأمر» هم المسؤولون عن تنفيذ هذه القوانين، ومن الواضح أنه إذا حصل شك لدى أحد الأشخاص في الحكم الإلهي لزم أن يراجع المقنن لا المنفذ للحكم.

وعليه فإن عدم تكرار هذه الكلمة لا يعدُّ نقصاً في مفهوم الآية الشريفة بل يؤكد بلاغة القرآن الكريم وفصاحته المدهشة.

والجدير بالذكر أن الأئمّة المعصومين بأجمعهم هم القائمون على تنفيذ قوانين الإسلام، ولو تحركوا من موقع بيان أحكام الإسلام وتشريعاته فإن ذلك مقتبس من رسول الله صلى الله عليه وآله قطعاً.

وهناك روايات وردت في «جامع أحاديث الشيعة» المجلد الأوّل، الصفحة ١٨٣ تقرر أن أئمّة الهدى عليهم السلام قد أخذوا جميع علومهم في مجال الأحكام الشرعية من رسول الله صلى الله عليه وآله.

والنتيجة هي أن «أُولي الأمر» لا تعني الأشخاص الذين يتولون تقنين الأحكام

وتشريعها بل بمعنى القيام على تنفيذها والعمل على إجراء القانون الإلهي، ولهذا لا داعي لذكره مرّة أُخرى في الآية الشريفة.

توصيات الآية

١ ـ إنّ أهم توصية في الآية الشريفة هي أن المسلمين يجب أن يذعنوا تماماً في مقابل الأحكام الإسلامية ويعملوا بالتكاليف الإلهية ويطيعوا الله ورسوله بدون سؤال وترديد، ولا ينبغي لهم أن يختاروا ما هو الملائم لمزاجهم والمتناغم مع أهوائهم من هذه الأحكام ليعملوا به ويتركوا الباقي بل عليهم أن يتحركوا في خط الطاعة والرسالة ولو كان على خلاف ميولهم ورغباتهم فإنّ مثل هذا الشخص هو المؤمن الحقيقي والمسلم الواقعي.

ويحدّثنا القرآن الكريم بعبارة شيقة في الآية ٦٥ من سورة النساء في هذا الصدد:

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

هذه الآية الشريفة بإمكانها أن تكون معياراً جيداً ودقيقاً لتشخيص مقدار حالة التسليم والإذعان في واقع الإنسان، وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإن المسلم الواقعي هو الذي يتحرك من موقع التسليم لحكم النبي حتّى وإن كان على خلاف مصلحته ورغبته فلا يكتفي فقط بعدم إظهار الإنزعاج والتبرم بل ينبغي أن يشعر بالرضا والتسليم في قلبه وأعماق نفسه، أي أنه يسلم نفسه لله تعالى في العمل والقول والعواطف القلبية وإلّا فإنه لو أحسّ بالتبرم في نفسه من أحكام الإسلام فإن ذلك يدلّ على أنه لن يحقق الإسلام الواقعي في وجوده، لأن المسلم الواقعي يجب أن يرضىٰ بما رضي به الله ورسوله لا بما ترضى به نفسه وأهواءه.

الإمام علي عليه السلام يقول في حديث جميل:

لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلاَمَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: الْإِسْلاَمُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ.[1]

---

١. نهج البلاغة: الكلمات القصار، الكلمة ١٢٥.

فطبقاً لهذا الحديث الشريف فإنّ الإسلام يبدأ من واقع الإنسان وقلبه ثمّ يطوي المراحل المختلفة ليصل إلى مرحلة العمل والممارسة، أي أن الإسلام بدون الإعتقاد القلبي وبمجرد أداء بعض التكاليف والعبادات لا يكفي في تحقق الغرض كما أن الإعتقادات لوحدها لا تكفي من دون أداء العبادات والتكاليف العملية وعليه فإنّ الإسلام هو مجموعة من الإعتقادات والأعمال الأخلاقية والدينية.

٢ ـ كلمة «أمر» تدلّ على مفهوم إيجابي واسع، ففي هذه الكلمة تكمن القدرة والقوّة، وهذا يعني أن «أُولوا الأمر» يجب أن يتحركوا مع الناس من موقع القدرة والقوّة والحكومة لا أنهم يطلبون هذا المقام ويمارسون نشاطاتهم بالتوسل وحالة الإستعطاف من الناس، وهذا المعنى وارد أيضاً في كلمة «الأمر بالمعروف» فإنّ الأمر هنا يجب أن يكون من موقع القدرة ولكن لابدّ من الإلتفات إلى أن موقع القدرة لا يتنافى مع استخدام أُسلوب المرونة والمداراة مع الناس لتحقيق المعروف وكما ورد في القصة المعروفة عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حيث تقول الرواية: «ومن حلمه ما روي عن الكامل للمبرّد وغيره أنّ شامياً رآه راكباً فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن فسلّم عليه وضحك فقال: أيها الشيخ أظنك غريباً ولعلّك تشبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وان كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك لأنّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً. فلمّا سمع الرجل كلامه بكى، ثمّ قال: أشهد انّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ، وحوّل رحله إليه وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبّتهم»[1].

القارئ المحترم يدرك جيداً أن الفاصلة بين أفضل الناس على الأرض وأشر الناس كم هي كبيرة، ولكن الإمام الحسن عليه السلام باتخاذه هذا الأُسلوب السليم والأخلاقي في عملية

---

١. منتهى الآمال: ج ١، ص ٤١٧.

الأمر بالمعروف قد قطع كلّ هذه المسافة الشاسعة.

ونحن أيضاً يجب علينا الإستفادة من هذا الدرس الكبير والإلتفات إلى أن المخالفين على قسمين:

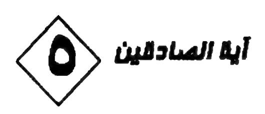
١ ـ الأشخاص الذين وقعوا تحت تأثير الإعلام المسموم والدعايات المغرضة فصدرت منهم ممارسات شائنة وكلمات لامسؤولة، فهؤلاء يجب التعامل معهم بالأُسلوب اللين لهدايتهم كما هو الحال في هذا الرجل الشامي الذي وقع تحت تأثير دعايات بني أُمية المضللة وأصبح من أعداء أهل البيت عليهم السلام، وكما رأينا أن الإمام الحسن قد جذبه إلى الحقّ وهداه إلى الدين بأخلاقه الحميدة.

٢ ـ الأشرار المعاندون الذين يعاندون طريق الحقّ ويبغضون أهل الحقّ عن علم ودراية، فهؤلاء لا معنى للتساهل والتسامح في التعامل معهم بل ينبغي التعامل معهم من موقع القدرة والشدّة.

إن معرفة الأشخاص وتشخيص هذين القسمين ثمّ التعامل مع كلّ طائفة بما ينبغي التعامل معها عمل دقيق ويستلزم الكثير من الدقّة والتدبّر.

ربنا ا وفقنا إلى نيل التسليم الكامل في مقابل أحكامك وأوامرك ووفقنا لأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المقدسّة كما يريد منّا الإسلام.

ﮪﮫ



آية الصادقين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

«سورة التوبة / الآية ١١٩»

أبعاد البحث

إنّ الآية أعلاه تسمّى بـ«آية الصادقين»، وهي إحدى الآيات المتعلقة بمسألة الولاية والإمامة الواردة في شأن الإمام عليّ والأئمّة الأحد عشر من أولاده المعصومين عليهم السلام، ففي هذه الآية الشريفة يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين باتباع «الصادقين» فمن هم هؤلاء الصادقون؟ وما هي خصوصياتهم وعلاماتهم؟

معرفة إجمالية لسورة التوبة

من الضروري أن نتعرف على سورة التوبة بصورة إجمالية لتتضح جيداً أجواء نزول آية الصادقين الواردة ضمن هذه السورة، ولأجل ذلك لابدّ من بيان عدّة أمور:

ألف) أسماء السورة وعلة تسميتها

هذه السورة لها إسمان متباينان «التوبة» و «براءة» والسبب في تسميتها «براءة» أن هذه السورة تبدأ بهذه الكلمة «براءة» مضافاً إلى أن هذه السورة تتضمن إعلان البراءة من المشركين وأعداء الإسلام.

ولهذا السبب فهذه السورة لم تبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» التي تتضمن الرحمة والرحمانية والحنان واللطف.

وأمّا سبب تسمية هذه السورة بـ«التوبة» فهو أن الكثير من آيات هذه السورة تدعو الناس للتوبة والعودة إلى الله تعالى، أي أنها على الرغم من إعلانها الحرب على الكافرين والبراءة من المشركين وشرارات الحرب تملأ أجواء هذه الآية فإنّ آيات هذه السورة تتضمن كذلك مفهوم التوبة بصورة واسعة بحيث إنها بعد إعلان البراءة من المشركين تقول قبل نهاية الآية الخامسة[١] من هذه السورة:

﴿...فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلوةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أي بالرغم من أن الكفّار والمشركين قد تآمروا كثيراً على الإسلام والمسلمين وارتكبوا جرائم كثيرة ولكنهم لو تابوا وتمسّكوا بتعاليم الإسلام فإنّ توبتهم ستكون مقبولة.

والسبب في أن لهذه السورة اسمين متضادين هو كثرة الآيات التي تشير إلى التوبة ضمن الآيات التي تعلن الحرب والبراءة من الأعداء والمشركين ولعلّ ذلك لغرض بيان هذه الحقيقة، وهي أن الإسلام لم يغلق باب العودة وخط الرجعة على المذنبين والمجرمين حتّى في حال الحرب والقتال مع المسلمين فإنّ الإسلام لا يقصد الإنتقام منهم بل يهدف من تعاليمه حتّى من إقامة الحرب إصلاح الناس، ولهذا فلو أن الأعداء رغبوا في التوبة في أثناء الحرب وأظهروا عملاً التزامهم بالتوبة فإنّ الإسلام سوف يرفع عنهم حكم القتل بل سيتحرك نحو حمايتهم وتأييدهم.

وبعبارة أُخرى إنّ تركيب الآيات لهذه السورة واختيار اسمين لها، يشير إلى حقيقة مهمة على المستوى التربوي للناس وهي:

إنّ الانسان يحتاج في عملية التعليم والتربية إلى عنصر الخشونة والمداراة سويةً، فلو اتخذت الحكومة في تعاملها مع الناس أُسلوب الخشونة لأدىٰ ذلك إلى نفور الناس وتفرقهم، ولو تحدّثت الحكومة معهم من موقع المداراة واللطف فقط لأساء المجرمون والذين في قلوبهم

---

١. بل إن مسألة التوبة وردت قبل هذه الآية أي في الآية الثانية.

مرض الإستفادة من هذا اللطف والمداراة وأمعنوا في توغلهم في أعمال الشر والجريمة، ولكنّ استخدام أُسلوب يجمع بين الخشونة والمداراة كلٌ في موقعه المناسب بإمكانه أن يحلّ الكثير من المشكلات، ولذلك كان من اللازم استخدام «الشدّة» و«اللطافة» وأيضاً «العقوبة» و«التوبة».

ب) زمان نزول آيات سورة التوبة

إنّ الآيات الأُولىٰ من سورة التوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة للهجرة يعني سنة واحدة قبل وفاة النبي الأكرم ﷺ، وطبقاً لما ذكره المفسّرون فإنّ النبي ﷺ في هذه السنة وعلى أساس التعليمات الواردة في هذه الآيات أمر الإمام علي عليه السلام [١] بالتوجه إلى مكّة في مراسم الحجّ والإعلان عن أربعة أُمور:

١ ـ أنه لا يحقّ بعد هذا العام وهو العام التاسع للهجرة أن يطوف بعض الناس وهم عراة.

سؤال: وهل أن البعض يطوف حول البيت عارياً إلى ذلك الزمان ولماذا؟

الجواب: نعم فإن بعض الرجال وحتّى بعض النساء كانوا يطوفون حول البيت وهم عراة تماماً لأنّ أحد عقائد الوثنيين الخرافية هي أنه إذا طاف الشخص بثيابه يجب عليه أن يتصدّق بهذه الثياب على الفقير، ولهذا السبب فإنّ الأشخاص الذين لم يكن لديهم سوى ثوب واحد كانوا يقومون باقتراض ثوب لهم من شخص آخر حين الطواف ويطوفون به لكي لا يشملهم الحكم المذكور. وأما الأشخاص الذين لم يتهيأ لهم اقتراض ثوب من شخص آخر ولا يرغبون في التصدّق بثوبهم كانوا يطوفون وهم عراة تماماً.

٢ ـ انه لا يحقّ للمشركين وعبّاد الأوثان الطواف بالكعبة بعد هذا العام.

سؤال: أليس الإسلام يرىٰ الحرية في العقيدة، إذن لماذا منع أتباع سائر الأديان بالطواف حول الكعبة؟

---

١. يتفق جميع المفسّرين والمؤرّخين تقريباً على أنه لما نزلت الآيات الأُولى من سورة براءة وفيها الغاء للعهود مع المشركين، أمر رسول الله ﷺ في البداية أبابكر بابلاغها إلى الناس في وقت الحجّ في مكّة، ثمّ أخذها منه وسلّمها إلى علي عليه السلام وأمره بابلاغها في مراسم الحجّ (وتفصيل الواقعة التاريخية التي أراد البعض إخفاءها، مذكورة في التفسير الأمثل: ج ٥، بداية سورة التوبة).

الجواب: إنّ الإسلام يرىٰ حرية المذاهب والأديان ولكن الشرك وعبادة الأوثان لا يحسب ديناً ومذهباً بل هو مجموعة من العقائد التي تقوم على أساس خرافي.

٣ ـ إنّ المسلمين يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم مع المشركين إلى آخر المهلة المقررة في الميثاق ولكنهم بعد ذلك لا يقومون بتجديد هذا العهد والميثاق مع المشركين.

٤ ـ إنّ المشركين الذين لا تربطهم مع المسلمين رابطة عهد وميثاق سوف يُمهلون لمدّة أربعة أشهر لأصلاح عقائدهم ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وإلّا فإنهم سيتعرضون لقتال المسلمين.

وعلى أيّة حال فانّ الآيات الأُولى من سورة التوبة والتي وردت الإشارة إلى مضمونها نزلت في أواخر السنة التاسعة للهجرة، ويحتمل قوياً أن بقية سورة البراءة ومنها هذه الآية محل البحث نزلت في السنة التاسعة للهجرة، أي في السنة الأخيرة من عمر النبيّ الأكرم ﷺ.

وعلى هذا الأساس فإنّ «آية الصادقين» نزلت في أواخر عمر النبي الأكرم ﷺ وبذلك عملت على تهيئة الأرضيّة اللازمة لولاية وخلافة أميرالمؤمنين ؑ.

الشرح والتفسير

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ﴾ نرىٰ في هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخاطب المؤمنين والمسلمين ويأمرهم بأمرين:

الأوّل: أن يلتزموا بتقوى الله تعالى والتي تعدُّ أهم رأس مال المؤمن وميزان القرب من الله تعالى، وكلّما ازدادت حالة التقوىٰ في السالك إلى الله فإنه سيكون أقرب إلى الله تعالى، وكلّما قلّ منسوب التقوى في الإنسان كان ذلك علامة على ابتعاده من الله تعالى حيث نقرأ في الآية ١٣ من سورة الحجرات:

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ونقرأ في الآية ٦٣ من سورة مريم أن التقوى هي بمثابة جواز عبور الإنسان على الصراط ودخوله الجنّة:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾.

فالتقوى في نظر الإسلام مهمة في عملية الصعود بالإنسان إلى مدارج الكمال وتعني أن يعيش الإنسان الخوف والخشية من الله تعالى بحيث يدفعه ذلك إلى اجتناب الذنوب ولا يحتاج معها إلى ضوابط خارجية.

الثاني: هو أن الله تعالى يأمر المؤمنين في هذه الآية الشريفة أن يكونوا مع الصادقين.

من هم الصادقين؟

سؤال: هل أن المراد من «الصادقين» في هذه الآية الشريفة، والذين أمر الله تعالى المسلمين باتباعهم هم أشخاص معيّنون، أو أن المراد هو المعنى اللغوي لهذه الكلمة، أي أن يتبع الإنسان كلّ شخص صادق؟

الجواب: نحن نرىٰ أن المراد من «الصادقين» في هذه الآية الشريفة ليس كلّ إنسان صادق بل أفرادٌ مخصوصون، والشاهد على ذلك وجود قرينتين في هذه الآية:

١ ـ أنه لو كان المراد من كلمة «الصادقين» هو المعنى العام لا الخاصّ فيجب أن يقول «كونوا من الصادقين» لا «مع الصادقين» لأن الواجب على جميع المسلمين أن يكونوا صادقين لا بمجرد أن يكونوا مع الصادقين، وعلى هذا الأساس يتّضح من وجوب اتباع الصادقين والكون معهم أن المراد بهم هم أشخاص معيّنون بحيث يجب على المسلمين إتباع هؤلاء الأشخاص.

٢ ـ والشاهد الآخر على هذا المعنى أن ظاهر الآية يدلّ على أن إتباع هؤلاء غير مقيّد بقيود أو شروط، وعليه فإنّ إطلاق وجوب إتباعهم يدلّ على ضرورة أن يكون هؤلاء الصادقون معصومين ومصونين من الخطأ والإشتباه والزلل لأنه لولم يكونوا كذلك فلا يصحّ للمسلمين إتباعهم مطلقاً بل عليهم الإبتعاد عنهم في حالات الزيغ والخطأ والمعصية.

وعلى هذا الأساس فبما أن وجوب اتباع «الصادقين» ورد بصورة مطلقة لزم أن يكون هؤلاء الصادقين أشخاصاً معينين ومعصومين من الخطأ والذنب ليتسنّىٰ للآخرين اتباعهم بصورة مطلقة.

والنتيجة هي أنه إما أن يكون اتباع هؤلاء الصادقين ورد بصورة مطلقة فيكون «الصادقون» يراد بهم أشخاص معينون، أو أن ترد كلمة «الصادقين» بصورة مطلقة وتشمل جميع من كان صادقاً فيلزم التقيد في إتباعهم، ونظراً لما تقدّم من القرينتين في هذه الآية الشريفة فإنّ الاحتمال الأول هو الصحيح، فعليه فإنّ كلمة «الصادقين» مقيّدة والإتّباع مطلق، والمراد منه أشخاص معيّنين الذين يمكن للمسلمين إتّباعهم بصورة مطلقة.

نظرية علماء أهل السنّة

أما المفسّرون من أهل السنّة فقد أنقسموا في تفسيرهم لهذه الآية إلى قسمين، فبعضٌ لم يبحث هذه المسألة بصورة جيدة ولم يهتم لتفسير كلمة «الصادقين» فيها ومرّ عليها مرور الكرام.

وبعض آخر ذكر مطالب متنوعة في تفسيرها حتّى أنهم ذهبوا إلى أن «الصادقين» يجب أن يكونوا معصومين أيضاً لأنّ الاطاعة والإتباع ورد بصورة مطلقة ولا يصحّ ذلك إلّا بإتباع المعصوم ولكن مع ذلك فإنّ المسبوقات الفكرية والأحكام الذهنية لم تسمح لهؤلاء أن يصلوا إلى الحقيقة في تفسيرهم لهذه الآية.

الفخر الرازي من جملة المفسّرين من الطائفة الثانية فمضافاً إلى أنه يرى أن «الصادقين» يجب أن يكونوا معصومين يعتقد كذلك أن هذه الآية لا تختص بعصر نزول النصّ وزمان حياة النبيّ ﷺ بل في كلّ زمان يكون هناك شخص صادق معصوم في الأُمّة الإسلامية يجب على المسلمين إطاعته شرعاً.

ولكنه عندما أراد تشخيص مصداق «الصادقين» تورط في مسبوقاته الذهنية وابتلىٰ بالتفسير بالرأي وقال: «نحن نعترف بأنه لابدّ من معصوم في كلّ زمان، إلّا أنا نقول: ذلك المعصوم هو مجموع الأُمّة».

أي أن الأُمة الإسلامية لو اتفقت على رأي واحد في مسألة معيّنة فيجب على الجميع إتباع هذا الرأي، والنتيجة هي أن قوله تعالى «كونوا مع الصادقين» هو أن يكون المسلمون في كلّ عصر وزمان يسيرون جنباً إلى جنب مع مجموع الأُمّة الإسلامية.

ولكننا نسأل من الفخرالرازي: هل أن هذا التفسير كان يتبادر إلى ذهن المسلمين في عصر نزول الوحي وفي أذهان الصحابة في وقت نزول الآية؟ وأساساً فإنّ مسألة «الإجماع» طرحت بعد قرون من عصر النزول فكيف يستنبط الفخر الرازي من هذه الآية «إجماع الأمّة»؟

ولا شكّ أن هذا التفسير مجانب للصواب وأن أصحاب النبيّ ﷺ لم يفهموا من كلمة «الصادقين» سوى عدّة من الأشخاص المعينين الذين يتمتعون بمقام العصمة.

وعلى هذا الأساس، فلا شكّ في أن «الصادقين» يتمتعون بمقام العصمة من الذنوب والأخطاء، هذا أوّلاً...

وثانياً: أنهم موجودون في كلّ عصر وزمان ولا يختص وجودهم في زمان النبي الأكرم ﷺ.

ثالثاً: أن عددهم معيّن ومحدد.

فالأمور الثلاثة أعلاه تستفاد من نفس هذه الآية الشريفة كما مرّ تفصيل الكلام عنه آنفاً[1] ولكنّ مصداق «الصادقين» لا يتضح ويتبين من الآية نفسها بل لابدّ من الإستفادة من الروايات الشريفة.

تفسير آية الصادقين بضميمة الآيات الأخرى

لو جلسنا في مقابل القرآن جلسة التلميذ وأبعدنا أذهاننا عن المسبوقات الذهنية والمذهبية وتدبرنا في آيات هذا الكتاب العظيم بإخلاص ورغبة صادقة فإنّ القرآن الكريم يعرّف لنا الصادقين في آيات أُخرى حيث يقول تعالى في الآية ١٥ من سورة الحجرات:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

---

١. لو تخلّى الإنسان من قيود التعصّب والمسبوقات الذهنية وتدبّر في مفهوم الآية الشريفة والآيات المشابهة لها لحصل على نتائج جيدة، ومن هؤلاء الأشخاص الدكتور التيجاني الذي كان من علماء أهل السنّة وقد اهتدى إلى الحقّ بعد التدبّر في الآية الشريفة وأمثالها وفي جوابه لمن سأله: لماذا اخترت مذهب التشيع؟ كتب كتاباً باسم «لأكون مع الصادقين» حيث يدور البحث فيه حول الآية الشريفة المذكورة أعلاه.

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

فطبقاً لهذه الآية الشريفة فإن «الصادقين» مضافاً إلى إيمانهم بالله ورسوله أو إيمانهم بالمبدأ والنبوّة التي يشترك في هذه العقيدة جميع المسلمين فإنّهم يختصون بخصوصيات أُخرى لا يشترك معهم سائر المسلمون:

١ ـ إنهم بعد الإيمان بالله ورسوله لم يعيشوا الريب والشك ولا للحظة واحدة بل كانوا يعيشون الإيمان واليقين الراسخ في جميع مراحل حياتهم.

٢ ـ والآخر أن هذا الإيمان المذكور لم ينحصر في عالم القلب واللسان فحسب، بل إنّ آثاره تجلت بوضوح على مستوى الممارسة والعمل، ولهذا فإنّهم يتحركون في جهادهم في سبيل الله من موقع القرب من الله وبدافع من طلب رضاه فقط لا بدوافع أُخرى فيبذلون المال والأنفس في هذا السبيل.

ومع الإلتفات إلى هاتين الخصوصيتين النادرتين يجب علينا التفتيش والفحص بين أصحاب الرسول الأكرم لنعثر على الشخص الذي يتمتّع بهذه الصفات والخصوصيات ويكون من الصادقين.

ولدى رجوعنا لتاريخ صدر الإسلام نصل إلى هذه الحقيقة، وهي أن الشخص الوحيد الذي يتمتع بهذه الصفات هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام لأن جميع حياته كانت مليئة بالجهاد بالمال والنفس ولم يشك أو يتردد طرفة عين في إيمانه وعقيدته.

ومن أجل إثبات هذه الحقيقة نذكر ثلاث وقائع مختلفة مما يذكره التاريخ الإسلامي عن حياة هذا الإمام وجهاده بالمال والنفس وإيمانه الراسخ بالله ورسوله:

١ ـ عندما تحرك المشركون في مكّة للقضاء على الإسلام وتآمروا في كيفية الطريق إلى تحقيق هذه الغاية وصمموا على تنفيذ مؤامرة قتل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. ومن أجل أن لا تقوم عشيرة النبي صلى الله عليه وآله بالإنتقام من القاتل أو الإقتصاص منه قرّروا أن يقوم بهذه العملية عدّة أشخاص من جميع القبائل فاختاروا لذلك أربعين شخصاً من الأقوياء والشجعان في القبائل العربية ليهجموا على بيت النبوّة ليلاً وينفّذوا هذه العملية.

ولكنّ الله تعالى أخبر نبيّه الكريم بواسطة الوحي بهذه المؤامرة الخطيرة، فقام النبي

لأجل التخلص من هذه المؤامرة بالهجرة إلى المدينة ولكن من أجل أن لا يلتفت الأعداء إلى غيبته لزم أن يختار شخصاً شجاعاً مستعداً للموت لينام على فراش النبي في الليلة المقررة فكان أن اختار النبي الإمام علي عليه السلام لهذه المهمة.

وطبقاً للروايات[١] الواردة في هذه الحادثة فإن رسول‌الله قال لأميرالمؤمنين عليه السلام عندها:

إنني قد أُمرت أن أُهاجر إلى المدينة ولكنّ هناك أربعين رجلاً مسلّحاً من أربعين قبيلة يحاصرون هذا البيت وينتظرون طلوع الفجر ليهجموا على هذا البيت ويقتلونني فهل أنت يا عليّ مستعد لتنام في فراشي لأتمكن من التحرك نحو المدينة؟

فأجاب علي عليه السلام الذي ملأ قلبه العشق للنبيّ وللرسالة ولم يتردد أو يشك لحظة في إيمانه وعقيدته: «يا رسول الله إذا أنا نمت في فراشك فهل تصل سالماً إلى المدينة؟»

كان هذا السؤال مهماً جداً بالنسبة إلى الإمام علي عليه السلام فلم يسأل عن مصيره هو والخطر المحدق به في هذه الليلة بل كان فكره مشغولاً فقط بسلامة معشوقه وحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم سأصل سالماً إن شاء الله.

فوقع الإمام علي عليه السلام من فوره على الأرض ساجداً لله تعالى سجدة الشكر على سلامة الرسول ولعلّ هذه كانت أوّل سجدة شكر في الإسلام.

فهل نجد شخصاً غير علي ابن أبي طالب يعيش العشق والحبّ لرسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذه الدرجة؟

نحن بدورنا نعشق هذا الإمام ونتّبع في عقيدتنا وسلوكنا هذا الإنسان الكامل.

وهكذا نام الإمام علي عليه السلام في فراش النبي ووصل النبي سالماً إلى المدينة فلما أصبح الصباح هجم الأعداء على بيت النبي فنهض الإمام علي عليه السلام عندما سمع الضجة من فراشه فوجد الأعداء أن هذا النائم ليس هو مرادهم ومقصودهم فسألوا عليّاً: أين محمّد؟

وبدون أن تتخلل ذرة من الخوف في قلب الإمام علي عليه السلام قال: وهل أودعتموه عندي حتّى تسألوا هذا السؤال؟

---

١. وقد أورد المحدّث القمّي رحمه الله في منتهى الآمال: ج ١، ص ١١٠ هذه الواقعة بالتفصيل.

فبهت الأعداء من هذا الجواب القاطع لهذا الشاب الشجاع وقالوا فيما بينهم: إنّ هذا شاب ساذج وقد خدعه محمّد ﷺ.

فلمّا سمع الإمام علي عليه السلام ذلك منهم وأنهم يتحدّثون عن حبيبه بلغة الإهانة قال لهم كلاماً جميلاً جداً وعميق المغزى:

إنّ اللهُ قَدْ أَعْطاني مِنَ الْعَقْلِ ما لَوْ قُسِّمَ عَلىٰ جَميعِ حُمَقاءِ الدُّنْيا وَمَجانينِها لَصارُوا بِهِ عُقَلاء، وَمِنَ الْقُوَّةِ ما لَوْ قُسِّمَ عَلىٰ جَميعِ ضُعَفاءِ الدُّنْيا لَصارُوا بِهِ أَقْوِياءَ، وَمِنَ الشُّجاعَةِ ما لَوْ قُسِّمَ عَلىٰ جَميعِ جُبَناءِ الدُّنْيا لَصارُوا بِهِ شَجْعاناً.[١]

عندما سمع الأعداء هذا الجواب تملكهم اليأس وأطرقوا برؤوسهم خارجين من المنزل.

فلو كان لدى الإمام علي عليه السلام ذرة من الشك والتردد بالنسبة إلى إيمانه بالله والرسول فهل يعقل أن يخاطر بحياته مثل هذه المخاطرة؟

٢ ـ في واقعة أُحد تمكن الأعداء من تحقيق نصر عسكري على المسلمين بسبب غفلة المسلمين وطمعهم في حطام الدنيا ومضافاً إلى ذلك فقد استفاد الأعداء من هذه الغفلة وتحركوا من موقع الحرب النفسية ضد المسلمين حيث صاح أميرهم لما رأى النبي ﷺ جريحاً في ميدان القتال «لقد قُتل محمّد!» ولما سمع المسلمون هذا النداء هرب الكثير منهم من ميدان القتال كما تقول الرواية، ولكنّ الإمام علي عليه السلام الذي كان مؤمناً بانتصار الإسلام وبوعد الله تعالى ولم يتردد لحظة في هذه العقيدة الراسخة لم يلتفت إلى هذا النداء وبقي مستمراً في قتال الأعداء حتّى أصاب جسده الشريف جراح كثيرة ولكنه استمر في القتال والدفاع عن رسول الله ﷺ بحيث أدّت شجاعته وإيمانه وسعيه البالغ في دفع الخطر عن النبي ﷺ إلى إجهاض كيد العدو وأدرك المسلمون أن النبي ﷺ لم يقتل لحد الآن، ولذلك عاد الكثير منهم إلى ميدان القتال، وعلى أيّة حال انتهت الحرب بكلّ ما تضمنته من صعوبات وتحديات واندحر الأعداء وهم مصابون باليأس من الغلبة على الإسلام وتوجهوا إلى مكّة، وهكذا أُصيب الإمام علي عليه السلام في هذه المعركة بما يقارب من ٩٠ جرحاً فأرسل له النبيّ ﷺ طبيبين ليعالجاه ويضمدا جراحه ولكنهم سرعان ما عادوا إلى

---

١. بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٨٣.

رسول‌الله ﷺ وهما يقولان: يا رسول الله إنّ جراح علي ابن أبي طالب إلى درجة من الكثرة والتقارب بحيث أننا كلّما سعينا لمعالجة جرح انفتح علينا جرح آخر.

يقول الشبلنجي العالم المعروف لدى أهل السنّة في كتاب «نور الأبصار»: إنّ عليّ بن أبي طالب بعد واقعة أُحد قال لرسول الله ﷺ: لقد أصابتني في هذه المعركة الشديدة مع المشركين ستة عشر ضربة عميقة بحيث إنني وقعت على الأرض أربع مرّات وفي كلّ مرّة كنت أرى شخصاً نورانياً يساعدني على النهوض من الأرض ويقول: انهض ودافع عن رسول الله، فمن هو يا رسول الله؟[1]

قال النبيّ ﷺ: لتقر عينك يا عليّ هذا جبرئيل أمين الوحي.

نعم إنّ هذة الواقعة يصدقها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

والخلاصة هي أن هذه الحادثة تدلّ على المرتبة العليا لجهاد الإمام علي عليه السلام بماله ونفسه من جهة وكذلك على إيمانه الراسخ ويقينه القوي بالله ورسوله وما وعده الله تعالى من نصر الإسلام على المشركين من جهة أُخرى. إذن فهو مصداق كلمة «الصادقين» في هذه الآية الشريفة.

٣ ـ وفي حرب الأحزاب عندما تقدّم عمرو بن عبدود العامري بطل العرب وعبر الخندق وأخذ ينادي المسلمين ويطلب البراز فلم يستجب له إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وتكرر هذا العمل ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة ينهض الإمام علي عليه السلام من مكانه وهو مستعد لمبارزته.

وهكذا توجه علي بن أبي طالب نحو هذا العدو الغاشم بإيمان راسخ وشجاعة عظيمة فدعى له رسول الله ﷺ بالنصر، ثمّ إن المعركة بين علي وعمرو بن عبدود انتهت بغلبة الإسلام على الكفر، وانتصر الإمام علي عليه السلام على عدوه في هذه المواجهة والمبارزة.

---

١. نور الأبصار: ص ٩٧.

٢. سورة فصّلت: الآية ٣٠.

وبينما كان الإمام علي عليه السلام جالساً على صدر عمرو بن عبدود لحزّ رأسه، بصق عمرو في وجه الإمام علي عليه السلام وشتمه[١] فما كان من الإمام علي عليه السلام إلّا أن نهض وأخذ يتمشّىٰ في ميدان المعركة، وكان المسلمون ينظرون إلى مجريات الحادثة بدقة وتعجب، وبعد دقائق عاد بطل حرب الأحزاب إلى مكانه وقطع رأس عدو الله.

وبعد هذه الحادثة سُئل الإمام علي عليه السلام عن سبب قيامه وانتظاره لحظات قبل أن يقدم على قتل عمرو فقال:

قَدْ كانَ شَتَمَ أُمّي وَتَفَلَ في وَجْهي فَخَشِيتُ أَنْ أَضْرِبَهُ لِحَظِّ نَفسي فَتَرَكْتُهُ حَتّى سَكَنَ ما بي ثُمَّ قَتَلْتُهُ فِي اللهِ.[٢]

وفي هذا يقول الشاعر الشيخ الازري رحمه الله وهو يحكي هذه الواقعة المهمّة:

ظهرت منه في الورى سطوات	ما أتى القوم كلّهم ما أتيها
يوم غصّت بجيش عمرو بن ودّ	لهوات الفلا وضاق فضاها
فدعاهم وهم الوف ولكن	ينظرون الذي يشبّ لظاها
فابتدئ المصطفى يحدث عما	يوجر الصابرون في أخريها
فالتوا عن جوابه كسوامٍ	لا تراها مجيبة من دعاها
فإذا هم بفارس قرشي	ترجف الأرض خيفة أن يطاها
قائلاً ما لها سواي كفيل	هذه ذمة علىّ وفاها
فانتضى مشرفيه فتلقى	ساق عمرو بضربة فبراها
يا لها من ضربة حوت مكرمات	لم يزن ثقل أجرها ثقلاها
هذه من علاه احدى المعالي	وعلى هذه فقس ما سواها

وعلى هذا الأساس فإنّ علائم الايمان الراسخ مشهودة في حياة الإمام علي عليه السلام كلّها، وحينئذٍ نفهم جيّداً بالإستفادة من القرائن وبمعونة الآيات القرآنية الأُخرى أن المراد من «الصادقين» هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

---

١. بحار الأنوار: ج ٢١، ص ٢٦.

٢. بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٥١ (نقلاً من مظهر الولاية: ص ٣٦٥).

الصادقين في الروايات

لو اقتصرنا على رواية الثقلين المهمة وضممناها إلى الآية الشريفة لرأينا أنها تلقي ضوءاً قوياً على مفهوم الآية وتوضح مصداق «الصادقين» وهم الأشخاص الذين ذكرتهم رواية الثقلين بأنهم أهل البيت الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين ينبغي التمسّك بهم دائماً، فيكون التمسّك بهم مانعاً من الضلال، ومضافاً إلى الرواية المذكورة هناك روايات متعددة ناظرة إلى هذه الآية الشريفة، وكمثال على ذلك نورد ما يلي:

١ ـ نقل خمس أشخاص من مشاهير وكبار علماء أهل السنّة وهم: السيوطي[١]، الخوارزمي[٢]، العلّامة الثعلبي[٣]، العلّامة الكنجي[٤]، والحاكم الحسكاني[٥]، وهؤلاء كلّهم يروون عن الصحابي المعروف ابن عبّاس أو جابر بن عبدالله الأنصاري حيث يقول:

«كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، أيْ كُونُوا مَعَ عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ».

ووردت بعض العبارات في هذه الروايات «هو عليّ بن أبي طالب» أو «نزلت في عليّ ابن أبي طالب»[٦] وهي كلّها تؤدي معنىً واحداً.

٢ ـ نقل الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» مضافاً إلى الرواية المذكورة آنفاً رواية أُخرى عن «عبدالله بن عمر» حيث قال:

«مَعَ الصَّادِقِينَ أيْ مَعَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِه».[٧]

والملفت للنظر أن هذه الرواية تذكر سائر أهل البيت المعصومين عليهم السلام في عداد الصادقين.

٣ ـ ويروي سليم بن قيس الذي يقول عنه العلّامة المجلسي في بحار الأنوار أنه شخص ثقة حيث يقول في تفسير كلمة «الصادقين»:

---

١. الدرّ المنثور: ج ٣ ص ٢٩٠.
٢. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٢٩٨.
٣. تفسير الثعلبي نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٢٩٧.
٤. كفاية الطالب: ص ١١١، ونقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٩٧.
٥ و ٦ ـ شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٦٠.
٧. شواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٦٢.

«فقال سلمان: يا رسول الله، أعامة هي أم خاصّة؟ فقال: أما المؤمنون فعامة لأن جماعة المؤمنين أُمروا بذلك، وأما الصادقون فخاصّة لأخي علي والأوصياء من بعده إلى يوم القيامة»[١].

وطبقاً لهذه الرواية فإن «الصادقين» هم الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

٤ ـ ويقول العلّامة الكنجي في كتاب «كفاية الطالب» و«ابن الجوزي» في كتابه «التذكرة»: قال علماء السِير: معناه كونوا مع عليّ وأهل بيته[٢] وهكذا يروي المؤرّخون في معنى «كونوا مع الصادقين» أن المراد بهم هم عليّ وأهل بيته عليهم السلام.

وطبقاً لهذا الحديث فإنّ «الصادقين» هم الأئمّة الاثنا عشر عليهم السلام للشيعة.

توصية آية الصادقين

ومما تقدّم من صفات وخصائص المعصومين عليهم السلام وأنهم المجاهدون، العابدون، الراكعون، الساجدون، القانتون، الصائمون، الزاهدون، العالمون، المتقون، الذاكرون، الخاشعون، وأمثال ذلك فإنّ هذه الصفات تجتمع في مصداق كلمة «الصادقين»، وهذا يعني أن حالة «الصدق» لها دور مهم جداً في مصير الإنسان «وليس المسلم فحسب»، ولهذا السبب فإنّ الآية الشريفة وصفت أئمّة الهدى بهذه الصفات.

ومع الإلتفات إلى أهمية هذا الموضوع نذكر بعض ما ورد عن الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد:

١ ـ «الصِّدْقُ عِمادُ الإسْلامِ وَدَعامَةُ الإيمانِ».[٣]

فلو سقط عمود البناء لانهار البناء تماماً، فلو أن المسلم لم يتّصف ويتحلّى بصفة الصدق فلا معنى لإسلامه وإيمانه.

---

١. أسرار آل محمّد: ص ٢٩٧.

٢. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٢٩٧.

٣. ميزان الحكمة: باب ٢١٩٠، ح ١٠١٨٥.

٢ ـ «الصِّدقُ أقوىٰ دَعَائِمِ الإِيمانِ»[١]

وهذا يعني أن الصدق يقترن مع مفهوم عمود الخيمة بحيث لو زال العمود لحظة لانهدمت الخيمة.

٣ ـ «الصِّدقُ صَلاحُ كُلِّ شَيءٍ وَالْكِذْبُ فَسادُ كُلِّ شَيءٍ»[٢].

وفي الحقيقة فإنّ الصدق لو ساد في المجتمع وكان جميع أفراد المجتمع يتحلّون بهذه الصفة وكان الرجل وزوجته يعيشان حالة الصدق في البيت، وكذلك الموظفون في الإدارات والشركاء في محيط التجارة والحكّام في دائرة الحكومة والسياسة والطلاب والتلاميذ في أجواء المدرسة والجامعة، والخلاصة لو كان جميع أفراد المجتمع يتحركون في تعاملهم وتفاعلهم مع الآخرين من موقع الصدق فإن ذلك بلا شكّ سوف يحلّ الكثير من المشاكل والتحدّيات التي يواجهها المجتمع البشري.

إنّ جميع المشاكل والمصاعب تنبع من عدم الصدق في التعامل وفي الكلام.

وهذا المعنى يصدق أيضاً في البعد العالمي للمجتمع البشري، وعلى سبيل المثال إذا كانت الدول والحكومات التي تدّعي حقوق الإنسان صادقة في الإستفادة من هذا العنوان الجميل لكانت البشرية في عالمنا المعاصر تعيش حالة أفضل بكثير ممّا هي عليه الآن. ولكننا نرىٰ أن هذا الإدعاء قد انحرف عن مسيره فلا نجد معالم الصدق في التعامل بين الدول التي لا تفكر إلّا بمصالحها الذاتية وعلى حساب الظلم والجور والفساد الفاحش، وعلى هذا الأساس فلو أن جاسوساً اسرائيلياً يقدم للمحاكمة في نقطة من العالم فإن صراخ هؤلاء المدّعون لحقوق الإنسان سيعلو ويطغى على كلّ شيء، ولكن إذا تم سحق الشعب الفلسطيني وقتل آلاف الأشخاص من أفراد هذا الشعب المظلوم فلا نجد أي اعتراض من هؤلاء بل مع كثير التعجب والتأسف نجدهم يقدّمون معالم التأييد السياسي والاقتصادي والعسكري إلى الظالم على حساب المظلوم.

---

١. ميزان الحكمة: باب ٢١٩٠، ح ١٠١٨٤.

٢. ميزان الحكمة: باب ٢١٨٩، ح ١٠١٦٦.

وهكذا ندرك جيداً عمق ما تحدّث به أمير المؤمنين: «إنّ الكذب فساد كلّ شيء».

والنتيجة هي أن آية «الصادقين» توحي لجميع المسلمين بل جميع البشرية بأن يكونوا مع الصادقين.

ﮰﮱ

الفصل الثاني

آيات فضائل أهل البيت عليهم السلام

- ✓ آية التطهير
- ✓ آية المودة
- ✓ آية المباهلة
- ✓ آية سورة الدهر
- ✓ آية التوبة لآدم



آية التطهير

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

«سورة الأحزاب / الآية ٣٣»

أبعاد البحث

إن آية التطهير هي آية أُخرى من الآيات التي تتعلّق بـولاية أمـيرالمـؤمنين والأئمّـة المعصومين عليهم السلام. هذه الآية الشريفة والتي ينبغي التدبّر في كلّ كلمة من كلماتها تدلُّ أيضاً على عصمة الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

مقدّمة

إنّ الآيات ٢٨ ـ ٣٤ من سورة الأحزاب كلّها وردت في خطاب نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن بين هذه الآيات الشريفة السبعة وردت آية التطهير بلسـان متفاوت ومضمون مختلف، ومن ذلك تغيير الضمائر في هذه الآية، فإننا نرىٰ في الآيات الشريفة قبلها ورد خمس وعشرين ضمير أو فعل يدلُّ على المؤنث، وبعد آية التطهير أيضاً نجد ضميرين وفعل كذلك يدلُّ على التأنيث ولكنّ جميع الضمائر والأفعال في آية التطهير التي تقع وسط ٢٧ ضميراً وفعلاً مؤنثاً قد وردت بلسان المذكر، أو أن الضمير فيها يعود على المذكر والمؤنث كليهما، والخلاصة أن الضمائر فيها لا تختصّ بالمؤنث.

فهل أن هذا التفاوت هو من باب الإتفاق والصدفة، أو أن له حكمة خاصّة ؟

بلا شكّ أنه لم يقع صدفةً بل له علّة خاصّة لابدّ من أخذها بنظر الإعتبار.

فإذا كان المراد من آية التطهير هو نساء النبي ﷺ فلماذا تبدلّ الخطاب في هذه الآية ولم يرد فيها الضمائر الخاصّة بالمؤنث ؟

لا شكّ أن مضمون الآية ومحتواها وتغيير الضمائر والأفعال يدلُّ على أن المراد منها ليس هو نساء النبي ﷺ، وسيأتي توضيح أكثر لهذا الموضوع في البحوث القادمة.

الشرح والتفسير

آية التطهير، برهان واضح للعصمة

تقدّم أنه ينبغي التدبر في كلّ كلمة من كلمات هذه الآية الشريفة مورد البحث لاستجلاء المراد الحقيقي منها:

١ ـ كلمة «إنّما» تستعمل للحصر في اللغة العربية ويتّضح من هذه الكلمة أن المضمون الوارد في هذه الآية الشريفة لا يتعلق بجميع المسلمين وإلّا لا معنى لاستخدام هذه الكلمة.

«الرجس» الذي تحدّثت عنه هذه الآية لم يرفع من الجميع بل أراد الله رفعه من بعض الأفراد بخصوصهم، مضافاً إلى أن «الرجس» يراد به رجس خاصّ، وقد أراد الله إزالته عن أفراد معينين وتطهيرهم منه.

وبما أن التقوى العادية تستوعب جميع المسلمين والواجب على جميع المسلمين تطهير أنفسهم من الرذائل والذنوب، فإنّ المراد من هذه الآية وما يختصّ بهؤلاء الأفراد المعينين يجب أن يكون أعلى ممّا يراد من الأشخاص العاديين في تقواهم وحركتهم في خط الطاعة والايمان.

٢ ـ ﴿يُرِيدُ اللهُ﴾.

فما هو المراد من إرادة الله ؟ هل هي الإرادة التشريعية أو الإرادة التكوينية ؟

الجواب: للإجابة على هذا السؤال يلزمنا بعض التوضيح حول مفهوم الإرادة التكوينية والتشريعية:

الإرادة التشريعية: هي الإرادة التي تعني أوامر الله تعالى ودستوراته من الواجبات والمحرمات الواردة في الشريعة المقدّسة، والآية ١٨٥ من سورة البقرة هي أحد الآيات التي وردت فيها الإرادة الإلهية بمعناها التشريعي حيث ذكر الله تعالى في هذه الآية الشريفة بعد بيان وجوب صوم شهر رمضان المبارك واستثناء هذا الحكم بالنسبة إلى المسافر والمريض يقول:

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

فالمقصود من الإرادة الإلهية هنا هي الإرادة التشريعية، أي أن أحكام الله تعالى في شهر رمضان سهلة ويسيرة للإنسان المؤمن بل إن جميع أحكام الإسلام هي كذلك، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِالْحَنَفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ».[1]

«الإرادة التكوينية» هي الإرادة التي تستخدم في مقام الخلق والتكوين فقد أراد الله تعالى خلق العالم وخلق سائر الكائنات والمخلوقات.

وكمثال على هذه الإرادة الإلهية ما ورد في الآية ٨٢ من سورة يس حيث يقول تبارك وتعالى في هذه الآية:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فالمقصود من هذه الإرادة في الآية الشريفة هي الإرادة التكوينية، وفي الحقيقة أن قدرة الله تعالى على هذا الكون وسلطته على الكائنات إلى درجة من الشدّة والإستحكام بحيث إنه إذا أراد أن يخلق مثل هذا العالم الذي نعيش فيه فيكفي أن يصدر أمره بذلك، وطبقاً للأقوال العلماء أن الشمس أكبر من الأرض بمليون ومائتين ألف مرّة ويحتوي على مائة مليارد نجم في المنظومة الشمسية في مجرتنا لوحدها وحجم كلٌ واحد منها بحجم الشمس بالمقدار المتوسط، فلو أراد الله أن يخلق مثل هذا العالم لكفى أن يأمر ويقول: كن فيكون «اَلْعَظَمَةُ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

---

١. بحار الأنوار: ج ٦٥، ص ٣٤٦.

وبعد أن تعرّفنا على هذين المعنيين للإرادة الإلهية نتساءل: هل أن المراد بالإرادة الإلهية في آية التطهير هي الإرادة التشريعية أو التكوينية؟ أي أن الله تعالى هل أراد من أهل البيت أن يعيشوا الطهارة والابتعاد عن الرجس والرذائل، أو أن الله تعالى هو الذي سيقوم بتطهير هؤلاء الأشخاص من الرجس والرذيلة؟

الجواب: بلا شكّ أن المراد هنا الإرادة التكوينية، لأن الأمر بالطهارة والتقوى لا يختص بأهل البيت بل هو دستور عام وتشريع شامل لجميع المسلمين، في حين أننا قرأنا سابقاً أن مقتضى كلمة «إنّما» هو الحصر بدائرة معيّنة، وهم أهل البيت عليهم السلام ولا يشمل جميع المسلمين.

والنتيجة هي أن الله تعالى بإرادته التكوينية أراد أن يسجّل فضيلة وموهبة أُخرى لأهل البيت عليهم السلام ويمنحهم «العصمة» في واقعهم الروحي وملكاتهم الأخلاقية بحيث يبتعدون عن كلّ رجس ورذيلة ويعيشون الطهارة من الذنوب والخطايا.

سؤال: هل أن العصمة في هؤلاء المعصومين تتمتع بحالة من الجبر؟

وبعبارة أُخرى: هل أن هؤلاء العظماء يجتنبون المعاصي والذنوب من دون اختيار منهم؟ فلو كان كذلك فإنّ العصمة لا تعني شيئاً في دائرة الإمتياز الأخلاقي والإيماني.

الجواب: إنّ الشيء إذا كان محالاً في دائرة أعمال الإنسان فهو على قسمين: ١ ـ المحال العقلي، ٢ ـ المحال العادي.

«المحال العقلي» هو أن يكون وقوع الشيء محالاً كأن تكون هذه اللحظة من الزمان ليلاً ونهاراً في آن واحد، فهذا عقلاً محال، أو تقرأ كتاباً عدد صفحاته ٤٠٠ و ٥٠٠ صفحة في نفس الوقت، فهذا من المحال عقلاً لأنه جمع بين النقيضين والجمع بين النقيضين محال عقلاً[1].

ولكن تارة يكون وقوع العمل ممكن عقلاً ولكنه عادة ممتنع، ومثاله أن كلّ إنسان عاقل لا يظهر في الشارع وأمام الناس عارياً، فهذه المسألة ممكنة عقلاً ولكنها محالٌ عادةً، وعليه

١. للتعرف أكثر على هذا الإصطلاح المنطقي يراجع كتاب «التعرف على العلوم الإسلامية، المنطق والفلسفة» للشهيد العلّامة المطهري: ص ٦٥ فما بعد.

فالناس بالنسبة إلى هذه الحالة معصومين لأن عقلهم لا يبيح لهم ارتكاب مثل هذا العمل الذي قبحه واضح وجلي، إذن فجميع أفراد البشر يمكن أن تكون لهم عصمة جزئية بالنسبة إلى بعض الذنوب والأفعال.

ولو تقدّمنا خطوة إلى الامام رأينا أن بعض الناس قد تكون لهم عصمة جزئية بالنسبة إلى بعض الأفعال التي هي محال عادةً، من قبيل أن من المحال أن يقوم رجل دين معروف في اليوم الواحد والعشرين من شهر رمضان المبارك وفي محراب المسجد وهو جالس على سجادة الصلاة بشرب الخمر أمام الناس، فهذا من المحال، ولكنه ليس من المحال العقلي بل إن صدوره من مثل هذا الشخص محال عادةً لأن عقله لا يسمح له بارتكاب مثل هذا العمل في هذا المكان وهذه الموقعيّة.

وأمّا المعصومون عليهم السلام فيتمتعون بمقام العصمة في مقابل جميع الذنوب والخطايا، أي أنه رغم كونهم من الناحية العقلية يمكن صدور الذنب والمعصية منهم، ولكنّه غير ممكن عادةً لأن عقلهم وتقواهم ومعرفتهم بالنسبة إلى جميع الذنوب والمعاصي كعلم الشخص العادي بالنسبة إلى الخروج عارياً إلى الشارع. فكما أن الإنسان العادي معصوم من مثل هذا الذنب، فالأئمة المعصومون عليهم السلام أيضاً يتمتعون بمقام العصمة في مقابل جميع الذنوب، فمن المحال عادةً أن يقوموا بارتكاب المعصية حتّى لو كان صدورها منهم ممكن عقلاً.

إذن فالعصمة هنا ليست أمراً جبرياً وليست بحيث تكون خارجة عن اختيار المعصومين عليهم السلام وإلّا فلا قيمة لمثل هذه الأعمال.

والنتيجة هي أن الإرادة الإلهية في هذه الآية الشريفة هي إرادة تكوينية، والعصمة هنا لا تسلب الإختيار والإرادة من الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا تجبرهم على ترك المعصية والذنوب بل إنّ هؤلاء الرجال لا يتوجهون نحو الذنوب بكمال حريتهم واختيارهم.

٣ ـ المراد من «الرّجس»

الرجس بمعنى القبيح، فتارةً يطلق على الأمور المادية القبيحة، وأخرى على الأمور المعنوية القبيحة، وثالثة قد يطلق ويستعمل على كلا الأمرين كما ذكر ذلك الراغب في مفرداته.

ولكلٍّ مورد من هذه الموارد الثلاثة في استعمال كلمة «الرجس» هناك شاهد من القرآن الكريم:

ألف ـ الرجس المعنوي: وهو ما ورد في الآية ١٢٥ من سورة التوبة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

فإنّ عبارة «في قلوبهم مرض» تطلق غالباً على المنافقين ومن كانوا يعيشون المرض القلبي حقيقةً في نفاقهم، وإلّا فإنّ الإنسان السليم إمّا أن يقبل الأوامر الإلهية ويكون مسلماً أو يردّها ويكون كافراً، ولكن أن يقبلها في الظاهر وفي عالم العمل والممارسة ولكنه لا يعتقد بها في قلبه، فهذا هو النفاق وهو نوع من المرض القلبي.

وعلى أيّة حال فإنّ كلمة «الرجس» في هذه الآية الشريفة وردت بمعنى القبح المعنوي فإنّ النفاق نوع من القبح المعنوي لا القبح المادي الظاهري.

ب ـ الرجس الظاهري والمادي: وهو ما ورد في الآية ١٤٥ من سورة الأنعام:

﴿قُلْ لَآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّآ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ...﴾.

ومن الواضح أن الرجس استخدم في هذه الآية الشريفة بمعنى القبح المادي والظاهري.

ج ـ الرجس المعنوي والمادي: ونقرأ في الآية ٩٠ من سورة المائدة أن «الرجس» استخدم بكلا المعنيين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وهنا نجد أن «الرجس» في هذه الآية الشريفة استخدم في كلا المعنيين المادي والمعنوي لأن الخمر له حكم النجاسة المادية، ولكن القمار والأزلام ليست كذلك بل هي من الرجس المعنوي.

والنتيجة هي أن كلمة «الرجس» في الآيات الشريفة لها معنىً عام وتشمل جميع القبائح الظاهرية والمعنوية والأخلاقية والعقائدية والجسمية والروحية، وعليه فإنّ الله تعالى في آية التطهير وبإرادته التكوينية قد طهّر أهل البيت عليهم السلام من جميع أنواع الرجس بمعناه الواسع.

والدليل على أن الرجس استخدم في هذه الآية الشريفة في جميع أنواع الرجس المادي والمعنوي هو إطلاق هذه الكلمة، أي أن هذه الكلمة لم ترد بالآية الشريفة مقيّدة بقيد أو مشروطة بشرط بل وردت بصورة مطلقة وبدون قيد أو شرط، فلذلك تستوعب في مضمونها جميع أنواع الرجس.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هذه الجملة في الواقع تأكيد وتفسير للجملة السابقة ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فطبقاً لهذه الآية فإن «أهل البيت» طاهرون من الرجس وكلّ عمل قبيح بالإرادة الإلهية التكوينية، فهم يتمتعون بمقام العصمة المطلقة.

من هم أهل البيت؟

يستفاد من الآية الشريفة محل البحث أن «أهل البيت» يتمتعون بخصوصية تميّزهم عن سائر المسلمين وهي مقام الطهارة والعصمة المطلقة. ولكن هنا يثار هذا السؤال وهو: من هم أهل البيت؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال هناك نظريات مختلفة في تفسير كلمة «أهل البيت» حيث نكتفي هنا بذكر أربعة منها:

١ ـ ما ذكره بعض المفسّرين من أهل السنّة من أن المراد من أهل البيت هنا زوجات النبيّ الأكرم ﷺ[1] وطبقاً لهذا التفسير لا يكون الإمام عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من أهل البيت، وبعبارة أخرى أن أهل البيت هم الذين يرتبطون بالنبيّ الأكرم ﷺ برابطة سببية لا نسبية.

ودليلهم على هذه النظرية هي أن آية التطهير وردت ضمن آيات قرآنية تتعلق بنساء النبيّ ﷺ فهناك آيات قبلها وبعدها تتحدّث عن نساء النبيّ ﷺ، وسياق الآية يقتضي أن هذه الآية الشريفة أيضاً متعلّقة بنساء النبيّ ﷺ.

ولكن هذه النظرية باطلة لدليلين:

الأوّل: أنه كما تقدّم سابقاً من أن الآيات الخمسة قبل آية التطهير وكذلك صدر الآية

---

١. القرطبي ـ تفسير الفرقان: ج ٦، ص ٥٢٦٤، وقد نقل هذه النظرية عن «الزجاج».

٣٢ من سورة الأحزاب التي وقعت آية التطهير في ذيلها تتضمن ٢٥ ضمير وفعل وردت بصياغة المؤنث وفي الآية التي تليها «الآية ٣٣» هناك فعل وضمير يختص بالمؤنث أيضاً، ولكن ضمائر وأفعال آية التطهير كلّها تعود إلى المذكر أو تشمل المذكر والمؤنث وعليه لا تكون شاملة لبعض نساء النبي لوحدهنّ قطعاً.

وعلى هذا الأساس ونظراً إلى أن القرآن هو كلام الله تعالى وقد ورد بأبلغ بيان وأفصح عبارة، ولذلك لابدّ أن يكون هناك سبب في تغيير الضمائر والأفعال حيث يكون المراد من أهل البيت هم أفراد غير نساء النبي بحيث إن الله تعالى غيّر من سياق الآية وجعلها متميّزة عن بقية الآيات الشريفة.

فطبقاً لهذا البيان يكون المراد من أهل البيت ليس نساء النبي قطعاً بل المقصود أشخاص آخرون لابدّ من البحث عنهم من خلال الأدلّة والبراهين.

الثاني: هو أنه بالإلتفات إلى ما تقدّم من شرح وتفسير آية التطهير فإنّ أهل البيت يتمتعون بمقام العصمة المطلقة، ولا نجد من العلماء والمفسّرين من الشيعة والسنّة يقولون بعصمة نساء النبي، فإن نساء النبي رغم أنهنّ نساء مؤمنات ولكن لا يمكن ادعاء العصمة لهنّ بل يمكن ادعاء أن البعض قد ارتكبن ذنوب كبيرة ثبتت بالأدلة القاطعة وكنموذج على ذلك:

كان عليّ بن أبي طالب ﷺ الخليفة الوحيد الذي كان يتمتع من جهة بالتنصيب من قبل الله تعالى، ومن جهة أُخرى تمت خلافته بانتخاب المسلمين وكان هذا الانتخاب يختلف عن الإنتخابات السابقة للخلفاء، لأن الخليفة الأوّل لم ينتخبه سوى عدّة قليلة في سقيفة بني ساعدة ثمّ أجبروا الناس على بيعته لاحقاً، وأما الخليفة الثاني فتم نصبه من قبل الخليفة الأوّل، والخليفة الثالث تولّى سدة الخلافة بثلاث آراء من الشورى الذين نصبهم الخليفة السابق، ولكن الإمام علي ﷺ واجه في مسألة بيعته للخلافة رغبة جميع الناس وازدحامهم وإصرارهم على البيعة رغم أن ذلك كان على خلاف ميله ورغبته حتّى أنه قال:

«حتّى لقد وُطيء الحسنان».[1]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣ (الخطبة الشقشقية).

ولكن بالرغم من ذلك فإننا نرى أن إحدى نساء النبيّ رفعت لواء المعارضة والمخالفة لهذا الخليفة ووصي النبي ﷺ بالحقّ ونقضت بيعته وتحركت على خلاف وصية النبي لنساءه بأن لا يخرجن من بيوتهن، فتحركت وخرجت من المدينة وركبت الجمل متوجهة إلى البصرة، وعندما وصلت إلى منطقة الحوأب وسمعت صوت الكلاب تذكرت قول النبي ﷺ لها وقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون! ردّوني ردّوني، هذا الماء الذي قال لي رسول الله: لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب».[1]

عندما سمعت باسم هذه المنطقة وقيل لها أنها تدعى «الحوأب» عزمت على الرجوع ولكن الأشخاص المتصدين لتثوير الناس للحرب منعوها من ذلك بشتّى الحيل واستمرت في مسيرها.

فهل أن مثل هذه المرأة التي خالفت كلام رسول الله ﷺ ورفعت لواء المعارضة والحرب على خليفته بالحقّ وسببت في سفك دماء أكثر من ١٧ ألف نفر من المسلمين هل أنها معصومة وطاهرة من الرجس والمعصية؟

والملفت للنظر أن هذه المرأة هي قد اعترفت بخطأها بنفسها، وفي مقام الجواب على من سألها عن سبب إقامتها هذه الحرب الضروس وأنه من المسؤول عن كلّ هذه الدماء؟ أظهرت الأسف وقالت انه من التقدير الالهي وتمنت أن هذه الواقعة لم تكن قد وقعت.

وعلى الرغم من أنها اعترفت بخطأها بحيث لا يمكن قبول أيّ توجيه وتبرير لذلك فإنّ بعض العلماء المتعصبين من أهل السنّة ذهبوا إلى أن ذلك نوع من الإجتهاد وأن عائشة لم تكن على خطأ في ذلك.

فهل يصحّ هذا الكلام والإدعاء؟ هل أن الإجتهاد في مقابل خليفة النبيّ بالحقّ والذي تقول عنه عائشة «انه أفضل الناس وكلُّ من أبغضه كافر» اجتهاد صحيح؟ فإذا فتحنا هذه الذريعة وقبلنا بهذا التبرير في هذا المورد فلا يبقَ أيُّ مذنب على وجه الأرض، لأن كلّ خطأ له تبرير واجتهاد ويمكن للإنسان أن يحمل معصيته على سبيل الإجتهاد والإستنباط.

---

١. تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٨١.

والنتيجة هي أن حرب الجمل لم يكن لها أيُّ تبرير منطقي، ولا شكّ في أنّ الأشخاص الذين تولّوا إشعال هذه الحرب من المذنبين والخاطئين ولا يمكن القول أنهم مطهرون من الرجس والذنب.

٢ ـ النظرية الثانية أن المراد من أهل البيت هنا الرسول الأكرم والإمام عليّ والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ونساء النبي[١].

وطبقاً لهذه النظرية فإنّ أحد الإشكالات الثلاثة المتقدمة على النظرية الأُولى (الإشكال الأوّل) سينتهي، وبما أن مجموعة النساء والرجال في مقام الخطاب فانه يستعمل في حقّهم ضمير المذكّر وصحّ مجيُ هذه الآية بضمير المذكر، ولكن يبقى الإشكالين الآخرين (حيث تقدّم بيانهما في الردّ على النظرية الأُولى) وعليه فإنّ هذه النظرية غير قابلة للقبول.

٣ ـ وذهب بعض آخر من المفسّرين إلى أن المراد من «أهل البيت» هم القاطنون في مكّة المكرّمة، وقالوا إنّ المراد من «أهل البيت» هنا هو بيت الله الحرام والكعبة المعظمة، وعليه فإنّ «أهل البيت» في هذه الآية هم أهالي مكّة.

وبطلان هذه النظرية واضح أيضاً حيث يرد عليها الإشكالين السابقين في النظرية الأُولى، مضافاً إلى أن أهالي مكّة لا يمتازون عن أهالي المدينة حتّى يقال بأن الله تعالى أذهب عنهم الرجس وطهّرهم من الذنب.

٤ ـ وهي نظرية جميع علماء الشيعة والتي لا يرد عليها أي من واحد من الإشكالات السابقة وهي أن المراد من «أهل البيت» في هذه الآية هم أشخاص معينون من أهل البيت، أي الإمام عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وعلى رأسهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والشاهد على صحّة هذه النظرية انه لا يرد أيّ من الإشكالات الثلاثة المذكورة في النظرية الأُولى، مضافاً إلى الروايات الكثيرة الدالّة على صحّة هذه النظرية الرابعة حيث يقول العلّامة الطباطبائي في «الميزان» بأن عدد هذه الروايات يبلغ أكثر من سبعين رواية[٢]،

---

١. التفسير الكبير: ج ٢٥، ص ٢٠٩.

٢. الميزان مترجم: ج ٣٢، ص ١٧٨.

والملفت للنظر أن أكثر هذه الروايات مذكورة في مصادر أهل السنّة المعتبرة ومنها:

١ ـ صحيح مسلم[١] الذي هو من أهم الكتب الحديثية المعتبرة لديهم.

٢ ـ صحيح الترمذي[٢] وهو أحد الصحاح الستة لدى أهل السنّة.

٣ ـ المستدرك على الصحيحين[٣].

٤ ـ السنن الكبرى للبيهقي[٤] هذا الكتاب رغم أنه يحوي غالباً الروايات الفقهية إلّا أنه يتضمن روايات غير فقهية.

٥ ـ الدرّ المنثور للسيوطي.[٥]

٦ ـ شواهد التنزيل[٦] للحاكم الحسكاني النيشابوري.

٧ ـ مسند أحمد[٧].

وعلى هذا الأساس فإن الروايات التي تفسر «أهل البيت» بالخمسة من آل الكساء هي من جهة أكثر عدداً، ومن جهة أخرى مذكورة في الكتب المعتبرة جداً لدى أهل السنّة.

الفخر الرازي يتحدّث عن هذه الروايات ومقدارها وميزان اعتبارها ويعترف بهذه الحقيقة ويقول في ذيل تفسير آية المباهلة «الآية ٦١ من آل عمران»:

واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث[٨].

والنتيجة هي أن الروايات التي تفسر «أهل البيت» بهؤلاء الخمسة لا تقبل النقاش من حيث المقدار والإعتبار، ونكتفي هنا بذكر رواية واحدة من مجموع هذه الروايات، وهي رواية الكساء.

---

١. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٨٣، ح ٢٤٢٤ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ١٤٣).

٢. احقاق الحقّ: ج ٢، ص ٥٠٣.

٣. المستدرك على الصحيحين: ج ٢، ص ٤١٦ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٢ ص ٥٠٤).

٤. السنن الكبرى: ج ٢ ص ١٤٩.

٥. الدرّ المنثور: ج ٥، ص ١٩٨.

٦. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ١٠ ـ ٩٢.

٧. مسند أحمد: ج ١، ص ٣٣٠، وج ٤، ص ١٠٧ وج ٦، ص ٢٩٢ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ١٤٤).

٨. تفسير الفخر الرازي: ج ٨، ص ٨٠.

هذه الرواية ذكرت في المصادر الحديثية على نحوين:

١ ـ بالتفصيل ٢ ـ باختصار.

أما حديث الكساء المفصّل والذي يُقرأ عادةً لشفاء المرضىٰ وحل المشكلات فليس بحديث متواتر، ولكن حديث الكساء المختصر متواتر في مضمونه حيث تقول الرواية:

«عن أمّ سلمة (زوجة النبي) أن النبي كان في بيتها وجاءته فاطمة بالطعام، فقال لها: ادع لي بعلك وابنيك. فجاؤوا فتناولوا الطعام ثمّ نشر ﷺ عليهم الكساء وقال:

اَللّهُمَّ إنَّ هؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتي وَخاصَّتي اَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ. فَنَزَلَ جِبْرَئيلُ ﴿إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال: إنكِ على خير»[١].

وفي حديث آخر نقلت هذه الواقعة عن عائشة أيضاً[٢].

والنتيجة أن أهل البيت طبقاً لهذه الروايات هم الخمسة من أهل الكساء.

سؤال: ما هي الحكمة من هذا العمل؟ ولماذا أقدم الرسول الأكرم ﷺ على ضمّ أهل بيته تحت الكساء وأن يقول هذه العبارة الجميلة؟ ولماذا لم يأذن لأمّ سلمة وعائشة أن يدخلا تحت الكساء؟

الجواب: إنّ هدف النبي الأكرم ﷺ من كلّ هذه التشريفات والدقائق المحفوفة بهذه الواقعة هو أنه أراد أن يميّز أهل البيت ويعرّفهم للناس بحيث لا يبقى معه أيُّ غموض أو إبهام وحتّى لا يقول الأشخاص الذين يأتون بعد ذلك الزمان أن المراد من «أهل البيت» هم أشخاص آخرين.

ولهذا السبب فإنّ الرسول الأكرم ﷺ لم يكتفِ بهذه التشريفات أيضاً بل طبقاً للرواية المذكورة في مصادر مختلفة منها «شواهد التنزيل» نقلاً عن أنس بن مالك الخادم الخاص لرسول الله تقول: أن رسول الله بعد هذه الحادثة كان يأتي كلّ يوم قبل أذان الصبح وقبل إقامة صلاة الجماعة إلى بيت عليّ وفاطمة ويقف أمام البيت ويكرر هذه العبارة:

---

١. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٤ و ٣١.

٢. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٧ و ٣٨.

«اَلصَّلاةَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وهذا العمل استمر إلى ستة أشهر بلا انقطاع[1].

هذه الرواية أعلاه نقلت أيضاً عن أبي سعيد الخدري حيث يقول أيضاً:

«إنّ النبي الأكرم كان يعمل هذا العمل لمدّة ثمانية أشهر»[2].

ولعلّ النبي الأكرم ﷺ قد استمر على هذا العمل أكثر من هذه المدّة ولكن أنس ابن مالك اقتصر على ستة أشهر وأبو سعيد الخدري اقتصر على ثمانية أشهر[3].

وعليه فإنّ هدف النبي في فصل أهل البيت عن نسائه وتعيين المصداق الكامل والواضح لكلمة «أهل البيت» هو بيان هذه الحقيقة للمسلمين بشكل واضح وجلي بحيث لا نجد مورداً آخر قام النبي ﷺ بتكرار عمل معيّن إلى هذه الدرجة. فهل أن كلّ هذه التأكيدات والتوصيات والتوضيحات لا تكفي للقول بأن أهل البيت هم هؤلاء الخمسة؟ وهل من الصحيح أن نفسّر هذه الآية بتفسيرات بعيدة عن أجواءها؟

لماذا يذهب البعض في مثل هذه القضية الواضحة كالشمس في رابعة النهار إلى مذاهب متفرقة ويوقعوا أنفسهم والآخرين في مزالق الضلالة والإنحراف؟

الجواب على هذا السؤال واضح أيضاً، وهو أن التفسير بالرأي والمسبوقات الفكرية لهؤلاء تشكل حجاباً سميكاً على بصيرتهم فلا يدركوا معه ما يخالف نظراتهم المسبقة حتّى وإن كانت كوضح الصبح أو لا يريدون أن يتقبلوا بالحقيقة.

ربّنا! نسألك أن تأخذ بأيدينا في طريق الهداية والحقّ دائماً ولا تحرمنا من أنوار هدايتك لحظة واحدة.

إلهنا! جنبنا من الوقوع في التفسير بالرأي وخاصة بالنسبة إلى القرآن الكريم والمعارف الدينية وإعنا بالبرهان القاطع على الوصول إلى الحقّ والحقيقة.

---

١. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥.

٢. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٨.

٣. وقد نقل عن أبي سعيد الخدري أن المدّة كانت ٩ أشهر (انظر: شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٩).

الجواب على الأسئلة

قد تثار بعض الأسئلة وعلامات الإستفهام حول آية التطهير، حيث نستعرض هنا نماذج من هذه الأسئلة ونجيب عليها:

السؤال الأوّل: إنّ أكثر ما تدلُّ عليه آية التطهير هو عصمة أهل البيت، أي الإمام علي، وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وعلى رأسهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكن الآية محل البحث لا ترتبط بمسألة الإمامة والولاية.

وبعبارة أُخرى: إننا نبحث هنا عن الآيات الشريفة التي تدلُّ على ولاية وإمامة أميرالمؤمنين عليه السلام، والآية المذكورة لا تدلُّ على هذا الأمر بل غاية ما تدلُّ عليه هو عصمة أهل البيت، فلماذا نستدلّ بهذه الآية الشريفة على الإمامة؟

الجواب: لو ثبت مقام العصمة لأهل البيت عليهم السلام فإنّ الإمامة سوف تثبت لهم أيضاً، لأنه كما تقدّم أن الطاعة للإمام هي مطلقة وغير مقيّدة بقيد أو شرط، ولا يمكن تحقق هذا المعنى من الطاعة إلّا لمن كان يتحلّى بمقام العصمة، أي أن الإمام يجب أن يكون معصوماً، ومن جهة أُخرى فلو تقرر أن يكون الإمام منتخباً من الناس أو منصوباً من قبل غيره فإنّه مع وجود المعصوم لا ينبغي التمسّك بإطاعة غير المعصوم.

يقول تبارك وتعالى في الآية ١٢٤ من سورة البقرة في حديثه عن النبي إبراهيم عليه السلام عندما نصبه الله تعالى إماماً للناس بعد أن نجح في الإبتلاءات والإمتحانات الصعبة وبعد أن كان يتحلّى بمقام النبوّة وكان من أُولي العزم وخليلاً للرحمن، فإنّ إبراهيم بعد أن نال مقام الإمامة طلب من الله تعالى استمرار الإمامة في ذرّيته ﴿ومن ذرّيتي﴾ فأجابه الله تعالى: ﴿لايَنالُ عَهْدي الظّالِمين﴾.

ومن هنا نعلم أن العصمة جزءٌ لا يتجزأ من الإمامة، والأشخاص الذين تلوثوا بالظلم لا يصلحون لهذا المقام الشريف حتّى لو كانوا قد انحرفوا وتلوثوا بالمعصية في أزمنة سابقة.

السؤال الثاني: سلمنا أن الإمام يجب أن يكون معصوماً، ولكن هل يعني هذا أن كلّ معصوم إمام؟ ألم تكن فاطمة الزهراء عليها السلام معصومة، إذن فلماذا لم تكن إماماً؟

الجواب: إنّ العصمة بالنسبة إلى النساء لا تستلزم مقام الإمامة، ولكنها بالنسبة إلى

الرجال هناك ملازمة بينهما، ولهذا لا نجد معصوماً بين رجال العالم غير النبيّ والأئمّة الطاهرين ﷺ.

السؤال الثالث: تقدّم في الأبحاث السابقة أنّ اختلاف الضمائر في آية التطهير مع الضمائر قبلها وبعدها والتي تتحدّث فيها الآية الشريفة عن نساء النبي ﷺ هو السبب في أن يكون المخاطب في آية التطهير غير نساء النبي، في حين أننا نجد مثيلاً لهذا الإختلاف في الضمائر في قصة البشارة لإبراهيم ﷺ بالولد في شيخوخته، لأنّ المخاطب في الآية الشريفة هو زوجة النبيّ إبراهيم ﷺ في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.[1]

فطبقاً لهذه الآية أنّ المخاطب بضمير «عليكم» هو زوجة النبيّ إبراهيم.

الجواب: إنّ المخاطب في جملة «أتعجبين» هو زوجة إبراهيم فقط، ولهذا ورد الفعل بصورة المفرد للمخاطب المؤنث، ولكنّ المخاطب بكلمة «عليكم» هو جميع أفراد أسرة النبيّ إبراهيم من الزوج والزوجة، في حين أن المخاطب في آية التطهير وطبقاً للأدلّة السابقة لا يمكن أن يكون نساء النبي لا بالإستقلال ولا بالإنضمام إلى الخمسة أصحاب الكساء.

السؤال الرابع: إذا كان المخاطب في آية التطهير هو الخمسة من أصحاب الكساء فقط، إذن فلماذا وردت آية التطهير ضمن الآية التي تتحدّث عن نساء النبي؟

الجواب: إنّ آيات القرآن الكريم كما ذكر العلّامة الطباطبائي[2] وآخرون لم تنزل في وقت واحد، بل كانت الجمل المذكورة تنزل أحياناً في آية واحدة على فترات متباعدة، حيث إنّ آيات القرآن نزلت بحسب الحاجة والحوادث الواقعة، وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن تكون الآية التي تتحدّث عن نساء النبي ﷺ قد نزلت في فترة معيّنة ثمّ نزلت بعد ذلك آية التطهير وبعد طلب النبيّ الكريم المبني على طهارة أهل البيت، وبعد ذلك نزلت آيات أُخرى تتعلق بظروف خاصّة وحوادث معيّنة أُخرى، وعليه فلا يلزم من ذلك أن يكون هناك ارتباط وثيق بين آيات القرآن الكريم أجمع.

---

١. سورة هود: الآية ٧٣.

٢. الميزان، ذيل الآية أعلاه.

النتيجة: إن آية التطهير تدلُّ من جهة على عصمة الخمسة من أصحاب الكساء عليهم السلام، وتدلُّ أيضاً على ولاية وإمامة أميرالمؤمنين عليه السلام من جهة أُخرى.

٭٭٭



آية المودة

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ «سورة الشورى / الآية ٢٣»

أبعاد البحث

عندما نستعرض آراء ونظرات علماء أهل السنّة ومفسّريهم حول هذه الآية نجد أنهم قد تورطوا في ظاهرة التفسير بالرأي نتيجة المسبوقات الفكرية والذهنية لديهم، ولهذا نرى أن تفسيرهم لهذه الآية الشريفة عجيب وغريب جداً حيث سنتطرق إليه لاحقاً. وأما علماء الشيعة فنجد لديهم تفسيراً واضحاً وجليّاً لهذه الآية الشريفة من خلال الإستيحاء من تعاليم أهل البيت عليهم السلام.

نظرة إلى الآيات السابقة

ونرى من اللازم لأجل توضيح المطلب في تفسير آية المودّة أن يكون لدينا بحث إجمالي حول الآية السابقة، أي الآية ٢٢ من سورة الشورى، وكذلك صدر آية المودّة الذي لم نذكره آنفاً.

تقول الآية : ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة عاقبة الظالمين تتطرق هذه الآية لذكر مستقبل

المسلمين الذين يتحركون من موقع الإيمان والعمل الصالح ولا يـقتنعون بمجرد الشهـادة بالتوحيد ونبوّة النبي الأكرم بل يتحركون على مستوى الممارسة والعمل للإتيان بالخيرات والأعمال الصالحة، وفي هذه الآية الشريفة وضمن بيان العاقبة الحسنة للمؤمنين هـؤلاء تقرر ثلاثة أنواع مهمة من الثواب الأُخروي المعدّ لهم:

١ ـ «فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» فأوّل ثواب يحصل عليه هؤلاء المؤمنين في الآخرة هـو دخولهم إلى الجنّة.

سؤال: أين تقع «روضات الجنّات»؟

الجواب: عندما نستقرئ الآيات القرآنية فإننا لا نجد هذه العبارة سوى في آية ٢٢ من سورة الشورىٰ، والعرب يطلقون على الحدائق الطرية والبساتين النضرة كلمة «روضة» وجمعها «روضات».

وبالطبع أحياناً تطلق هذه الكلمة على محل اجتماع الماء، ولكن المراد بكلمة «روضة» في هذه الآية هو المعنى الأوّل، إذن فروضات الجنّات تعني بساتين الجنّة اليانعة.

سؤال: نظراً إلى أن جميع أماكن الجنّة ومناطقها على شكل بساتين وحدائـق نـضرة ويانعة، فما معنى عبارة «في روضات الجنّات»؟

الجواب: يستفاد من العبارة أعلاه أنه مضافاً إلى دخولهم الجنّة فإنّ بساتين خـاصّة تكون من نصيب هؤلاء المؤمنين.

والنتيجة هي أن أوّل ثواب وامتياز للمؤمنين الذين يعملون الصالحات هو «روضات الجنّات».

٢ ـ «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ» فإنّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات مضافاً إلى الإمتياز الأوّل وسكنهم في روضات الجنّات فإنّهم ينالون هناك كلّ ما يشاءون، وفي الحقيقة أننا لا نجد مسألة يمكن أن تتصور أعلى من هذا المعنى بالنسبة إلى النعم المادية، بحيث إن الإنسان ينال كلّ ما يريده ويطلبه.

٣ ـ «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ويشمل هذا النِعم المادية والمعنوية في الجنّة، فمن حيث النِعم المادية فقد تقدّم أن المؤمنين الذين عملوا الصالحات يعيشون في أحسن الأحوال، ومن الجهة المعنوية

كذلك أيضاً لأنهم يعيشون مقام القرب الإلهي «عند ربّهم» وهو المقام الذي ذكر للشهداء في سورة آل عمران الآية ١٦٩، وأما المراد بعبارة «عند ربّهم»، وما هي البركات المترتبة على هذا المقام؟ فغير معلوم لنا.

«ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» فبما أن هؤلاء المؤمنين يعيشون في أفضل الحالات المادية والمعنوية في روضات الجنّات فلذلك عبّر الله تعالى عن هذا المقام بأنه «فضل كبير»، وعندما يطلق الله تعالى هذه الكلمة على نعمة وموهبة من المواهب الإلهية يتبيّن من ذلك عظمة هذه النعمة والموهبة بحيث تفوق حدّ التصور.

والنتيجة: أن معيار العبودية لله تعالى أمران: الايمان والعمل الصالح، وعليه فإنّ الأُمور الأُخرى من قبيل العلم والثروة والقدرة والإعتبار الإجتماعي وأمثال ذلك لا تكون ذات قيمة إلّا إذا قيست بهذا المعيار وتحرّك الإنسان معها في خطّ الايمان والعمل الصالح.

﴿ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ففي هذه الآية الشريفة تكرر القول بأن الأُمور المذكورة سابقاً «روضات الجنّات»، «لهم ما يشاؤون» و«عند ربّهم» هي مواهب يبشّر الله تعالى بها المؤمنين من ذوي الأعمال الصالحة لكي تساهم هذه البشارة في رفع ثقل الطاعة وتحمل المسؤولية وتمنح الإنسان قوّة في خط التصدي للأهواء والشهوات.

ومع الإلتفات إلى ما ذكرنا أعلاه حول الآية الشريفة، نبدأ بشرح وتفسير آية المودّة:

الشرح والتفسير

مودّة أهل البيت، أجر الرسالة

﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ لاشكّ أن نبي الإسلام ﷺ تحمّل في طريق إبلاغ الرسالة ونشر الدعوة السماوية، أتعاباً كثيرة ومشقّات باهظة ولكنه بالرغم من ذلك لم يطلب أجراً مقابل هذه الأتعاب والمشقّات، وعندما جاءه بعض المسلمين وقالوا له: إذا كنت تشكو من فاقة ونقص مالي فإننا نضع بين يديك أموالنا بدون قيد أو شرط، فنزلت الآية أعلاه[1]

---

١ . التفسير الأمثل: سورة الشورى، الآية مورد البحث.

وأكدّت على أن النبي لا يريد أجراً في مقابل أداء الرسالة وتبليغ الدعوة.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهنا يستثني القرآن الكريم من الأجر شيئاً واحداً، وهو أن نبي الإسلام لا يطلب من المسلمين شيئاً بعنوان أجر الرسالة إلّا «المودّة» لأقربائه وأرحامه.

والنتيجة هي أن نبي الإسلام لم يطلب شيئاً بعنوان أجر في مقابل أتعابه وزحماته للإسلام والمسلمين سوى أمراً واحداً وهو «مودّة أقربائه وأرحامه».

من هم القربى؟

إنّ جميع الأبحاث التي تدور حول هذه الآية الشريفة تتركز على كلمة «القربى» وتفسيرها، فمن هم القربى في هذه الآية والذين طلب رسول الله من المسلمين مودّتهم ومحبّتهم بعنوان أجر الرسالة؟

بعض العلماء والمفسّرين مرّوا على هذه الآية مرور الكرام ولم يتعبوا أنفسهم في تدبّرها والتأمل فيها، ولعلّ ذلك لأنهم لم يجدوا فيها إنسجاماً مع تصوراتهم القبلية ومسبوقاتهم الفكرية، في حين أن الآية الشريفة عميقة المغزىٰ، ولأجل أن ندرك عظمة هذه الآية بما فيها من معانٍ عميقة علينا أن نستوحي ونستعين لهذا الغرض من الآيات القرآنية الأُخرى التي تتحدّث في هذه المسألة على لسان سائر الأنبياء عليهم السلام.

لو أمعنّا النظر في سورة الشعراء لرأينا أن مسألة أجر الرسالة قد طرحت قبل نبي الإسلام على لسان خمسة من الأنبياء العظام وهم: نوح، هود، صالح، لوط، وشعيب عليهم السلام، ولكن هؤلاء الأنبياء لم يذكروا في استغنائهم عن الأجر مسألة المودّة في القربى، حيث ذكروا جميعاً هذه المسألة بقولهم:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وهنا يثار هذا التساءل: كيف لم يطلب هؤلاء الأنبياء أجراً في مقابل أداء الرسالة ولكن

---

١. سورة الشعراء: الآيات ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠. وقد ورد هذا المضمون في آيات أُخرى من القرآن الكريم على لسان الأنبياء الكرام.

رسول الإسلام طلب الأجر عليها بعنوان «المودّة في القربى»؟

هل أنّ مقام هؤلاء الأنبياء أعلى من مقام نبي الإسلام؟

بلا شكّ أن محمّد المصطفى أفضل من جميع الأنبياء، ولهذا ورد في القرآن الكريم أن كلُّ نبيٍّ من الأنبياء يأتي يوم القيامة شاهداً على أُمّته ولكنّ نبي الإسلام يأتي شاهداً على جميع هؤلاء الشهداء ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلىٰ هؤُلاءِ شَهِيداً﴾[1].

والحقيقة أن هذه المسألة تزداد غموضاً وعمقاً، فكيف يطلب نبي الإسلام الذي هو أفضل الأنبياء الإلهيين أجراً على عمله في حين أن جميع الأنبياء لم يطلبوا أجراً من أقوامهم؟

الحقيقة أن الآية الشريفة تحتاج إلى مزيد من البحث والدقّة والتدبّر، رغم أن البعض قد تهاون في ذلك ومرّ عليها مرور الكرام ليمنع من يقظة الضمير ولئلّا يبتلى بعذاب الوجدان.

سؤال: ما هو غرض النبي الأكرم ﷺ من طلب هذا الأجر؟ هل أنه يهدف من طلبه هذا إرضاء مصالحه الشخصية، أو أنه يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق غايات مقدسة أُخرى يعود نفعها على المسلمين أنفسهم؟

الجواب: وفي مقام الجواب على هذا السؤال نرىٰ من الضروري أن نضع آيتين من القرآن الكريم إلى جانب آية المودّة لكي تفسّر الآيات بعضها بعضاً:

١ ـ نقرأ في الآية الشريفة ٤٧ من سورة سبأ:

﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

هذه الآية الشريفة توضح بعض الإبهام في آية المودّة حيث يتّضح أن نبي الإسلام ﷺ لم يطلب أجراً من قومه كما هو حال سائر الأنبياء، إلّا أن مسألة «المودّة في القربى» في الحقيقة تعود للناس أنفسهم.

٢ ـ ونقرأ في الآية ٥٧ من سورة الفرقان والتي هي في الحقيقة مفسّرة للآية ٤٧ من سورة سبأ حيث تبيّن الفائدة والنفع من «المودّة في القربى»:

﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّه سَبِيلاً﴾.

---

١. سورة النساء: الآية ٤١.

فالآية السابقة بيّنت على أن أجر الرسالة لم يكن بدافع المصلحة الشخصية للنبي ﷺ، بل يعود النفع فيها للناس. وهذه الآية الشريفة تبيّن أن مسألة أجر الرسالة يستوحي مقوّماته من استمرار الأهداف الإلهية من الرسالة. وفي الحقيقة أن النفع يعود إلى أصل الدين.

النتيجة هي أن مسألة «أجر الرسالة» لم يكن يقوم على أساس النفع الشخصي لنبي الإسلام بل كان النبيّ الأكرم ﷺ كسائر الأنبياء في عدم طلبه الأجر الشخصي من الناس، ولكنّ أجر الرسالة المذكور في آية المودّة هو في الحقيقة باعث على استمرار الرسالة ودوام الدين. ومع الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهي أن «مودّة القربى» لها هذا الإعتبار الكبير بحيث تمثّل عاملاً مهماً لاستمرار الرسالة. فهل يصحّ التعامل مع هذه الآية الشريفة من موقع عدم الإهتمام بالتدبّر فيها حذراً من انقلاب الآراء والأفكار المسبقة؟

تفسير «القربىٰ» في نظر الشيعة

يتفق علماء الشيعة على أن المراد من «القربى» في هذه الآية الشريفة هم أهل بيت النبوّة ﷺ، ولاشكّ أن «الولاية» هي استمرار للرسالة وعدل النبوّة. ولهذا فإنّ هذا الأجر «مودّة القربى» ينسجم مع الرسالة. مضافاً إلى أن الولاية تقود الناس في خطّ الإيمان والتقوىٰ والإنفتاح على الله تعالى.

إذا فسّرنا آية المودّة وفقاً لما ذكره علماء الشيعة ومفسّروهم فسوف يتّضح جيداً المعنى الكامل في آية المودّة مضافاً إلى الآيات الأُخرىٰ المتعلقة بها. وسوف يتبين أن الإرتباط فيما بينها هو ارتباط منطقي وصحيح. والملفت للنظر أن دعاء الندبة الذي هو في الحقيقة دورة كاملة من المعارف الإلهية المشحونة بالولاية يذكر في مضامينه الآيات الثلاث المذكورة آنفاً، ويستنتج منها نتيجة مهمة ويتّضح أن الأئمّة هم الطرق والوسائل إلى الله تعالى والذين يقودون الناس إلى رحمة الله ورضوانه.

نظرات أهل السنّة في معنى «القربى»

وقد ذكر أهل السنّة تفاسير مختلفة لهذه المفردة القرآنية لا تنسجم كلّها مع الآية الشريفة، وإليك بعض النماذج منها:

١ ـ قيل إن المراد من «القربى» هو محبة أهل بيت النبي ﷺ ومودتهم ولكن من دون الولاية والإمامة والخلافة، أي الإكتفاء بالإرتباط العاطفي والعلاقة الظاهرية فقط بأهل بيت النبي ﷺ.

ولكن هل يمثل هذا المعنى والمفهوم من المودّة عدلاً للرسالة؟

هل أن المحبة العاطفية فقط وبدون الولاية والإمامة يمكنها أن تكون أجراً للرسالة وبمثابة العدل لها؟

مضافاً إلى ذلك كيف يطلب نبي الإسلام ﷺ أجر الرسالة بالمعنى الذي ذكروه لها، في حين أن جميع الأنبياء السابقين لم يطلبوا من أقوامهم مثل هذا الأجر بل كانوا يطلبون أجرهم من الله تعالى؟ وعليه فإنّ مثل هذا التفسير لا يمكن قبوله.

٢ ـ وذهب آخرون إلى أن المراد من «القربى» هو الأعمال الصالحة التي تقرب الإنسان من الله تعالى، وعليه فإنّ «المودّة في القربى» تعني العشق والشغف بالأعمال الحسنة والرغبة في الصلاة، الصوم، الحجّ، الجهاد، صلة الرحم، احترام الكبار وأمثال ذلك، فهذه الأعمال الصالحة والسلوكيات الحسنة هي التي تمثل أجر الرسالة.

٣ ـ وذهب البعض إلى أن كلمة «في» الواردة في هذه العبارة بمعنى «اللام»، وفي هذه الصورة يكون معنى الآية هو «أن أجر رسالتي وما عملته في تبليغ الرسالة الإلهية لكم هو أن تحبوني لأنني من أرحامكم وأقربائكم» ثمّ ذكروا شجرة النسب للنبي ﷺ وتفاصيل ارتباطه النسبي مع قريش لبيان مقصودهم بحيث تبيّن أن جميع القبائل العربية يرتبطون بشكل أو بآخر مع النبيّ الأكرم ﷺ في النسب.

ولكن هذا التفسير واضح البطلان لأنه:

أوّلاً: إن استعمال «في» بمعنى «اللام» قليل جداً ونادر في لغة العرب وليس هناك دليل وشاهد على أن المراد من العبارة المذكورة هو هذا المعنى.

ثانياً: إن محبة النبي ﷺ لوحدها لا تمثل عدل النبوّة والرسالة ويجب أن يكون أجر الرسالة متناسبة مع الرسالة نفسها.

فهل أن قوله «عليكم أن تحبوني ولا تؤذوني لأنني من أقربائكم» يمثل عدل الرسالة؟

ألا يكون مثل هذا التفسير باعثاً على هبوط المعنى السامي للآية الشريفة؟

٤ ـ والتفسير الآخر الذي هو أوهن من التفسير السابق هو أن يقال: إنّ المراد من الآية الشريفة هو «المودّة في قرباكم وأن أجر رسالة النبي هو أن تحبّوا أقرباءكم وأرحامكم».

الإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة في عدم تصديق وجود مثل هذا التفسير لدىٰ هؤلاء العلماء، ولكنّ مع الأسف نجد البعض يصرّحون بذلك.

إنّ بطلان هذا الرأي هو أوضح من أن يحتاج إلى كلام، فهل أنّ مودّة الأقرباء للإنسان المسلم تمثل عدل للرسالة؟ وهل أن مودّة الأقرباء تعتبر استمراراً للنبوّة؟

أجل، عندما نتعامل مع الآيات الشريفة بسذاجة وسطحية وتحكّم المسبوقات الفكرية عليها فسوف نبتلي بمثل هذه الأخطاء والتفاسير التعسفية.

فهل أن هذا التفسير والتفسير السابق يتناسب وينسجم مع الآية الشريفة، أو أن كلّ إنسان له اطلاع قليل على لغة العرب وبلاغتهم سوف يلتفت إلى عدم انسجام مثل هذه التفاسير مع الآية الشريفة؟ ولهذا السبب فإنّ هؤلاء العلماء أنفسهم اعترفوا أن هذه التفاسير مجازية وغير حقيقية، أو أنها من قبيل الإستثناء المنقطع وهو أيضاً بدوره نوع من المجاز.

لماذا نفسّر الآية القرآنية بشكل يوقعنا في هوة المعاني المجازية وغير الحقيقية؟

لماذا لا نفسر المودّة في القربى بمعنى الولاية والإمامة والذي ينسجم تماماً مع الآية محل البحث وسائر الآيات المتعلّقة بها؟

اعتراف مفروض

ومن عجائب الأيّام أن الكثير من مفسّري أهل السنّة رووا حديثاً مفصّلاً عن النبيّ الأكرم ﷺ في ذيل هذه الآية الشريفة حول محبّة أهل البيت ومودتهم، بحيث إنّ الإنسان

عندما يقرأ هذا الحديث الطويل والجذّاب ويتفكر قليلاً في مضامينه السامية ومعانيه الراقية يتلكه العجب والحيرة من تلكم التفاسير الجوفاء والبعيدة عن روح الآية الشريفة وأجواءها.

وهنا ننقل ما أورده الفخر الرازي في تفسيره من الحديث النبوي حيث يقول:

«نَقَلَ صاحِبُ الكَشّافِ[1] عَنِ النَّبِيِّ الأكرم ﷺ قوله (ثمّ يورد اثني عشر فقرة جذّابة وعميقة المضامين في هذا الحديث الشريف).

١ ـ مَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ شَهيداً.

فهل أن مثل هذه المحبّة هي محبّة عادية وطبيعية وفارغة من الولاية والإمامة؟

إذا كانت كذلك فهل يعقل أن يكون هذا الحبّ في صفوف الشهداء؟

أو أن المراد من هذه المحبّة هي الحالة التي تدفع الإنسان في مدارج الكمال والمعنويات إلى أن يصل إلى مرتبة الشهداء، وهي المحبّة المشروطة بالولاية والإمامة؟

٢ ـ أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ مَغْفُوراً لَهُ.

ما هي هذه المحبّة التي تعمل على تطهير الإنسان من الذنوب والآثام بحيث أنه عندما يحين أجله فإنه سيموت طاهراً من كلّ ذنب وستغفر له جميع الذنوب والمعاصي؟ هل أن مثل هذه المحبّة والمودّة هي محبّة اعتيادية؟

٣ ـ أَلا ومَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ تائِباً.

أي أن هذه المحبّة تقع بديلاً للتوبة، فلو أن الإنسان لم يوفق للتوبة من الذنوب في هذه الدنيا وكان محبّاً لأهل البيت فإنه يموت كما يموت التائب من الذنوب، فما هي حقيقة هذه المحبّة؟

٤ ـ أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ مُؤْمِناً مُسْتَكْمِلَ الإيمانِ

فهل يعقل أن يرتبط الإنسان بأهل البيت ﷺ برابطة اعتيادية وطبيعية ثمّ يفضي ذلك إلى كمال الإيمان؟

من المسلّم وجود مضمون عميق في هذه الكلمات بحيث يؤدي بالإنسان إلى الترقّي

---

١. جاءت هذه الرواية في تفسير الكشّاف: ج ٤، ص ٢٢٠ و ٢٢١.

والسير في خطّ الإيمان والتقوى ليصل بالتالي إلى أعلى مرتبة منه.

٥ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ مُنْكِرٌ وَنَكِيرٌ**

ونتساءل: ما هذه المحبّة والمودّة التي تسبب في أن ينال الإنسان البشارة بالجنّة عند موته؟

٦ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ كَما تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلىٰ بَيْتِ زَوْجِها**

أي سوف يقاد إلى الجنّة باحترام فائق وتقدير كبير، أجل فإنّ إكسير محبّة آل محمّد ﷺ له مثل هذه الآثار والمعطيات العجيبة.

٧ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بابانِ إِلَى الْجَنَّةِ**

سؤال: لماذا يفتح له بابان إلى الجنّة؟

الجواب: لعلّ إحداهما ببركة النبوّة والأُخرى ببركة الولاية والإمامة.

٨ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللهُ قَبْرَهُ مَزارَ مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ**

هل يعقل أن تكون المحبّة العادية سبباً في تحويل قبر المؤمن إلى مزار للملائكة؟

٩ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مات عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَماعَةِ**

في هذه العبارات المذكورة أعلاه، نرىٰ بوضوح آثار المحبّة والمودّة لأهل البيت، ثمّ إن الحديث الشريف يذكر ثلاث عبارات أُخرى تتحدّث عن العاقبة السيئة لبغض وعداوة أهل البيت ﷺ.

١٠ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**

إنّ من يعيش البغض لآل محمّد ﷺ من شأنه أن يهوي إلى أسفل درجات الشقاء بحيث يكون آيس من رحمة الله.

١١ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ ماتَ كافِراً**

هذا الأثر السيىء لبغض آل محمّد هو أسوأ مما قبله.

١٢ ـ **أَلا وَمَنْ ماتَ عَلىٰ بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رائِحَةَ الْجَنَّةِ**

والجدير بالذكر أن رائحة الجنّة كما ورد في بعض الروايات تصل إلى مسافة ألف عام[1].

وطبقاً لهذه الرواية الشريفة فإنّ معنى العبارة أعلاه أن الشخص الذي يعيش حالة البغض لآل محمّد ليس فقط أنه يكون محروماً من دخول الجنّة، بل سوف يبتعد عنها بمسافة ٥٠٠ عام بحيث لا يتمكن من شم رائحتها، والخلاصة أن مثل هذا الشخص بعيد عن الجنّة جداً.

كيف يستطيع الإنسان أن يصدّق بأن عالماً كبيراً مثل الفخر الرازي يروي هذه الرواية الجميلة والعميقة المضمون والمحتوى وبكلّ هذه المعطيات المهمة والآثار الجليلة ثمّ يفسّر المحبّة والمودّة ومن دون التدبّر في هذه المضامين بالمحبّة الظاهرية والعاطفة الطبيعية؟ والأعجب من ذلك أنه بعد أن نقل الرواية المذكورة آنفاً شرع بتوضيح المراد من آل محمّد ﷺ الذين هم محور هذه الرواية فقال:

«هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف وأنا أقول: آل محمّد صلّى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلم أشدّ التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر»[2].

من الملفت للنظر هو أن هذه العبارات ذكرها عالم سنّي متعصب، والمفهوم من هذه الكلمات هو أقرب ما يكون إلى ما يقوله الشيعة بحيث إنني عندما كنت أقرأ هذه الكلمات شككت في لحظة أن هذا الكتاب الذي أقرأه هل هو من تفاسير السنّة أو الشيعة؟ فلعلني أقرأ تفسيراً لأحد علماء الشيعة. ولكن عندما نظرت إلى الغلاف انتبهت إلى أنني أقرأ تفسير الفخر الرازي.

سؤال: نظراً لما ورد في متن آية المودّة وكذلك ما ورد في الآيات الأُخرى المرتبطة بها

---

١. ميزان الحكمة: الباب ٥٥٣، ح ٢٥٨٥. يقول الرسول الأكرم ﷺ في هذا لرواية:
«أخبرني جبرئيل أن ريح الجنّة توجد من مسيرة ألف عام، ما يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زانٍ...».

٢. تفسير الفخر الرازي: ج ٢٧، ص ١٦٥ و ١٦٦. وأصل الرواية في تفسير القرطبي: ج ٨، ص ٥٨٤٣ وكذلك نقلت في تفسير الثعلبي، ذيل الآية محل البحث.

وبالتأمل والدقّة في الرواية الشريفة المذكورة آنفاً، هل يعقل أن تكون المحبّة والمودّة التي هي محور البحث في الآية الكريمة والرواية الشريفة يراد منها المحبّة العادية بدون الولاية والإمامة؟

ألا يمكن أن نقطع ونتيقن بأن المراد من المودّة هنا هو الولاية والإمامة التي هي استمرار للرسالة وعدل النبوّة؟

لولم يكن كذلك فما هو التفسير المناسب الذي يمكن بواسطته تفسير الآيات والروايات المذكورة في محل البحث؟

علينا أن نشكر الله تعالى على ما وفقنا لمحبّة وولاية أهل البيت ﷺ وكذلك نشكر والدينا اللذين غرسا في قلوبنا ولاية آل محمّد ﷺ.

تفسير المودّة في كلمات الإمام الصادق ﷺ

ورد عن الإمام الصادق ﷺ قوله:

«ما أَحَبَّ اللهَ مَنْ عَصاهُ»[١].

وعلى هذا الأساس فإنّ الإنسان الذي يتحرّك في سلوكه الفردي والإجتماعي من موقع المخالفة للإمام علي ﷺ فإنه لا يحبّه قطعاً، ولهذا فإنّ المحبّة الحقيقية هي التي تقود الإنسان في خط الطاعة والعبودية لله تعالى، ولهذا السبب نقول أن المحبّة والمودّة بدون الإتباع العملي والطاعة والعبودية هي أساساً ليست بمحبّة حقيقية ومودّة واقعية.

وهنا نلفت النظر إلى هذه القصة:

كان «حاجب» أحد الشعراء الماهرين ويتمتع بقريحة جيدة وصفاء قلب، وأحياناً كان يقوم بنظم بعض الأبيات الشعرية على مذاق العوام، وفي أحد الأيّام أنشد قصيدة في وصف التعلّق بأميرالمؤمنين علي ﷺ وقال:

---

١. روضة المتّقين: ج ١٣، ص ١٥٦.

يا حاجب إذا كانت المعاملة في الحشر مع علي
فأذنب ما شئت فإني ضامن

أي أن حبّ عليّ عليه السلام كافل للنجاة يوم القيامة حتّى لو غرق الإنسان في بحر الذنوب، وبهذا تكون المحبّة للإمام عليّ عليه السلام كما وردت في الشعر أعلاه بمثابة ضوء أخضر للمذنبين ليرتكبوا ما يشاؤون من الذنوب والمعاصي.

وفي نفس الليلة رأى هذا الشاعر الإمام علي عليه السلام في عالم الرؤيا فقال له الإمام عليه السلام:

ـ يا حاجب ما هذا الشعر الذي قلته؟

فقال حاجب: وكيف أقول؟

فأصلح له الإمام هذا البيت من الشعر وقال:

يا حاجب إذا كانت المعاملة في المحشر مع عليّ
فأخجل من علي وقلل من الذنب

وعليه فإنّ المحبّة والمودّة هنا بمعنى التحرّك في خطّ الطاعة والرسالة والتقوى والابتعاد عن الذنوب.

تفسير آية المودّة من خلال الروايات

لقد وردت في شرح وتفسير هذه الآية الشريفة روايات مختلفة من طرق الشيعة والسنّة، وفيما يلي نماذج من هذه الروايات:

١ ـ نقل «أحمد» من كبار علماء أهل السنّة في كتابه «فضائل الصحابة» عن سعد ابن جبير عن عامر هذه الرواية:

لَمّا نَزَلَتْ ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ؟ مَنْ قَرابَتُكَ؟ مَنْ هؤُلاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَيْنا مَوَدَّتُهُمْ؟ قالَ: عَلِيٌّ وَفاطِمَةُ وَابْناهُما. وَقالَها ثَلاثاً.[١]

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢. وذكرت هذه الرواية أيضاً في الدرّ المنثور: ج ٦، ص ٧.

ونستوحي من هذه الرواية الشريفة عدّة أُمور:

الأوّل: إنّ الرواية أعلاه تصرّح بأن المراد من القربى في هذه الآية هم أهل بيت النبي ﷺ لا النبي نفسه ولا أقرباء المسلمين ولا مطلق الأعمال الصالحة والخيّرة.

مضافاً إلى أن كلمة القربىٰ هنا لا تستوعب جميع أقرباء النبي ﷺ، بل تتحدّد بأشخاص معدودين ذُكرت أسماءهم في هذه الرواية.

الثاني: ونستوحي أيضاً أن هذا السؤال والإستفهام عن القربىٰ كان يدور في أذهان الصحابة أيضاً ولذلك لم يتوجّهوا صوب الإحتمالات الواهية التي ذكرها بعض علماء أهل السنّة بل فهموا بصورة مباشرة من المودّة هنا هي مودّة أهل بيت النبي ﷺ، وكذلك أدركوا أن الآية لا تقصد بالقربىٰ جميع أقرباء النبي ﷺ ولذلك طلبوا من النبي الأكرم ﷺ أن يعدّد لهم هؤلاء الذين وجبت مودّتهم.

الثالث: أن أصحاب النبي ﷺ فهموا من هذه الآية وجوب المودّة والمحبّة للقربىٰ كما ذهب إليه جميع علماء الشيعة وكذلك أهل السنّة أيضاً، ومع غض النظر عن التفاسير الواردة في كلمة «القربىٰ» فإنّهم يرون وجوب مودّة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم، ولكن نكرر السؤال هنا وهو: لماذا وجبت محبّة أهل بيت النبي ﷺ ؟

هل أن هذه المسألة حال بعض الأحكام الشرعية التي لا ندرك مغزها وفلسفتها، أي من قبيل الأُمور التعبدية ؟ أو ليست كذلك بل الغرض منها واضح وهو أن هذه المحبّة تقع مقدمة لسلوك الإنسان في خط الإطاعة لهؤلاء العظماء واتباعهم ؟

إذا أردنا أن يكون لدينا تفسير صحيح لآية المودّة وسائر الآيات المرتبطة بها بالإستعانة بالرواية المطوّلة التي ذكرها الفخر الرازي والرواية المذكورة آنفاً والروايات التي ستأتي لاحقاً، لوجد القوم بأن الحكمة في هذه المحبّة والمودّة هي ما يقود الإنسان نحو الولاية والحكومة والخلافة. الولاية التي تقع رديفاً للرسالة وعدلاً للنبوّة. فكما أن الرسالة هي عماد الإسلام فكذلك الولاية هي أساس قوامها واستمرارها.

ولاسيّما إذا التفتنا إلى هذه الحقيقة، وهي أن رسول الله ﷺ بالرغم من وجود أقرباء وأرحام مثل العبّاس وأولاده وكذلك أولاد أبي طالب وسائر أبناء عبدالمطلب وأحفاده

فإنه أشار بالتحديد إلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فهذا يمكنه أن يكون قرينة قويّة على أن المراد بالمودّة هنا هي الولاية والإمامة، حيث إنّ المحبّة العادية تشمل جميع أقوام النبي ويجب على الإنسان مودّتهم أجمع.

٢ ـ أورد المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» عن الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» نقلاً عن أبي امامة الباهلي الرواية التالية عن رسول الله ﷺ ونقرأها أيضاً في مضمونه في دعاء الندبة حيث يقول:

«إِنَّ اللهَ تَعالىٰ خَلَقَ الأنْبِياءَ مِنْ أَشْجارٍ شَتّىٰ وَخَلَقَ أَنَا وَعَلِيّاً مِنْ شَجَرَةٍ واحِدَةٍ فَأَنَا أَصْلُها وَعَلِيٌّ فَرْعُها وَفاطِمَةُ لِقاحُها وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثِمارُها وَأَشْياعُنا أَوْراقُها، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصانِها نَجا وَمَنْ زاغَ عَنْها هَوىٰ وَلَوْ أَنَّ عبداً عَبَدَ اللهَ بَيْنَ الصَّفا وَالْمَرْوَةِ أَلْفَ عامٍ ثُمَّ أَلْفَ عامٍ ثُمَّ أَلْفَ عامٍ حَتّىٰ يَصيرَ كَالشَّنِّ الْبالي[1] ثُمَّ لَمْ يُدْرِكْ مَحَبَّتَنا كَبَّهُ اللهُ عَلىٰ مِنْخَرَيْهِ فِي النّارِ ثُمَّ تَلا: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾.[2]

في هذه الرواية الشريفة نلاحظ عدّة نقاط:

الأوّل: إنّ هذه الرواية أيضاً تصرّح بأن «المودّة بالقربى» هي مودّة أهل البيت الطاهرين ﷺ، وتدلّ بصورة جليّة وبتعبيرات مثيرة جداً على أن هذه المحبّة والمودّة ليست اعتيادية بل هي المحبّة التي تفضي إلى الولاية والخلافة.

الثاني: إنّ الرواية المذكورة آنفاً ترسم في الحقيقة معالم «الشجرة الطيبة»[3] الواردة في القرآن الكريم، وأحد تفاسير الشجرة الطيبة يماثل في مضمونه ما ورد في هذه الرواية.

الثالث: إنّ أوراق الأشجار تقوم بحفظ وحراسة الثمار، فلو لم تكن للشجرة أوراق فإنّ الثمار ستتعرض للذبول في مقابل أشعة الشمس وسائر الآفات المحتملة.

---

١. «شنّ» تعني القربة البالية، والعرب يطلقون على جميع الآنية والظروف المصنوعة من الجلد (شن)، ولكن تطلق هذه الكلمة على (القربة العتيقة) خاصة، والبالي يعني العتيق، وعليه فالمراد من هذه العبارة أن الشخص قد يصير بسبب كثرة العبادة وطول العمر والعجز الشديد كالقربة البالية الفارغة من الماء.

٢. مجمع البيان: ج ٩، ص ٢٨.

٣. سورة إبراهيم: الآية ٢٤.

إنّ وظيفة الشيعة وفقاً لهذه الرواية الذين يمثّلون أوراق هذه الشجرة الطيبة هي حفظ وحراسة الثمار الطيبة لهذه الشجرة، أي الإمامة والولاية والزعامة.

الرابع: ويستفاد من هذه الرواية أيضاً أن العبادة بين الصفا والمروة لها شأن خاص لا يوجد في سائر أماكن المسجد الحرام، ولكن حتّى هذه العبادة في هذا المكان المقدّس لا تساوي شيئاً بدون الولاية.

الخامس: نكرر أيضاً أنه لو كان المراد من المحبّة في هذه الرواية وسائر الروايات المشابهة هي المحبّة العادية فإنّ هالة من الإبهام والغموض ستحيط بجميع هذه الأحاديث والروايات، ولكن إذا فسّرنا المودّة هنا بالولاية والإمامة فسيرتفع ذلك الغموض ويتّضح المعنى بصورة جليّة.

٣ ـ يروي السيوطي في «الدرّ المنثور» رواية معروفة عن الإمام زين‌العابدين حيث يقول: «عندما أنزلوا اسارى كربلاء في مكان من المسجد الجامع جاء شيخ ودنا من نساء الحسين وعياله فقال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أميرالمؤمنين (يزيد) منكم. فقال له علي بن الحسين عليه السلام:

ـ يا شيخ هل قرأت القرآن؟

قال: نعم.

قال: فهل عرفت هذه الآية ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؟

قال: نعم.

قال علي: فنحن أهل القربى يا شيخ.

قال: فبكى الشيخ ساكتاً نادماً على ما تكلم به وقال: بالله إنكم هم؟ فقال عليّ ابن الحسين: تالله إنا لنحن من غير شك وحقّ جدّنا رسول الله...»[1].

إنّ مجموع هذه القرائن والشواهد تدلُّ على أن المودّة المذكورة في الآية الشريفة والروايات المتعلّقة بها لا يمكن أن تكون مودّة عادية ومحبّة بمعنى التعلّق العاطفي فقط.

---

١. الدرّ المنثور: ج ٦، ص ٧؛ اللهوف: ص ١٧٦.

ملاحظات مهمة

١ ـ وفقاً لبعض آيات القرآن الكريم فإنّ المحبّة يجب أن تقود الإنسان للطاعة والعبودية، حيث يقول تبارك وتعالى في الآية ٣١ من سورة آل عمران:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعلى هذا الأساس فإنّ الإنسان إذا أحبّ شخصاً وجب عليه إطاعته، ونحن عندما ندّعي محبّة أهل البيت عليهم السلام يجب علينا اتباعهم واطاعتهم وإلّا فإنّ إدّعاءنا المحبّة والمودّة لا يكون صادقاً، وسنتطرق لاحقاً إلى شرح أكثر حول معطيات هذه الآية الشريفة.

٢ ـ تقدّم أن آية المودّة تدلُّ مع قطع النظر عن جميع الروايات والآيات الأُخرى على ولاية وإمامة أميرالمؤمنين والأئمّة المعصومين عليهم السلام ومع الأخذ بنظر الإعتبار الروايات الواردة في شأن نزولها فإنّ دلالتها ستكون أوضح بكثير، وإذا وضعنا هذه الآية إلى جانب الآيات الأُخرى المتعلّقة بالولاية مثل آية إكمال الدين، آية التبليغ، آية الصادقين وآيات مماثلة أُخرى فإنّ دلالتها ستكون واضحة جدّاً.

٣ ـ أما الآلوسي المفسّر المعروف من أهل السنّة فقد ذكر إشكالين في تفسيره «روح المعاني» وقد اتّضح جوابهما من خلال الأبحاث السابقة، ولذلك سنكتفي هنا بذكر هذين الإشكالين فحسب:

الف: كيف طلب رسول الله صلى الله عليه وآله من المسلمين محبّة ومودّة ذوي القربىٰ بعنوانها أجر الرسالة في حين لم يطلب سائر الأنبياء مثل هذا الأجر من أقوامهم؟

والجواب على هذا السؤال كما تقدّم هو أن هذا الأجر يعود بالفائدة على جميع أفراد المجتمع الإسلامي لا على الرسول صلى الله عليه وآله نفسه.

ب: لو سلّمنا بأن المراد من القربىٰ هنا هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله والمفروض محبّتهم ومودّتهم، ولكن ما العلاقة بين هذه المودّة من جهة وبين الإمامة والخلافة من جهة أُخرى كما يدّعي الشيعة؟

والجواب على هذا السؤال أيضاً واضح، حيث إنّ أجر الشيء لابدّ وأن يماثله في القيمة

ويتطابق معه في الإعتبار، والمحبّة التي تفضي إلى الولاية والإمامة هي التي تنسجم وتتناسب مع الرسالة، وأما المحبّة العادية والفارغة من الولاية فلا شكّ أنها بعيدة عن مضمون الرسالة، وبما أننا نعتقد بأن الله تعالى حكيم ويجازي الأعمال بمثلها وبما يناسبها من الجزاء، وكذلك النبي الأكرم ﷺ حكيم أيضاً ولا يطلب إلّا الأجر المناسب أيضاً، يكون المراد بلا شكّ من المحبّة مورد البحث هو الإمامة والولاية.

معطيات آية المودّة

ماذا تعني المودّة المذكورة في الآية الشريفة بعنوان أجر الرسالة؟

وماذا يفهم من حبُّ علي عليه السلام وذريته الطاهرين عليهم السلام؟

وفي مقام الجواب ينبغي القول أن المحبّة والمودّة على نحوين:

١ ـ المحبّة الكاذبة والزائفة.

٢ ـ المحبّة الحقيقية والواقعية.

ومن أجل توضيح المطلب بصورة جليّة ينبغي التوغل إلى أعماق النفس ونرى الدافع لمثل هذه المحبّة والمودّة.

فلماذا نحبّ الإمام علي؟ هل لأجل أمواله، أو لأجل كمالاته الإنسانية والمعنوية، أو لأجل علمه، أو لشجاعته، أو لكرمه وتقواه، أو لإيثاره وتضحيته، أو لجهاده وحمايته النبي الأكرم ﷺ، أو لأجل أمور أخرى؟

إذا كنّا نحبّ الإمام علي لأجل القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية التي كان يعتقد بها، فهل نشعر في أنفسنا باشعاعة من تلك القيم الرفيعة؟ فإن لم نشعر بذلك فمثل هذه المحبّة والمودّة كاذبة وزائفة، وإن كانت فينا بارقة من هذه القيم والمُثل الإنسانية فإنّ المودّة هنا تكون حقيقية وواقعية.

ينبغي أن نمتحن أنفسنا بهذا المعيار والملاك ونتحرك نحو تشخيص نوع المحبّة والمودّة فينا نحو الإمام علي بهذا المقياس لكي لا نعيش التوهم الزائف وندّعي كذباً حبُّ علي بن أبي طالب، ولو كنّا نعيش مثل هذه المحبّة الزائفة فعلينا تغييرها والسعي نحو التحلّي بالمحبّة من

النوع الثاني ونتحرك في سبيل تقويتها وترشيدها.

إنّ أحد القيم التي كان أميرالمؤمنين عليه السلام ملتزماً بها بشدّة هي تقديم الضابطة على الرابطة، والمثال على ذلك هو قصّة الحديدة الحماة التي سمعتموها مراراً، ولكن لا بأس باستعراضها مرّة أُخرىٰ:

عندما وصلت الخلافة إلى الإمام علي عليه السلام بعد سنوات من السكوت والمظلومية والجلوس في البيت جاء إليه أخوه عقيل، وكان فقيراً ومعيلاً، من المدينة إلى الكوفة لعلّه يحصل على نصيب أوفر من بيت المال، وكان الإمام حينذاك يتناول عشاءه على سطح البيت لشدّة حرارة الجوّ في مدينة الكوفة ولكنّ عشاءه لم يكن شبيهاً بعشاء السلاطين والأُمراء ولذلك لم يشاركه عقيل في تناول العشاء وقال لأخيه:

أعطني ما أقضي ديني وعجّل سراحي حتّى أرحل عنك، قال: فكم دينك يا أبا يزيد؟ قال: مائة ألف درهم، قال: لا والله ما هي عندي ولا أملكها ولكن اصبر حتّى يخرج عطائي فاواسيكه ولولا أنّه لابدّ للعيال من شيء لأعطيتك كلّه، فقال عقيل: بيت المال في يدك وأنت تسوفني إلى عطائك؟ وكم عطاؤك؟ وما عساه يكون ولو أعطيتنيه كلّه؟ فقال: ما أنا وأنت فيه إلّا بمنزلة رجل من المسلمين. وكانا يتكلمان فوق قصر الأمارة مشرفين على صناديق أهل السوق فقال له علي: إن أبيت يا أبا يزيد ما أقول فأنزل إلى بعض هذه الصناديق فاكسر أقفاله وخذ ما فيه، فقال: وما في هذه الصناديق؟ قال: فيها أموال التجار، قال أتأمرني أن أكسر صناديق قوم قد توكلّوا على الله وجعلوا فيها أموالهم؟ فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: أتأمرني أن أفتح بيت مال المسلمين فأعطيك أموالهم وقد توكلّوا على الله وأقفلوا عليها؟ وإن شئت أخذت سيفك وأخذت سيفي وخرجنا جميعاً إلى الحيرة فإنّ بها تجاراً مياسير فدخلنا على بعضهم فأخذنا ماله، فقال: أوسارقاً جئت؟ قال: تسرق من واحدٍ خير من أن تسرق من المسلمين جميعاً[1].

ثمّ إنّ الإمام علي عليه السلام أحمى حديدة وقرّبها من يد أخيه عقيل فلمّا رأى عقيل أن أخاه

---

١. بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١١٣.

غير مستعد لخروج عن خطّ العدالة ولو للحظة واحدة نهض قائماً وغادر المكان.

أين نجد في تاريخ البشرية أن سلطاناً مقتدراً وبيده اختيار الخزانة يتصرف مثل هذا التصرف مع أخيه من أجل حفظ العدالة ؟

إلهنا، وفقّ المسؤولين في حكوماتنا الإسلامية ليكونوا مثل أمير الأحرار ويتحركوا في أداء مسؤولياتهم من موقع تقديم «الضوابط» على «الروابط».

مراتب المحبّة

إنّ للمحبّة كما في سائر الأُمور مراتب متعدّدة ومراحل مختلفة. ومحبّة الناس لأميرالمؤمنين عليه السلام ليست بمرتبة واحدة، فبعضهم يعيش المحبّة الكاذبة فهي مجرد لقلقة لسان ولا تمتد بجذورها إلى القلب، والبعض الآخر تمتد محبّتهم إلى قلوبهم ولكنّها ليست عميقة الجذور بل سطحية، والطائفة الثالثة تمتد محبّتهم إلى أعماق قلوبهم بحيث تستوعب جميع وجودهم ونفوسهم وترسم معالم شخصيتهم بلون المحبوب، فسلوك مثل هؤلاء الأشخاص هو سلوك علوي، وكلامهم كلام علوي، وأخلاقهم أخلاق علوية، والخلاصة أن كلّ وجودهم وأفعالهم وسلوكياتهم تفوح برائحة الإمام علي، وهذه أعلى مراتب المحبّة، المرحلة التي يجد الإنسان نفسه غير مستعد لأن يبادل هذه المحبّة بأيّ شيء آخر بل يجد نفسه مستعداً للتضحية بنفسه من أجل هذه المحبّة والمودّة.

وكمثال على هذه المحبّة الخالصة نذكر هذا النموذج:

ميثم التمّار، العاشق الخالص

في أحد الأيّام قال الإمام علي عليه السلام لأحد عشاقه الذي كان يعيش الولاء المطلق له:

ـ سوف تُصلب في المستقبل القريب بسبب دفاعك عني وحبّك لي فكيف يكون حالك حينئذٍ ؟

ولكنّ هذا العاشق لم يتردد لحظة ولم يشعر بشيءٍ من الخوف ولم يتهرب من المسؤولية والولاية بل أظهر السرور البالغ وقال: سيّدي أين المكان الذي سوف أُصلبُ فيه ؟

فأشار الإمام علي عليه السلام إلى نخلة من نخيل الكوفة وقال: سوف تُصلب على جذع هذه النخلة.

هذا العاشق الخالص لم يبتعد عن الإمام ولم يهرب من تلك المدينة ويترك أهله ودياره بل أزداد حبّاً وعشقاً للإمام علي.

كان في كلّ يوم يتوجّه إلى تلك النخلة ويهتم بعنايتها وسقيها ويصلّي ركعتين عندها ويتحدّث معها حديث العاشق لمعشوقه:

- أيتها النخلة لقد خُلقت لي وخلقت لك وسوف يصلب بدني على جذعك بسبب حبّي للإمام علي عليه السلام...[1] أين نحصل على مثل هذا الإنسان العاشق في تاريخ البشرية؟

وحان اليوم الموعود وتمّ صلب هذا العاشق على ذلك الجذع ولكنّ عشقه لمحبوبه لم يخفّ لحظة بل أزداد توهجاً واشتعالاً وشرع بذكر فضائل ومناقب الإمام علي عليه السلام حتّى أن الأعداء لم يتحملوا منه ذلك وأمروا بقطع لسانه وهكذا ضحّىٰ بنفسه في سبيل مراده.

سؤال: أليست التقية واجبة في نظر الإسلام؟ إذن فلماذا لم يستخدم هؤلاء الأشخاص عنصر التقية للمحافظة على أنفسهم واجتناب إلقاء أنفسهم في التهلكة؟

الجواب: إنّ التقية كما هي واجبة في بعض الموارد فكذلك تكون حراماً في موارد أُخرى، فعندما يتعرض أساس الدين والمذهب للخطر وتسود الظلمة والإنحراف جميع أرجاء المجتمع الإسلامي ويتعرض الأحرار للسجن والقتل فحينذاك يجب على من يتمكن من إيصال صوته إلى الناس أن يفضح قوى الإنحراف هذه ويتصدىٰ بكلّ وسيلة لجهاز الحكم، وفي هذه الصورة فإنّ التقية ليست فقط غير واجبة بل إذا تستر الإنسان المسلم بالتقية فإنه يكون قد ارتكب معصية كبيرة.

٭٭٭

١. تختلف طريقة الاعدام في السابق عن هذا الزمان، ففي هذا الزمان يتم اعدام الشخص بأن يوضع حبل حول عنقه ويعلق على خشبة الاعدام أو يُسحب الكرسي من تحت قدميه فيموت في أقرب مدّة، ولكن الاعدام في السابق كان على شكل صلب بأن يشدّ الحبل على يديه وعلى قدميه ويربط على خشبة أو جذع ويبقى هكذا تحت الشمس لعدّة أيّام إلى أن يموت من الحر أو البرد ومن الجوع والعطش وحتّى أنه تبقى جثته مدّة بعد موته ليكون عبرة للآخرين إلى أن يتحول إلى عظام فحسب.



آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

«سورة آل عمران / الآية ٦١»

أبعاد البحث

إنّ آية المباهلة هي إحدى الآيات الأُخرى المتعلّقة بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام، في هذه الآية الشريفة التي تتحدّث عن موضوع المباهلة بين المسلمين ونصارى نجران تثبت من جهة حقّانيّة الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله ومن جهة أُخرى تبين سمو مقام أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعلو درجتهم، ومن جهة ثالثة بالإمكان إثبات ولاية وخلافة أميرالمؤمنين عليه السلام بواسطتها.

مقدّمة

قبل الشروع بتفسير آية المباهلة الشريفة نرىٰ من اللازم التنبيه على نقطتين:

١ ـ المباهلة آخر الدواء

إنّ الآيات ٣٥ إلى ٦٠ من سورة آل عمران تتحدّث عن النبي عيسىٰ عليه السلام وتذكر في

طياتها قصة ولادة هذا النبي الكريم ومقاماته المعنوية وشخصية أُمّه وفضائلها الكريمة وحديثه مع الملائكة والمائدة السماوية ومسائل أُخرى، وبعد كلّ هذه الأبحاث المطوّلة عن النبي عيسى عليه السلام يوصي الله تبارك وتعالى نبي الإسلام ويقول بأن النصارى بعد بيان كلّ هذه الأُمور بشكل منطقي ومستدل لو لم يقبلوا الإسلام واختاروا طريقاً آخر وأصرّوا على عنادهم فعليك بمباهلتهم ليتّضح الحقّ.

٢ ـ ماذا تعني المباهلة ؟

«المباهلة» من مادة «بَهْل» ويعني في لغة العرب ترك الشيء، والعرب عندما تلد الناقة يشدون على ثدييها لئلّا يشرب طفلها جميع اللبن في ضرعها ولكن أحياناً يفتحون الضرع ليشرب طفل الناقة ما يشاء من اللبن، فيقال حينئذٍ لهذه الناقة التي انفتح ضرعها «ابل باهل».

وأما في الإصطلاح فلها معنى آخر فهو: عندما يتقدم شخصان للحوار فيما بينهما بأدلة عقلية ومنطقية ولا يستطيع أحدهما إقناع الآخر برأيه وعقيدته فهنا يحقّ لكلّ واحد منهما أن يباهل الآخر ويقول: «إذا كنت أنا على الحقّ وأنت على الباطل فعليك غضب الله»، ويكرر الآخر هذه العبارة، فيقال لهذا العمل مع توفر شرائطه «مباهلة».

ومن الواضح أن هذا المعنى الإصطلاحي يرتبط بالمعنى اللغوي لأن الشخص الذي يدّعي أنه على حقّ يقول: إنني أترك الطرف الآخر لقضاء الله وأُحيله إلى قدرة الله.

الشرح والتفسير

الدعوة إلى المباهلة

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أيّها النبي بعد البحث والمناقشة مع هؤلاء النصارى عن عيسى ابن مريم عليه السلام وبعد تقديم الأدلّة المتقنة والبراهين الساطعة حول تفاصيل حياة عيسى ابن مريم فإنهم إذا أصرّوا مع ذلك على عنادهم ولجاجتهم ولم يبصروا الحقّ والحقيقة فهناك طريق آخر لاستمرار الدعوة الإلهية وهو اختيار المباهلة معهم.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

في هذا المقطع من الآية الشريفة يعيّن القرآن الأشخاص الذين سيشتركون في مراسم المباهلة، وعليه يوجّه الخطاب إلى النبي الأكرم ويقول: أيّها النبي قل لهؤلاء تعالوا لنتباهل وليأتي كلُّ طرف منا بأربع فئات من جماعته وأهل ملّته ليشتركوا في هذه المراسم:

١ ـ رئيس المسلمين، أي النبي الأكرم ﷺ من جهة ورئيس نصارى نجران من جـهة أُخرى.

٢ ـ أبناءنا وأبناءكم.

٣ ـ نساءنا ونساءكم.

٤ ـ أنفسنا وأنفسكم.

وسيأتي في الأبحاث اللاحقة الكلام عن المراد من «أبـنائنا» و «نسـائنا» و «أنـفسنا» بشكل مفصل.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فبعد أن ذكرت الآية الشريفة الطوائف الأربع المفروض اشتراكهم في مراسم المباهلة، ذكرت كيفية إجراء هذه المراسم بأن تتم بهذه الصورة: إن كلُّ شخص كاذب ويدّعي أنه على الحقّ كذباً وزوراً فإن عليه لعنة الله وعذابه، ليتّضح الحقّ للناس وتتجلّى معالم الحقيقة للجميع.

هل تحققت المباهلة؟

وهنا يثار سؤال: هل تحققت مراسم المباهلة وفقاً للشروط التي ذكرها القرآن الكريم؟ وفي صورة تحقّقها فماذا كانت النتيجة؟

الجواب: إنّ القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن وقوع المباهلة في الواقع الخـارجـي ولا يمكننا استيحاء وقوعها من سياق الآيات الكريمة، ولكنّ هذه الواقعة معروفة ومشهورة في تاريخ الإسلام.

فطبقاً لما ذكرته كتب المؤرخين أن النبي الأكرم ﷺ طرح موضوع المباهلة وكيفيتها مع نصارى نجران وعيّن اليوم الخاصّ لإجراء المباهلة، ولكنّ الاسقف الأعظم للنصارى الذي يعدّ أعلى مقام ديني لدى النصارى قال لهم:

«انظروا محمّداً في غدٍ، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته. وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنه على غير شيء».

وعلى أيّة حال فقد حلّ اليوم الموعود وشاهد النصارى النبي الأكرم ﷺ قادماً ومعه طفلين هما الحسن والحسين عليهما السلام وكذلك علي وفاطمة عليهما السلام. فقال الأسقف الأعظم عندما رأى هذا المنظر:

«إني أرى وجوهاً لو دعوا الله لاستجاب لهم وفي ذلك هلاككم»[١].

وهكذا امتنع من المباهلة ووافق النبي الأكرم على انسحابهم وتراجعهم.

لقد ذكرت كتب التواريخ قصة المباهلة بشكل مختصر كما مرّ آنفاً، يقول أبوبكر الجصّاص من علماء القرن الرابع الهجري في كتابيه «أحكام القرآن» و«معرفة علوم الحديث» عبارتين جميلتين في هذا الصدد:

١ ـ قال في كتاب «أحكام القرآن»:

إنّ رواة السّير ونقلة الأثر لم يختلفوا في أنّ النبي ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة ودعا النصارى الذين حاجّوه إلى المباهلة[٢].

٢ ـ ويقول أيضاً في كتاب «معرفة علوم الحديث»:

قد تواترت الأخبار في التفاسير عن عبدالله بن عبّاس وغيره أنّ رسول الله ﷺ أخذ يوم المباهلة بيد علي والحسن والحسين وجعلوا فاطمة ورائهم ثمّ قال: هؤلاء أبناؤنا وأنفسنا ونساؤنا[٣].

وعلى هذا الأساس هناك روايات وأحاديث كثيرة جدّاً في شأن نزول وتفسير آية المباهلة حيث نكتفي هنا بذكر رواية واحدة منها:

---

١. لابدّ من توفّر شرطين لمن يريد الإشتراك في المباهلة:

الأوّل: أن يكون مؤمناً بما يدعي، لأن الشخص الإنتهازي والكذاب لا يجرأ على المباهلة.

الثاني: أن تكون له رابطة قوية مع الله تعالى بحيث إنه إذا رفع يديه للدعاء ودعا على أحد الأشخاص فإن الله يستجيب دعاءه، وقد لاحظ علماء نجران (٣ أو ١٠ أشخاص) توفّر هذين الشرطين في سيماء النبي ومرافقيه فأحجموا عن المباهلة.

٢. أحكام القرآن: ج ٢، ص ١٦ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٤٨).

٣. معرفة علوم الحديث: ص ٥٠ طبع مصر. (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٤٨).

جاء في كتاب صحيح مسلم في باب «فضائل الصحابة» رواية مثيرة وجذّابة رواها سعد بن أبي وقاص: أن معاوية قال لسعد: «ما منعك أن تسبّ أباتراب[١]؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله فلن أسبّه لئن تكون لي واحدة منها أحبّ إليّ من حمر النعم، ثمّ ذكر قصة تبوك عندما استخلف النبي علياً على المدينة، فلما قال الإمام علي: أتخلّفني على النساء والأطفال؟ قال له رسول الله: «ألا ترضى أن تكون مني كهارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي، والثانية في معركة خيبر عندما أرسل رسول الله الأوّل والثاني لفتح خيبر فرجعا آيسين فقال رسول الله ﷺ: «لأعطينّ الراية غداً لرجل لا يفرّ من الحرب ولا يدير ظهره للعدو». فتطاولت الأعناق لذلك، فنظر رسول الله فيهم فلم ير علياً، فسأل عنه فقيل: هو أرمد، فقال: عليّ به، فجاء الإمام علي فتفل رسول الله في عينه فشفي من ساعته فدفع إليه الراية وكان الفتح على يده. وأما «الثالثة» فهي لما نزلت هذه الآية «قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم...» حيث دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللّهم هؤلاء أهلي...

وقال سعد بعد ذلك لمعاوية: هل يحقّ لي بعد هذا أن أسبّ علياً؟ فسكت معاوية وندم على مقولته»[٢].

من هم أبناءنا، نساءنا، أنفسنا؟

لا خلاف ظاهراً بيننا وبين أخوتنا من أهل السنّة في أن المراد من «نساءنا» هو فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وكذلك اتّفق علماء الشيعة وأهل السنّة أن المراد من «أبناءنا» الحسن والحسين عليهما السلام.

وعلى هذا الأساس فإن المحور الأصلي في هذا البحث يدور حول تفسير كلمة «أنفسنا»

---

١. هذا الكلام يعكس غاية ما فيه الإمام علي من المظلومية وذروة الحقد الدفين في قلوب بني أُمية عليه بحيث اشاعوا سبّه ولعنه بين المسلمين بحيث لو امتنع أحد من سبّه لتعرض للعقاب الشديد، والعجيب من بعض أهل السنّة الذين يدافعون عن بني أُمية ومعاوية مع كلّ هذه الجرائم الفضيعة ويعبّرون عن «مصدر الخبائث» بـ«سيّدنا معاوية»!!

٢. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٧، ح ٣٢.

ولذلك نرىٰ من الضروري تفصيل البحث حول هذه العبارة.

يقول القاضي نورالله الشوشتري في كتابه القيّم «احقاق الحقّ»:

أجمع المفسّرون على أن «أبناءنا» إشارة إلى الحسن والحسين عليهما السلام و«نساءنا» إشارة إلى فاطمة عليها السلام و«أنفسنا» اشارة إلى علي عليه السلام.

وذكر آية الله العظمى المرعشي في حاشيته على هذا الكتاب نقلاً عن ستين كتاباً «من كتب أهل السنّة» ما يؤيد هذا المطلب[١]، والمفهوم من هذا الكلام واضح جداً بحيث ذكره أهل السنّة قاطبة في كتبهم.

ولكن مع الأسف نجد أن بعض مفسّري أهل السنّة وعلى الرغم جميع هذه الروايات تورطوا بشراك التعصّب والتفسير بالرأي فذكروا تفسيرات مدهشة لهذه الآية الشريفة، ونكتفي هنا بذكر نموذجين منها:

١ ـ يقول الألوسي في «روح المعاني» بعد اعترافه بعدم وجود شخص آخر مع النبي صلى الله عليه وآله في المباهلة غير علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومع تأكيده بأنه لا ينبغي لكلّ إنسان مؤمن الشك في هذه المسألة يستعرض دليل علماء الشيعة ويدّعي أن المراد من «أنفسنا» هو النبي نفسه، وأما الإمام علي فيندرج في كلمة «أبناءنا» لأن العرب تطلق على الصهر كلمة الابن أيضاً[٢].

وجواب هذا الكلام واضح جداً، لأنه طبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد دعىٰ: أبناءنا وأنفسنا ونساءنا، فلو كان المراد من «أنفسنا» هو النبي نفسه فماذا يعني أن يدعو الإنسان نفسه إلى المباهلة؟

ونظراً إلى أن القرآن الكريم هو أفصح بيان في اللغة العربية فمن المسلّم أنه لا يذكر كلاماً غير فصيح مثل هذا الكلام ولا يأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يدعو نفسه، إذن فالمراد من «أنفسنا» لا يمكن أن يكون هو النبي صلى الله عليه وآله نفسه قطعاً، مضافاً إلى أننا لم نقرأ في كلام العرب أنهم يطلقون

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٤٦.

٢. روح المعاني: ج ٣، ص ١٨٩.

كلمة الابن على الصهر، ومثل هذا الإستعمال غريب جداً ويحمل على المجاز البعيد.

ولا نستغرب من هذه التأويلات والآراء التي هي من إفرازات التعصّب الأعمى بحيث إن مثل هذا التعصّب قد يدفع الإنسان أحياناً ومن أجل حفظ عقائده والدفاع عنها أن يفرض آراءه وعقائده هذه على القرآن الكريم.

٢ ـ والأعجب من ذلك من نراه من نظرية «محمّد عبده» في تفسير المنار، فعندما يصل إلى هذه الآية يقول في تفسيرها:

الروايات متّفقة على أنّ النبي ﷺ اختار للمباهلة عليّاً وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة نسائنا على فاطمة وكلمة أنفسنا على عليٍّ فقط ومصادر هذه الروايات الشيعة ومقصدهم منها معروف[1].

والواقع أن كلام محمّد عبده هذا عجيب جدّاً ومتناقض مع صدر الآية وذيلها، لأنه ادّعى في بداية كلامه اتفاق الروايات على هذا المطلب ولكنه في ذيلها ينسب هذا الرأي إلى الشيعة.

ومضافاً إلى ذلك «كما تقدّم سابقاً» أنّ هذا الكلام مجانبٌ للصواب لأن أكثر الروايات المذكورة وخلافاً لمدّعاه مذكورة في مصادر أهل السنّة.

ونحن لا نملك في مقابل هذا الكلام الواهي سوى إظهار التأسف.

وعلى أيّة حال فإنّ آية المباهلة كما تقدّم بيانه من الآيات المحكمة والصريحة التي تدلُّ دلالة واضحة على ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام وأبنائه الطاهرين عليهم السلام.

سؤال: صحيح أن آية المباهلة تعد فضيلة كبيرة لأميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولكن ما هو ارتباطها بمسألة الولاية والإمامة لأميرالمؤمنين حيث إن البحث هنا يتعلق بالآيات التي تتحدّث عن الولاية والإمامة؟

الجواب: رأينا فيما سبق أن المراد «أنفسنا» في آية المباهلة هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعندما يخاطب النبي الأكرم ﷺ ابن عمه الإمام علي عليه السلام بأنه «نفسه» فهل أن

---

١. المنار: ج ٣، ص ٣٢٢.

مقصوده من ذلك هو المعنى الحقيقي للنفس أو المعنى التنزيلي والإعتباري؟

لاشكّ أن المعنى الحقيقي غير مقصود هنا، أي أن علي ليس هو النبيّ نفسه، إذن فالمراد من ذلك أن الإمام عليّ عليه السلام يتمتع بالفضائل والكمالات والمقامات المعنوية التي يتمتع بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فهو كالنبي في الشجاعة والرشادة والشهامة والتقوى والإيثار وسائر الكمالات والمقامات المعنوية الأُخرى، والنتيجة هي أن الإمام علي عليه السلام نازل منزلة النبي صلى الله عليه وآله في المقامات والكمالات وتالي تلوه.

ومع الإلتفات إلى هذا المطلب يتّضح أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله والذي لابدّ وأن يكون منصوباً من الله تعالى أو الأُئمّة الإسلامية هو الشخص الذي يحوز هذه المقامات ويكون مثل النبي في سماته وكمالاته أو في مرحلة دانية منه.

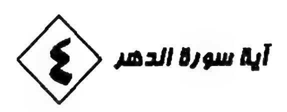
ألا ينبغي أن يكون الشخص الذي ينتخبه الناس لهذا المقام أو يكون منصوباً بالنصب الإلهي لهذا المقام كالنبي صلى الله عليه وآله في فضائله وكمالاته وخاصة في مسألة التقوىٰ والعصمة؟

ومع فرض وجود مثل هذا الشخص ألا يكون قبيحاً لدى العقل انتخاب أشخاص آخرين لهذا المقام؟

وعلى هذا الأساس فإنّ انطباق كلمة «أنفسنا» على الإمام علي عليه السلام يؤدي إلى تجسير العلاقة بين هذا المعنى وبين مفهوم الولاية والإمامة، وبذلك يتم إثبات الولاية لأميرالمؤمنين.

ربّنا: وفقنا لمعرفة قدر هذه النعمة العظيمة وهي ولاية أهل البيت عليهم السلام وارزقنا عنايتهم في الدنيا وشفاعتهم في العقبىٰ.

٭٭٭



إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

«سورة الدهر / الآيات ٥ ـ ١٠»

أبعاد البحث

إن أحد الفضائل والمناقب المهمة للإمام علي عليه السلام بل فضائل أهل البيت ومناقبهم هو ما ورد في آيات سورة الإنسان حيث تحدّث القرآن الكريم في ثمانية عشر آية من ٣١ آية من هذه السورة حول هذه الفضيلة العظيمة، وبعض الآيات الشريفة هذه تحدّثت عن أصل القضية، وهناك أربعة عشر آية أُخرى تحدّثت عن جزاء وثواب هذا العمل العظيم الذي قامت به هذه الأُسرة الطاهرة، وسوف يأتي تفاصيل هذه الواقعة وتفسير هذه الآيات الكريمة لاحقاً.

شأن النزول

لقد ذكرت كتب التفسير شأن نزول هذه الآيات محل البحث، وقد أورد العلّامة الأميني

في كتابه «الغدير» شأن نزولها من أربعة وثلاثين كتاباً من كتب أهل السنّة[١]، ونقل القاضي نورالله الشوشتري هذا المطلب من ٣٦ كتاباً من كتبهم[٢]، وعلى هذا الأساس فإنّ شأن النزول لهذه الآيات متواتر تقريباً، وخلاصة ما ورد في شأن نزولها والمتّفق عليه في جميع المصادر الروائية والتفسيرية هو مايلي:

إنّ الحسن والحسين مرضا فعادهم رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة إن برءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيّام فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض عليّ ثلاثة أصوع شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ بَيْتِ محمّد مسكينٌ من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة، فآثاروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء[٣]، فأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم سائل يتيم فآثاروه ووقف عليهم أسير[٤]

---

١. الغدير: ج ٣، ص ١٠٧، ونذكر هنا عشرة مصادر ممّا ذكره الغدير في شأن نزول هذه الآيات: ١ ـ نوادر الأصول: ص ٦٤، ٢ ـ العقد الفريد: ج ٣، ص ٤٢، ٣ ـ الكشف والبيان: ص ٣٠٧ ـ ٤٢٧، ٤ ـ المناقب للخوارزمي: ص ١٨٠، ٥ ـ مطالب السؤول: ص ٣١، ٦ ـ نور الأبصار: ص ١٢ ـ ١٤، ٧ ـ فتح القدير: ج ٥، ص ٣٣٨، ٨ ـ روح البيان: ج ١٠، ص ٢٦٨، ٩ ـ الاصابة: ج ٤، ص ٣٨٧، ١٠ ـ الدرّ المنثور: ج ٦، ص ٢٩٩.

٢. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥٧، ونذكر هنا عشرة مصادر أيضاً من الكتب التي ذكرها صاحب احقاق الحقّ في شأن نزول الآيات المذكورة ١ ـ الكشاف: ج ٤، ص ١٦٩، ٢ ـ أسباب النزول: ص ٣٣١، ٣ ـ معالم التنزيل: ج ٧، ص ١٥٩، ٤ ـ التفسير الكبير: ج ٣، ص ٢٤٣، ٥ ـ التذكرة لابن الجوزي: ص ٣٢٢، ٦ ـ كفاية الطالب: ص ٢٠١، ٧ ـ تفسير القرطبي: ج ١٩، ص ١٢٩، ٨ ـ ذخائر العقبى: ص ١٠٢، ٩ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١، ص ٧، ١٠ ـ تفسير العلّامة النيشابوري: ج ٢٩، ص ١١٢.

٣. وفي هذا الزمان نرى التنوع في الأطعمة على مائدة الافطار وقد تنتهي مع الأسف بكفران النعمة وعدم الشكر بحيث لو لم يكن في المائدة سوى نوعان من الطعام فإن البعض يظهر التذمّر والإمتعاض، وهذه الحالة تنذر بالخطر، ولكن وضع المسلمين في ذلك الزمان لم يكن جيداً، وكان أكثر الناس يشبعون بالخبز والماء فقط.

٤. كان المسلمون في صدر الإسلام عندما يقع في أيديهم أسرى الكفّار يسترقونهم ويستخدمونهم لإنجاز بعض الأعمال الحياتية، ولكن بعض المسلمين لم يكن قادراً على توفير ما يحتاجه من ضروريات الحياة، فكانوا يعتقون هؤلاء الأسرى، وبما أن هؤلاء الأسرى لم يكن لديهم من يعيلهم في مكّة والمدينة فكانوا يسألون الناس لتحصيل قوتهم وطعامهم.

في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ عليّ بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرىٰ بكم وقام وانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل إليه جبرئيل وقال: خذها يا محمّد هنئك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

الشرح والتفسير

الخصائص الخمسة لأهل البيت عليهم السلام

إنّ أربعة آيات من الآيات الثمانية عشر في هذه السورة تتحدّث عن أصل العمل الذي قام به هؤلاء الأشخاص، وأربعة عشر آية منها تتحدّث عن الأجر والثواب الإلهي الذي ينتظر هؤلاء، وفي البداية نستعرض تفسير الآيات الأربع منها حيث يشير القرآن فيها إلى خمس خصال من فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ الوفاء بالعهد

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فأوّل عمل أخلاقي لهؤلاء هو الوفاء بالنذر بحيث ينبغي أن يكون هذا العمل أُسوة لسائر أتباعهم وشيعتهم، حيث نرىٰ بعض أفراد الشيعة ينذرون في حالة مواجهتهم للمصائب والبلايا والمشاكل ولكنهم عند زوال هذه البلايا والمشاكل ويحين وقت العمل بالنذر فإنهم يتحركون من موقع التغافل وعدم الإهتمام، فتارةً يشككون في صيغة النذر، وأُخرى يترددون في التنفيذ العملي للنذر، والخلاصة يمتنعون من الوفاء بالنذر بكلّ ذريعة، كما هو الحال عندما يواجه الشخص خطراً محدقاً بحيث يكون احتمال بقائه على قيد الحياة قليلاً جداً، فحينئذٍ يتوجه إلى الله تعالى بالنذر الثقيل ويعاهده على العمل به ثمّ يتفق أن ينجو من هذا الخطر، وعندها يتوجه هذا الشخص إلى مرقد الإمام الذي نذر له ذلك النذر ويقول مخاطباً له: أيّها الإمام، لقد نذرت في تلك اللحظات الخطيرة نذراً ثقيلاً، فلماذا صدّقت بكلامي وطلبت من الله أن ينقذني؟

أجل، إن بعض المسلمين هم مصداق الآية الشريفة:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[١].

ولكن أهل البيت ﷺ لم يكونوا كذلك، فهم لا يكتفون بالوفاء بالنذر فقط بل يوفون بجميع تعهّداتهم والتزاماتهم الأخلاقية ومسؤولياتهم الإجتماعية، لأن ذلك من علامات الايمان[٢] والمسلم الحقيقي يجب أن يتصف بهذه الصفة الأخلاقية وهي الوفاء بالعهد والنذر حتّى لو كان ذلك بضرره.

٢ ـ الخوف من القيامة

﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ والخصلة الثانية من خصائص هؤلاء الأشراف والأولياء هو أنهم يخافون من يوم القيامة، وطبعاً ليس ذلك بسبب خوفهم من احتمال أن يتوجه إليهم ظلم بحقّهم بل يخافون من محكمة العدل الإلهية لأن جميع أعمال الإنسان الصغيرة والكبيرة ستعرض في ذلك اليوم ويُحاسب عليها الإنسان كما ورد في قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ وهذا هو الذي يخيفهم ويثير في أنفسهم الفزع والخشية لأن ذلك اليوم يُحاسب الإنسان على ما قدّم وأخر، وفي تلك المحكمة الإلهية سيحاسب الصغير والكبير، المرأة والرجل، الغني والفقير، العالم والجاهل، والخلاصة جميع أفراد البشرية، فالإعتقاد بتحقّق ذلك اليوم المهيب يثير في الإنسان الخوف والرهبة.

٣ ـ معونة الفقراء والمساكين

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ الخصلة الثالثة التي ذكرتها هذه الآيات الشريفة لأهل البيت ﷺ والتي تعتبر محور هذا البحث هو مواساتهم للمساكين وتقديمهم يد العون للمحرومين في المجتمع الإسلامي، فهؤلاء الأولياء بالرغم من احتياجهم إلى الطعام نراهم يؤثرون الفقراء والمساكين على أنفسهم ويقدمون ما لديهم من الطعام إلى المسكين واليتيم والأسير، وفي هذه الآية الشريفة إشارة إلى ثلاث طوائف من المحرومين والمحتاجين في المجتمع:

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

٢. انظر الروايات الواردة في هذا المجال في كتاب ميزان الحكمة: ج ١، ص ٣٤٦، الباب ٣٠٢.

الف ـ «المسكين» وهذه الكلمة مشتقة من مادّة «سكون» أي الفقر والحاجة الشديدة بحيث تدع الإنسان ساكناً وقابعاً إلى الأرض من شدّة الحاجة والفاقة. فيجب على المسلمين والمؤمنين أن يأخذوا بيد هؤلاء المحرومين والفقراء والمساكين الذين لا يستطيعون أن يوفروا لأنفسهم وأهلهم ما يحتاجونه من أوّليّات الحياة والمعيشة، وأن يمدوا يد العون لهؤلاء المحرومين ويشاركوهم في النعم التي يعيشون فيها ويواسونهم بها.

ب ـ «اليتيم» وهو الطفل الذي فقد وليه وأباه، فرغم أنّ اليتيم قد لا يكون محتاجاً من الناحية المادية ولكنه يعيش أزمة عاطفية وهو في أشد الحاجة إلى المحبّة والحنان من الآخرين، وقد ذكروا أنه في إحدىٰ الزلازل التي وقعت أخيراً وكثرت فيها الضحايا من أهالي المدينة أو القرية عثروا على صبي فقد خمسين شخصاً من عائلته وأرحامه كالأب والأمّ والأخوات والأخوة والأعمام والعمات والخالات وذرياتهم، والخلاصة أنه فقد جميع أرحامه وأقربائه، فمثل هذا الشخص يعيش الحاجة الشديدة إلى المحبّة والعاطفة وسوف ينهار حتماً إن لم يجد من يعوّضه عن هذه الخسارة المعنوية والروحية.

ج ـ «الأسير» ومعناه واضح حيث يقال للشخص الذي ابتعد عن بيته ووطنه ومدينته وعاش في بلد آخر غريباً ووحيداً، فيمكن للأسير أن يكون ثرياً في وطنه ولكنه بعد وقوعه في الأسر فانه يستحق المساعدة والمحبّة.

وعلى أيّة حال فإنّ الإنسان المؤمن والمسلم يجب أن يمد يد العون في دائرة استطاعته وامكانيته إلى جميع الأفراد المحرومين والمتضررين في المجتمع، وفي هذا الزمان قد لا يوجد مصداق لأحد هذه الطوائف الثلاث المذكورة في الآية الشريفة، ولكن هناك طوائف أُخرى تعيش الفاقة والحاجة الشديدة إلى المساعدة والمعونة، المرضى بالسرطان، والجذام والأمراض المزمنة الأُخرى، السجناء، البنات اللواتي في سن الزواج ولكنهنّ محرومات من الذهاب إلى بيت العرس لفقدانهن الجهيزية ووسائل المعيشة، وهناك طوائف أُخرى محتاجة أيضاً.

فهل نحن نتحرك من موقع الايثار والشفقة على هؤلاء المحرومين كما رأينا في سلوك أهل البيت عليهم السلام ؟

هل نعلم بحالة الجيران وما هم عليه من الفاقة والحاجة؟

هل نعلم بكيفية معيشتهم وإفطارهم وسحورهم؟

هل نحن مطلعون على أحوال وأوضاع أرحامنا وأقربائنا؟

إذا كان جواب هذه الأسئلة بالنفي (والعياذ بالله) هل يمكننا مع ذلك أن ندّعي بأننا من شيعة أهل البيت؟

٤ ـ الإخلاص

﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ الفضيلة الرابعة للإمام علي وزوجته وطفليه هي مسألة «الإخلاص» لله تعالى في عملهم هذا، وهي فضيلة عظيمة جدّاً، حيث قالوا:

إننا نتقدم إليكم بهذه المساعدة والمعونة تقرباً إلى الله تعالى وطلباً لرضاه ومن دون أي دافع آخر من الدوافع الدنيوية ولذلك لا نطلب منكم شيئاً دنيوياً ولا نتوقع منكم حتّى الشكر.

عندما نقرأ هذه الكلمات ونكررها في أذهاننا هل يمكننا أن نتصور أن إنساناً من أفراد المجتمع يمكنه أن يدّعي هذا الإدعاء غير الأولياء؟

والأكثر من ذلك لو أن الطرف المقابل تحرك نحوهم من موقع الإهانة وتجاسر عليهم بدل أن يتقدّم إليهم بالشكر فإن حالهم لا يتفاوت أبداً عن السابق.

إنّ الإخلاص هو جوهر العمل الصالح، ولذلك أكد عليه الإسلام كثيراً وتقدّم إلى المسلمين بتعليماته وتوصياته أن يهتموا بكيفية العمل لا بكميته وعدده، أي أن ركعة واحدة يصليها المسلم بإخلاص أفضل عند الله من ألف ركعة يصليها بدون إخلاص.

٥ ـ الخوف من الله

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ الخامس من خصائص هؤلاء هو: الخوف من الله تعالى.

ولعلك تسأل: تقدّم في الخصلة الثانية أنهم يخافون من المعاد والقيامة وهنا نجد الخوف من الله تعالى فما هو الفرق بينهما؟

الجواب: لا يلزم أن يكون الخوف من الله تعالى متلازماً ومتزامناً مع الخوف من جهنم والقيامة والعذاب الأخروي بل يمكن أن يعيش الإنسان الخشية والهيبة من عظمة الله، فعندما يفكر الإنسان المؤمن بعظمة الله تعالى فإنّ الخوف والخشية والمهابة تسري في جميع أركان وجوده ومفاصل بدنه، ويكون حاله كما لو توجه لملاقاة شخصية مهمة وأراد أن يقول له شيئاً، فمن المحتمل أن تستولي عظمة ذلك الشخص عليه فلا يستطيع النطق والكلام حينها رغم أن ذلك الشخص هو إنسان عطوف وحسن الأخلاق جداً، وعليه فإنّ هذه الخصلة الخامسة تتفاوت مع الخصلة الثانية والخوف من الله تعالى يراد به هنا الخوف من عظمة الله وكبريائه.

آيات الأجر والثواب

تقدّم أنّ في هذه السورة أربعة عشر آية من آياتها تتحدّث عن الأجر العظيم الذي ينتظر هؤلاء الأولياء جزاءاً لإيثارهم وتضحيتهم اتجاه المحرومين، ولا نجد في القرآن الكريم مثل هذا الثواب العظيم بأي عمل من الأعمال الصالحة التي تصدر من المؤمنين، بمعنى أننا نرى أن خمسة عشر نوعاً من الثواب ورد بصورة متوالية في هذه السورة، ولو أمعنا النظر أكثر في هذه الآيات الأربعة عشر لوجدنا عشرين نوعاً من الثواب على ذلك العمل، وسوف نستعرض هذه المثوبات في ١٢ فقرة لاحقاً، ولكن قبل بيان هذه المثوبات نرى من الضروري تقديم مقدّمة:

المقارنة بين الثواب الدنيوي والأخروي

بلا شكّ أنّ نعم ومواهب الآخرة تختلف عن نعم ومواهب الدنيا، لأنه بالرغم من استخدام الألفاظ البشرية والقوالب الدنيوية في شرح وتوضيح تلكم المواهب الأخروية ولكن يبقى مفهومها ومحتواها له ماهية غيبية وأُخروية، وعلى هذا الأساس فما نسمعه ونتصوره من النعم والمواهب الأُخروية ليس سوى شبح من حقائق ذلك العالم، ولا ينبغي أن نتوقع إدراك حقائق تلك النعم في هذه الدنيا كما هو الحال في الجنين في بطن أُمّه حيث لا

يمكنه إدراك حقائق هذا العالم الدنيوي مهما بالغت أمّه في إفهامه حسب الفرض ومهما كان ذكياً كابن سينا، فإنه لا يستطيع تصور ما يجري في هذا العالم سوىٰ اشباح وأوهام، ولذلك ورد عن النبي الأكرم ﷺ قوله:

«إِنَّ اللهَ يَقُولُ: اَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصّالِحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»[١].

وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن يكون لكلمة معنىً خاص في عالمنا الدنيوي هذا ولكنه يحمل معنىً آخر عند استعماله في مورد النعم والمواهب الأُخروية في الجنّة، وسيأتي توضيح أكثر في البحوث اللاحقة حول هذا الموضوع.

وبعد بيان هذه المقدّمة نستعرض النعم الاثني عشر في الجنّة لهؤلاء الأولياء:

النعم الاثنا عشر في الجنّة

١ ـ السكينة والهدوء النفسي

﴿فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَومِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ فأوّل نعمة ينالها هؤلاء الأولياء في الجنّة هي نعمة الإستقرار والهدوء النفسي حيث يدفع عنهم الله تعالى شرور ذلك اليوم ومشكلاته ومصاعبه ويغرقهم في أجواء الفرح والسرور، ويتّضح من ذكر الآيات الشريفة نعمة الهدوء النفسي والسكينة الروحية باعتبارها أوّل نعمة من النعم الإلهية في الجنّة كونها نعمة مهمة وثمينة جداً، والحقيقة هي أنها كذلك حيث إنّ الاطمئنان الروحي للإنسان يمثل أغلى شيء يناله الشخص في الدنيا والآخرة، ويتبين هذا المعنى في الأشخاص الذين يمتلكون مختلف المواهب والنعم في الدنيا ولكنهم لا يعيشون الإستقرار والهدوء النفسي فإنّ هذه النعم والإمكانات المادية والدنيوية تتحول إلى أدوات لتشوير حالة القلق والاضطراب والعذاب النفسي لهؤلاء، ولهذا نرىٰ أن الكثير من الأثرياء وأبناء الأمراء قد يتوجهون نحو الإنتحار للتخلص من عناصر القلق والإضطراب النفسي، ويقال

---

١. نفحات القرآن: ج ٦، ص ٣٠٢.

أن إحدى الغابات في أمريكا الواقعة إلى جانب إحدى المدن الامريكية تسمّى غابة الانتحار حيث يتوجه إليها الأشخاص الأثرياء الذين يمتلكون كلّ شيء في الدنيا سوىٰ الإستقرار والهدوء النفسي وينتحرون هناك ويقضون على حياتهم البائسة.

وفي المقابل نرىٰ أن بعض الأشخاص بالرغم من كونهم يعيشون الفقر المدقع ولا يمتلكون من وسائل الحياة إلّا القليل جداً ومع ذلك يعيشون الإستقرار الروحي في درجات عالية في حياتهم الفردية والإجتماعية.

فلو أنك تسأل: كيف يمكن تحصيل هذه النعمة المهمة في حركة الحياة؟

نقول: إنّ الله تبارك وتعالى ذكر في الآية ٨٢ من سورة الأنعام أن هذه النعمة العظيمة تكون من نصيب المؤمنين الذين يتحركون في خط الطاعة والتقوىٰ:

﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ايمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وفي الآية ٢٨ من سورة الرعد يقرر أن ذكر الله وعدم الغفلة عنه بمثابة المنبع الدائم للخير والبركة والأمن والإستقرار النفسي.

٢ ـ بساتين الجنّة ﴿وَجَزٰهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾.

وإحدى المواهب الأُخروية للأفراد هي أنهم يسكنون في بساتين الجنّة التي تختلف في جميع أُمورها عن بساتين الدنيا، تلك البساتين التي يجري من تحتها الأنهار، والأشجار الخضراء اليانعة طوال السنة وتؤتي ثمارها في جميع الفصول، الأشجار التي لا تحتاج لقطف ثمارها أن يتحمل الإنسان بعض التعب في ذلك بل تحضر بنفسها بمجرد إرادة الإنسان المؤمن وتضع نفسها بين يديه.

٣ ـ الراحة والرفاهية ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

«أرائك» جمع «أريكة» والأصل فيها التخت الذي تجلس عليه العروس ثمّ أُطلقت على جميع الكراسي الجميلة، فأهل الجنّة يجلسون في بساتينها على أرائك جميلة ويتكئون عليها ويتنعمون بنعيم الجنّة، وعبارة «متكئين» تعبير ظريف وجميل لأن الإنسان لا يعيش هذه الحالة من الجلوس متكئاً على الأريكة إلّا وهو ناعم البال مرتاح الضمير آمن الخاطر، فلو كان قلقاً ومضطرباً فإنه لا يمكنه الجلوس في مثل هذه الحالة والإتكاء على الأريكة بل تراه يقوم ويقعد ويتحرك من هنا ومن هنالك.

٤ ـ الأجواء المعتدلة والنسيم العليل ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾.

هواء الجنّة معتدل جداً فليس هناك شمس الصحراء المحرقة ولا يحتاج الإنسان إلى أجهزة التبريد، وليس الجو بارداً جداً ليحتاج الإنسان أجهزة للتدفئة بل يعيش الإنسان هناك الربيع الدائم والنسيم العليل، ولا شكّ أن في الجلوس والاتكاء على الأرائك الجميلة في مثل هذا الجو الناعم وتحت ظلال الأشجار المثمرة واليانعة، لذّة لا توصف وسعادة لا تتصور.

سؤال: هذه الآيات الشريفة تنفي وجود الشمس في الجنّة، ولكن الآيات اللاحقة تتحدّث عن وجود ظلال لأشجار الجنّة، فلو لم تكن هناك شمس فكيف يُعقل أن تكون هناك ظلال للأشجار، أليس هذا من التناقض؟

الجواب: أوّلاً: إنّ القرآن لا يقول أن في الجنّة لا يوجد شمس، بل يقول أن أهل الجنّة لا يرون الشمس، أي أن أشجار الجنّة متراكمة الأغصان وكثيفة الأوراق إلى درجة أن أهل الجنّة لا يرون الشمس بسبب كثافة هذه الأشجار وارتفاعها.

ثانياً: إنّ المراد بقوله ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً﴾ أنهم لا يحسون بحرارة الشمس الشديدة، فالآية لا تنفي وجود شمس معتدلة، وعليه فلا يوجد هناك تناقض في البين.

٥ ـ الظلال والفواكه ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾.

إنّ أشجار الجنّة تظلّل على هؤلاء المؤمنين بأغصانها وتدني إليهم ثمارها حتّى ينالون منها ما يشاؤون دون أن يتعبوا أنفسهم في الصعود عليها وقطف ثمارها.

٦ ـ الخدم من الغلمان ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾.

وكلّما أرادوا شيئاً أمروا الخدم والغلمان من الولدان المخلدون الذين هم في جمالهم كاللؤلؤ المنثور ليحققوا لهم ما يريدون، بل لا يحتاج هؤلاء الغلمان إلى الأمر والنهي لأنهم يتحركون من موقع الخدمة لصاحبهم وسيّدهم دائماً.

٧ ـ الثياب الجميلة جداً ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

حيث يلبس أهل الجنّة أنواع الملابس الجميلة والبرّاقة والمصنوعة من الحرير الناعم ومن السندس والإستبرق، فحتّى الملابس التي كانت حرام عليهم في الدنيا فإنه يباح لهم لبسها وارتداؤها في الآخرة.

٨ ـ الزينة[١] ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾.

فيباح لهم في الجنّة التزيّن بأنواع الزينة ولبس الأسورة من الذهب والفضة.

٩ ـ أدوات الضيافة الراقية ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾.

إنّ الأدوات التي يستخدمها الإنسان في تناول غذائه والآنية التي يستخدمها في طعامه لها أهمية خاصّة، فلو أن أفضل الأغذية وأطيب الأطعمة والأشربة وضعت في آنية وأقداح غير مناسبة ووسخة فإنّ ذلك بإمكانه أن يسلب الشهية من الإنسان حتّى لو كان جائعاً، ولكن على العكس من ذلك إذا كان الغذاء عادياً ولكن تمّ تقديمه بآنية جميلة ومناسبة ونظيفة فإنّ ذلك من شأنه أن يثير في الإنسان الشهيّة للأكل، ولذلك نجد أن آنية الجنّة وأكوابها التي يستخدمها أهالي الجنّة مصنوعة من الفضة والذهب والبلور وعلى هيئة جميلة وجذّابة جدّاً، وطبعاً الفضة في ذلك العالم تختلف عن الفضة في هذه الدنيا حيث إن تلك الآنية من الفضة شفافة كالزجاج.

١٠ ـ أنواع النِعم والمواهب ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً﴾.

فعندما يرد المؤمن الجنّة ويرىٰ المواهب العظيمة والنِعم الكثيرة التي توضع تحت اختياره فإنه يرىٰ ما لا يمكن وصفه من النعيم.

١١ ـ الملك العظيم ﴿وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ إنّ أهل الجنّة بالنسبة إلى الإمكانات والخدم والحشم والمنزلة العظيمة التي لديهم يعيشون الملك والسلطنة العظمىٰ وكأن كلّ واحد منهم يعيش السلطنة والملك على دولة مستقلة ومملكة عظيمة.

١٢ ـ أنواع المشروبات: إنّ إحدى النعم والمواهب المقررة لأهل الجنّة والتي ذكرها القرآن في موارد متعدّدة هي أنواع الخمور والمشروبات الخاصة بأهل الجنّة، الخمر الذي لا يزيل عقل الإنسان بل يثير فيه روح النشاط والوجد والسرور، ونقرأ في هذه الآيات من سورة الدهر أن هناك ثلاث أنواع من الأشربة في الجنّة:

---

١. الإسلام لا يمانع من التزيّن، إلّا أنه منع من الإسراف في استخدام الزينة، بل إن القرآن الكريم دعا إلى استخدام الزينة عند التوجّه إلى المساجد وحثّ على لبس الثياب النظيفة وورد استحباب العطر وأمثال ذلك.

ألف ـ شراب الكافور ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾.

وهنا تتحدّث الآية عن شرابٍ ممزوج بعطر الكافور وهو المادة التي تضاف إلى الماء في تغسيل الميت ولها خاصية مضادّة للتعفن، ولكنها تستخدم في لغة العرب بمعنى أوسع، فتطلق على كلّ شيء معطر ذي رائحة طيبة، وعليه فالمراد من شراب الكافور هو الشراب المعطّر الذي يثير لدىٰ أهل الجنّة لذّة كبيرة عند تناوله.

ب ـ شراب الزنجبيل ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً﴾.

الزنجبيل أيضاً يستعمل في معناه المتداول والمعروف وكذلك بمعنى عطور خاصّة، ولكن هنا ورد بالمعنى الثاني حيث يتناول أهل الجنّة شراباً ممزوجاً بعطر الزنجبيل.

ج ـ الشراب الطهور ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.

النوع الثالث من أنواع الأشربة التي يتناولها أهل الجنّة هو الشراب الطهور حيث يسقيهم الله تعالى هذا الشراب في الجنّة.

هذه التعبيرات المتنوعة في مفردة الشراب تستحق الدقّة والتأمل، فعندما يتحدّث عن شراب الكافور يعبر عنه بجملة «يشربون» أي أن أهل الجنّة يتناولون هذا الشراب بأيديهم، أما في مورد شراب الزنجبيل وردت العبارة بجملة «يسقون» أي أن خدم الجنّة يقدّمون هذا الشراب لهؤلاء المؤمنين، وبالنسبة إلى الشراب الطهور ورد التعبير بـ«سقاهم ربّهم» أي أن الله تعالى هو الذي يسقيهم هذا الشراب الطاهر في الجنّة.

ماذا يعني الشراب الطهور؟

ورد في رواية أن أهل الجنّة عندما يشربون هذا الشراب فإنه:

«يُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللهِ»[1].

ويقول النبي الأكرم ﷺ في حديث آخر عن آثار هذا الشراب الطهور في نفوس أهل الجنّة أنه:

---

١. بحار الأنوار: ج ٨، ص ١١٣.

«فَيُطَهِّرُ اللهُ بِهَا قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ».[1]

إنّ الحسد يُعد أحد الرذائل الأخلاقية التي يبتلى بها البشر في حركة الحياة الدنيا، فأحياناً يمتلك الإنسان جميع النعم الدنيوية والإمكانات المعيشية في هذه الحياة ولكنه مع ذلك لا يتحمل أن يرى الآخرين يمتلكون أيضاً مثل هذه الإمكانات والنعم ويعيشون براحة وسعادة، فالحسد بمثابة السجن الذي يسلب من الحاسد طعم الراحة والإستقرار ويورده في وادي الضلالة والشقاء، وعلى أيّة حال فإنّ أحد المعطيات المهمّة للشراب الطهور هي إزالة هذه الرذيلة من واقع الإنسان وتطهير قلبه من هذه الصفة الأخلاقية الذميمة.

سؤال: إنّ الآيات الشريفة محل البحث قد ذكرت نِعم ومواهب مختلفة وتطرّقت إلى ذكر التفاصيل والجزئيات لبعض هذه النِعم بصورة دقيقة ولكنّها لم تذكر أحد النِعم المهمّة التي طالما ذكرها القرآن الكريم لأهل الجنّة، وهي النعمة التي تخطر على بال كلّ إنسان، أي نعمة «حور العين» فلا نجد كلاماً حول هذه النعمة المهمة في هذه الآيات الشريفة، فما هو السبب في ذلك؟

الجواب: يرىٰ بعض المفسّرين[2] أنّ الآيات الشريفة أعلاه نزلت لتتحدث عن فاطمة الزهراء عليها السلام، ولم يذكر الله تعالى نعمة «حور العين» فيها احتراماً لفاطمة الزهراء، وهذا شاهد آخر في شأن نزول هذه الآيات وأنها نزلت في الإمام علي عليه السلام وأهل بيته، وإلّا فلا مبرر لعدم ذكر الحور العين في عداد النعم والمواهب الإلهية في الجنّة.

والخلاصة أنّ هذه النِعم الإثني عشر الواردة ضمن أربعة عشر آية من هذه السورة خاصة بـ«الأبرار» الذين يقف على رأسهم الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

شبهات وردود

ومع الأسف فإنّ البعض طرح في ذيل هذه الآيات المتعلّقة بفضائل أهل البيت عليهم السلام

---

١. بحار الأنوار: ج ٨، ص ١٥٧.

٢. روح المعاني: ج ٢٩، ص ١٥٨.

وكذلك آيات الولاية والإمامة شبهات وعلامات استفهام لا نشاهد مثيلها لدى تفسيرهم لسائر آيات القرآن الكريم. وطبعاً فإنّ الغرض من طرح هذه الشبهات معلوم مسبقاً، لأنهم إذا قبلوا بأن هذه الآيات واردة في فضائل الإمام علي وسائر الأئمة عليهم السلام فلابدّ أن يقولوا بإمامتهم وخلافتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه كما تقدّم سابقاً أن الإمامة لو كانت انتصابية من الله تعالى فإنه عزّوجلّ لا يختار أيّ شخص لهذا المقام سوى الأفضل والأعلم والأشجع، ولا يمكن أن يترك الأفضل ويختار المفضول فإنّ ذلك على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية، وإذا كانت الإمامة انتخابية فإنّ العقلاء ينبغي أن يختاروا لهذا المقام الأفضل من بين الأفراد، ومع وجود الأفضل لا يصحّ أن يختاروا المفضول، ولكن هذه الحقيقة تتقاطع مع أهواء البعض ومسبوقاتهم الفكرية، ولذلك يتحركون في تفسيرهم لهذه الآيات من موقع التشكيك بهذه الفضائل أو السعي لتهميش هذه المناقب الواردة في هذه الآيات لئلّا يتورّطوا بعذاب الوجدان وتأنيب الضمير، ومن هنا نستعرض بعض هذه الشبهات والذرائع التي تمسّكوا بها:

١ـ سورة الإنسان مكّية

قالوا: إنّ سورة الدهر لم تنزل بالمدينة بل في مكّة، ومن المعلوم أن الإمام الحسن والحسين عليهما السلام قد ولدوا بعد الهجرة في السنة الثانية والثالثة من هجرة النبي إلى المدينة، وعليه فإنّ زمان نزول هذه السورة كان قد سبق ولادة هذين السيّدين بعدّة سنين، لما ذكر في شأن نزولها لا يتناسب مع كونها مكّية. ولذلك ذهب البعض إلى أن شأن نزول هذه الآيات كالتالي:

«جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له رسول الله: سل واستفهم، فقال: يا رسول الله: فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوّة، أفلا رأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنّة؟ قال: نعم والذي نفسي بيده انه ليُرى

بياض الأسود في الجنّة من مسيرة ألف عام»[١] ثمّ نزلت عليه السورة «هل أتى»[٢].

والخلاصة أن ما ذكر في سبب النزول السابق لا يتناسب مع كون السورة مكّية.

الجواب: أوّلاً: إنّ الكثير من المفسّرين والمحدّثين والمؤرّخين يرون أن سورة الدهر نزلت في المدينة، وقد صرّح البعض بهذا المعنى ولكن البعض الآخر لم يصرّحوا بذلك بل ذكروا أن شأن نزولها كان في علي وأهل بيته ﷺ وهذا يدلّ بالملازمة أن سورة الدهر مدنيّة.

وقد ذكر القاضي نورالله الشوشتري في المجلد الثالث من كتابه «احقاق الحقّ» الصفحة ١٥٧ فصاعداً أسماء هؤلاء العلماء الذين نشير إلى طائفة منهم:

١ ـ «الزمخشري» وهو من المفسّرين المعروفين لدىٰ أهل السنّة ومن مشاهيرهم فقد صرّح في كتابه المعروف «الكشّاف» بأن سورة الإنسان مدنية[٣].

٢ ـ «الواحدي» وهو عالم آخر من مشاهير أهل السنّة حيث اختار هذا الرأي في «أسباب النزول»[٤].

٣ ـ «ابن الجوزي» هو الآخر من علماء أهل السنّة حيث يرىٰ مدنية سورة الدهر[٥].

٤ ـ «الگنجي» حيث اختار هذه النظرية في كتابه «كفاية الطّالب»[٦].

٥ ـ «الطبري» حيث اختار هذه الرأي في «ذخائر العقبى»[٧].

٦ ـ «الآلوسي» يرىٰ أيضاً بأن هذه السورة مدنية[٨].

٧ ـ «الفخر الرازي» الذي هو أشهر مفسّري أهل السنّة حيث اختار هذه النظرية أيضاً[٩].

---

١. روح المعاني: ج ٢٩، ص ١٦٥.
٢. تفسير نمونة: ج ٢٥، ص ٣٣٠.
٣. الكشّاف: ج ٤، ص ١٦٩.
٤. أسباب النزول: ص ٣٣١.
٥. التذكرة: ص ٣٣٢.
٦. كفاية الطّالب: ص ٢٠١.
٧. ذخائر العقبى: ص ١٠٢.
٨. روح المعاني: ج ٢٩، ص ١٥٧.
٩. التفسير الكبير: ج ٣٠، ص ٢٤٤.

٨ ـ «القرطبي» المفسّر المعروف حيث ذكر في تفسيره هذه العبارة:

ذكر الثّعلبي في تفسيره: وقال أهل التفسير انّها نزلت في علي وفاطمة وجارية لهما اسمها فضّة[1].

وقال أهل التفسير أنها نزلت في عليّ وفاطمة وجارية لها اسمها فضة.

والخلاصة انه طبقاً لشهادة علماء الإسلام هؤلاء فإنّ سورة الدهر مدنية بلا شكّ.

ثانياً: ويستفاد من الآية الشريفة ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ أن هذه السورة مدنية، لأن الأسير لم يكن له وجود في مكّة حينذاك بل وجد بعد هجرة النبي الأكرم ﷺ والمسلمين إلى المدينة وتشريع حكم الجهاد وبعدما حدثت معارك وغزوات النبي ﷺ، وعليه فإنّ وجود كلمة «أسير» في هذه الآيات يدلُّ على أن هذه السورة مدنية.

وأمّا ما ذكر في شأن النزول من الغلام الحبشي فإنه لا يتناسب إطلاقاً مع آيات سورة الدهر، لأنّ شأن النزول هذا ليس له ارتباط بإطعام المسكين واليتيم والأسير، وعليه فإنه لا ينسجم مع آيات هذه السورة ولا ينبغي الإعتناء بما يخالف القرآن الكريم من شأن النزول.

٢ ـ التعارض بين الوجوب والإستحباب

وهنا يثار سؤال: هل يليق بالإمام علي عليه السلام أن يدفع طعامه وطعام أهل بيته الذين تجب نفقتهم عليه إلى السائل؟ في حين أن الله تعالى يقول في الآية ٢١٩ من سورة البقرة ضمن الإجابة على السؤال الذي تقدّم به بعض المسلمين إلى النبي ﷺ عمّا يصحّ لهم إنفاقه، فقال: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي ما زاد على الضروري واللازم في حياة الإنسان.

فإذا كانت آيات سورة الدهر نزلت في حقّ عليّ وأهل بيته عليهم السلام إذن فلماذا تبرع الإمام بالطعام الذي يحتاجونه إلى السائل؟

---

١. تفسير القرطبي: ج ١٩، ص ١٩.

الجواب: إنّ هذا الكلام يثير العجب واقعاً وخاصّةً فيما لو صدر من شخص يدّعي المعرفة والعلم، لأنّ مثل هذه المعاذير والحجج تشير إلى معالم الجهل وعدم الإطلاع، وتوضيح ذلك أن «الإنفاق» شيء و«الإيثار» شيء آخر، ومع الأسف أن من يطرح هذا الإشكال لا يدرك التفاوت بين الإنفاق والإيثار.

ونقرأ في الآية التاسعة من سورة الحشر في وصف الأنصار:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

إنّ بعض الأشخاص قد يصلون في مرتبة الكمال المعنوي إلى درجة ومقام «الإيثار»، فعلى رغم حاجتهم الشديدة ينفقون ما يحتاجونه على الآخرين.

وقد ورد في شأن نزول هذه الآية: «أن شخصاً أتى رسول الله ﷺ فشكى إليه الجوع، فبعث رسول الله ﷺ إلى منزله، فقالت له زوجته: ما عندنا إلّا الماء، فقال رسول الله: من لهذا الرجل الليلة؟ فتعهده رجل من الأنصار وصحبه إلى بيته ولم يكن لديه إلّا القليل من الطعام لأطفاله، وطلب أن يؤتى بالطعام إلى ضيفه وأطفأ السراج، ثمّ قال لزوجته: نوّمي الصبية، ثمّ جلس الرجل وزوجته على سماط الطعام فتظاهروا بالأكل ولم يضعوا شيئاً في أفواههم، وظنّ الضيف أنهم يأكلون معه، فأكل حتّى شبع وناموا الليلة، فلما أصبحوا قدموا على رسول الله ﷺ فنظر إليهم وتبسّم (دون أن يتكلم)، فنزلت الآية أعلاه وأثنت على إيثارهم»[١].

وعلى هذا الأساس فإن من يطرح مثل هذه الشبهة فإنه لم يقرأ جميع آيات القرآن الكريم، وإلّا فلا ينبغي الشكّ بأن مقام الإيثار أعلى مرتبة من مقام الإنفاق بحيث لا يناله إلّا من أُوتي حظاً عظيماً من الإيمان والخلوص، ولذلك يعد الإيثار من الصفات الخاصّة بالمؤمنين الحقيقيين.

مضافاً إلى أن الإمام علي عليه السلام كما ورد في قصة سورة الدهر لم يقدم إلى السائل سوى طعامه فقط لا طعام جميع أفراد الأسرة، ثمّ إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام قدّمت طعامها إلى السائل

---

١. التفسير الامثل: ذيل الآية مورد البحث.

بكلّ اختيار ورغبة وهكذا صنع الحسن والحسين عليهما السلام وهذا يدلُّ على غاية الإيثار الذي يذكره القرآن الكريم من موقع الثناء والمدح.

وأمّا في مورد قوله تعالى ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ فهناك نظريتان في المراد منها، إحداهما أن المراد من «العفو» هو الشيء الزائد عن حاجة الإنسان[١]، ولكن الإحتمال الثاني هو أن يكون «اَلْعَفْوُ هُوَ الطَّيِّبُ مِنَ الْمَالِ» ولذلك لابدّ من التصدّق على الفقير والمسكين من هذا النوع من الأموال[٢] لا كلّ ما زاد عن حاجة الإنسان واستغنىٰ عنه في حياته فإنّه يقوم بالتصدّق به إلى الفقراء، لأنه في هذه الصورة سوف لا يصل إلى حقيقة البر والإحسان في قوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣].

وعليه فإنّ قوله ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ يحتمل قوياً أن يراد به التوصية ببذل أفضل ما بأيدي الإنسان من أموال ووسائل إلى الفقراء لا أنه يتصدّق بما لا يحتاج إليه، وهذا هو معنى الإيثار الذي أشارت إليه آيات سورة الدهر.

وبالإلتفات إلى ما تقدّم آنفاً فإننا لا نجد تنافياً بين آية «قُلِ الْعَفْوَ» وبين شأن نزول آيات سورة الدهر، بل وأكثر من ذلك فإنها منسجمة معها ومؤيدة لها.

٣ ـ آيات سورة الدهر عامة أو خاصّة ؟

سؤال: هل أن آيات سورة الدهر التي وردت في وصف «الأبرار» وما ذكر من أنواع المثوبات والجزاء في الجنّة لهؤلاء تختص بالإمام علي عليه السلام وزوجه وابنيه، أو هي عامة وشاملة لجميع الأشخاص الذين يتصفون بصفة «الأبرار» ؟ وإذا كان الإحتمال الثاني هو المتعيّن[٤] إذن فلماذا نحصر الآيات الشريفة بأهل بيت النبوّة ؟

---

١. الكشّاف: ج ١، ص ٢٦٢.

٢. ورد الإحتمال الأوّل والثاني واحتمالات أُخرى أيضاً في التفسير الامثل: ج ٢، ذيل الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

٣. سورة آل عمران: الآية ٩٢.

٤. وهو مختار الفخر الرازي في التفسير الكبير: ج ٣٠، ص ٢٤٤.

الجواب: أوّلاً: إنّ الشواهد والقرائن الموجودة في الآيات الشريفة لا يمكن تطبيقها على جميع الأبرار، بل تنطبق على أبرار معينين، مثلاً يستفاد من هذه الآيات أن الأبرار المقصودين فيها هم الذين نذروا لله تعالى وعملوا بذلك النذر وتحركوا من موقع الإيثار العظيم في إنفاقهم على المسكين واليتيم والأسير، وعليه فإنّ الآيات محل البحث لا تستوعب الأبرار الذين لم يتصفوا بهذه الصفات كالنذر وأشباهه.

ثانياً: على فرض أن الآيات المذكورة عامّة وشاملة لجميع الأبرار ولكن بدون شك أنها شاملة لشأن نزولها أيضاً بل إنّ الإمام عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من أبرز مصاديق الأبرار قطعاً.

والخلاصة إنّ آيات سورة الدهر تعد من مناقب أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومن معالم أحقيتهم لمقام الإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

توصيات الآية

١ ـ أهميّة إسداء المعونة إلى المحتاجين

إنّ المحور الأساس الذي تدور حوله الآيات الثمانية عشر في هذه السورة والذي استوجب كلّ هذه المثوبات العظيمة هو مسألة إسداء يد العون إلى المحتاجين والمحرومين، وهذا يدلُّ بوضوح على أهميّة هذه المسألة في دائرة المفاهيم القرآنية وأن الله تعالى يولي أهمية خاصّة إلى هذا الموضوع، فكلُّ من أراد الدخول تحت مظلّة عناية الله ورحمته الواسعة يجب أن يهتم بقضاء حوائج المحتاجين وإشباع جوعة الجائعين ورفع حرمان المحرومين، ولو انه ارتفع في مدارج الكمال أكثر من ذلك وتحرّك من موقع الإيثار إلى المحتاجين فلا شكّ أنّ عناية الله ولطفه ورحمته ستشمل هذا الإنسان، ومن أجل توضيح هذا الموضوع وبيان أهمية مساعدة المحرومين والمحتاجين نذكر روايتين في هذا المجال:

١ ـ يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه ووصيته إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام:

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، اَلْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِىءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَاَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لاَ مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ

قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّىءِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلاَ إِلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ[١].

وهكذا نرى أن أفضل وسيلة لعبور هذا المضيق الخطر والعقبة الكؤود وأفضل زاد لسفر القيامة والورود في صحراء الحشر هو مساعدة الفقراء والمحتاجين والإحسان إليهم، فهذا العمل في الحقيقة يشبه ما إذا دفعنا ما نحتاجه في صحراء الحشر إلى هؤلاء الفقراء والمساكين في الدنيا ليحملوه عنا ثمّ يعيدونه إلينا في ذلك اليوم العسير، فهل هناك أفضل من هذه المعاملة المربحة؟

٢ ـ وينقل المحدّث الكليني وهو من كبار علماء الشيعة حديثاً في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

ثَلاَثٌ مَنْ أَتَى اللهَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ: اَلإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ[٢]، وَالْبِشْرُ لِجَمِيعِ الْعَالَمِ[٣]، وَالإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ.[٤]

وهكذا ندرك أهمية أن يرى الإنسان حقّه وحقوق الآخرين بعين واحدة وينصف الناس من نفسه، ولهذا ورد في رواية أُخرى قوله صلى الله عليه وآله:

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُحِبُّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَيُكْرِهُ لَهُ مَا يُكْرِهُ لِنَفْسِهِ.[٥]

٢ ـ المعيار في العمل ليس كميّته

والشيء الآخر الذي يمكن أن نستوحيه من آيات سورة الدهر هي أن الإسلام يرى أن

---

١. نهج البلاغة: الرسالة ٣١.

٢. ورد في بعض الروايات أنه «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة» (وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٢٥٩).

٣. وفي رواية: «صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبّة ويدخلان الجنّة» (الكافي: ج ٢، باب حسن البشر، ح ٥.

٤. الكافي: ج ٢، ص ١٠٣، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن البشر، ح ٢.

٥. بحار الأنوار: ج ٢٧، ص ٨٩.

المعيار الصحيح للأعمال يكمن في كيفية العمل لا كميته ومقداره، لأن جميع ما أنفقه هؤلاء الأولياء في هذه الأُسرة الطاهرة لا يتجاوز عدّة كيلوغرامات من الشعير، ولكن بما أن هذا العمل كان متوائماً مع الأخلاص وكان بدافع رضا الله تعالى فقط فإنّ هذا الدافع هو الذي رفع قدر ذلك العمل وترتبت عليه تلك المثوبات العظيمة التي وردت في هذه السورة، فعنصر «الإخلاص» يحقّق معجزة في تغيير ماهيّة العمل، فأحياناً يوصل قيمة العمل إلى ألف ضعف وأحياناً أُخرى إلى مليون ضعف وثالثة إلى مليارد ضعف، وقد يصل بالعمل أحياناً إلى ما يستوعب في قيمته جميع عبادات الجن والانس إلى يوم القيامة[1]، وعلامة مثل هذا الأخلاص هي أن الإنسان الذي يتحرك في عمله من موقع الإخلاص لا يرىٰ سوى الله تعالى في عمله هذا ولا يتوقع أجراً من أحد غيره بل لا يتوقع الشكر عليه، وقد يصل الإنسان بدرجة من الإخلاص أن يتساوى عنده الشكر مع الإهانة فلا يفرح بالشكر ولا يتألم من السبّ والإهانة في مقابل هذا العمل، فهنيئاً لمن يعيش هذا المقام وهذه الروحية المخلصة.

٣ ـ إنعكاس آيات سورة الدهر في الأشعار

إنّ شأن نزول آيات سورة الدهر في الإمام علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام كان إلى درجة من الوضوح والبداهة حتّى أننا نجدها في أشعار الشعراء أيضاً، حيث نقرأ في أشعار محمّد بن إدريس المطلبي الشافعي الذي هو من أئمّة أهل السنّة[2] أنه قال هذه الأشعار في الإمام علي عليه السلام :

---

١. مثلاً ورد في ضربة علي يوم الخندق عندما قتل عمرو بن ود العامري أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «لضربة عليّ خير من عبادة الثقلين»، وجاء في رواية أُخرى: «لضربة علي لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أُمتي إلى يوم القيامة». (بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ٢).

٢. وكان يحبّ أهل البيت عليهم السلام حبّاً جماً، وقد سرت هذه المحبّة منه إلى أتباعه إلى درجة أن المذهب الشافعي يعدّ من أقرب المذاهب إلى مذهبنا نحن الشيعة، بخلاف المذاهب السنّية الأخرى، كالوهابية، بل إن هؤلاء لا يلتقون مع أيّ من المذاهب السنّية الأخرى ويتهمون الجميع بالشرك والبدعة ويتحركون معهم من موقع العداوة والنزاع الدائم.

إلىٰ مَ إلىٰ مَ وَحَتّىٰ مَتىٰ   أُعاتَبُ في حُبِّ هذَا الْفَتىٰ

وَهَلْ زُوِّجَتْ فاطِمُ غَيْرَهُ   وفي غَيْرِهِ هَلْ أَتىٰ «هَلْ أَتىٰ»؟[1]

٭٭٭

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥٨.



﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

«سورة البقرة / الآية ٣٧»

أبعاد البحث

الآية الشريفة أعلاه تبين من جهة بعض زوايا قصة آدم عليه السلام ومن جهة أُخرى تعتبر دليلاً مهماً على مشروعية التوسل وطلب الشفاعة، ومن جهة ثالثة تتحدّث عن عنصر التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وتعدّ من آيات الفضائل للخمسة الطاهرين ومضافاً إلى الأُمور المذكورة آنفاً في هذه الآية الشريفة فهناك روايات واردة في كتب العامّة والخاصّة تشير إلى ارتباط هذه الآية الشريفة بأهل البيت عليهم السلام كما سيتّضح ذلك في طيّات البحث.

الشرح والتفسير

التوبة والإنابة إلى الله تعالى

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فبعد أن جرىٰ ما جرىٰ من وسوسة إبليس وإخراج آدم وحواء من الجنّة التفت آدم إلى أنه ظلم نفسه، وبسبب وساوس الشيطان تمّ إخراجه من تلكم الأجواء المرفّهة وذلك النعيم العظيم حيث خرج بعدها إلى أجواء المشقّة والبلاء في الحياة الدنيا، ثمّ إنّ آدم فكّر هنا وصمم على جبران الخطأ الذي صدر منه وتوجه

بكلّ وجوده إلى الله تعالى في حالة من الندم الشديد والحسرة العظيمة، فشمله لطف الله تعالى في هذا الحال كما تقول الآية الشريفة:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وأما ما هي هذه الكلمات وما هو المراد منها؟ فسيتّضح ذلك في المباحث اللاحقة.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التوبة في الأصل بمعنى «الرجوع» ووردت في الآيات القرآنية بمعنى الرجوع من الذنب، هذا فيما لو نسبت هذه الكلمة إلى الشخص المذنب، ولكن أحياناً تنسب هذه الكلمة إلى الله تعالى وتعني حينئذٍ الرجوع بالرحمة على العبد، أي الرحمة التي سلبت من العبد بسبب معصيته وارتكابه للذنب تعود إليه عندما يتحرك هذا الإنسان في خطّ الطاعة والإنابة إلى الله تعالى.

وعلى أيّة حال فإنّ الجملة أعلاه «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» هي السبب في قبول توبة آدم.

دروس من قصة آدم وحواء

ونستوحي دروساً مهمة من قصة آدم وحواء الواردة في العديد من الآيات القرآنية الكريمة[1] وتتضمن مفاهيم بنّاءة ومؤثرة في حياة الإنسان المعنوية والأخلاقية ينبغي الإلتفات إليها:

١ ـ إنّ الله تعالى يقرّر جعل آدم بعنوانه خليفة الله في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

فما هي الشروط التي لابدّ أن تتوفر في هذا الخليفة؟ وهل أن جميع أفراد البشر هم خلفاء الله، أو أن هذا المقام السامي وهذا اللباس الفاخر لا يناله ولا يرتديه إلّا من أُوتي حظاً عظيماً منهم؟

لابدّ من التدبّر في الآيات الشريفة لمعرفة هذه الأُمور والمعارف المهمة.

---

١. وردت قصة آدم وحواء بشكل مفصّل في سورة البقرة الآية ٣٠ فصاعداً، وفي سورة الأعراف، الآية ١١ فصاعداً، وفي سورة طه، الآية ١١٥ فصاعداً.

٢. سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢ ـ إنّ الملائكة سألوا الله تعالى من موقع الإستفهام لا من موقع الإعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1].

فمن أين علمت الملائكة بسوابق الإنسان وأنه سيرتكب الجرائم في الأرض؟

٣ ـ إنّ الله تعالى خاطب الملائكة بقوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] ثمّ إنه تعالى علّم الأسماء لآدم ثمّ سأل الملائكة عن هذه الأسماء فأظهروا جهلهم بها وعدم اطلاعهم عليها، وهنا أمر الله تعالى آدم أن يعلمهم بالأسماء فعندما علّمهم وعرّفهم بها أدرك الملائكة خطأهم واعترفوا بجهلهم وقصورهم، فهنا قد يتساءل: ما هو علم الأسماء؟ ماذا كان يتضمن العلم بأسرار الخلقة والكائنات بحيث رفع مقام آدم إلى تلك الدرجة السامية؟

٤ ـ ثمّ إنّ الله تعالى أمر جميع الملائكة بالسجود لآدم ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾[3] فكيف نال آدم ذلك المقام الرفيع بحيث أصبح مسجوداً لجميع الملائكة؟ ومن هنا ندرك التفاوت والفرق بين المذهب الذي يرفع من قدر الإنسان إلى ذلك المستوىٰ الرفيع وبين المذاهب الأرضية التي تهبط بالإنسان إلى مستوى القردة والحيوانات.

٥ ـ في بداية الخلقة سكن آدم وحواء الجنّة، فأين كانت هذه الجنّة؟ هل كانت بستان من بساتين الدنيا، أو أنها جنّة الآخرة؟ وفي هذه الصورة كيف تمّ إخراج آدم وحواء منها؟

٦ ـ كيف استطاع الشيطان خداع آدم؟ وبأي شكل تمكّن الشيطان من دفع آدم باتجاه التلوّث بالخطيئة وترك الأولىٰ «أي العمل الذي تركه أولىٰ من فعله»؟

٧ ـ عندما أكل آدم من الشجرة الممنوعة فإنه وجد نفسه عرياناً وسقطت جميع ملابسه عنه ولهذا اضطر إلى التستر بأوراق الشجر فماذا كانت الشجرة الممنوعة؟ ومن أين صنعت تلك الملابس وما هو جنسها ونوعيتها؟

٨ ـ عندما وجد آدم نفسه عرياناً التفت إلى خدعة الشيطان وندم على فعله.

٩ ـ ولأجل جبران خطئه وجب عليه التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وينبغي عليه

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٠.
٢. سورة البقرة: الآية ٣١.
٣. سورة الأعراف: الآية ١١.

لتحقيق هذا الغرض أن يتقرب إلى الله تعالى بشخص معيّن لمن هو هذا الشخص ؟

١٠ ـ ورغم أن توبة آدم قد قُبلت ولكنه أُخرج من الجنّة وسكن في الأرض، فهل أنه سكن الجنّة هو وزوجته بشكل مؤقت من البداية، أو أن المقرر أن يخلّد فيها ولكنه بسبب ارتكابه لترك الأولى أُخرج منها ؟

إنّ النقاط العشرة المتقدّمة تحتاج جميعها إلى دراسة دقيقة وبحث وافر ومفصّل، ولكننا هنا سنشير فقط إلى النقطة التاسعة منها بما يتناسب مع الآية مورد البحث، أي مسألة توسل آدم في هذه الآية.

توسل النبي آدم

عندما تم إسكان آدم وحواء في الجنّة أباح لهما الله تعالى الإستفادة من جميع النعم والمواهب فيها إلّا شجرة واحدة أمره بالابتعاد عنها وعدم تناول شيء منها، وهكذا استمر آدم وحواء في حياتهما السعيدة في الجنّة ولم يقتربا من الشجرة الممنوعة، ولكنّ الشيطان الذي تلّقىٰ ضربة قاصمة عند خلق آدم وتمّ إخراجه من الجنّة وأصبح مورد اللعنة الأبدية كان يتحين الفرصة للانتقام من آدم، ولهذا شرع بالوسوسة لآدم وحواء ليدفعهما نحو الشجرة الممنوعة والتلوّث بالخطيئة.

ونعلم أن الشيطان عندما يوسوس للإنسان بالخطيئة فإنه لا يتقدم بالإنسان باقتراح ممارسة الذنب بصورة مباشرة بل يغطّي الذنب بأقنعة زائفة وبرّاقة وجذّابة بحيث إنّ الإنسان عندما يتحرّك نحو الذنب يتصور أنه يتقدم على عبادة ويؤدي وظيفته الشرعية كما يحدّثنا القرآن الكريم عن ملكة سبأ وقومها المشركين الذين كانوا يعبدون الشمس :

﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [١].

---

١ . سورة النمل : الآية ٢٤.

وعلى هذا الأساس تقدّم الشيطان في خداعه ووسوسته لآدم بالقول:

﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [١].

إنّ الإنسان يطلب البقاء والخلود بفطرته ويفزع من الفناء والعدم، والأشخاص الذين يعيشون الخوف من الموت فإنهم يتصورون أن الموت يعني الفناء والعدم، ولكنّ المؤمنين وأتباع أهل البيت لا يرون الموت سوىٰ قنطرة ينتقلون منها إلى عالم أكبر وأوسع، ولذلك فلا يشعرون بالخوف من الموت.

وعلى أيّة حال فإنّ الشيطان وبهذه الحيلة والخدعة من أن الشجرة الممنوعة تورث البقاء والخلود في الجنّة استطاع إغفال آدم عن النهي الإلهي وجرّه إلى التناول من الشجرة، ثمّ إنّ آدم أدرك خدعة الشيطان وندم بشدّة على ما صدر منه وأراد التوبة إلى الله والإنابة إليه ولكنه لم يكن يعرف طريق التوبة هذا، فعلّمه الله تعالى كيفية التوبة والتوسل بأن ألقى إليه كلمات استخدمها آدم في عملية التوبة، فكانت النتيجة أن قبل الله تعالى توبته وأعاده إلى مقامه الكريم لدى الله تعالى، واستطاع آدم بهذه التوبة أن يوجّه ضربة قاصمة أُخرى للشيطان الرجيم والعدو الرئيسي للإنسان.

ماذا كانت الكلمات؟

أما المراد من «الكلمات» التي تلقّاها آدم من الله تعالى وتوسل بها إلى الله ليقبل توبته فهناك آراء مختلفة في تفسيرها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث نظريات منها:

١ ـ إنّ المراد من الكلمات هو ما ورد في الآية ٢٣ من سورة الاعراف في قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فعندما نطق آدم وحواء بهذه الكلمات قبل الله تعالى توبتهما [٢].

٢ ـ إنّ المراد من الكلمات كما يرىٰ «مجاهد» هي هذا الدعاء:

---

١. سورة طه: الآية ١٢٠.

٢. نقل هذا القول العلّامة الطبرسي في مجمع البيان: ج ١، ص ٨٩ عن علماء ومفسّرين مثل «الحسن» و«قتادة» و«عكرمة» و«سعيد بن جبير».

اَللّهُمَّ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ، سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ خَيْرُ الْغافِرِينَ. اَللّهُمَّ لا إِلهَ إِلّا أَنْتَ، سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ. اللّهُمَّ لا إِلَهَ إِلّا أَنْتَ، سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ.[1]

٣ـ إنّ المراد من الكلمات هو: النبي محمّد، الإمام عليّ، فاطمة، الحسن والحسين عليهم السلام أي أن آدم توسل إلى الله تعالى بهؤلاء الخمسة الطاهرين واستشفع إلى الله بهم فقبل الله تعالى توبته ببركتهم[2]

وهناك أحاديث كثيرة وردت في مصادر الشيعة وأهل السنّة تؤيد النظرية الثالثة هذه، رغم إمكانية الجمع بين النظريات الثلاث المذكورة آنفاً ولا منافاة فيما بينها، أي أن آدم توسل بهؤلاء الخمسة الأطهار، ولكنّ صيغة التوبة وردت على لسانه كما رأينا في النظرية الأولى والثانية.

وكما رأينا أن بعض علماء أهل السنّة رجّحوا النظرية الثالثة التي هي مورد اتفاق علماء الشيعة وأوردوا روايات تدلُّ على هذا المطلب، نشير هنا إلى ثمانية منهم:

١ ـ العلّامة البيهقي في كتاب دلائل النبوّة[3].

٢ ـ العلّامة ابن عساكر في المسند[4].

٣ ـ العلّامة السيوطي في تفسير الدرّ المنثور[5].

٤ ـ العلّامة السيوطي في جمع الجوامع[6].

٥ ـ العلّامة الكاشفي في معارج النبوّة[7].

---

١. التبيان: ج ١، ص ١٦٩.
٢. مجمع البيان: ج ١، ص ٨٩.
٣. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٧٦.
٤. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٧.
٥. الدرّ المنثور: ج ١، ص ٦٠ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٨).
٦. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٨.
٧. معارج النبوّة: الركن ٢، ص ٩ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٨).

٦ ـ العلّامة القندوزي في ينابيع المودّة[1].

٧ ـ العلّامة ابن المغازلي في المناقب[2].

٨ ـ العلّامة النطنزي في الخصائص العلويّة[3].

ونكتفي هنا بذكر عدّة نماذج من هذه الروايات الشريفة:

الف) ينقل ابن المغازلي عن ابن عبّاس قوله:

سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الْكَلِمَاتِ الَّتي تَلَقّاها آدَمُ، قال: سَأَلَهُ آدَمُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ إلّا ما تُبْتَ عَلَيَّ فَتابَ عَلَيْهِ.[4]

ب) وينقل ابن عساكر في مسنده عن الخليفة الثاني قوله:

قالَ آدَمُ: أَسْئَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ إلّا غَفَرْتَ لِي ـ إلى قوله ﷺ ـ وَلَوْ لا هُوَ ما خَلَقْتُكَ.[5]

ورغم أن عمر بن الخطاب لم ينسب هذه الرواية إلى النبي الأكرم ولكنّ مثل هذه المفاهيم والمطالب لا يطلّع عليها غير النبي أو الإمام المعصوم ﷺ ولذلك فمن المسلّم أنه سمعها من نبي الإسلام ﷺ.

ج) وينقل العلّامة النطنزي هذه الرواية في «الخصائص العلوية»:

إنَّ الْكَلِماتِ الَّتي تَلَقّاها آدَمُ مِنْ رَبِّه: اَللّهُمَّ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ إلّا تُبْتَ عَلَيْهِ فَتابَ اللهُ عَلَيْهِ.[6]

وفي ذيل هذه الرواية ورد أنه عندما قُبلت توبة آدم صنع آدم لنفسه خاتماً وكتب على فصه اسم نبي الإسلام بعنوان «رسول الله» واسم علي بن أبي طالب بعنوان «أميرالمؤمنين».

---

١. ينابيع المودّة: ص ٩٧ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٩).

٢. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ٧٧.

٣. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٨.

٤. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٦.

٥. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٧.

٦. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٧٨.

الخلاصة أنه طبقاً للروايات الكثيرة الواردة في كتب الفريقين «وما ذكر آنفاً كانت نماذج من روايات كثيرة في هذا الباب» أن المراد من الكلمات التي توسل بها آدم إلى الله تعالى وقبلت توبته ببركة هذه الكلمات هم «الخمسة الأطهار» فهل أن هذا المقام السامي في عالم الوجود تحقّق لشخص آخر غير أهل البيت عليهم السلام ؟

ألا تدلُّ هذه الفضيلة العظيمة على أن هؤلاء الأشخاص هم أفضل البشر على الإطلاق ؟

إذا كان كذلك (وهو كذلك حتماً) وأراد الله تعالى أن يختار خليفة لنبيّه الكريم فهل يعقل أن تسمح حكمة الله تعالى بأن يكون أشخاص آخرون خلفاء لرسول الله مع وجود الشخص الأفضل ؟

وإذا أراد الناس أن يختاروا لأنفسهم شخصاً بعنوانه إماماً وخليفة عليهم فهل يجيز العقل أن يختار العقلاء أشخاصاً آخرين مع وجود الأفضل منهم ؟ والحكم إليكم.

هل أن التوسل مشروع؟

مع الأسف أن مكّة المكرمة والمدينة المنورّة ومقدّرات هاتين المدينتين المباركتين قد وقع بيد الوهابيين الذين يعيشون الاعتقادات الجافّة والخشنة ويرتدون ثياب القداسة الزائفة في مخالفتهم الشديدة لمسألة التوسل هذه ويمنعون المسلمين من زيارة قبر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والتوسل بمقامه وكرامته عند الله تعالى وكذلك زيارة قبور أئمّة البقيع الطاهرين عليهم السلام وسائر عظماء الإسلام المدفونين في البقيع، فمن أين لهم الحقّ في تحميل عقائدهم الخشنة على سائر المسلمين حتّى على الكثير من أهل السنّة أيضاً؟

لو كان لهم مثل هذا الحقّ فلماذا لا يتحركون لفرض كيفية الصلاة التي يعتقدون بها في وجوب التكتف على سائر المسلمين ؟

هذه بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تراود كلّ مسلم يزور مكّة والمدينة ولا يجد جواباً لها... أجل إن الوهابيين يخالفون بشدّة مسألة التوسل ويرون أنها تتنافى مع التوحيد وأنها من قبيل الشرك بالله تعالى ا وقد حان الكلام لبحث مسألة التوسل ومشروعيته من خلال الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام.

أقسام التوسل

للتوسل أقسام مختلفة:

١ ـ تارةً يكون المخاطَب لنا هو النبي أو الإمام نفسه، من قبيل ما ورد في دعاء التوسل حيث يخاطب الداعي كلُّ واحد من المعصومين فرداً فرداً ويطلب من هؤلاء الطاهرين أن يشفعوا له عند الله بما لديهم من الجاه والمقام والكرامة عنده، ففي هذا النوع من التوسل نحن نطلب حاجتنا في الحقيقة من الله تعالى ونجعل هؤلاء المعصومين وسائط في هذا الطلب.

٢ ـ وتارةً أُخرى يكون المخاطَب هو الله تعالى، ولكنّ الداعي يخاطب الله تعالى بحقّ الشخص الذي يعتبره وجيهاً عند الله ليضمن استجابة حاجته وطلبه كما توسل آدم إلى الله تعالى بالخمسة الطاهرين:

«اَللّهُمَّ يا حَميدُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَيا عالِيُ بِحَقِّ عَلِيٍّ وَيا فاطِرُ بِحَقِّ فاطِمَةَ وَيا مُحْسِنُ بِحَقِّ الْحَسَنِ وَيا قَديمَ الْإِحْسانِ بِحَقِّ الْحُسَيْنِ».

وفي هذا النحو من التوسل يطلب المتوسل حاجته من الله أيضاً ويجعل كرامة هؤلاء الأولياء واسطة لضمان الإستجابة.

٣ ـ وفي قسم ثالث يكون الله تعالى هو المخاطَب أيضاً ولكننا نقسم عليه بحقّ الشخص الذي له وجاهة عند الله ليستجيب لنا دعاءنا ويقضي حاجتنا، من قبيل أن يقال: إلهنا نقسم عليك بنبي الإسلام أو بالقرآن الكريم أو بغير ذلك من المقدّسات، إلّا ما قضيت حاجتنا.

ولكنّ الوهابيين يحرّمون جميع أقسام وأنواع التوسل هذه ويعتبرونها نوعاً من الشرك، وهنا نلفت النظر إلى بعض مقولات رموزهم وعلمائهم:

١ ـ يقول محمّد بن عبدالوهاب في كتابه «التوحيد» الذي ينبغي أن يسمّىٰ بكتاب «الشرك»:

إنّ هذا الشّرك الأكبر[١] (أي التوسل).

---

١. نقلاً من كشف الإرتياب: ص ٣٠١.

٢ ـ يقول الصنعاني أحد علماء الوهابية أيضاً:

من توسّل بمخلوق فقد أشرك مع الله غيره واعتقد ما لا يحلّ اعتقاده.[١]

٣ ـ ويقول ابن تيمية المؤسس الحقيقي للفكر الوهابي:

من توسّل بعظيم عند الله... فهذا من أفعال الكفّار والمشركين.[٢]

والخلاصة هي أن من يعتقد بمذهب الوهابية يرىٰ أن أي نوع من التوسل هو شرك بالله تعالى وأن المتوسل منحرف عن الإسلام الحقيق، ولذلك يتحركون في مكّة والمدينة بذريعة «الشرك» و «البدعة» من موقع إلحاق الأذىٰ وإيجاد المشاكل لحجاج بيت الله الحرام وزوار المدينة المنورّة.

مقام التوحيد ومكانته السامية

ولأجل بيان هذه الحقيقة وهي أن التوسل لا يتنافى إطلاقاً مع التوحيد نرىٰ من اللازم في البداية توضيح معنى التوحيد وبيان مقامه السامي في دائـرة المـعتقدات الإسـلامية، وباعتقادنا أن التوحيد هو أصل وأساس الدين ويلعب دوراً أسـاسياً في جـميع الأُمـور المتعلّقة بالدين والسلوك الديني، إنّ الله تعالى واحد، وجميع الأنبياء دعوا أقوامهم إلى شيء واحد، وأن جميع الناس سوف يبعثون بعد الموت، وأن الكعبة هي قبلة المسلمين، والقرآن لدى جميع المسلمين واحد، والخلاصة أن التوحيد يمثل الأصل والأساس لجـميع أُصـول الدين وفروعه، ولهذا فإنّ التوحيد ليس أصلاً من أُصول الدين فقط بل يستوعب جـميع أُصول الدين وفروعه، والتوحيد بمثابة خيط المسبحة الذي يربط جميع حباتها بحيث لولا التوحيد لا يبق للدين من معنى كما أنه لولا خيط المسبحة لا يبق معنى لوجود المسبحة، وبالالتفات إلى هذا المعنى للتوحيد ومكانته العليا بين العقائد والمفاهيم الإسلامية فـإننا نعتقد بأن كلّ أمر يتنافى مع التوحيد فهو مرفوض ومردود.

---

١. تطهير الإعتقاد نقلاً من كشف الإرتياب: ص ٣٠١.

٢. كشف الإرتياب: ص ٣٠٢.

أقسام التوحيد

للتوحيد أقسام ومراتب متعدّدة، ونشير هنا إلى أربعة مراتب مهمّة للتوحيد:

١ ـ توحيد الذات: يعني الإعتقاد بأن الله تعالى واحد في ذاته، وليس المراد بأنه واحد في العدد أي موجود واحد لا إثنين لأنه على أساس المعنى الأوّل للتوحيد أن الله واحد، بمعنى أن الانسان لا يتصور له شبيه ومثيل، ولكن على المعنى الثاني يمكن تصور الشبيه والمثيل رغم انعدام الوجود الخارجي لهذا الشبيه.

وعلى هذا الأساس فإنّ الآية الأُولى من سورة التوحيد ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تفسر بمعنى قوله تعالى في هذه السورة أيضاً ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فلا نظير له ولا شبيه ولا يمكن تصور النظير والشبيه له.

٢ ـ توحيد الصفات: فجميع صفات الله تعالى تعود إلى حقيقة واحدة، فليست صفة العلم شيءٌ آخر غير القدرة، والقدرة الإلهية أيضاً ليست شيئاً آخر غير الأزلية، وهكذا سائر الصفات الأُخرى تعود في الحقيقة على الذات، ولكن بالنسبة إلى الانسان فيمكن القول أن علمه في روحه، وشجاعته وقدرته في عضلاته، ورحمته في قلبه، ولا يصحّ هذا القول بالنسبة إلى الله تعالى فإنّ ذاته المقدسة هي علم وقدرة وحياة وغير ذلك.

٣ ـ توحيد الأفعال: إنّ كلُّ فعل أو حركة أو ظاهرة في هذا العالم هي في الواقع من تجليّات الذات المقدسة ولا شيء بإمكانه أن يؤثر في عالم الوجود بدون إذنه ومشيئته «لَا مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ» فعندما تحرق النار شيئاً فإنّ ذلك بإذن الله، ولذلك رأينا أن نار نمرود لم تستطع إحراق إبراهيم لأن الله تعالى لم يأذن لها بذلك، وعندما يطفىء الماء النار فذلك أيضاً بمشيئة الله، وكلُّ ما نعمل من عمل فإن ذلك بإذن الله لأنه تعالى هو الذي أقدرنا على ذلك ومنحنا الإختيار والحرية والقدرة والعقل لنتصرف كيف ما نريد، فكلُّ ذلك حصلنا عليه من الله تعالى، وكلُّ حركة من حركاتنا تعود إلى ذاته المقدسة، والخلاصة أن المؤثر للاستقلال هو الله تعالى وما بقي من الأسباب فليس لها قدرة على التأثير إلّا بمشيئة الله وإرادته.

٤ ـ توحيد العبادة: إنّ العبادة لا ينبغي أن تكون إلّا لله تعالى ولا يوجد موجود يليق

بالعبادة غير الله تعالى، كما يشاهد من بعض الشيعة عندما يدخلون المشاهد المشرّفة لأحد الأئمّة الأطهار ﷺ فإنّهم يقبلون الأرض أو عتبة الباب، فهو في الحقيقة من قبيل سجدة الشكر لله تعالى أنه وفقهم لزيارة أوليائه لا أنها سجود للإمام (والعياذ بالله) لأن الشيعة لا يعتقدون بأي موجود يستحق العبادة والسجود غير الله تعالى ولا يسجدون لغير الله، ولذلك نوصي الشيعة أن يتركوا هذا العمل أيضاً أي سجدة الشكر أمام الضريح المقدّس دفعاً لهذا التوهم وألا يكون ذلك ذريعة بيد البعض ليتحركوا ضد الشيعة من موقع التهويل والإتهام، وعلى أيّة حال فإنّ العبادة لا تكون إلّا لله تعالى.

هذه المراتب الأربع للتوحيد تعتبر المراتب الأصلية للتوحيد رغم وجود مراتب أُخرى متفرعة عليها نظير: توحيد الحاكمية [1]، توحيد الشارعية [2]، توحيد المالكية [3]، وأمثال ذلك [4].

ومن هنا يتضح أن الإنسان المسلم إذا اعتقد بما ذكر أعلاه من حقيقة التوحيد فإنه كامل الإيمان وموحد في نظر الإسلام، ولكن الوهابيين الذين يدّعون التوحيد ويرفضون الشرك لم يدركوا عمق هذه المراتب للتوحيد الواردة في تعاليم أئمّة أهل البيت ﷺ ولذلك فهم يتهمون الآخرين بالشرك دائماً.

الأشاعرة والتفسير الخاطىء للتوحيد الأفعالي

الأشاعرة وهم أحد مذاهب أهل السنّة عندما لم يستوعبوا الفهم الصحيح للتوحيد الأفعالي ذهبوا إلى الجبر وأن الإنسان مجبور على أفعاله، لأنهم تصوروا إنّ الإنسان إذا كان

---

١. المراد من توحيد الحاكمية هو أن تكون مشروعية الحكومات البشرية مستمدة من الله تعالى لا من الناس، وحتّى عندما يشترك الناس في الإنتخابات ويختاروا لهم حاكماً ورئيساً فإن ذلك يقتبس مشروعيته من أمر الله تعالى.

٢. «توحيد الشارعية» يعني أن المقنّن والمشرّع للقوانين هو الله تعالى، فكلّ قانون ينتهي إلى القوانين الإلهية فهو مشروع.

٣. «توحيد المالكية» يعني أن المالك في الحقيقة هو الله تعالى، وأما ما يملكه الناس فهو في الحقيقة أمانة بأيديهم، فكلّ ما لدينا في الحياة هو أمانة موقتة جعلها الله في اختيارنا لأيام معدودة.

٤. للمزيد من التفاصيل حول أقسام التوحيد، انظر: نفحات القرآن: ج ٤، للمؤلف.

مختاراً في أفعاله فإنّ ذلك يعني الشرك في دائرة التوحيد الأفعالي، في حين أن هذه العقيدة (وهو الجبر) تثير علامات الإستفهام في كافة أُصول العقيدة من النبوّة والقيامة والإمامة والعبادات التي أمر بها الإسلام.

والحقيقة أن الإنسان لو كان مخيّراً ومجبوراً في أفعاله وكان يعيش فقدان الإرادة والإختيار في حركته في الحياة فما معنى مؤاخذته ومساءلته يوم القيامة؟

كيف يمكننا توجيه عقاب المذنبين وثواب المطيعين في الحياة الآخرة؟ لأن كلاً من المطيع والعاصي كانا يتحركان في سلوكهما من دون اختيار وإرادة، فلا المذنب اختار أن يكون مذنباً ولا المطيع اختار أن يكون مطيعاً، فلماذا إذن يستحق الأوّل العقوبة والثاني المثوبة؟

إذا قلنا بالجبر فلا ينبغي لأي محكمة أن تعاقب المجرم على جريمته لأنه مجبور حسب الفرض على ذلك.

هل يصحّ أن نعاقب النار على إحراقها لإنسان بريء؟

هل يعقل أن نحاكم البحر ونقضي عليه بالعقاب الصارم لأن إنساناً بريئاً غرق في مياهه؟

هل يمكننا محاكمة الكهرباء فيما لو أدّت إلى قتل شخص بريء؟

بديهي أن جواب هذه الأسئلة بالنفي وستكون مثل هذه المحاكمة مضحكة ومدعاة للسخرية، وهكذا حال الإنسان المجبور على أفعاله فإنه يكون حاله حال الماء والنار والكهرباء فيما لو أقدم على ارتكاب جريمة.

والملفت للنظر أن أصحاب هذه النظرية يخالفون نظريتهم في مقام العمل والممارسة، فلو أن أحداً صفعهم لرأيناهم يعترضون عليه، ولو أنّ لصاً دخل إلى بيوتهم وسرق منها شيئاً لقاموا بتقديمه إلى المحكمة، في حين أن الإنسان إذا كان مجبوراً وفاقداً للإرادة فلا معنى للاعتراض والشكاية، ولكننا نرى هذا التناقض بوضوح بين قول أصحاب عقيدة الجبر وبين أفعالهم وممارساتهم.

لعلّ القارئ العزيز يتصور أن هذه المطالب ما هي إلّا أفكار وتوهمات تجول في مدارات الذهن فقط من دون أن يكون لها رصيد واقعي من الأشخاص المؤيدين لها، ولكن مع

الأسف فهناك الكثير من الأشخاص المغفلين الذين يتحركون في دائرة العقيدة والمذهب من موقع الدفاع الشديد عن هذه النظرية الباطلة وقد كتبوا في ذلك كتباً متنوعة.

أجل، فإنّ هؤلاء الأشخاص عندما لم يستطيعوا إدراك مغزى التوحيد الأفعالي ذهبوا إلى الجبر وغفلوا عن أن الله تعالى هو الذي وهب للإنسان الإختيار والإرادة، وعندما نقول أن الإنسان حرٌّ ومختار في أفعاله فإنما ذلك على أساس أنّ كلّ هذه الأمور متصلة بالله تعالى وبمشيئته، وبذلك لا يكون هناك تقاطعاً بين اختيار الإنسان والتوحيد الأفعالي.

وقد ذهب الأشاعرة والجبرية إلى أكثر من ذلك، فقد أنكروا عالم الأسباب والمسببات وقالوا: إنّ النار لا تحرق أبداً بل الله تعالى هو الذي يحرق، وكذلك ذهبوا إلى أن الحجر لا يكسر الزجاج بل بمجرد أن يقترب منه ويمسه فإنّ الله تعالى يقوم بكسر الزجاج.

أجل، فإنهم أنكروا مثل هذه الأمور البديهية بسبب تفسيرهم الخاطىء للتوحيد الأفعالي، ورأينا أن التوحيد الأفعالي لا يتنافى إطلاقاً مع إختيار الإنسان وإرادته، وكذلك لا يتنافى مع عالم الأسباب لأن الإرادة السببية في عالم المخلوقات كلّها تعود في الأصل إلى الله تعالى، فإنه هو الذي وهب الإنسان القدرة والقوّة والعقل والإختيار والإرادة، وبما أن هذه الأمور جميعاً من الله تعالى إذن يصحّ نسبتها جميعاً إليه رغم أن الإنسان لا يتجرد من المسؤولية وحرية الإنتخاب في دائرة الفكر والعقيدة والممارسة.

ولأجل توضيح المطلب أكثر نضرب لذلك مثالاً:

عندما يدفع الأب بعض المال لولده لينفقه في مصارفه ومعيشته فالأب من جهة يمكنه في أي لحظة أن يأخذ هذا المال باعتباره ماله وملكه رغم أن الإبن إذا اشترى بهذا المال شيئاً فإن المسؤولية تقع عليه لا على الأب.

والنتيجة هي أن التوحيد الأفعالي لا يتنافى مع اختيار الإنسان وإرادته ولا ينبغي أن نتصور أن ذلك يدخلنا في دائرة الشرك.

هل ينسجم التوسل مع التوحيد؟

سؤال: لماذا يتصور الوهابيون أن التوسل هو نوع من الشرك؟ وكيف يتقاطع التوسل

مع أحد مراتب التوحيد المتقدّمة ؟ وهل أن التوسل يتنافى مع توحيد الذات، أو مع توحيد الصفات ؟

بلا شكّ أن التوسل لا يتنافى إطلاقاً مع توحيد الذات والصفات، ولكن هل يثير التوسل مشكلة في دائرة العبادات والتوحيد الأفعالي ؟ إذا كان الجواب بالإيجاب من قبل الوهابيين فينبغي القول بأنهم وقعوا في اشتباه كبير لأن الشيعة عندما يتوسلون بالنبي أو الأئمّة المعصومين أو القرآن الكريم لا يرون أن ذلك من العبادة لهؤلاء إطلاقاً كما هو الحال في عبادة المشركين للأصنام والأوثان وتصورهم أنها شفعاء لهم عند الله، بل نحن نطلب من هؤلاء الأولياء أن يتوسطوا لنا بما لديهم من جاه ومقام عند الله تعالى لحلّ مشاكلنا واستجابة دعائنا، وعلى هذا الأساس فإنّ الفرق بين التوسل وبين عبادة المشركين واضح جدّاً، والشخص الذي يتصور أن توسل الشيعة إنما هو مثل عبادة المشركين للأوثان في الحقيقة هو إنسان بعيد عن الإنصاف وجادة الصواب.

مضافاً إلى ذلك أن التوسل بالخشب والحجر لا يعود على الإنسان إطلاقاً بالنفع والضرر، وهذا المعنى لا يقبل القياس بالتوسل بالإمام والنبي والقرآن والتقرّب بهم إلى الله تعالى، والنتيجة هي أن التوسل لا يتنافى مع توحيد الذات ولا توحيد الصفات ولا التوحيد في العبادة. إذن فما هو مقصود الوهابيين من قولهم بأن التوسل شرك ؟ وما هي المرتبة من مراتب التوحيد التي يرون أنها تتنافى مع التوسل ؟

الجواب : الظاهر أن مقصود الوهابيين من أن التوسل شرك هو أنه يتنافى مع التوحيد الأفعالي، لأن الشخص الذي يتوسل بالنبي أو الإمام ويطلب منه حلّ مشكلته فإنه يرى أن غير الله تعالى له تأثير في عالم الخلق، ونعلم أن التأثير منحصر بالله تعالى ولو أن الإنسان اعتقد بأن غير الله يمكنه أن يؤثر في عالم الوجود فهو نحو من أنحاء الشرك.

والجواب على هذا الكلام هو أن الشيعة لا يرون للنبي والإمام والقرآن تأثيراً في عالم الخلقة في عرض الله تعالى، بل في طول القدرة الإلهية، ولا تكون قدرتهم مؤثرة إلّا بإذن الله ومشيئته، وهذا المعنى لا يتنافى إطلاقاً مع التوحيد الأفعالي، نعم إذا قلنا إنّ النبي أو الإمام يؤثر في عالم الخلقة بالإستقلال «نعوذ بالله» فهذا هو الشرك، ولكن لا أحد يقول بهذا المعنى، فعندما نقول أن النبي الأكرم ﷺ يشفع لنا عند الله ويتوسط في حلّ مشكلاتنا ليكون الله

تعالى هو الذي يحلّ هذه المشكلة أو يشافي المريض أو يرزق الفقير فإنّ ذلك ليس من الشرك بل هو عين التوحيد.

وبما أن هذا المعنى انعكس في دائرة المفاهيم القرآنية بوضوح فينبغي القول بأن هؤلاء الوهابيين لا يقبلون بالقرآن أيضاً، لأن الآية ٤٩ من سورة آل عمران تردّهم رداً قاطعاً وتبطل إدعاءاتهم الفارغة واتهاماتهم الباطلة وذلك في قوله تعالى:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

فنرى أن عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل ويقول بانني بعثت رسولاً إليكم من قبل الله تعالى ومعي معجزة، ثمّ يذكر ثلاث معجزات:

١ ـ ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾.

وهكذا نرىٰ أن المسيح عليه السلام يقول بأنني أصنع لكم طيراً من طين ثمّ أنفخ فيه الحياة والروح فيتحول هذا التمثال الطيني إلى طائر حي بإذن الله، أي إنني لا أستطيع التأثير في هذه الأشياء في عرض قدرة الله ومشيئته بل إن قدرتي وتأثيري إنّما هي بإذن الله وليست مهمتي سوىٰ أن أنفخ في هذا التمثال ليتحول إلى طائر فيه حياة وشعور بإذن الله.

٢ ـ ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

المعجزة الأُخرىٰ لعيسى بن مريم عليه السلام هي شفاء المرضى المزمنين والأعمى والأبرص وإحياء الموتى، وطبعاً كلّ هذه الأعمال إنّما أقوم بها بمشيئة الله وإذنه ولا تتصوروا أنني إله أو ابن إله فلست سوىٰ وسيلة لتحقيق هذه الأغراض، والمصدر الحقيقي هو الله تعالى، فإحياء الموتى وشفاء المرضى كلّها صادرة من ساحته المقدسة.

٣ ـ ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

العلامة الثالثة لنبوّة عيسى ابن مريم انه كان يخبرهم بما لديهم من أطعمة وأغذية في بيوتهم ويخبرهم بما يأكلون من طعام وشراب كلّ ذلك بتعليم الله تعالى.

وهذه الآية الشريفة تمثل رداً حاسماً على من ينكر الولاية التكوينية أو ينكر مشروعية التوسل ويتصور بأن ذلك يتنافى مع التوحيد الأفعالي، وعليه فإذا نسبنا هذه الأفعال إلى غير الله تعالى واعتقدنا بأن الانسان يمكنه أن يؤثّر في عالم الأسباب والمسببات بإذن الله ومشيئته فإن هذا المعنى لا يتنافى مع التوحيد إطلاقاً.

التوسل في القرآن

ومضافاً إلى ما تقدّم فهناك آيات قرآنية عديدة تذكر مسألة التوسل بصراحة وإليك بعض النماذج والأمثلة على ذلك:

١ ـ نقرأ في الآية ٩٧ من سورة يوسف قوله تعالى:

﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ﴾.

عندما وصل خبر يوسف وأنه في كامل الصحّة والعافية إلى أبيه وأخوته تحرّك الأخوة لجبران خطئهم واشتباههم من موقع التوبة والإستغفار وجاءوا إلى أبيهم وتوسطوا إليه ليستغفر لهم الله تعالى وجعلوه واسطتهم إلى الله تعالى ليغفر لهم شنيع فعلتهم، فأجابهم يعقوب بقوله:

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[1]

وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ أبناء يعقوب المذنبين توسلوا إلى أبيهم النبي وطلبوا منه أن يتوسط لهم إلى الله تعالى ليغفر لهم ويعفو عنهم، وعليه فلا إشكال في أن نتوسل بنبي الإسلام ﷺ أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام أو القرآن الكريم أو المقدسات الأخرى ونجعلها واسطتنا إلى الله تعالى لطلب الفرج واستجابة الدعاء وأمثال ذلك.

٢ ـ ونقرأ في الآية ٦٤ من سورة النساء:

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾.

إنّ الله تعالى في هذه الآية الشريفة يعلّم الناس طريق التوسل، وفي مقابل هاتين الآيتين من القرآن الكريم نرى أن الوهابيين يحرّمون ويمنعون التوسل، فما هو المسوغ لهم لهذا المنع؟

---

١. سورة يوسف: الآية ٩٨، والسبب في أن يعقوب لم ينفذ طلبهم في ذلك الوقت هو أن لكلّ شيء زمان خاص، والدعاء قد يستجاب في بعض الأوقات أسرع من غيرها، ولهذا أوكل يعقوب الدعاء لأبنائه إلى المستقبل، وقد ورد في بعض الروايات أنه كان يريد أن يدعو الله لهم في ليلة الجمعة وهو الوقت المناسب جداً لاستجابة الدعاء، والملفت للنظر أنه ورد في تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٤٩١، أن يعقوب كان يقصد الدعاء في ليلة الجمعة التي تصادف ليلة عاشوراء.

التوسل بالعظماء والأولياء بعد وفاتهم

إنّ الوهابيين يفتقدون إلى الجواب المنطقي في مقابل هذه الآيات القرآنية والبراهين العقلية ولذلك اضطروا إلى تعديل مواقفهم من مسألة التوسل وأجازوا التوسل بالنبي في حياته ومنعوه بعد وفاته.

إنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى لوازم هذا الرأي، لأن ذلك يعني أن الشرك وفقاً لهذه العقيدة مباح في حياة النبي ولكنه حرام بعد وفاته، وبعبارة أخرى أن لازم ذلك أن يكون الشرك على نحوين: ١ ـ الشرك المباح، ٢ ـ الشرك المحرّم والممنوع.

فهل سمعتم عالماً ينطق بمثل هذا الكلام؟

هل سمعتم أحد المسلمين يقول بأن الشرك مباح في بعض الأحيان؟

إنّ بطلان الشرك بمثابة قانون عقلي كلّي لا يقبل الإستثناء، ولكنّ الوهابيين هم طائفة متخلّفة فكرياً وعلمياً دون سائر المذاهب الإسلامية حيث لا يمكن قياسهم بعلماء دمشق ولا بعلماء الأزهر ولا بعلماء الشيعة وفضلاء الحوزات العلمية.

مضافاً إلى ذلك نقول: كيف اختلف الحال بين وجود النبي على قيد الحياة وبعد الوفاة؟ فرغم أن بدن النبي قد مات ودفن في التراب ولكن بدون شكّ أن روحه بعد خروجها من البدن الشريف ستكون أقوى على مستوى التأثير والإدراك.

والقرآن الكريم يقرر الحياة البرزخية للشهداء ويقول في الآية ١٦٩ من سورة آل عمران:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

فعندما يكون الشهداء أحياءاً بعد موتهم ويتناولون الطعام عند ربّهم كما تقول الآية التي بعدها أنهم يشهدون أعمال أحبتهم ورفقاءهم في هذه الحياة الدنيا، فهل أن النبي الأكرم ﷺ الذي يتمتع بمقام أسمى بكثير من مقام الشهداء لا تكون له حياة برزخية؟

بلا شكّ أن النبي يعيش الحياة البرزخية في أعلى المستويات، ولذلك نرى أن المسلمين في ختام كلّ صلاة يسلمون عليه ويقولون:

«السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ».

فلو لم يكن النبي حيّاً فلماذا هذا السلام، وعلى من يكون، وماذا يعني؟

النتيجة هي أن التوسل بالأولياء جائز في حال حياتهم وبعد موتهم، ولا فرق هناك بين موت هؤلاء وحياتهم في هذه المسألة.

التوسل في الروايات

لقد ورد التوسل في روايات الفريقين الشيعة والسنّة بشكل واسع، ونشير هنا إلى بعض هذه الروايات الواردة في مصادر أهل السنّة:

۱ ـ ينقل البيهقي أحد علماء أهل السنّة عن أنس «الخادم الخاصّ للنبي الأكرم ﷺ» قوله:

جاء رجل من الأعراب إلى رسول الله ﷺ وأنشد يقول:

أتَيْناكَ وَالْعُذْراءُ يُدْمِي لِبانُها وَقَدْ شَغَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ

وَلَيْسَ لَنا إلَّا إلَيْكَ فِرارُنا وَأيْنَ فِرارُ الْخَلْقِ إلّا إلَى الرُّسُلِ

فعندما سمع النبي ﷺ بحال هذا الرجل المؤلمة تأثّر كثيراً وتوجّه إلى المسجد وهو يجرّ بردائه من شدّة الهمّ والحزن، فصعد المنبر ورفع يديه للدعاء، وما زال يدعو حتّى نزل المطر ونجىٰ الناس من القحط[1].

فطبقاً لهذه الرواية فإنّ ذلك الأعرابي توسل في زمان حياة النبي ﷺ به، ولم يمنعه رسول الله ﷺ من ذلك أو ينهاه.

۲ ـ ويورد البخاري في كتابه رواية في هذا المجال، وهي أن الناس أصيبوا بالقحط في أيّام رسول الله ﷺ فجاؤوا إليه يشكون إليه حالهم، فدعا رسول الله ﷺ فنزل المطر، فقال النبي ﷺ:

«لَوْ كانَ أبُو طالِبٍ حَيّاً لَقَرَّتْ عَيْناهُ»[2].

---

۱. كشف الإرتياب: ص ۳۱۰، وللاطلاع على البحوث المتعلقة بصلاة الإستسقاء، راجع كتابنا «تحقيق حول صلاة الإستسقاء».

۲. كشف الإرتياب: ص ۳۱۰.

وهذه الجملة من كلام النبي ﷺ إشارة إلى ما كان من النبي قبل البعثة من دعاء أبي طالب لنزول المطر وكان النبي يومذاك رضيعاً، فأخذه أبوطالب وأقسم على الله تعالى بحقّ هذا الطفل إلّا ما أنزلت علينا المطر. فاستجيب دعاؤه ونجا الناس من الهلاك والقحط، ثمّ إنّ أبا طالب أنشد أبياتاً من الشعر مطلعها:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ   ثِمَالُ الْيَتَامَىٰ عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ[1]

والخلاصة أن الناس طبقاً لهذه الرواية كانوا قبل البعثة وبعدها يتوسلون إلى الله تعالى بالنبيّ الكريم ﷺ ولن يتحرك النبي الأكرم لمنعهم من هذا العمل بل إنه أثنى عليه بحيث إنه طلب من البعض أن يقرأوا أشعار أبي طالب التي قالها بمناسبة واقعة الإستسقاء فتكفل الإمام علي ﷺ بهذه المهمة.

٣ـ قال السمهودي أحد كبار علماء أهل السنّة في كتابه «وفاء الوفاء» عن مالك أحد أئمّة المذاهب الأربعة لأهل السنّة: ناظر أبو جعفر أميرالمؤمنين مالكاً في مسجد الرسول ﷺ فقال مالك: يا أميرالمؤمنين لا ترفع صوتك في المسجد فإن الله تعالى أدب قوماً فقال:

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2]، ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

فقال منصور: هذا كان في حياته لا بعد مماته.

فقال مالك: «حُرْمَتُهُ مَيِّتاً كَحُرْمَتِهِ حَيّاً».[5]

---

١. كشف الإرتياب: ص ٣١١.
٢. سورة الحجرات: الآية ٢.
٣. سورة الحجرات: الآية ٣.
٤. سورة الحجرات: الآية ٤.
٥. وفاء الوفاء: ج ١، ص ٤٢٢ نقلاً من كشف الإرتياب: ص ٣١٧.

وطبقاً لهذا الكلام فإن احترام النبي واجب في حال حياته وبعد مماته والتوسل به جائز أيضاً على أيّة حال.

٤ ـ وقد ذكر «ابن حجر» من علماء أهل السنّة المعروفين والإنسان المتعصب جداً في كتابه «الصواعق المحرقة» اعترافات مهمة لصالح الشيعة، ومن تلك الاعترافات ما أورده من شعر الإمام الشافعي حيث يقول:

آلُ النَّـــبِيِّ ذَرِيـــعَتِي وَهُـــمْ إِلَـــيْهِ وَسِـــيلَتِي

أَرْجُـــو بِـــهِمْ أُعْـــطَى غَـــداً بِـــيَدِ الْـــيُمْنَى صَـــحِيفَتِي[1]

النتيجة: أن التوسل بأولياء الدين والمقدّسات كالقرآن الكريم لا تتنافى إطلاقاً مع التوحيد الأفعالي، وقد ورد التمجيد والترغيب في القرآن والروايات الشريفة للمسلمين لمثل هذا العمل.

لا تجوز العبادة لغير الله

سؤال: لقد قلتم أن العبادة خاصّة بالله تعالى ولا ينبغي عبادة غير الله لأن ذلك يحسب من الشرك في حين أننا نجد في بعض الآيات القرآنية أنها تتحدّث عن السجود لغير الله تعالى من قبيل:

١ ـ ما ورد في قصة آدم وحواء عندما خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له:

﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.[2]

فلو كانت العبادة لغير الله تعالى شرك فلماذا ورد الأمر في هذه الآية الشريفة بالسجود لآدم؟

٢ ـ وفي سورة يوسف عندما تحرك الأخوة مع الوالدين من الصحراء متوجهين إلى مصر بعد أن علموا بحياة يوسف، حيث يحدّثنا القرآن الكريم عن اللحظة التي التقى فيها هؤلاء بالنبي يوسف وقال:

---

١. الصواعق المحرقة نقلاً من كشف الإرتياب: ص ٣١٩.

٢. سورة الحجر: الآية ٣٠ وسورة ص: الآية ٧٣.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾.[١]

فطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ أبناء يعقوب سجدوا ليوسف، فلو كان السجود لغير الله شركاً، فكيف نفسر ما ورد في هذه الآية الشريفة؟

٣ـ عندما ورد بنو إسرائيل بيت المقدّس فإنّ الآية تذكر هذه الواقعة وأن بني إسرائيل سجدوا عند ورودهم المعبد في بيت المقدّس كما نقرأ ذلك في الآية ٥٨ من سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والخلاصة أن هذه الآيات الثلاث تتحدّث عن السجود لغير الله فكيف يتناغم ذلك مع التوحيد في العبادة؟

الجواب: تقدم أن حرمة الشرك وعدم جواز السجود لغير الله واختصاص العبادة بالله تعالى إنّما هو قانون كلّي لا يقبل الإستثناء، فالشرك لا يمكن أن يتواءم مع التوحيد في أي مرتبة من مراتبه، وعليه فإنّ السجود الوارد في الآيات المذكورة لا يعني العبادة بل هو سجود الشكر والتعظيم لله تعالى على نعمه ومواهبه العظيمة.

عندما سجد الملائكة لآدم ففي الحقيقة أنهم سجدوا لله تعالى الذي خلق مثل هذا المخلوق العظيم، إذن فالسجود في الواقع كان لله تعالى ولكن بسبب خلق آدم.

وهكذا في أُخوة يوسف فإنهم سجدوا شكراً لله تعالى لأجل النعمة العظيمة التي أولاها الله تعالى لأخيهم يوسف، ولأجل نجاتهم من الحياة الصعبة والشاقّة في صحراء كنعان ورؤيتهم أخيهم بعد سنوات من الفراق وبالتالي انتقالهم إلى مصر ليعيشوا حياة طيبة ومرفهة وكريمة، فلأجل ذلك سجدوا شكراً لله تعالى، كما هو الحال في بني إسرائيل الذين سجدوا لله تعالى لا لمسجد بيت المقدّس.

عندما يقوم المسلمون والحجاج بأداء صلاة الجماعة حول الكعبة ويسجدون لله تعالى في صلاتهم هذه أمام بيت الله الحرام، فهل معنى هذا أنهم سجدوا للكعبة، أو أن أحداً من المسلمين لا يسجد للكعبة بل يسجد لله تعالى ويعبده وحده ولكن في مقابل الكعبة؟

---

١. سورة يوسف: الآية ١٠٠.

وعلى هذا الأساس فإنّ السجود في جميع الموارد هو لله تعالى، وفي الحقيقة هو مصداق بارز لعبادة الله رغم أن الدوافع قد تكون متفاوتة ومختلفة، والنتيجة هي أن الآيات الثلاثة المذكورة آنفاً لا تعدُّ استثناءاً من القاعدة الكليّة في توحيد العبادة.

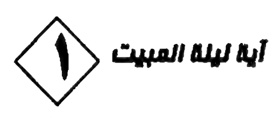
ꕤ

الفصل الثالث

آيات الفضائل الخاصة

بالإمام علي عليه السلام

- ✓ آية ليلة المبيت
- ✓ آية سقاية الحاج
- ✓ آية النصرة
- ✓ آية علم الكتاب
- ✓ آية المؤذن وآية الأذان
- ✓ آية المحسنين
- ✓ آية السابقون الأولون
- ✓ آية المحنة
- ✓ آية السابقون
- ✓ آية أذن واعية
- ✓ آية صالح المؤمنين
- ✓ آية الإنذار والهداية
- ✓ آية خير البرية
- ✓ آية الحكمة



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾

«سورة البقرة / الآية ٢٠٧»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة المعروفة بآية «ليلة المبيت» تعتبر إحدى أهم الآيات الواردة في فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام، وهي الفضيلة العظيمة التي لم تتحقق لأحد من المسلمين غير الإمام علي عليه السلام حيث تشير الآية الشريفة أعلاه إلى ما قام به الإمام علي في ليلة هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة ومنامه في فراشه كما سيأتي توضيحه لاحقاً.

شأن النزول

يرى كثير من علماء الشيعة وأهل السنّة أن الآية مورد البحث نزلت في حقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حيث ذكروا هذا الموضوع في كتبهم إلى درجة أن هذه الواقعة قد وصلت إلى حدّ التواتر، أي أنها من الكثرة بحيث لا يمكن إنكارها.

وخلاصة قصة ليلة المبيت كما يلي:

عندما أحسّ أعداء الإسلام ومشركوا مكّة المعاندون بخطر الإسلام والدعوة السماوية بدأوا يتحركون على مستوى التآمر والتخطيط لقمع هذا الدين الجديد في المهد وطرحوا

ثلاث خطط خطرة لمواجهة دعوة النبي الأكرم ﷺ، فقالوا: «إما أن نقتل هذا النبي، أو نلقيه في السجن بحيث لا يتمكن أيُّ شخص من رؤيته والحديث معه، أو نقوم بإبعاده عن أرض الحجاز»[1].

إنّ الشواهد التاريخية تشير إلى أنهم اختاروا الرأي الأوّل الذي هو أخطر الثلاثة، واختاروا من أجل تجسيد هذه الفكرة على أرض الواقع الخارجي أربعين شخصاً من مختلف قبائل العرب يتصفون بالشجاعة والمهارة ليقوموا بمحاصرة بيت النبوّة ليلاً ثمّ يتمكنوا من قتل النبي الأكرم ﷺ، وهكذا صنع هؤلاء الأشخاص وجاءوا ليلاً وأحاطوا ببيت النبوّة ثمّ تسلّقوا الجدار أو نفذوا من كوة فيه وانتظروا حتّى تحين الفرصة المناسبة لقتل النبي.

ولكنّ الله تعالى أخبر نبيَّه الكريم بواسطة الوحي بمؤامرة المشركين فعزم النبي ﷺ على الخروج من مكّة، ولكنه لتحقيق هذا الهدف والتخلّص من هذه المؤامرة الشيطانية ينبغي أن يقوم بأمرين:

الأوّل: أن يقوم بالتوجّه إلى خارج مكّة وفي الطريق المعاكس لطريق المدينة، أي أنه بدلاً من أن يتوجّه شمالاً نحو المدينة فإنّه تحرك إلى الجنوب منها لكي لا يلتفت الأعداء إلى خروجه من مكّة وهجرته إلى المدينة وليمنعهم من ملاحقته.

الثاني: لابدّ وأن يجد الشخص المناسب لينام في مكانه لإيهام الأعداء بعدم خروج النبي من البيت فيؤخرهم عن ملاحقته والقبض عليه.

ولهذا الغرض قال لعلي ابن أبي طالب ﷺ: «اتشح ببردي الأخضر ونم على فراشي».

فقال الإمام علي ﷺ: إذا نمت على فراشك فهل ستنجو من الخطر وتصل إلى المدينة بسلام؟[2]

فقال النبيّ: نعم يا عليّ، فسجد الإمام علي ﷺ شكراً لله تعالى، ويقال أنها أول سجدة شكر كانت في الإسلام.

---

١. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الواقعة في الآية ٣٠ من سورة الأنفال في قوله تعالى «وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين».

٢. هنا ينبغي الإلتفات إلى أن الإمام علي ﷺ لم يسأل عن الخطر الذي يهدد حياته هو، بل كان همّه هو سلامة النبي ونجاته، وعندما اطمأن لسلامته رضي بالمبيت على فراش النبي بكل طيب خاطر.

وبعد أن وضع النبي الأكرم ﷺ علياً في فراشه خرج من مكّة متستّراً وتحرّك إلى جهة الجنوب على عكس مسير المدينة حتّى وصل إلى غار ثور، وبعد أن يأس الأعداء من العثور عليه تحرّك إلى المدينة ووصل إليها بسلام.

لاشكّ أن ليلة المبيت كانت ليلة حسّاسة ومهمة جدّاً ومصيرية بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين وكان بطل هذه الليلة هو أميرالمؤمنين ﷺ وعندما كان النبي متوجّهاً إلى المدينة أوحىٰ الله تعالى إليه بهذه الآية محل البحث حيث تحدّثت هذه الآية عن إيثار وتضحية الإمام علي ﷺ العظيمة.

اعترافات علماء أهل السنّة

رأينا آنفاً ما ورد في شأن نزول هذه الآية الشريفة ولا يختص ذلك بعلماء الشيعة بل نقله الكثير من علماء أهل السنّة، ومنهم: «الطبري»[١]، «ابن هشام»[٢]، «الحلبي»[٣]، «اليعقوبي»[٤] (وكلّهم من مشاهير مؤرّخي أهل السنّة) و«أحمد»[٥] من فقهاء أهل السنّة و«ابن الجوزي»[٦]، و«ابن الصبّاغ المالكي»[٧].

والملفت للنظر ما أورده «أبو جعفر الإسكافي» الشارح المشهور لنهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، حيث قال في هذا الصدد:

قد ثبت بالتّواتر حديث الفراش... ولا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة... وقد روى المفسّرون كلّهم: إنّ قول الله تعالى: ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أُنزلت في عليّ ﷺ ليلة المبيت على الفراش[٨].

---

١. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٩٩ ـ ١٠١ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٢. سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٩١ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٣. السيرة الحلبيّة: ج ٢، ص ٢٩ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٩).
٤. تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٩ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٥. مسند أحمد: ج ١، ص ٣٤٨ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٦. تذكرة ابن الجوزي: ص ٢١ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٧. فصول ابن الصبّاغ المالكي: ص ٣٣ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٤٨).
٨. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ٢٦١.

والنتيجة هي أن جميع علماء الإسلام من الشيعة والسنّة متفّقون على أن آية ليلة المبيت نزلت في شأن أميرالمؤمنين ﷺ وما قام به من تضحية وإيثار عظيم.

الشرح والتفسير

التجارة الرابحة

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ فبعض الناس يضحّون بأنفسهم في سبيل مرضات الله والتقرّب إليه، وكما تقدّم أن عليّ بن أبي طالب قام بهذا العمل العظيم وباع نفسه في تلك الليلة ابتغاء مرضات الله وكان المشتري هو الله تعالى، وقيمة هذه البضاعة هو رضا الله تعالى.

﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهل يمكن أن يتصور مفهوم اللطف والرأفة أعلى من كون الله تعالى هو الذي يشتري روح الإنسان بأغلى ثمن؟

المعاملة مع الله

هناك ثلاث آيات في القرآن الكريم تتحدّث عن المعاملة مع الله تعالى ولابأس بالإشارة إليها وإجراء مقارنة بين مضامينها:

الآية الأولى: ما ورد في سورة التوبة الآية ١١١:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

في هذه المعاملة والتجارة العظيمة نرىٰ أن الله تعالى من جهة هو المشتري، والمؤمنون والمجاهدون هم البائع، والبضاعة الموضوعة للتجارة هي نفوس المؤمنين وأرواحهم، والثمن هو الجنّة، واللطيف في الأمر أن سند أو وثيقة هذه المعاملة مكتوبة في ثلاث كتب سماوية معتبرة (القرآن والانجيل والتوراة)، وهذه المعاملة المباركة تحدّثت عنها هذه الآية الشريفة بأنها «فوز عظيم» وباركت للبائعين على هذه الصفقة، والحقيقة أن هذه المعاملة والتجارة

عظيمة جداً، لأن المشتري فيها يشتري ما يتعلّق به وما هو ملكه بأغلى الأثمان من البائع، ألا تعتبر هذه المعاملة من قبيل «الفوز العظيم»، ألا تستحق التبريك والتهنئة؟

الآية الثانية: ما ورد في الآيات ١٠ ـ ١٣ من سورة الصف من موضوع تجارة أُخرى بين الله وعباده حيث نقرأ في هذه الآيات الأربع:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

في هذه المعاملة المربحة نجد أيضاً أن البائع هو المؤمنين، والمشتري هو الله تعالى، والبضاعة أو المبيع هو نفس روح الإنسان المؤمن، وقيمتها غفران الذنوب ودخول الجنّة، المساكن الطيبة فيها، النصر القريب (فتح مكّة)، وهكذا نرىٰ أن الله تعالى يعبّر عن هذه المعاملة والتجارة الكبيرة بعبارة «الفوز العظيم» ويبارك ويهنيء هؤلاء المتاجرون.

الآية الثالثة: ما ورد في سورة البقرة الآية ١٠٧ (الآية محل البحث)، وكما رأينا أن البائع هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام والمشتري هو الله تعالى، والبضاعة في هذه المعاملة هو روح عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والثمن هو رضا الله تعالى.

المقارنة بين المعاملات الثلاث

رأينا أن الآيات الكريمة تتحدّث عن ثلاث معاملات وردت في سورة التوبة، الصف، البقرة، وقد تقدّم شرحاً لما ورد فيها ونجد أوجه للتشابه فيما بينها من قبيل أن الله تعالى في كلّ هذه المعاملات الثلاث هو المشتري، والبائع هم المؤمنون، والبضاعة مورد المعاملة هي أرواح المؤمنين وأنفسهم، ولكن هنا تفاوت في قيمة هذه الأجناس في كلّ واحدة منها، فتارة يشتري الله تعالى نفوس المؤمنين في مقابل الجنّة، وأُخرى يشتريها بثمن أعلى، فمضافاً إلى الجنّة هناك المساكن الطيبة وغفران الذنوب والنصر الدنيوي، ولكن في المعاملة الثالثة وهي الآية محل البحث (آية ليلة المبيت) نرىٰ أعلى الأثمان والقيم ألا وهو رضا الله تعالى،

وبديهي أن رضا الله تعالى لا يمكن قياسه مع الجنّة وأمثالها من المواهب الأُخروية، واللطيف أن هذا الثمن متناسب جدّاً مع روحية الإمام علي عليه السلام حيث نقرأ في كلماته الجذّابة يخاطب الله تعالى ويقول:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».[1]

مقارنة أخرى

بالرغم من أن الإمام علي عليه السلام كان يواجه خطراً كبيراً في ليلة المبيت ولكنه نام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وهو مسرور ولم يسمح للخوف أن يتسرب إلى نفسه، وفي الصباح الباكر عندما هجم الأعداء على بيت النبي صلى الله عليه وآله ورأوا بكامل الدهشة أن خطتهم قد أجهضت وأن النائم في الفراش هو عليّ بن أبي طالب، فما كان منهم إلّا أن خاطبوا الإمام علي بكلمات موهنة، فأجابهم من موقع الدفاع عن الدين والنبي بكلمات جميلة جدّاً تعكس شجاعة أميرالمؤمنين وعقله الكبير وبأسه الشديد وسوف يأتي لاحقاً ما ورد في هذا الصدد إن شاء الله.

وأما أبو بكر فقد خرج مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتخلص من الخطر ولجأ إلى غار ثور، وعندما سمع صوت أقدام الأعداء الذين خرجوا من مكّة في أثر النبي، اصفر لونه وملأ الخوف والرعب قلبه ووجوده بحيث يمكن إدراك ذلك بنظرة بسيطة إلى وجهه، ولهذا بدأ النبي صلى الله عليه وآله بتسليته ليزيل بعض الوحشة والخوف الذي سيطر عليه، وعليك أن تدرك مضمون هذه الحادثة من هذا المختصر.

جمال التعبير في آية ليلة المبيت

نقرأ في آيات سورة التوبة وسورة الصف قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ﴾ و﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ

---

١. بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ١٨٦.

عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ في هذه العبارات نفهم أن الله تعالى هو المشتري، وهو الذي يرغّب البائعين إلى بيع متاعهم وبضاعتهم، ولكننا نقرأ في آية ليلة المبيت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ ومعنى هذه العبارة أن البائع هنا يتقدّم بعرض بضاعته ويبتدأ بالمعاملة. ومن الواضح أن التعبير الأدبي في هذه الآية الشريفة أروع وألطف، لأن الشخص الذي يقدم نفسه على طبق الإخلاص ويعرضها للبيع لا يجد في نفسه رغبة إلّا بعد ترغيب المشتري رغم أن عمله هذا لا يخلو من التقدير بلاشك.

مضافاً إلى ذلك فإنّ الآية محل البحث تبدأ بكلمة «مِنْ» التبعيضية في قوله «وَمِنَ النَّاسِ» أي أن هذا العمل العظيم لا يتمكن من أداءه إلّا بعض الناس في حين أن الآيتين السابقتين تطرح مسألة المعاملة مع الله والمعاوضة بالجنّة والنجاة من النار في إطار عام وشامل «اِشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

إرتباط آية ليلة المبيت مع الآيات التي قبلها

إذا دققنا النظر في الآيات الثلاث قبل آية ليلة المبيت أدركنا عظمة عمل الإمام علي عليه السلام ومقامه الرفيع عند رسول الله صلى الله عليه وآله وفي ذلك يقول تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي أن بعض المنافقين الذين يتمتّعون بظاهر جميل وخادع عندما يرونك يظهرون المحبّة والتملق ويتحدّثون بشكل تشعر فيه بالإعجاب في حين أن باطنهم شيء آخر.

﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

فإن الله تعالى عالم بما يخفي هؤلاء المنافقين الخادعين رغم أنهم يشهدون الله على ما في قلوبهم، هؤلاء الأشخاص ذوو الظاهر الأنيق والكلام الجميل هم ألدّ[1] أعداء الإسلام وهم منافقون، وتشير هذه الآيات إلى «الاخنس بن شريق» المنافق المعروف الذي يظهر من كلامه غير ما يبطن بحيث إنّ ظاهره وكلامه يجذب كلّ مخاطب إليه لحسن بيانه وجمال

---

١. كلمة «لدود» بمعنى شديد العداء، و«ألد الخصام» تعني أشدّ الأعداء.

مظهره حيث كان يتظاهر بالقداسة والإيمان والتقوى ولكنه في الواقع شخصية منحطّة وسافلة ولا يعتقد بالله ولا برسوله إطلاقاً[١].

وفي الآية التي تليها يشير الله تعالى إلى واقع هذا الشخص «الأخنس» ونفاقه في حركة الحياة والواقع الإجتماعي:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

فمن علامات نفاق الأخنس وسائر المنافقين هو أنهم عندما يخرجون من مجلسك يتحركون في حياتهم الفردية والإجتماعية من موقع الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل رغم علمهم بأن الله تعالى لا يحبُّ هذه الأعمال القبيحة[٢]، وطبعاً هناك احتمال أن كلمة «تولّى» تعني الولاية والحكومة، أي أن هؤلاء الأشخاص إذا استلموا زمام الأمور وتولّوا أمر الحكومة والسلطة أفسدوا في الأرض وزرعوا بذور النزاعات والفساد والإنحطاط وعملوا على تخريب المزارع وإهلاك الأنعام.

وقد ورد أنّ «الأخنس» جاء إلى منطقة في بلاد الإسلام وشرع في الإفساد وتخريب مزارع المسلمين في تلك المنطقة وقتل أغنامهم وحيواناتهم[٣]، ولكنه عندما جاء إلى النبي الأكرم ﷺ شرع بالتملّق والتحدّث بكلمات معسولة خادعة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

وعندما يسعى المؤمن في نصيحة هؤلاء الأشخاص وتحذيرهم من مغبّة هذه الأعمال ويحثّهم على تقوى الله تعالى واجتناب الأعمال الإجرامية، والخلاصة عندما يتحرّك على مستوى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فإن هؤلاء المنافقين ليس فقط لا يستمعون إلى

---

١. التفسير الأمثل، الآية مورد البحث.

٢. هذه الآية الشريفة تقرر أن الإسلام قبل ١٤٠٠ عام كان يهتم بشكل خاصّ بالمحافظة على البيئة والطبيعة حيث يعبّر عن تخريب البيئة بـ«الإفساد في الأرض» وجعل ذلك من علامات النفاق والعداوة للإسلام، وتوجد في سائر الآيات القرآنية شواهد كثيرة على اهتمام الإسلام بحفظ الطبيعة.

٣. التفسير الأمثل: ذيل الآية مورد البحث.

النصيحة بل يزدادون عناداً وغروراً وتعصّباً ويصرّون على أعمالهم الدنيئة من موقع العناد والتكبّر، ومن الواضح أن مصير هؤلاء الأشخاص لا يكون سوىٰ جهنم.

والخلاصة أن القرآن الكريم يصوّر لنا في هذه الآيات الثلاث عناد أعداء الإسلام وسلوكياتهم المنحرفة، وعندما نضع هذه الآيات إلى جانب آية ليلة المبيت فلابدّ أن يتحول الكلام إلى استعراض أحبّ الأشخاص إلى الله وأكثرهم إيماناً وانشداداً للإسلام والمسلمين، وعليه فإنّ الإمام علي الذي نزلت في حقّه آية ليلة المبيت وقدّم نفسه على طبق الإخلاص فداءاً للنبي هو أحبّ الأشخاص إلى النبي الأكرم ﷺ وبلا شكّ إنّ علاقة النبي ﷺ بالأشخاص لا تكون إلّا على أساس إيمانهم وحبّهم لله تعالى لا على أساس العواطف الساذجة والميول الدنيوية.

ارتباط آية ليلة المبيت بولاية أميرالمؤمنين عليه السلام

سؤال: ما هي علاقة الآية الشريفة «ليلة المبيت» مع إمامة وخلافة أميرالمؤمنين عليه السلام بعنوانه أوّل خليفة بعد رسول الله وإمام المسلمين؟ وبعبارة أُخرى إنه على فرض قبول أهل السنّة بأن الآية أعلاه نزلت في شأن علي بن أبي طالب، ولكن كيف يمكن إثبات أن هذه الآية تدلُّ على خلافة وإمامة أميرالمؤمنين عليه السلام بعد رسول الله ﷺ مباشرة؟

الجواب: رأينا في الأبحاث المتقدّمة أن الإمام علي عليه السلام يعتبر أشجع المسلمين وأكثرهم تضحية وإيثاراً وأخلصهم لله تعالى، ومن جهة أُخرى نعلم أن إمام المسلمين وخليفة رسول الله يجب أن يكون أعلم الناس وأشجعهم وأكثرهم إيماناً وإيثاراً، وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت مسألة الإمامة والخلافة انتصابية، أي أن الله تعالى هو الذي ينصب الخليفة بعد رسول الله ﷺ فإنه مع وجود الإمام علي عليه السلام الذي يحوز على الشرائط المذكورة للإمامة، فلا معنى لأن يختار الله شخصاً آخر غيره ويعمل على خلاف مقتضيات الحكمة الإلهية، وإذا كانت هذه المسألة انتخابية (كما يعتقد الأخوة من أهل السنّة) فإنّ مقتضى العقل هو أن لا يختار المسلمون شخصاً آخر غير من تتوفر فيه هذه الصفات، وعليه فإنّ انتخاب غير الإمام علي عليه السلام يكون على خلاف مقتضيات العقل والشرع.

الجواب عن بعض الشبهات

وقد نرىٰ من البعض أنهم يسعون في تفسير الآية الشريفة بعيداً عن المفهوم منها والمدلول الحقيقي لها وذلك لما تحمل هذه الآية الشريفة من مضامين تتعلق بمسألة الخلافة والإمامة، حتّىٰ لا يتمكن أحد من الإستدلال بها على خلافة أميرالمؤمنين ﷺ، وهنا نستعرض بعض الشبهات وعلامات الإستفهام ونجيب عنها:

١ ـ آية ليلة المبيت تتعلق بالآمرين بالمعروف

العلّامة الطبرسي وهو المفسّر الشيعي المعروف نقل رواية مرسلة عن أهل السنّة تتحدّث عن هذه الآية الشريفة وأنها نزلت في شأن من قتل في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١] وعليه فإنّ الآية محل البحث لا ترتبط بشكل أو بآخر بخلافة أميرالمؤمنين وإمامته.

الجواب: إن سياق آية ليلة المبيت يدلُّ على أن الآية المذكورة ليست واردة في شأن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لأنه طبقاً لما تقدّم من الشرح والتفسير أن هنالك خطر كبير يهدد الشخص مورد نظر الآية، وهو الخطر الذي يصل إلى حدّ الموت والقتل، ومثل هذا الخطر قلّما يتفق للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعليه فإن سياق الآية الشريفة يوحي إلى أنها لا ترتبط بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضافاً إلى أن الرواية المذكورة مرسلة وليست بحجّة.

٢ ـ إنّ الآية مورد البحث واردة في شأن أبي ذرّ

ويرىٰ البعض أن الآية الشريفة واردة في شأن أبي ذرّ الغفاري[٢] الصحابي المعروف للنبي الأكرم ﷺ ولا ترتبط بمسألة إمامة أميرالمؤمنين ﷺ وخلافته.

---

١. مجمع البيان: ج ١، ص ٣٠١.

٢. اسم أبي ذر «جندب» واسم أبيه «جنادة» وقيل «السكن»، وكان من كبار صحابة النبي ﷺ ورجلاً عظيماً وجليلاً، ويعدّ من الأشخاص الذين لم يبايعوا أبابكر. (مستدركات علم الرجال: ج ٢، ص ٢٤٠).

الجواب: إنّ هذا الرأي بعيد عن الصواب ومجانب للواقع، لأن الشواهد التاريخية تدلّ على أن أبا ذرّ الغفاري لم يتعرض لحادثة مهمة تهدد حياته بالخطر في عصر النبي الأكرم ﷺ، وعليه لا يمكن التصديق بأن هذه الآية الشريفة نازلة في حقّه رغم أن شخصية أبي ذرّ وخدماته العظيمة وخاصّة بعد رحلة النبي الأكرم ﷺ وفي عصر السكوت والإرهاب لا غبار عليها ولا يمكن إنكارها.

٣ ـ إنّ الآية الشريفة تتعلّق بجميع المهاجرين والأنصار

وذهب البعض إلى أن آية ليلة المبيت تتعلّق بجميع المهاجرين والأنصار[١]، أي أن جميع المسلمين في زمان النبي الأكرم ﷺ وحين نزول هذه الآية كانوا مشمولين لمضمونها، وعليه فإنّ الآية محل البحث لا تختص بالإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام[٢].

الجواب: إنّ بطلان هذا الكلام من أوضح الواضحات لأن الآية الشريفة تصرّح بأن هذا الإفتخار والكرامة يختصّ ببعض المسلمين وغير شاملة لجميع أفراد المجتمع الإسلامي، وعليه لا يمكن إدعاء أن جميع المهاجرين والأنصار مشمولين لآية ليلة المبيت.

٤ ـ هل يعلم الإمام علي عليه السلام بموته أو حياته؟

سؤال: هل إنّ الإمام علي عليه السلام كان عالماً بعاقبة هذا العمل؟ وهل إنه كان يعلم بأنه سوف ينجو من هذا الخطر الكبير ويبقى حيّاً بعد هذه الواقعة أم لا؟

إذا كان يعلم أن المشركين لا يتمكنون من قتله وانه سيبقى على قيد الحياة فإن مبيته في فراش النبي لا يمثّل قيمة وافتخار كبير، وإن لم يكن يعلم فسيكون لهذا العمل قيمة كبيرة ولكنّ الإشكال يردُ من جهة أُخرى، وهو أن الأئمّة يعلمون الغيب فكيف لم يعلم الإمام علي عليه السلام بعاقبة هذا العمل؟

---

١. مجمع البيان: ج ١، ص ٣٠١.

٢. مجمع البيان: ج ١، ص ٣٠١.

الجواب: طبقاً لتحقيقات العلماء وتصريح بعض الروايات أن علوم الأئمة بالنسبة إلى الغيب والمستقبل هي من العلوم الإرادية، أي أنهم لو أرادوا أن يعلموا لعلموا، وإن لم يريدوا ذلك لا يعلمونه[١]، فمن الممكن في هذه الواقعة إنّ الإمام علي عليه السلام لم تتعلق إرادته بمعرفة عاقبة هذا العمل ونهايته، ولذلك كان احتمال الخطر مرتسماً في ذهنه، ومع ذلك كان مستعداً للتضحية والايثار العظيم، وعلى هذا الأساس فإن الواقعة المذكورة تعدّ افتخاراً كبيراً لأمير المؤمنين عليه السلام ولا تتنافى مع علم الغيب للأئمة، والإلتفات إلى هذه النكتة بإمكانه أن يزيل الكثير من الشبهات والإشكالات حول علم الأئمة للغيب.

سؤال: لقد قلت «إنّ الإمام علي عليه السلام لم تتعلق إرادته بأن يعلم مصيره ولذلك فإنّ احتمال الخطر موجود ومع ذلك بات الإمام علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وكان ذلك فضيلة كبيرة ومنقبة عظيمة له» في حين أنه قد ورد في بعض الروايات إنّ الإمام كان مطّلعاً على أنه سوف لا تصيبه مصيبة وسوف لا يواجه مشكلة في هذه العمل وقد ضمن له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله السلامة والنجاة من الخطر[٢]، وعليه فكيف تعدّ آية ليلة المبيت فضيلة ومنقبة لأمير المؤمنين عليه السلام؟

الجواب: يمكننا الجواب على هذا الإشكال بصورتين:

الف: إنّ هذه الرواية مرسلة ولا سند لها وقد أوردها العلّامة الأميني بصورة مرسلة عن تفسير الثعلبي[٣]، وبما إنها تفتقد إلى السند فلا يمكن الإعتماد عليها[٤].

ب: هناك ثلاث شروط لقبول الرواية: الأوّل هي أن يكون سند الرواية معتبر، الثاني: أن لا تكون الرواية مخالفة لآيات القرآن الكريم، الثالث: أن تكون مقبولة لدى علماء الدين،

---

١. للمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة نفحات القرآن: ج ٧.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ٢٦٢.

٣. الغدير: ج ٢، ص ٤٨.

٤. يقول أبو جعفر الإسكافي استاذ ابن أبي الحديد في جوابه على هذا الإشكال بأن هذا الكلام كذب صريح ولم و يرد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه تكلم بهذا الكلام، والرواية المذكورة إنما هي من المجعولات لرجل يدعى (أبوبكر الاصم) الذي أخذ عنه الجاحظ هذه الرواية (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ٢٦٣).

والرواية المذكورة مضافاً إلى ضعف سندها فهي غير مقبولة ومخالفة للقرآن الكريم، لأن الله تعالى ذكر هذا العمل لأميرالمؤمنين في آية ليلة المبيت من موقع المدح والثناء والتمجيد وعبّر عنه بأنه معاملة مع الله تعالى في حين أن الرواية المذكورة على فرض اعتبار سندها فإنّ عمل أميرالمؤمنين عليه السلام وفقاً لهذه الرواية ليست له قيمة وأهميّة خاصّة بل هو بمثابة أمر عادي، وعليه لا يمكن الإعتماد على هذه الرواية المخالفة لآية من آيات القرآن الكريم بحيث يمكن من خلالها تهميش هذا العمل العظيم الذي قام به أميرالمؤمنين عليه السلام (فتدبّر).

٥ ـ من هو المخاطب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

سؤال: ويرىٰ البعض أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أراد أن يضع شخصاً مكانه في الفراش في تلك الليلة قال للمسلمين: أيكم مستعد لأن يبيت في فراشي في هذه الليلة؟ ولم يتقدّم أحد سوى علي بن أبي طالب عليه السلام حيث أظهر موافقته على استقبال هذا الخطر.

فهل هذا المطلب صحيح، أو أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحدّث في هذا المورد إلى الإمام علي عليه السلام خاصّة؟

الجواب: نحن لم نر في الكتب المعتبرة أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله طرح هذا الموضوع بين أصحابه، مضافاً إلى أن هذا المطلب لا ينسجم مع العقل، لأن هذا الموضوع لو سمعه جميع الأصحاب فسوف يفتضح الأمر ويصل الخبر إلى أعداء الإسلام الذين كانوا يتآمرون على حياة النبي صلى الله عليه وآله وبالتالي سيتحركون للتصدي لهذا العمل وإجهاضه، ولهذا نعتقد بأن هذه الخطّة والفكرة تمّت بسريّة كاملة، ولم يعلم بها سوى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وبعض الأشخاص الآخرين، وأما سائر المسلمين فكانوا لا يعلمون بها.

بقي هنا أمور

١ ـ أشعار حسّان ابن ثابت في وصف الواقعة

كان حسّان ابن ثابت[1] من الشعراء المعاصرين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وله علاقة خاصّة في

١. ولد حسان بن ثابت قبل ولادة النبي صلى الله عليه وآله بثمان سنوات وبقي بعده مدّة طويلة فكان من الشعراء المعمّرين ☜

الخليفة الحقيقي للنبي فقد أنشد قصائد رائعة في فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام وخاصّة في واقعة غدير خم التاريخية وبعض أبياتها يتعلق بحادثة ليلة المبيت كما وردت في كتب المؤرّخين:

مَنْ ذا بِخاتَمِهِ تَصَدَّقَ راكِعاً   وَأَسَرَّها في نَفْسِهِ إِسْراراً
مَنْ كانَ باتَ عَلى فِراشِ مُحَمَّدٍ   وَمُحَمَّدٌ أَسْرى يَؤُمُّ الْغارا
مَنْ كانَ فِي الْقُرْآنِ سُمِّيَ مُؤْمِناً   فِي تِسْعِ آياتٍ[1] تُلينَ غَزاراً[2]

والخلاصة إنّ حادثة ليلة المبيت كانت معروفة ومشهورة إلى درجة أنها انعكست في قصائد شعراء العرب.

٢ـ مصير الإمام علي عليه السلام في تلك الليلة

بعد أن عقد أعداء الإسلام العزم على مؤامرتهم في القضاء على النبي صلى الله عليه وآله قرروا أن يهجموا على بيته ليلاً وينفذون مؤامرتهم، ولكن أحد قادة المشركين «أبوجهل أو أبو لهب» منعهم من هذا العمل وقال: لا تهجموا عليه ليلاً لأن من المحتمل أن تكون في البيت زوجته وأطفاله وسيصيبهم الخوف والرعب وهم أبرياء[3].

حيث ناهز عمره على المائة وعشرين سنة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بوضع منبر خاص لحسّان في مسجده وأحياناً كان يأمره بأن يرتقي هذا المنبر وينشد الشعر، وقد أخذ البعض عليه بأن المسجد ليس محلاً لإنشاد الشعر، ولكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لهم بأن أشعار حسّان أثرها «أشدّ من النبال»، وبعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله تعرض حسّان إلى نوع من عدم الإهتمام به من قبل الخليفة الأوّل والثاني حيث منعاه من إنشاد الشعر في مسجد النبي، ولا يخفى على القاريء الكريم السبب في هذا المنع، نعم إن جريمته هي الدفاع عن علي بن أبي طالب عليه السلام بطل واقعة الغدير، وقد ترك هذا الشاعر المخضرم ديواناً موجوداً لحدّ الآن أودع فيه قصائده وأشعاره في وصف الخليفة الحقيقي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

١. وقد ذكر العلّامة الأميني هذه الآيات التسع وأضاف إليها واحدة، وهي كالتالي: ١ـ الآية ١٨ من سورة الكهف، ٢ـ الآية ٦٢ من سورة الأنفال، ٣ـ الآية ٦٤ من سورة الأنفال، ٤ـ الآية ٢٣ من سورة الأحزاب، ٥ـ الآية ٥٥ من سورة المائدة، ٦ـ الآية ١٩ من سورة التوبة، ٧ـ الآية ٩٦ من سورة مريم، ٨ـ الآية ٢١ من سورة الجاثية، ٩ـ الآية ٧ من سورة البيّنة، ١٠ـ سورة والعصر. (الغدير: ج ٢، ص ٤٩ ـ ٥٨).

٢. الغدير: ج ٢، ص ٤٧.

٣. قارن بين هذا العمل وبين مدّعيات القوى التي تدعي حقوق الإنسان ليتضح جيداً أنهم أكثر توحشاً

ولهذا السبب أخّروا هجومهم إلى بواكر الصباح، وعندما حانت اللحظة المناسبة وهجموا على بيت النبي ﷺ وهم يقصدون قتله، قام الإمام علي ؑ من الفراش قبل أن يصلوا إليه وصاح بهم: ماذا تريدون؟

وعندما تفاجأ المشركون بهذا الأمر ورأوا علي ابن أبي طالب في فراش النبي أخذتهم الدهشة وقالوا: يا عليّ نحن نريد محمّداً فأين هو؟

فأجابهم: هل أودعتموه عندي حتّى تطلبوه مني؟

فتحيّروا في جوابه وماذا يصنعون به، هل يقتلونه أو يتركونه؟ فقال أبو جهل: لنترك هذا الشاب المغامر فقد خدعه محمّد وأنامه في فراشه لينجو بنفسه.

فلمّا سمع الإمام علي ؑ بهذه الكلمات الموهنة له ولرسول الله قال بمنتهى الشجاعة والجرأة:

أَلِي تَقُولُ هٰذٰا يٰا أَبٰا جَهْل! إن الله قَدْ أَعْطٰانِي مِنَ الْعَقْلِ مٰا لَوْ قُسِّمَ عَلىٰ جَميعِ حُمَقٰاءِ الدُّنْيا وَمَجٰانينِهٰا لَصٰارُوٰا بِهِ عُقَلاءَ، وَمِنَ الْقُوَّةِ مٰا لَوْ قُسِّمَ عَلىٰ جَميعِ ضُعَفٰاءِ الدُّنْيا لَصٰارُوٰا بِهِ أَقْوِيٰاءَ، وَمِنَ الشُّجٰاعَةِ مٰا لَوْ قُسِّمَ عَلَىٰ جَميعِ جُبَنٰاءِ الدُّنْيا لَصٰارُوٰا بِهِ شُجْعٰاناً.[1]

فأنا قد عرفت نبي الإسلام ﷺ وآمنت بالإسلام عن معرفة ولذلك تقدّمت إلى هذا العمل بكلّ إخلاص وإيمان، وبعد أن حدثت بينهما مشادّة خرج أعداء الإسلام من بيت النبوّة خجلين وآيسين وخرج الإمام علي ؑ من هذه الواقعة مرفوع الرأس ومسروراً لأدائه المهمة الرسالية.

٣ـ الله تعالى يباهي بإيثار أميرالمؤمنين ؑ

لقد أورد «الثعلبي» وهو أحد مفسّري أهل السنّة المعروفين للآية مورد البحث، رواية

وهمجية من العرب الجاهليين، لأننا نرى في هذا العصر هجوم أمريكا وبريطانيا على افغانستان بصورة وحشية حيث لم يرحموا النساء والأطفال والشيوخ، وحتّى المرضى في المستشفيات لم يسلموا من تعرضهم وأذاهم.

١. بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٨٣.

جميلة وجذّابة حول حادثة ليلة المبيت نذكرها هنا كما رواها هو:

«لما عزم النبي ﷺ على الهجرة إلى المدينة، ترك علي بن أبي طالب في مكّة ليؤدي الديون التي عليه والأمانات إلى أهلها، وأمره ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار، أن ينام على فراشه، وقال له: اتشح ببردي الأخضر ونم على فراشي فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله. ففعل ذلك علي عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي؟ آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، أهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فنزلا فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه ينادي:

بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ، مَنْ مِثْلُكَ؟ وَقَدْ بَاهَى اللهُ بِكَ مَلائِكَةَ السَّماوَاتِ وَفَاخَرَ بِكَ».[١]

فهل يتصور مقام أعلى من هذا المقام؟!

ومن هنا ندرك أن الشيعة عندما يعظّمون أهل هذا البيت ويتبعون أميرالمؤمنين عليه السلام فإن ذلك لا يعني التعصّب الأعمى على مستوى الحساسيّة المذهبية بل بسبب مقاماته المعنوية السامية وفضائله الكثيرة.

توصية الآية

كلّ شيء في سبيل نيل رضا الله

بالرغم من أن الآية الشريفة كما أشرنا سابقاً، نزلت في ليلة هجرة النبي ﷺ وفي شأن الإمام علي عليه السلام، ولكنها كسائر الآيات القرآنية تتضمن حكماً كلياً وعاماً، فمن حيث إن هذه الآية تقع في مقابل الآية السابقة «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ...» فيتضح جيداً أن هذه الطائفة من الناس التي تشير إليها هذه الآية محل البحث تقع في مقابل الطائفة السابقة،

١. بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٨٥.

ويتمتع أفرادها بصفات وخصائص تقع في النقطة المقابلة لصفات أُولئك وخصائصهم، فأُولئك أفراد يتسمون بالأنانية والغرور والعناد والتكبّر ويتعاملون مع الناس بلغة النفاق والرياء ويتظاهرون أنهم إنما يريدون الإصلاح ويتحركون في خطّ الايمان ظاهراً ولكنّ سلوكهم وأفعالهم ليس فيها سوىٰ الإفساد في الأرض وهلاك الحرث والنسل، ولكن هذه الطائفة في آية ليلة المبيت لا يتعاملون مع أحدٍ سوىٰ الله تعالى ولا يبخلون بشيءٍ في سبيله ولا يطلبون سوىٰ رضاه ولا يرون العزّة والكرامة إلّا تحت ظلّه وعنايته، ولذلك فإنّ أمر الدين والدنيا يتقوّم بتضحية هؤلاء وحركتهم الإصلاحية في خطّ الرسالة والمسؤولية والحقّ والحقيقة[١].

إنّ توصية هذه الآية الشريفة لجميع المسلمين هو أن يخرجوا من أجواء الطائفة الأُولى ويدخلوا في أجواء الطائفة الثانية...

وطبعاً ليس هذا بالأمر الهيّن.

---

١. التفسير الأمثل: ذيل الآية مورد البحث.



آية سقاية الحاج

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

«سورة التوبة / الآيات ١٩ ـ ٢٢»

أبعاد البحث

في هذه الآية الشريفة التي تعرف بين المفسّرين بآية «سقاية الحاج» نواجه فضيلة أُخرى من فضائل الإمام علي عليه السلام حيث تفضي إلى إثبات إمامته وخلافته بعد رسول الله، وتبيّن أن الأشخاص الذين يرون أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام تساوي الايمان بالله والهجرة والجهاد في سبيله، بعيدون عن طريق الصواب، وسيأتي تفصيل ذلك في طيّات البحث.

شأن النزول

إنّ آية «سقاية الحاج» تخبرنا عن حادثة وقعت في عصر الرسالة ولا تهدف إلى بيان

قانون كلّي في ذلك، أي أن هذه الحادثة والمقارنة المذكورة في الآية الشريفة وقعت عملاً في الواقع الخارجي، فللآية الشريفة شأن نزول خاصّ ولهذا ذكر لها موارد عديدة في شأن نزولها وخلاصة ما ورد في شأن النزول المعروف لها هو:

إنّ العبّاس ابن عبدالمطلب وشيبة قعدا يفتخران في المسجد الحرام فقال العبّاس لشيبة: أنا أشرف منك، أنا عمّ رسول الله ووصي أبيه وساقي الحجيج[1].

فقال شيبة: أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه[2]، أفلا إئتمنك كما إئتمنني؟

فاطلع عليهما عليّ ابن أبي طالب عليه السلام فأخبراه بما قالا فقال علي: أنا أشرف منكما، أنا أوّل من آمن وهاجر «وعليه فإنه لا افتخار في سقاية الحاج أو عمارة المسجد الحرام» بل الفخر بالإيمان بالله والهجرة في خطّ الإيمان به والجهاد في سبيله.

فلما سمع العبّاس ذلك انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وذكر له ما جرىٰ بينه وبين الإمام علي عليه السلام وشكاه عنده على أساس أن الإمام علي عليه السلام قد ادحض حجّته وأهمل مقامه ومنزلته.

فأرسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شخصاً في طلب الإمام علي فعندما حضر بين يديه سأله النبي عن الواقعة وقال له: ماذا قلت لعمّك العبّاس حتّى أغضبته؟

فقال عليّ عليه السلام: لم أقل سوىٰ الحقّ ولكن عمّي غضب من كلام الحقّ، ثمّ بيّن لرسول

---

١. المراد من «سقاية الحاج» هو إيصال الماء إلى الحجاج في منى وعرفات والمشعر الحرام حيث لا يوجد في هذه الأمكنة الثلاثة ماء إطلاقاً، وحتّى في هذا الزمان يتم إيصال الماء إلى هذه المناطق بواسطة أنابيب من مناطق أُخرى، وكان الحجاج في قديم الزمان مضطرين لحمل الماء معهم في أيّام الحجّ إلى هذه الأماكن، ولهذا قيل عن اليوم الثامن من ذي الحجّة «يوم التروية»، وعلى أيّة حال فقد كان العبّاس في ذلك الزمان مسؤولاً عن إيصال الماء إلى الحجيج، وبديهي أن هذه المسؤولية كانت مهمة جداً في ذلك الوقت لأن أهم حاجة للحجاج في تلك الأماكن هو الماء.

٢. نظراً إلى أهمية «المسجد الحرام» والذي يعبّر عنه القرآن الكريم أنه أوّل بيت وضع للناس ويعدّ أقدس مكان على ظهر الأرض بحيث ورد في الروايات أن ركعة واحدة عنده تعادل مليون ركعة في مناطق أُخرى، فإنّ استلام مفاتيح هذا البيت المقدّس و«عمارة المسجد الحرام» لها أهمية خاصّة ومكانة مميزة حيث تكون لصاحب هذه المكانة مسؤولية حفظ وحراسة الكعبة المشرّفة وترميم المسجد الحرام ورعايته.

الله ﷺ الحادثة التي جرت بينهم وأضاف إنني لم أكن في مقام التظاهر بالفخر والتعريف بنفسي بل أردت أن أقول أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا تعتبر أرقىٰ افتخار يناله الإنسان بل هناك مقامات أعلى وافتخارات أكبر من ذلك، وهنا نزلت الآية الشريفة محل البحث وأيّدت كلام الإمام علي عليه السلام[1].

وقد ورد شأن النزول هذا في اثني عشر كتاباً على الأقل معروفاً لدىٰ أهل السنّة تتحدّث عن تفسير القرآن، أو التاريخ الإسلامي، أو الروايات الشريفة فمن ذلك:

١ ـ أسباب النزول لمؤلفه العلّامة الواحدي[2].

٢ ـ تفسير العلّامة خازن البغدادي[3].

٣ ـ تفسير العلّامة القرطبي[4].

٤ ـ تفسير الفخر الرازي[5].

٥ ـ الدرّ المنثور للعلّامة السيوطي[6].

٦ ـ تفسير أبو البركات النّسفي[7].

٧ ـ الفصول المهمّة للصبّاغ المالكي[8].

٨ ـ كفاية الطالب للكنجي الشافعي[9].

٩ ـ تاريخ الخطيب البغدادي[10].

---

١. شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٤٩ بعد.

٢. أسباب النزول: ص ١٨٢ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٣).

٣. تفسير الخازن: ج ٣، ص ٥٧ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ١٢٣).

٤. تفسير القرطبي: ج ٨، ص ٩١ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٥).

٥. تفسير الفخر الرازي: ج ١٦، ص ١٠ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٥).

٦. الدرّ المنثور: ج ٣، ص ٢١٨ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٦).

٧. تفسير النّسفي: ج ٢، ص ٢٢١ (نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٤).

٨. الفصول المهمّة: ص ١٠٦ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٦).

٩. كفاية الطالب: ص ١١٣ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٢٥).

١٠. تاريخ الخطيب البغدادي: نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٤ و ٥٥.

١٠ ـ مناقب ابن المغازلي[١].

١١ ـ تاريخ ابن العساكر[٢].

١٢ ـ ربيع الأبرار للزمخشري[٣].

وعلى هذا الأساس فإن شأن النزول المذكور لا يدانيه شك ولا ريب.

ملاحظة مهمّة!

بلا شكّ كان العبّاس ابن عبدالمطلب عند نزول آية سقاية الحاج مؤمناً مجاهداً وهكذا الحال مع «شيبة» فقد كان مؤمناً وله سوابق جهادية، إذن فكيف افتخر الإمام علي عليه السلام بإيمانه وجهاده عليهما والحال أنهما يتصفان بصفة الإيمان والجهاد أيضاً؟

وجواب هذا السؤال هو أن الإمام علي عليه السلام أراد أن يقول لهما أنا أوّل شخص آمنت بالله وبرسوله من الرجال وأوّل شخص هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وأوّل مجاهد في سبيل الله ورسوله، وبهذا فقد سبقهما في الإسلام والهجرة والجهاد، وهذه الفضيلة منحصرة في عليّ بن أبي طالب.

الشرح والتفسير

الإيمان بالله، أفضل الأمور!

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾.

من هذا السياق للآية الشريفة يتّضح جيّداً وقوع مثل هذه المقارنة بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من جهة، وبين الايمان بالله والجهاد في سبيله من جهة أُخرى، ولكن الله تعالى قرّر أنّ هذه المقارنة غير صحيحة وغير سليمة فإنّ الايمان بالله واليوم الآخر

---

١. مناقب ابن المغازلي: نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٤ و ٥٥.

٢. تاريخ ابن العساكر نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٤ و ٥٥.

٣. ربيع الأبرار نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٤ و ٥٥.

والجهاد في سبيل الله لا يقارن مع سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لأن الايمان والجهاد بلا شكّ أعلى وأفضل من السقاية والعمارة.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولعلّ هذا التعبير يشير إلى أن المقارنة المذكورة ليست فقط غير صحيحة بل هي نوع من الظلم للشخص الذي سبق الناس في الايمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فهؤلاء الذين تحركوا بهدف حفظ إيمانهم ونشر الدين والرسالة السماوية من موقع الهجرة وضحّوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وإعلاء كلمته هم أفضل عند الله وأعظم درجة.

وبعد أن يردّ الله تعالى في الآية الأُولى أصل المقارنة المذكورة يعبّر عنها بأنها نوع من الظلم ويصرّح في هذه الآية بأن الايمان والهجرة والجهاد أهم وأعظم من السقاية والعمارة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ فبعد أن يردّ على المقارنة المذكورة ويصرح بأن الايمان والجهاد والهجرة أفضل وأعظم يشير في الآيتين التاليتين إلى عاقبة أهل الايمان والجهاد والهجرة ويبشّرهم بما يلي:

١ ـ إنّ الله تعالى يبشّر هؤلاء بأنهم مشمولين برحمته ومرتبة القرب منه.

٢ ـ البشارة الأُخرى هي أن الله تعالى قد رضي عنهم، وما أعظم النعمة في أن يعلم الانسان بأن محبوبه ومعبوده راضٍ عنه!

٣ ـ ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ وليست البشارة بجنّة واحدة بل ورد التعبير بجنّات ونِعم ومواهب خالدة في ذلك العالم، ومعلوم أن أحد معايب النِعم الدنيوية هي أنها معرّضة للزوال والفناء ولكنّ النِعم والمواهب الاخروية خالدة وباقية أبداً.

﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فهل أن هذه الجملة بشارة إلى نعمة أُخرى قد أعدّها الله تعالى لأهل الايمان والجهاد والهجرة مضافاً إلى رحمة الله ورضوانه والجنّات الخالدة، وهي النعمة التي لا يمكن للانسان أن يتصورها ولا يقدر على وصفها ولذلك أجملت الآية بيانها، أو أنها إشارة إلى النِعم والمواهب المذكورة آنفاً وهي تأكيد لها.

كلا الاحتمالين واردان في مفهوم الآية الشريفة.

إرتباط آية سقاية الماء مع الإمامة

بما أن الإمام علي عليه السلام يتمتع بفضيلة السبقة إلى الإيمان والجهاد وليس أحد من المسلمين غيره يتمتع بهذه الفضيلة، فعليه يكون الإمام علي عليه السلام أفضل المسلمين، ومن الواضح أن الله تعالى إذا أراد نصب خليفة لرسوله فإنه لا يتجاوز الأفضل فيختار المفضول بل وحتّى الفاضل، لأن الله تعالى حكيم وتقديم المفضول على الفاضل والفاضل على الأفضل يخالف مقتضى الحكمة الإلهية، ولو كانت مسألة الخلافة انتخابية فإنّ عقلاء الناس لا يتوجهون ويختارون الفاضل أو المفضول مع وجود الأفضل، وعليه فإنّ هذه الآية الشريفة يمكنها أن تكون دليلاً لإثبات إمامة أميرالمؤمنين.

اعتراف أحد علماء السنّة

وقد ذكر أحد علماء السنّة أنه:

«أنتم الشيعة يمكنكم إثبات جميع أُصول الدين التي تعتقدون بها بواسطة الروايات الموجودة في كتبنا، لأن كتبنا ومصادرنا الروائية مليئة بالروايات التي تؤيد عقائدكم وآراءكم».

ثمّ أضاف يقول: «إنّ قدماءنا كانوا سطحيين وساذجين حيث كانوا ينقلون أيّة رواية تصل إليهم في كتبهم»[1].

ونحن نتعجب من هذا التناقض، لأنهم يذكرون بالنسبة إلى كتبهم ومصادرهم وخاصّة «الصحاح الستة» على مستوى التعريف والثناء والمدح:

«إنّ روايات هذه الكتب منتخبة بدقّة كبيرة وجميع الروايات المذكورة فيها معتبرة لأنه أحياناً يتمّ انتخاب عدد قليل من الروايات من بين ألف رواية»[2].

---

١. ما هو المراد من هذا الكلام؟ هل أن مرادهم هو أن هذه الروايات معتبرة إلّا أنه لا ينبغي ذكرها لأنها تخالف ذوق هؤلاء الأشخاص؟ أو أن هذه الروايات غير معتبرة أساساً؟ وفي هذه الصورة فما هي الضمانة لاعتبار سائر الأحاديث والروايات الواردة في كتب الصحاح؟!

٢. يقول الإمام البخاري أحد أصحاب الصحاح الستة: «إنّ أحاديث هذا الكتاب (والتي تبلغ أكثر من سبعة

←

ألا يتناقض هذا الكلام مع كلام ذلك العالم السنّي المذكور آنفاً؟ إنّ هذه الأشكال من التناقض هي نتيجة نوعية التفكير لدى الإنسان الذي يؤمن أوّلاً ثمّ يتوجه نحو الآيات والروايات الشريفة ويحاول إسقاط عقائده عليها، ولو أن الإنسان حضر مقابل الآيات والروايات وجلس متتلمذاً عندها ومستوحياً من مضامينها ومرتوياً من منهلها فإنه سوف لا يواجه مثل هذا التناقض العجيب.

توصية الآية

الإتّباع العملي لأولياء الدين

إنّ بيان فضائل ومناقب الأئمّة الأطهار عليهم السلام وخصوصيّاتهم الأخلاقية والإجتماعية والسياسية أمر جيّد وضروري ولكنه لا يكفي في مقام الإعتقاد والايمان بل ينبغي على الإنسان أن يجعلهم أُسوة وقدوة له في ممارساته وسلوكياته في حركة الحياة والواقع الإجتماعي، وفي الآيات مورد البحث نقرأ ثلاثة أُمور بعنوان أنها أركان الدين، وأن الإمام علي عليه السلام قد بلغ ما بلغ من المرتبة السامية بسبب حركته في خطّ هذه الأركان الثلاثة وهي: الإيمان، الهجرة، الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. فإذا أردنا الإقتداء بالإمام علي عليه السلام وبأولياء الدين فلابدّ من تجسيد هذه الأصول الثلاثة في حياتنا العملية وإحيائها في أعماق وجودنا وقلوبنا.

ومن أجل تقوية الايمان في وجودنا هناك طريقان: **الأوّل**: مطالعة ودراسة الشيء الذي نؤمن به، مثلاً لأجل تقوية إيماننا بالله وتعميقه في قلوبنا لابدّ من النظر والتفكّر في أسرار عالم الخلقة والسعي إلى زيادة الآفاق العلمية في أسرار الكون وآيات الكتاب السماوي كما يحثّنا القرآن دائماً على ذلك. والخلاصة هي أن تعميق الايمان بأي شيء يحتاج إلى دراسة ذلك الشيء والإنفتاح الفكري على تفاصيله.

آلاف حديثاً صحيحاً قد استخلصها من بين ستمائة ألف رواية وفي مدّة ١٦ سنة» ـ انظر صحيح البخاري: ج ١، ترجمة الإمام البخاري ـ.

الثاني: هو طريق بناء الذات وتهذيب النفس وتطهير القلب من شوائب التعلّقات الدنيوية، لأن الإيمان نور يشرق على قلب الإنسان، وكلّما كانت مرآة القلب صافية وشفافة انعكس النور عليها بصورة أفضل، فلو كان القلب ملوثاً بالخطايا والذنوب فإنّ مرآة القلب لا تعكس نور الإيمان حينئذٍ بصورة جيّدة.

وأما بالنسبة إلى الهجرة فقد يتصور البعض أن هذا الأصل المهم في أجواء الدين السماوي خاصٌ بالمسلمين في صدر الإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة انتهى عهد الهجرة في حين أن روايات أهل البيت عليهم السلام تقرر خلاف هذا المطلب، حيث نقرأ في الرواية الواردة عن الإمام علي عليه السلام قوله:

«اَلْهِجْرَةُ قٰائِمَةٌ عَلىٰ حَدِّهَا الْأَوَّلِ».[1]

وتأسيساً على هذا فإنّ الهجرة مستمرّة كالإيمان والجهاد إلى يوم القيامة، والواجب على المسلمين أن يهاجروا في مختلف الظروف والأحوال، وطبعاً ففي الكثير من الحالات يختلف شكل الهجرة، ولذلك نقرأ قول الإمام علي عليه السلام:

«يَقُولُ الرَّجُلُ هٰاجَرْتُ وَلَمْ يُهٰاجِرْ، إِنَّمَا الْمُهٰاجِرُ مَنْ هٰاجَرَ السَّيِّئٰاتِ وَلَمْ يَأْتِ بِهٰا»[2].

أجل، فالمهاجر الحقيقي هو الشخص الذي ترك القبائح والرذائل والذنوب وتحرّك في خطّ الطاعة والعبودية والتقوى وهاجر من السيئات إلى الحسنات والأعمال الصالحة، والمهاجر الواقعي هو الشخص الذي يهجر أصدقاء السوء ورفاق مجالس البطالين والملوثين بالذنوب ويبتعد عنهم، الهجرة من المال الحرام، من المقام الحرام، من الذنوب، واجبة ولازمة، وبديهي أن هذا النمط من الهجرة لا يختصّ بالمسلمين في أوائل البعثة بل هو وظيفة جميع المسلمين إلى يوم القيامة.

وأمّا الأصل الثالث وهو الجهاد بالنفس والمال فذلك أيضاً مورد الابتلاء في كلّ عصر وزمان، فالجهاد بالنفس والمال لا يقبل التعطيل والنسخ وخاصّة مع وجود الأعداء الحاقدين الذين يعبّر عنهم القرآن الكريم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضٰاءُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ﴾[3]، الأعداء

---

١. ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ٣٠٢، باب ٣٩٨٩، ح ٢٠٧٥٥.

٢. بحار الأنوار: ج ٩٧، ص ٩٩.

٣. سورة آل عمران: الآية ١١٨.

الذين لا يلتزمون بأي مبدأ إنساني وأصل أخلاقي ومستعدون لارتكاب كلّ جناية وجريمة في سبيل المحافظة على منافعهم اللامشروعة، ففي مقابل مثل هذا العدو الخطر ينبغي على المسلمين أن يكونوا مستعدين دائماً للتصدي له والجهاد ضده وأن يكونوا دائماً في حيوية ونشاط وحماسة. ولهذا السبب فنحن نعتقد بأن الأشخاص الذين يتحركون على مستوى تضعيف أو إماتة روحية الشجاعة والجهاد والتصدي للظالمين في نفوس المسلمين بذريعة الألعاب الملوّثة أو حتّى التسليات الدنيوية الرخيصة فإنّ هؤلاء يقومون بخيانة كبيرة لبلدهم ولأنفسهم ولدينهم.

ربّنا، زد في حرارة نور الإيمان في قلوبنا حتّى نتمكن بنور الإيمان أن نهاجر من أجواء الذنوب الظلمانية وننقذ أنفسنا والآخرين بسلاح الجهاد في سبيل الله.

بحثان

١ ـ لماذا لم يرد إسم الإمام علي عليه السلام في القرآن؟

سؤال: إذا كان الإمام علي عليه السلام هو المنصوب من الله لأمر الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة ـ كما تعتقدون بذلك وتسعون لإثبات هذا المطلب من خلال الآيات القرآنية ـ إذن فلماذا لم يرد اسم الإمام علي بصراحة في القرآن الكريم حتّى ننتهي من كلّ هذه الأبحاث والإختلافات؟

الجواب: نظراً إلى أن إسم «علي» لم يكن منحصراً بالإمام علي عليه السلام كما هو الحال في «أبو طالب» حيث لم تكن هذه الكنية منحصرة بوالده، بل هناك العديد من الأشخاص بين العرب يسمون باسم «علي» و «أبو طالب» وعلى هذا الأساس لو ورد اسم «علي» بصراحة في القرآن الكريم فإن هؤلاء الأشخاص الذين لم يروق لهم قبول هذه الحقيقة سيتحركون بذرائع مختلفة إلى تطبيق هذا الإسم على شخص آخر، ولهذا كان من الأفضل ذكر الصفات والخصائص المنحصرة بالإمام علي عليه السلام في القرآن الكريم وتعريفه للناس من هذا الطريق لكيلا يتم تطبيق هذه الصفات والخصائص على غيره من الأشخاص، ولهذا اختار الله تعالى في القرآن الكريم هذا المنهج والسبيل لإرشاد الناس إلى الإمام علي عليه السلام بعنوانه وليّ المؤمنين

وخليفة رسول الله ﷺ بلا فصل، رغم أن الأشخاص الذين في قلوبهم مرض ويتحركون في خطّ الإنحراف والزيغ يفسّرون هذه الآيات الكريمة بشكل آخر.

سؤال آخر: ورد في الحديث الشريف عن يونس بن عبدالرحمن قال: قلت لأبي الحسن الرضا ﷺ: إن قوماً طالبوني باسم أميرالمؤمنين في كتاب الله عزّوجلّ، فقلت لهم: من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1].

فقال: «صَدَقْتَ هُوَ هٰكَذا»[2].

فهل أن هذه الرواية تتفق مع ما ذكرتم من عدم ذكر اسم الامام علي ﷺ صريحاً في القرآن الكريم؟

الجواب: بلا شكّ إنّ مفردة «عليّا» الواردة في الآية الشريفة هذه ليست اسم شخص معيّن (أي ليست اسم علم) بل هي وصف لكلمة «لسان»، وأما الرواية المذكورة فغير معتبرة من حيث السند، لأن أحد رواتها «أحمد بن محمّد السياري» وهو ضعيف جدّاً، وهو الشخص الذي نقل الكثير من روايات تحريف القرآن، ولهذا فالروايات التي يقع في سندها هذا الرجل غير مقبولة وغير معتبرة، ويقول العلّامة الاردبيلي في شرح حاله: «هو رجل ضعيف وفاسد المذهب ورواياته فارغة وغير قابلة للاعتماد»[3] وعلى هذا الأساس فالرواية أعلاه غير معتبرة.

٢ ـ لماذا لم يقضِ النبي ﷺ على المنافقين؟

سؤال: إنّ المنافقين وجّهوا بلا شكّ في عصر النبي ﷺ وبعد رحلته ضربات قاسية للدعوة الإسلامية وللمجتمع الإسلامي وهم الذين تبنوا الإنحراف الذي حصل في مسألة الخلافة والإمامة، ولا شكّ أن النبي الأكرم ﷺ كان يعرف هؤلاء الأشخاص ويعلم بنفاقهم، ومع الإلتفات إلى هذا المعنى فلماذا لم يتحرك النبي ﷺ في حال حياته للقضاء

١. سورة مريم: الآية ٥٠.
٢. البرهان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ١٤.
٣. جامع الرواة: ج ١، ص ٦٧.

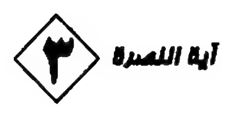
عليهم ليضمن بذلك سلامة الدعوة الجديدة والأمّة الإسلامية ؟

الجواب: إنّ النبي الأكرم ﷺ أجاب على هذا السؤال في حديث شريف حيث قال: «لولا إنّي أكره أن يقال: إن محمّداً استعان بقوم حتّى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، لضربت أعناق قوم كثير»[١].

ولكن مع الإلتفات إلى هذا الإتّهام الذي يفضي في الواقع إلى اهتزاز عقيدة الناس بالنبوّة والدين الجديد، فمن أجل أن لا يثور هذا التوهم والتصور في أذهان الناس فإنّ النبي لم يحرك ساكناً ضد المنافقين بل كان يتحمل آذاهم ويصبر على مشاكساتهم.

٭٭٭

١. وسائل الشيعة: ج ١٨، باب ٥ من أبواب حدّ المرتد، ح ٣.



﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

«سورة الأنفال / الآية ٦٢»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة التي تسمّى بآية النصرة هي آية أُخرى من آيات فضائل ومناقب أميرالمؤمنين عليه السلام.

سؤال: إنّ موضوع البحث هو الآيات المتعلقة بمسألة الإمامة والخلافة لأميرالمؤمنين عليه السلام فما هو ارتباط هذه الآية مع مسألة الإمامة؟

الجواب: إنّ الآيات المستخدمة لإثبات إمامة وخلافة أميرالمؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على قسمين:

القسم الأوّل: الآيات التي تدلّ بصراحة ووضوح على إمامة أميرالمؤمنين مثل آية «إكمال الدين» و «آية الولاية» وأمثال ذلك التي تقدّم الكلام عنها في الفصل الأوّل.

القسم الثاني: الآيات التي لا تدلّ على مسألة الإمامة والخلافة بصورة مباشرة بل تتضمن فضائل أميرالمؤمنين الخاصّة، وبالإمكان مع الإستعانة بمقدمة عقلية إثبات الإمامة أيضاً بهذه الآيات الكريمة، كما تقدّم نظير ذلك في الآيات السابقة وسيأتي أيضاً في شرح وتفسير آية النصرة وسائر الآيات من هذا القبيل.

الشرح والتفسير

التعبئة الكاملة والإستعداد التام

لأجل توضيح مضمون آية النصرة نرىٰ من اللازم الحديث عن آيات ٦٠ ـ ٦٣ من سورة الأنفال، وهي قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

هذه الآية الشريفة مطلقة وتستوعب جميع الأمكنة والأزمنة والأدوار التاريخية في المجتمعات الإسلامية، لأنها لا تتحدّث عن أسلحة معيّنة وخاصّة ينتهي مفعولها بانتهاء زمانها وتخرج من حيّز الإستعمال، بل ورد التعبير بكلمة «قوّة» أي أن المسلمين يجب عليهم التهيؤ دائماً للأعداء والتسلّح بأنواع الأسلحة التي تثير فيهم القوّة والقدرة على التصدي لأعداء الإسلام فيجب عليهم أن يتسلحوا بالأسلحة المتطورة ويجهّزوا جيوشهم بالأنظمة العسكرية المتقدمة، وكلمة «قوّة» تشمل مضافاً إلى الأسلحة الأشياء الأخرى التي تستخدم في الحرب ضد الأعداء من قبيل: أجهزة الإعلام التي تعتبر في العصر الحاضر سلاحاً فعّالاً يستخدم في القضاء على روحية العدو، كما أن هذه الكلمة تشمل أيضاً الأمور الاقتصادية والأخلاقية والإجتماعية كذلك، والخلاصة إنّها تطلق على كلّ ما ينفع المسلمين في جهادهم ضد العدو ويمكّن المسلمين من إجهاض محاولاته الرامية إلى الإستيلاء على البلاد الإسلامية والقضاء على الإسلام.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

في هذا المقطع من الآية الشريفة يتحدّث القرآن عن الهدف والغاية من تهيئة وسائل القوّة والسلاح للمسلمين، فالهدف من هذا التهيؤ والإستعداد ليس هو قتل الناس وتخريب العالم والإغارة على المساكين والمحرومين بل الهدف هو الدفاع المشروع فيجب تعبئة جميع القوىٰ والطاقات وتهيئة جميع أنواع الأسلحة لكيلا يتجرأ العدو على الهجوم على البلد الإسلامي بل لا يدور في ذهنه أن يهجم يوماً عليكم، لأن الظالمين والجبّارين متى ما وجدوا فرصة للهجوم والغارة على الضعفاء والدول الفقيرة والضعيفة فإنهم لا يجدون رادعاً أمامهم من العدوان والحرب، والقوّة العسكرية هي العامل الأساس لمنع هؤلاء من عدوانهم،

ولذلك فإنّ رفع المستوىٰ العسكري بإمكانه أن يخيف الأعداء، أي أعداء الله وأعداءكم، والعدو الظاهر والعدوّ الخفي والمستور، فالهدف من زيادة القوّة الدفاعية والقدرة العسكرية يجب أن يكون من منطلق الدفاع المنطقي والمشروع أمام تعدّي الآخرين.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾.

بلا شك فإنّ تقوية البنية الدفاعيّة للبلد الإسلامي ورفع مستوى القوّة العسكرية لجيش الإسلام واستخدام مختلف الأسلحة المتطورة ورفع المستوى الفني، الإقتصادي، الإعلامي، الأخلاقي، الإجتماعي وأمثال ذلك رغم أنه يحتاج إلى رصيد مالي ضخم وكبير ولكن يجب على المسلمين تأمين هذه النفقات فكلّما ينفق في هذا السبيل وفي خطّ تقوية الإسلام والبلد الإسلامي فإنّ الله تعالى سيعيده إليكم وسوف لا تتضررون من ذلك حتماً.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فرغم أن المسلمين ينبغي عليهم تعبئة جميع طاقاتهم ورفع مستواهم العسكري والنظامي ولكن إذا أراد العدو يوماً أن يمدّ إليكم يد الصلح فعلى المسلمين أن يقبلوا بذلك ولا ينبغي عليهم الإصرار على الحرب، فهذه الآية الشريفة تعتبر جواباً قاطعاً لبعض الأبواق الإستعمارية التي تصر على أن الإسلام دين السيف ويدعو إلى الحرب دائماً، فإنّ الإسلام إذا كان دين الحرب فلا معنى لأن يدعو إلى الصلح ويفرض على المسلمين أن يصافحوا اليد التي تمتد إليهم بالصلح والسلم.

ثمّ إنّ الله تعالى يحذّر المسلمين:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

فرغم أن الإسلام يدعو إلى الصلح ويأمر المسلمين كذلك أن يستجيبوا لدعوات الصلح التي تصدر من العدو ولكنه يحذّر المسلمين أن يأخذوا جانب الحيطة والحذر من مكر الأعداء وخدعهم، فحتّى في حال الصلح يجب على المسلمين أن يحتفظوا بقوّتهم العسكرية وقدرتهم الدفاعية بأعلى المستويات لكيلا يطمع فيهم العدو ويستغل هذه الفرصة في أجواء الصلح ويهاجم المسلمين على حين غرّة، فقد يكون طلبه للصلح بسبب أنه وجد نفسه ضعيفاً ويريد أن يجدد قواه ويزيد من قدراته العسكرية فيقترح على المسلمين الصلح

الكاذب ويشغلهم مدّة لمحادثات الصلح حتّى يتهيأ من جديد لانزال ضربة قاصمة بالمسلمين، ولكنّ المسلمين إذا تحركوا في أجواء الصلح من موقع الحذر والإحتياط واحتفظوا بقواهم العسكرية فإنهم سيأمنون من كيد العدو، الإمام علي عليه السلام يوصي قائده الشجاع مالك الأشتر في عهده له بأن يستغل أية فرصة للصلح مع العدو ولكنه يحذّره من مكر الأعداء ويقول:

«ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضى... ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفّل فخذ بالحزم، واتّهم في ذلك حسن الظّن».[1]

ثمّ إنّ الله تعالى في ختام الآية الشريفة يقول للنبي الكريم صلى الله عليه وآله بأن الله تعالى سيكفيك مكرهم في هذه الصورة فهو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فليس بإمكانك أن تؤلف بين قلوب العرب والقبائل العربية المتنازعة والمتعادية بأدوات المال والقوّة وأمثالها فلو أنك أنفقت عليهم جميع ثروات الأرض لم تتمكن من تأليف قلوبهم ولكنّ الله تعالى هو الذي ألّف بينهم، وهذه نعمة عظيمة عليك وعلى المسلمين.

إنّ الآيات الأربع المذكورة آنفاً تحتاج إلى أبحاث معمّقة ودراسات كثيرة لاستكشاف مضامينها واستجلاء معانيها ولكننا نكتفي بهذا المقدار ونصرف النظر إلى مباحث أُخرى.

من هم المؤمنون؟

سؤال: في حقّ من نزلت آية النصرة هذه، ومن هو المقصود بالمؤمنين؟

الجواب: وردت روايات كثيرة في هذا المجال ذكرها العلّامة الأميني في «الغدير»[2]،

---

١. نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

٢. الغدير: ج ٢، ص ٤٩ فصاعداً.

وكذلك ذكرها صاحب «احقاق الحقّ»[1] وهذه الروايات على قسمين:

الأوّل: الروايات التي تقول: بأن أوّل ناصر ومعين للنبي الأكرم ﷺ هو الإمام علي عليه السلام وهذه الآية الشريفة تشير إلى الإمام علي.

الثاني: الروايات التي تتحدّث عن نصرة الإمام علي عليه السلام للنبي ولكنّها لا تذكر شيئاً عن تطبيق آية النصرة عليه، ونكتفي بذكر رواية واحدة من كلٍّ من هذين القسمين:

١ ـ ما أورده ابن عساكر صاحب كتاب «تاريخ دمشق» عن أبي هريرة[2] أنه قال:

«مَكْتُوبٌ عَلَى الْعَرْشِ لاٰ اِلٰهَ اِلَّا أَنَا وَحْدِي، لاٰ شَرِيكَ لي، وَمُحَمَّدٌ عَبْدي[3] وَرَسُولي، اَيَّدْتُهُ بِعَلِيٍّ وَذٰلِكَ قَوْلُهُ ﴿هُوَ الَّذِي اَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾».[4]

وهنا لابدّ من التلميح بثلاث نقاط:

أوّلاً: بالرغم من أن أبا هريرة لم يصرّح بنسبة هذه الرواية إلى النبي الأكرم ﷺ ولكن مع الأخذ بنظر الإعتبار جملة «مَكْتُوبٌ عَلَى الْعَرْشِ» يتّضح جيّداً أن أبا هريرة سمعها من النبي لأنه لا يمكنه أن يدّعي هذا بنفسه.

ثانياً: إنّ شأن نزول آيات القرآن على نحوين: الأوّل: شأن النزول المنحصر بفرد معيّن مثل آية «إكمال الدين» و«آية الولاية» وأمثالها من الآيات التي نزلت في شأن عليّ ابن أبي طالب بالخصوص ولا تستوعب في أجواءها غيره من المسلمين.

الثاني: شأن النزول العامّ والذي لا ينحصر بفرد معيّن ولكن هناك مصداق أكمل لمضمون هذه الآيات الشريفة حيث يرد ذكر هذا المصداق عادةً في الروايات من قبيل «آية النصرة» الواردة في حقّ المسلمين بشكل عامّ ولكنّ الإمام علي عليه السلام هو المصداق البارز والكامل لها.

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٩٤ فصاعداً.

٢. لقد وردت هذه الرواية بطرق أُخرى أيضاً غير طريق أبي هريرة، ومنها عن ابن عبّاس، وجابر، وأنس.

٣. مسألة العبودية إلى درجة من الأهمّية أنها ذكرت قبل الرسالة والنبوة كما أن المصلّي في التشهد يذكر الشهادة بالعبودية قبل الشهادة بالرسالة لرسول الله.

٤. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٩٤.

ثالثاً: مضافاً إلى ابن عساكر هنالك مؤرّخين وعلماء نقلوا في كتبهم هذه الرواية أيضاً ومنهم:

الف) محبّ الدين الطبري في «الرياض»[١].

ب) السيوطي في «الدرّ المنثور»[٢].

ج) القندوزي في «ينابيع المودّة»[٣].

د) العلّامة الكنجي في «كفاية الطالب».[٤]

٢ ـ وقد ذكر العلّامة الأميني روايات كثيرة بأسناد أُخرىٰ أن الإمام علي عليه السلام هو أوّل ناصر للنبي صلى الله عليه وآله ولكنّها لا تصرّح بأن المراد من الآية الشريفة هو عليّ بن أبي طالب، ومن جملة هذه الروايات ما ورد عن «أنس بن مالك» عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَمَّا عُرِجَ بِي: رَأَيْتُ عَلىٰ سَاقِ العَرْشِ مَكْتُوباً: لا إِلٰـهَ إلَّا اللهُ، مـحمَّدٌ رَسُـولُ اللهِ، أيَّدْتُهُ بِعَلِيٍّ، نَصَرْتُهُ بِعَلِيٍّ»[٥].

الحديث الشريف هذا مذكور في مختلف كتب أهل السنّة ومنها:

١ ـ ذخائر العقبى[٦].

٢ ـ مناقب الخوارزمي[٧].

٣ ـ فرائد الحموي[٨].

٤ ـ الخصائص الكبرى للسيوطي[٩] وكتب أُخرى[١٠].

---

١. الرياض: ج ٢، ص ١٧٢ نقلاً من الغدير: ج ٢، ص ٥٠.
٢. الدرّ المنثور: ج ٣، ص ١٩٩ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ١٩٤.
٣. ينابيع المودّة: ص ٩٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ١٩٤.
٤. كفاية الطالب: ص ١١٠ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٩٤.
٥. تاريخ بغداد: ج ١١، ص ١٧٣ نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٠.
٦. ذخائر العقبى: ص ٦٩ نقلاً من الغدير: ج ٢، ص ٥٠.
٧. مناقب الخوارزمي: ص ٢٥٤ نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٠.
٨. فرائد الحموي: باب ٤٦ نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥٠.
٩. الخصائص الكبرى: ج ١، ص ٧ نقلاً عن الغدير: ج ٢، ص ٥١.
١٠. راجع الغدير: ج ٢، ص ٥٠ و ٥١.

امّا ما ذكر في هذا الحديث «على ساق العرش مكتوباً» فيدلّ على أهمية هذه المسألة بحيث أنها كتبت على ساق العرش الإلهي وذكرت إلى جانب اسم الله تعالى واسم رسوله اسم علي ابن أبي طالب أيضاً. وهذا يدلّ على أن الإمام علي عليه السلام هو المصداق البارز والفرد الكامل لعنوان الناصر، وبديهي أن الله تعالى إذا أراد أن يختار خليفة لرسوله الكريم فإنه يختار من بين المسلمين الأفضل والأكمل منهم لهذا المقام، وإذا أراد المسلمون أن يختاروا شخصاً لهذا المقام فإنّ العقل يحكم بضرورة اختيار مثل هذا الشخص.

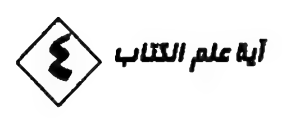
توصية الآية

الدفاع عن الإسلام بكلّ القوى

رأينا في الآيات الشريفة المذكورة آنفاً دور الإمام علي عليه السلام وأهميته الكبيرة في نصرة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وحماية الرسالة السماوية، إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قد حصل على هذا المقام في ظلّ تحركه الدائب وسعيه المستمر في الدفاع عن قائد المسلمين في أحلك الظروف وأشد الأزمات، وعندما كان الإسلام على شرف الإنهيار والسقوط فإنّ الإمام علي عليه السلام كان يبذل كلّ ما أُوتي من قوّة للدفاع عن هذا الدين الإلهي، مثلاً في حرب أُحد حيث إنهزم جميع المسلمين وتركوا النبي صلى الله عليه وآله لوحده في ميدان القتال نجد أن الإمام علي عليه السلام استمر في قتال الأعداء ومناجزتهم ولم يكن له علم بحال النبي صلى الله عليه وآله ولكنه كان يعلم أن النبي ما زال في الميدان وأنه ليس بالإنسان الذي يفر من قتال العدو، ولهذا ففي حين أنه كان مشغولاً في قتال الأعداء كان يبحث عن النبي صلى الله عليه وآله في الميدان فرآه في أحد الجوانب وقد كسرت ثنيته المباركة وسال الدم من فمه وجبهته، فما كان من الإمام علي عليه السلام إلّا أن أخذ يدور حوله ويذبّ الأعداء عنه حتّى تحمّل جراحاً بليغة في سبيل الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله [1]، وعلى الشيعة أيضاً أن يبذلوا كلّ شيء من نفس ومال وأخلاق وحُسن معاشرة ومحبّة وعلم وجميع القابليات والإمكانات التي لديهم في سبيل الدفاع عن الإسلام لكي يردوا يوم القيامة مرفوعي الرأس ولا يردون عرصات الحشر في حالة الخجل من النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام.

---

١. نور الأبصار: ص ٩٦ ـ ٩٧.



آية علم الكتاب

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ «سورة الرعد / الآية ٤٣»

أبعاد البحث

الآية الأُخرى من آيات فضائل الإمام علي عليه السلام التي يمكن اعتبارها دليلاً على إمامته هي آية «علم الكتاب» حيث تقرر هذه الآية أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله استشهد بشاهدين على صدق ادعائه: أحدهما الله تعالى، والآخر «من عنده علم الكتاب» فكيف تقرر شهادة هذين على صدق دعوى النبي، ومن هو المراد بـ«من عنده علم الكتاب»؟ فذلك ما سيأتي تفصيله لاحقاً، ولكن قبل استعراض تفسير الآية نرى أن من الضروري الإشارة إلى مقدمة:

لا تقبلوا أمراً بدون دليل

إنّ أحد تعليمات القرآن الكريم الأساسية هو أنه يوصي جميع المسلمين بل جميع الناس أن لا يقبلوا شيئاً وفكرة وعقيدة بدون دليل، أجل فإنّ الإسلام يؤكد على قبول العقيدة إذا كانت مقترنة مع الدليل والبرهان.

ونقرأ في القرآن الكريم أربع آيات تشير إلى هذا الموضوع حيث تقول:

﴿قُلْ هاتُوا بُرهانَكُمْ﴾[1].

المخاطَب في هذه الآيات تارةً هم اليهود والنصارىٰ حيث يأمر الله تعالى نبيّه الكريم بأن يقول لهم أن يأتوا بدليل وبرهان على صدق مدّعياتهم (من قبيل أنه لا يرد أحد غيرهم الجنّة).

وتارةً أُخرى يكون المخاطب هم المشركون الذين يـدّعون ادعـاءات زائـفة في شأن الأصنام، فهؤلاء يجب عليهم أن يقدّموا الدليل العقلي على دعواهم وإلّا فلا يقبل منهم ما يقولون.

بل إنّ أحد الآيات هذه تشير إلى يوم القيامة أيضاً، فهناك لو أن أحداً إدعى شيئاً يجب أن يكون ادعاؤه مقروناً بالدليل والبرهان.

وعلى هذا الأساس يستفاد من الآيات أعلاه أنه لابدّ لكلّ قوم وأتباع كلّ مذهب أن يأتوا بالدليل على أفكارهم وعقائدهم[2]، وهذه الثقافة القرآنية الراقية إذا تمّ تجسيدها على مستوى الممارسة والعمل فإنّ من شأنها أن تقف حائلاً أمام الخرافات والأفكـار الزائـفة

---

١. جاءت هذه الجملة في الآيات ١١١ من سورة البقرة، و٢٤ من سورة الأنبياء، و٦٤ من سورة النمل، و٧٥ من سورة القصص.

٢. سؤال: كيف يرجع الناس إلى العلماء والمراجع في مسـائلهم الدينية من دون المطالبة بالدليل بل يـجب عليهم اتّباعهم في الفتوى حتّى لولم يقيموا لهم دليلاً على فتواهم؟

الجواب: إن الدليل يكون على نحوين: (أ) الدليل التفصيلي، (ب) الدليل الإجمالي، وبالنسبة إلى أُصول الدين والإعتقادات فلابدّ من الدليل التفصيلي بما يناسب حال المسلم ووضعه العلمي، وعليه أن يعتقد بالأُصول من قبيل التوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد عن دليل وبرهان، ولكن في فروع الدين لا حاجة إلى الدليل التفصيلي بل لا يمكنه ذلك لأنه يستغرق من كلّ شخص عشرات السنين من البحث والدرس في الحوزات العلمية وترك الأعمال الأُخرى ممّا يستلزم انهدام النظم في المجتمع، وعليه فكما أن المريض يجب أن يـراجـع الطـبيب الملتزم والمتخصص ليصف له الدواء من دون حاجة إلى الدليل، فكذلك في المسائل الدينية على المكلّف مراجعة الفقيه الذي قضى عمره في البحث والدرس والتحصيل في الحوزات العلمية وله تجربة كـافية فـي استنباط الأحكام الشرعية، ويتّصف بالعدالة والأمانة ولا يحتاج حينئذٍ إلى دليل لاثبات صحة الفتوى لكلّ حكم من الأحكام الشرعية، والنتيجة أن الناس في تقليدهم للفقهاء لا يرجعون إليهم بدون دليل، بل يوجد دليل اجمالي وهو لزوم رجوع الجاهل إلى العالم.

والعقائد الواهية وحتّى أمام الشائعات وأنواع التهم والتخرّصات، وفي مثل هـذا المجـتمع القرآني لا يمكن لأي فئة مغرضة إيجاد حالة من التشويش والإضطراب في الذهنية المسلمة ليصطادوا السمك في الماء العكر ويركبوا أمواج الضلالة والأزمات الإجـتماعية وبـالتالي يذبحوا الإسلام عند عتبة أغراضهم ومنافعهم الشخصية، وعلى هذا الأساس فـإنّ النـبي الأكرم ﷺ استشهد لصدق دعواه بدليلين وشاهدين معتبرين بحيث يقبل شهادتهم كلّ إنسان.

ومع الإلتفات إلى هذه المقدمة نشرع في تفسير الآية الشريفة:

الشرح والتفسير

الشهود على النبوّة

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ وعليه فإنه ينبغي على النبي ﷺ لإثبات صدق دعواه ورسالته أن يأتي بالدليل والبرهان وفقاً لما قرّره القرآن الكريم من قاعدة وقانون في دائرة الفكر والمعتقدات، ولهذا فإنّ الله تعالى يقول في سياق الآية الشريفة:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

فهنا ذكر النبي شاهدين: الأوّل هو الله تعالى، والثاني هو الشخص الذي عنده «علم الكتاب» أي الشخص الذي يعلم بجميع ما في الكتاب لا بجزء منه، وهذان الشاهدان كافيان لمن كان يتحرك في طلب الحقّ والحقيقة.

كيفية شهادة الله

سؤال: إنّ الله تعالى غائب عن الأنظار ولا يستطيع أحد من الناس أن يـراه فكـيف يشهد بصدق رسالة النبي الأكرم ﷺ وصدق دعواه؟

الجواب: إنّ الله تعالى من خلال المعجزات التي يضعها تحت اختيار النـبي ﷺ يمـثّل شاهد صدق على رسالة نبي الإسلام لأنه من المحال على الله الحكيم أن يضع أكثر من معجزة بل مئات المعاجز بيد مدّعي النبوّة الكاذب ليضل عباده، فالله تعالى لا يمكن أن يضل عباده بهذه الصورة، وعليه فعندما يضع الله تعالى العديد من المعجزات بيد النبي فإنه يشهد بذلك على صدقه.

من هو الذي «عنده علم الكتاب»؟

يذكر العلّامة الطبرسي في مجمع البيان ثلاث نظريات في هذا المجال:

١ ـ أن المراد بقوله ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الله تعالى، وفي الحقيقة فهذه الجملة بمثابة عطف تفسيري على «بالله» الذي ورد في صدر الآية، فكليهما بمعنى واحد، وعليه ففي هذه الآية الشريفة لا يوجد أكثر من شاهد واحد يشهد على صدق إدعاء نبي الإسلام ﷺ وهو الله تعالى[1].

ولكنّ هذه النظرية مردودة، لأن الأصل الأولي في العطف هو التعدد والجملة المعطوفة تقرر مطلباً جديداً غير المعطوف عليه، والعطف التفسيري خلاف الأصل، وهذه الحقيقة يذعن لها علماء اللغة والأدب العربي، وعليه فما لم يتوفر لنا دليل معتبر على أن الجملة أعلاه هي عطف تفسيري، فلابدّ من حملها على معنىً آخر غير المعطوف عليه لئلّا نقع في إشكالية التكرار، ولذلك فالنظرية الأولى غير مقبولة.

٢ ـ ومنهم من ذهب إلى أن المراد من جملة ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هم أُولئك الأشخاص من أهل الذمّة الذين اعتنقوا الإسلام ومنهم «عبدالله ابن سلام»[2] العالم اليهودي، ولكنه كان منصفاً وقد قرأ علامات نبوّة النبي الأكرم ﷺ في التوراة وعندما رآها منطبقة على محمّد بن عبدالله ﷺ وعلم أنه مرسل من الله تعالى آمن به في حين أنه لو بقي على دين اليهودية كان يحظى بمنزلة كبيرة بينهم وقد يحصل من ذلك الكثير من الأموال والثروات، ولكنه عندما علم بحقيقة الأمر سحق أهواءه النفسية واعتنق الإسلام، ولهذا فإن هذا الشخص هو الذي عنده «علم الكتاب» أي كان يعلم بعلائم النبي في التوراة ويشهد بذلك، إذن فإن هذه الآية تقرر شاهدين على صدق ادعاء النبي الأكرم ﷺ، وبعبارة أُخرى إنّ الله تعالى والكتب السماوية السابقة تشهد بصدق نبوّة نبي الإسلام ﷺ.

ولكنّ هذه النظرية أيضاً غير مقبولة، لأن سورة الرعد من السور المكية في حين أن

---

١. مجمع البيان: ج ٣، ص ٣٠١.

٢. نفس المصدر السابق.

عبدالله ابن سلام اعتنق الإسلام في المدينة، وعلى هذا الأساس فإنّ زمان نزول الآية محل البحث قبل إيمان عبدالله بن سلام بمدّة سنوات فلا يمكن أن تشير الآية إلى إيمان هذا الشخص وشهادته.

٣ـ وهي النظرية التي وردت في الكثير من كتب التفسير والتاريخ والحديث حيث تقرر أن المراد بجملة «من عنده علم الكتاب» هو الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام[1].

يقول أبوسعيد الخدري من علماء الإسلام وصحابة النبي صلى الله عليه وآله والمقبول لدى أهل السنّة والشيعة:

«سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية: الذي عنده علم من الكتاب[2] قال: ذاك وزير أخي سليمان بن داود عليه السلام، وسألته عن قول الله عزّوجلّ: قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب، قال ذاك أخي علي بن أبي طالب»[3].

ويروي هذه الرواية مضافاً إلى أبي سعيد الخدري: عبدالله ابن عبّاس، سلمان، سعيد ابن جبير، محمّد ابن الحنفية، زيد بن علي وآخرون أيضاً، ومن جملة من ذكر هذه الرواية في كتابه: القرطبي[4]، السيوطي[5]، العلّامة الدشتكي الشيرازي[6]، الترمذي[7] وآخرون، وعليه فإن أفضل تفسير لجملة «من عنده علم الكتاب» هو أن المراد منها الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام.

كيف يشهد الإمام علي عليه السلام بالنبوّة؟

سؤال: مع الإلتفات إلى الروايات الكثيرة الواردة في شأن نزول هذه الآية الشريفة التي

---

١. مجمع البيان: ج ٣، ص ٣٠١.
٢. سورة النمل: الآية ٤٠.
٣. ينابيع المودّة: ص ١٠٢ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨١.
٤. الجامع لأحكام القرآن: ج ٩، ص ٣٣٦ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨٠.
٥. الإتقان: ج ١، ص ١٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨٠.
٦. روضة الأحباب: ج ١، وقائع السنة التاسعة نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨٠.
٧. مناقب المرتضوي: ص ٤٩ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨٠.

تؤيد أنها واردة في شأن الإمام علي عليه السلام، يثار هنا سؤال آخر وهو: كيف يمكن أن يشهد الإمام علي عليه السلام على نبوّة ورسالة النبي محمّد صلى الله عليه وآله؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال نذكر مثالين على ذلك:

ألف) إذا دخل أحد الأشخاص مدينة معيّنة ولم يكن له فيها أيُّ شخص يعرفه، وحينما يحين وقت يتوجه إلى المسجد ليدرك فضيلة صلاة الجماعة وفضيلة الصلاة أوّل الوقت، فمع العلم بأنه لا يعرف أحداً من هذه المدينة كيف يمكنه أن يتثبت من عدالة إمام الجماعة ويقتدي به؟

يقول الفقهاء: إنّ مجرد حضور مجموعة من الأشخاص من أهل الإطلاع والفضل واقتداءهم به يمكنه أن يكون بمثابة الشهادة على عدالة إمام الجماعة، من قبيل أن مئات من رجال الدين والشيوخ يقتدون به في صلاتهم، فمن هنا يتبيّن لنا عدالة إمام الجماعة من خلال اقتداء المأمومين هؤلاء.

ب) إذا رأينا شخصاً من أهل الخبرة والفضل ومورد احترام الناس يأتي إلى أُستاذ من الأساتذة ويجلس بين يديه ليتعلم ويتتلمذ على يد هذا الأُستاذ الذي لا نعرفه إطلاقاً، فمن خلال معرفتنا بعلم وفضل التلميذ ندرك عظمة الأُستاذ وعلمه الواسع، وعلى سبيل المثال إذا رأينا الشيخ الأنصاري أو العلّامة الحلّي يدرسان ويتعلمان عند أُستاذ غير معروف، فمن خلال التلميذ ندرك عظمة الأُستاذ.

وبالنظر إلى هذين المثالين نجيب على السؤال المذكور:

عندما نطالع شخصية الإمام علي عليه السلام ونراه متفوقاً في جميع الصفات الأخلاقية والإنسانية نرىٰ أنّ مثل هذا الإنسان مع عظيم علمه ومعرفته بحيث إنّ الإنسان الذي يقرأ «نهج البلاغة» ويتدبر فيه وفيما يتضمنه من معارف عميقة وعلوم غزيرة لا يصدّق أن هذا الكتاب هو حصيلة ترشحات من فكر إنسان، ولهذا قيل عن نهج البلاغة: «دون كلام الخالق وأعلى من كلام المخلوق».

الإمام علي مع ذلك القضاء العجيب والمحيّر في أدق المشكلات والمحاكمات والذي نجح بأفضل وجه في ردّ حقوق المظلومين...

الإمام علي مع شديد عبادته وتقواه والتزامه الديني بحيث إنه في حال الصلاة لا يلتفت إلى شيء آخر سوى الله تعالى ولذلك كانوا في الموارد التي لا يستطيعون معالجته في غير الصلاة ينتظرونه ليصلّي حتّى يخرجوا السهام من بدنه الشريف وهو غافل عنها...

الإمام علي مع شهامته وشجاعته الهيّرة والتي تضرب بها الأمثال بحيث لم يغلب في أيّ حرب وقتال ولم يفر ولا مرّة واحدة من الأعداء...

الإمام علي مع التزامه الشديد بالعدالة بحيث لا يمكن لأحد من الناس أن يخرجه عن حدّ العدالة وأخيراً استشهد بسبب هذا الإلتزام والإنضباط الأخلاقي بالعدالة.

أجل، فإنّ الإمام علي عليه السلام بهذه الصفات والخصائص الأُخرى يمثل رمز الإنسان الكامل، وهذا الشخص قد آمن بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وجعل حياته وقفاً لتبليغ هذا الدين واعتبر نفسه عبداً من عبيد محمّد، ألا يتبين لنا من خلال إيمان الإمام علي عليه السلام حقانية إدّعاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة السماوية؟ وبهذا يكون الإمام علي شاهداً آخر على نبوّة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ونعتقد أن هذا الشاهد على نبوّة النبي محمّد صلى الله عليه وآله إلى درجة من الأهمّية بحيث إنه لو فرضنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يأتِ بأي دليل آخر سوىٰ شهادة علي ابن أبي طالب لكفى.

المقارنة بين آصف بن برخيا وعلي بن أبي طالب عليه السلام

كان آصف بن برخيا وزير النبي سليمان عليه السلام وقد وردت قصته في سورة النمل وهي:

«عندما تحركت ملكة سبأ من اليمن باتجاه النبي سليمان لتسلم على يده خاطب سليمان وزراءه ومشاوريه من الجن والإنس وقال:

أيكم يقدر على أن يأتيني بعرش الملكة من اليمن قبل أن تصل إلينا؟

فقال أحد العفاريت من الجنّ: أنا آتيك به ولكنّ ذلك يحتاج إلى مدّة من الزمان قد تصل إلى بضع ساعات وسوف أحضره عندك قبل إتمام هذه الجلسة.

والظاهر أن النبي سليمان لم يقبل هذا الإقتراح وأراد حضور العرش بأسرع من هذا الوقت ولهذا قال شخص آخر وكان لديه علم من الكتاب وهو «آصف بن برخيا»: إنني

قادر على إحضاره عندك قبل أن تطرف عينك، فما أن فتح سليان عينه وإذا به يرى عرش الملكة حاضراً عنده، وحينذاك توجه سليان بالشكر إلى الله تعالى على هذه النعم والمواهب العظيمة[١].

إن آصف بن برخيا وبسبب اطلاعه على بعض علم الكتاب والإسم الأعظم استطاع أن يقوم بهذا العمل الخارق للعادة، في حين أنّ الإمام علي عليه السلام لديه علم الكتاب أجمع وكذلك الإسم الأعظم فهل يمكن قياس قدرة آصف ابن برخيا بقدرة الإمام علي عليه السلام ؟

من هذا البحث يمكننا التطرق إلى الولاية التكوينية للأئمة الأطهار، لأن معنى العلم التكويني ليس هو أننا نعتقد بأن الإمام علي عليه السلام خالق السماوات والأرض «ونعوذ بالله» بل يعني أنّ هؤلاء الأولياء يتصرفون بعالم الوجود بإذن الله تعالى ومشيئته ويشبه تصرفهم عمل آصف ابن برخيا.

٨٠٠٣

١. ما ورد أعلاه كان شرحاً مختصراً عن آصف بن برخيا الوارد في الآيات ٣٨، ٣٩، ٤٠ من سورة النمل.



٦٥ آية المؤذن وآية الأذان

ومن جملة الآيات التي تتعلق بفضائل الإمام علي عليه السلام هي الآيات ٤٤ من سورة الأعراف، والآية ٣ من سورة التوبة حيث يقول تعالى في الآية ٤٤ من سورة الأعراف:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويقول في الآية ٣ من سورة التوبة:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

أبعاد البحث

إنّ كلمة «مؤذّن» وردت في القرآن الكريم مرّتين حيث تتحدّث عن عالم الآخرة، وقد وردت في الآية ٤٤ من سورة الأعراف، وفي الآية ٧٠ من سورة يوسف وهكذا كلمة «أذان» وردت مرّة واحدة في الآية ٣ من سورة التوبة، وكلُّ واحدة من هاتين الآيتين ترتبط بشأن الإمام علي عليه السلام.

«أذان» في الإصطلاح يراد به مجموعة الأذكار الخاصّة التي تقال حينما يحين وقت الصلاة لدعوة الناس إلى الصلاة والمسجد ولكن في اللغة يراد بها مطلق الإعلان، فتارةً يكون الإعلان مقارناً للتهديد، وأُخرى لإعلان الحرب، وثالثة لإعلان وقت الصلاة، وبتعبير آخر أن «الأذان» تعني إخبار الناس بالخبر بصورة علانية، إذن فالأذان لا يختصّ بالإعلان عن وقت الصلاة بل يستوعب معنىً واسعاً.

تفسير الآية ٤٢ من سورة الأعراف

حوار أهل الجنّة وأهل النار

ولأجل توضيح معاني ومفاهيم آية المؤذّن نرىٰ من اللازم أن نبدأ بالآيات التي قبلها:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

جملة **﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾** جاءت كجملة معترضة في الآية أعلاه وتشير إلى نكتة مهمة، وهي أن جميع الأشخاص لا يستوون في الايمان والعمل الصالح ولا يصحّ أن يتوقع الإنسان من جميع الناس التساوي في الايمان والعمل الصالح، بل كلُّ شخص يُكلّف بمقدار قدرته وإدراكه ولياقته، وبدون شك أن إيمان الإمام علي عليه السلام وسلمان وأبي ذرّ ليس بمستوى إيمان سائر الناس، ولذلك فالمتوقع من هؤلاء الأشخاص الأولياء غير ما يتوقع من الأشخاص العاديين، والخلاصة هي أن كلُّ إنسان مؤمن يدخل الجنّة بحسب قابليته وإيمانه وعمله الصالح.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾.

فهنا تتحرّك الآية الشريفة لبيان صفات المستحقين للجنّة بعد ورودهم إليها فأوّل ما يواجه المؤمن لدى دخوله الجنّة هي أن الله تعالى يطهر قلبه من أدران الحسد والحقد تماماً ويعود إليها الصفاء والطهر والخلوص، وكلمة «غلّ» تقال لحركة الماء الخفية تحت النباتات، وبما أن عنصر الحسد والحقد يتحرك في قلب الإنسان بصورة خفية ومستورة فلذا قيل عنه بأنه «غلّ».

سؤال: هل يعقل أنّ أهل الجنّة يعيشون الحسد والحقد ومع ذلك يدخلهم الله الجنّة؟

الجواب: يستفاد من بعض الروايات أن بعض الدرجات الخفيفة للحسد والحقد يمكنها أن تكون لدى المؤمن وما لم يظهرها الإنسان لا تحسب ذنباً ومعصية ولا تتنافى مع الإيمان[١]، وبهذا فإنّ الله تعالى يطهّر قلوب هؤلاء المؤمنين من أهل الجنّة من هذه الدرجة الضعيفة من الحسد والحقد ليعيشوا في الجنّة بكامل السعادة والطمأنينة والراحة النفسية.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْـهارُ﴾ إنّ أهل الجنّة يسكنون في قصور وبيوت تجري من تحتها الأنهار، أي أن الله تعالى قد بنى لهم هذه القصور والبيوت على الأنهار الجارية، وهذا من جملة النعم الأُخروية على أصحاب الجنّة والتي وردت في الكثير من الآيات الشريفة

﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدانا لِهٰذا وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدانا اللهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِـالْحَقِّ﴾ فعندما يشاهد أهل الجنّة كلّ هذه النعم العظيمة والألطاف الإلهيّة الجليّة يتوجهون إلى ربّهم من موقع الشكر والثناء ويقولون: الحمد الذي هدانا لهذه النعم والمواهب الكثيرة ولولا عناية الله ورعايته ما كنّا لنهتدي إليها ولا نسلك الطريق إلى الجنّة، وأنّ رسل الله وأنبياءه كانوا يقولون الحقّ، أجل، فإنّ أهل الجنّة يعترفون بأن الهداية التشريعية للأنبياء والأولياء والكتب السماوية وكذلك الهداية التكوينية المنبعثة من الجوانب النفسانية والفطرية المودعة في وجود الإنسان هي التي أدّت بهم إلى اختيار طريق الجنّة وكسب رضا الله تعالى ونيل ألطافه وعناياته.

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فبعد أن يشكر أهل الجنّة الله تعالى على عظيم نِعمه التي لا تحصى يقال لهم أن أدخلوا الجنّة فهي التي ورثتموها بأعمالكم.

﴿وَنادىٰ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً﴾ فعندما يستقر أهل الجنّة في مساكنهم وقصورهم وينظرون إلى ما حولهم بحثاً عن أصدقائهم ومعارفهم لا يجدون أفراداً منهم ويدركون أنهم صاروا من أهل النار وحرموا الورود إلى الجنّة وبذلك يخاطبون أهل النار:

---

١. المنار، ج ٨، ص ٤٢١ نقلاً عن التفسير الامثل: ذيل الآية مورد البحث.

«إننا قد وجدنا ما وعد ربُّنا حقّاً وقد تبيّن لنا صحّة الطريق الذي سلكناه في الدنيا وأوصلنا هذا الطريق من خلال الايمان والعمل الصالح إلى الجنّة وحظينا بجميع ما وعد الله تعالى للمؤمنين فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقّاً؟ هل تحققت وعود الله في حقّكم من العقاب على ما ارتكبتم من الذنوب والجرائم؟

«قَالُوا نَعَمْ» وهكذا يجيب أهل النار على هذا السؤال بالإيجاب وأن الله قد أنجز ما وعدهم من العذاب والعقاب الأُخروي.

سؤال: لماذا يسأل أهل الجنّة هذه الأُمور من أهل النار؟

الجواب: يحتمل أن سؤالهم كان لغرض تحصيل إطمئنان أكثر وإيمان أعلىٰ بما وعد الله رغم أن أهل الجنّة يؤمنون بجميع ما وعدهم الأنبياء من أُمور الغيب ويعتقدون به ولكنهم عندما يرون ذلك بأُمّ أعينهم أو يسمعون من أهل النار تحقّق الوعيد الالهي بحقّهم فإنّ إيمانهم سيزداد ويتعمق أكثر.

الإحتمال الآخر هو أنهم يسألون أهل النار من أجل التهكم والذم والتقريع لهم كما كان أهل النار يلومون المؤمنين في الدنيا ويذمّونهم ويسخرون منهم على اعتقاداتهم وإيمانهم بالغيب فهذه المساءلة نوع من المقابلة بالمثل.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ كختام للمحاورة المذكورة بين أهل الجنّة وأهل النار لابدّ وأن يكون هناك من يختم هذا الحوار ولذلك ورد النداء الإلهي «أن لعنة الله على الظالمين» وتنتهي بذلك المساءلة ويسدل الستار على هذه المحاورة.

من هو المؤذّن؟

سؤال: من هو المؤذّن في الآية ٤٤ من سورة الأعراف؟ ومن هو هذا الشخص الذي يختم الحوار المذكور بالنداء الإلهي والذي توحي الآية أن له سلطة على الجنّة والنار والقيامة؟ ومن هو هذا الشخص الذي يسمعه جميع الناس في ذلك اليوم ويختم بكلامه عملية المحاورة بين أهل الجنّة وأهل النار؟

الجواب: هناك روايات متعددة مذكورة في مصادر الشيعة وأهل السنّة تؤكد على أن

المؤذّن هو الإمام علي ﷺ، وعلى سبيل المثال نشير إلى نماذج منها:

١ ـ أورد الحاكم الحسكاني الحنفي من أهل السنّة في «شواهد التنزيل» عن محمّد ابن الحنفية عن الإمام علي ﷺ أنه قال:

«أَنَا ذٰلِكَ الْمُؤَذِّنُ».

وروى الحاكم بسنده عن أبي صالح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: قال علي ﷺ: في كتاب الله أسماء لي لا يعرفها الناس منها المؤذن[1].

٢ ـ وكذلك نقل الحافظ أبو بكر ابن مردويه في كتاب «المناقب» أن المؤذّن هو عليّ بن أبي طالب ﷺ[2].

٣ـ ونقل الآلوسي أحد المفسّرين المعروفين من أهل السنّة في تفسير «روح المعاني» عن ابن عبّاس أنه قال:

«اَلْمُؤَذِّنُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ»[3].

٤ ـ وذكر الشيخ سليمان القندوزي مؤلف كتاب «ينابيع المودّة» في كتابه هذا أن المراد بالمؤذّن هو عليّ بن أبي طالب[4].

٥ ـ ونقل هذا المعنى مير محمّد صالح الكشفي الترمذي في «المناقب»[5].

هل أنّ مقام المؤذّن يعدّ فضيلة؟

سؤال: لقد ذهب بعض المثقفين والكتّاب الإسلاميين الذين تورطوا في شراك التعصّب المذهبي عندما يصل إلى هذه الآية الشريفة والروايات المذكورة فيها ينكر كون مقام المؤذّن فضيلة للإمام علي ﷺ ويقول: «على فرض أن يكون المؤذن هو الإمام علي ﷺ، ولكن هذا

---

١. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣٩٤.

٢. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣٩٣.

٣. روح المعاني: ج ٨، ص ١٠٧ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣٩٣).

٤. ينابيع المودّة: ص ١٠١ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣٩٣).

٥. مناقب المرتضوي: ص ٦٠ (نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣٩٣).

المعنى لا يعدّ افتخاراً له. لأنه لابدّ أن يكون هناك مؤذن يوصل النداء الإلهي للناس في المحشر، ولا يختلف الحال فيمن يكون هو المؤذن».

الجواب: والجواب على هذا الكلام واضح لأن هذا المؤذّن إنما يعلن شيئاً بأمر الله تعالى فهو رسول من الله لإلقاء هذا الكلام على أهل المحشر أي الناطق الرسمي عن الله وهي وظيفة خطيرة وثقيلة. وعليه فإنّ هذا المقام يدلُّ على أهمية ومكانة هذا الشخص بحيث يبين للناس الرسالة الإلهية بصورة جيّدة في يوم القيامة. ومع الإلتفات إلى محتوى هذه الرسالة وأنها تشمل لعنة الله على الظالمين فلابدّ أن لا يكون هذا المؤذّن من الأفراد الملوثين بالظلم في الدنيا، وإلّا فلا يوجد أحد يلعن نفسه، ولهذا فإنّ مقام المؤذّن في ذلك اليوم لا يعدُّ مقاماً عادياً يستطيع أيُّ شخص أن يقوم به. وعليه فإنّ هذا المقام يعدّ فضيلة كبيرة لمن يناله.

لماذا يغمض بعض مفسّري أهل السنّة أبصارهم عن إدراك الحقائق ويمرون على المضامين القرآنية مرور الكرام بهدف الإحتفاظ على عقائدهم الموروثة وأحياناً ينكرون مضامين الوحي من أجل ذلك؟!

تفسير الآية ٣ من سورة التوبة

أما تفسير «آية الأذان» في سورة التوبة والتي تعد هي الأُخرى من آيات فضائل الإمام علي عليه السلام ولها ارتباط وثيق بآية «المؤذّن» السابقة. نرىٰ من اللازم بعض التوضيح حول الآيات الأُولى من سورة التوبة:

عندما فتحت مكّة في السنة الثامنة للهجرة وتمّ القضاء على الشرك وعبادة الأوثان وإزالة الأصنام من أرض الوحي ودخل العرب في الإسلام ورأى مشركو مكّة تعامل النبي صلى الله عليه وآله معهم من موقع المحبّة والعفو والصفح، أدّى ذلك إلى دخول الناس في الإسلام زرافات ووحدانا. وانتهت هذه السنة بجميع ما وقع بها من حوادث كبيرة. وأراد رسول الله صلى الله عليه وآله في السنة التاسعة للهجرة أن يحجّ حجّة الوداع ولكنه بسبب وجود بعض الأُمور لم يرَ من المناسب أن يحجّ في تلك السنة وذلك:

الف: إنّ بعض المشركين وعبدة الأوثان كانوا يأتون من البادية لزيارة بيت الله الحرام، وعلى الرغم من أن الكعبة قد تمّ تطهيرها من الأصنام والأوثان إلّا أنّ هؤلاء الوثنيين كانوا

يأتون إلى البيت الحرام ويطوفون حوله وينشدون بعض الأشعار والشعارات الجاهلية حين الطواف تخليداً لذكر الأصنام.

ب: ما زال بعض الناس يطوفون بالبيت عراة كما كانوا في السابق لأنهم كانوا يعتقدون أن لباس الطائف الذي يطوف فيه حول البيت يجب عليه أن يتصدّق به إلى الفقير، ولهذا فلو أن الشخص خلع لباسه وطاف عرياناً ثمّ بعد أن ينتهي من الطواف يرتدي لباسه فلا يجب عليه التصدّق به على الفقير، ولذلك فمن لم يكن راغباً في التصدق بلباسه يقوم بخلع لباسه والطواف عارياً، وأحياناً يكون الطائف بالبيت امرأة، فنتصور كيف يكون حال الطواف مع وجود امرأة عريانة بين الطائفين وكيف تتبدل الأجواء المعنوية والروحية في ذلك المكان المقدّس إلى أجواء شهوانية وحيوانية؟

فنظراً إلى هذه الأمور انصرف رسول الله ﷺ عن أداء الحجّ في السنة التاسعة حتّى نزلت الآيات الأُولى من سورة التوبة وأمر النبي الأكرم ﷺ أن يعلن في مراسم الحجّ في السنة العاشرة للهجرة لجميع المشركين أربعة أُمور:

١ ـ «لاٰ يَحِجَّنَّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ» فبعد السنة العاشرة للهجرة لا يحقُّ لأي مشرك أن يحجّ البيت ولا يحقُّ له دخول المسجد الحرام، هذا البيت الذي بناه بطل التوحيد ومحطم الأصنام فلا يكون مكاناً للأصنام بعد الآن، ولا ينبغي للمشركين والوثنيين أن يطوفوا حول بيت الله إلّا أن يتركوا عقائدهم الخرافية جانباً.

٢ ـ «وَلاٰ يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيٰانٌ» فبعد الآن لا يحقُّ لأي شخص أن يطوف بالكعبة عرياناً ويلوّث تلك الأجواء المعنوية والروحية بهذا العمل الشنيع.

٣ ـ «وَلاٰ يَدْخُلَ الْبَيْتَ إِلّاٰ مُؤْمِنٌ» ففي السابق كان الدخول إلى داخل الكعبة مباحاً للجميع (خلافاً لهذا الزمان حيث لا ينال هذه السعادة إلّا بعض الأشخاص القليلين) فكان المسلمون والمشركون يدخلون داخل الكعبة باستمرار وبدون أي مانع ولكن بعد إبلاغ هذا النداء لا يحقُّ لمشرك أن يدخل الكعبة.

٤ ـ «وَمَنْ كٰانَتْ لَهُ مُدَّةٌ فَهُوَ إِلىٰ مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُدَّةٌ فَمُدَّتُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ» فالمشركون الذين كان لديهم عهد وميثاق مع رسول الله على ترك الحرب والقتال ولم

يذكروا مدّة محدودة لمهدهم هذا، فلهم فرصة أربعة أشهر لينضموا إلى الإسلام، وبعد انتهاء هذه المدّة لا يبقى عهد وميثاق بينهم وبين النبي الأكرم ﷺ، وأما من كان له عهد مع رسول الله ﷺ لمدّة معيّنة ولم تنتهِ هذه المدّة ولم يرتكب ما يخالف العهد ولم يتحرّك على مستوى معونة أعداء الإسلام فإن عهده محترم إلى نهاية المدّة[١].

وهكذا وجد النبي الأكرم ﷺ نفسه مأموراً بإبلاغ هذه التعليمات والأوامر الإلهية في أيّام الحجّ من السنة العاشرة للهجرة وإخبار المشركين بها. فاختار النبي لهذه المهمة أبابكر ليقرأ الآيات الأولى من سورة التوبة على المشركين في أيّام الحجّ. وتوجه أبوبكر نحو مكّة لأداء هذه المهمة ولكن لم يمض سوى القليل حتّى هبط جبرئيل الأمين على رسول الله ﷺ وقال له:

«إنه لن يؤديها عنك إلّا أنت أو رجل منك» فدعى النبي الأكرم ﷺ الإمام علي عليه السلام وقال له: «إلحقه فردّ عليّ أبابكر وبلّغها أنت» ففعل ذلك الإمام علي عليه السلام وأخذها من أبي بكر وأبلغها عامة المشركين في أيّام الحجّ[٢].

ويقول الطبرسي في هذا المجال:

اجمع المفسّرون ونقلة الأخبار انّه لمّا نزلت براءة رفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، ثمّ أخذها منه ودفعها إلى عليّ بن أبي طالب[٣].

وقد أوضحنا بالتفصيل ما ذكره «صاحب مجمع البيان» والمقدار المشترك بين جميع الروايات هو ما ذكرنا وقد أورد صاحب كتاب «احقاق الحقّ» هذا المعنى من أربعين كتاب من كتب أهل السنّة.[٤]

---

١. التفسير الامثل: ذيل الآية مورد البحث.
٢. التفسير الامثل: ذيل الآية مورد البحث.
٣. مجمع البيان: ج ٣، ص ٣.
٤. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٤٢٧ فصاعداً.

الإختلاف في الجزئيات

وطبعاً الروايات المذكورة تختلف بعض الشيء في جزئياتها وتفاصيلها، ونشير إلى بعض منها:

لقد ورد في بعض الروايات أن النبي الأكرم ﷺ أركب علياً على ناقته المعروفة بـ«العضباء» فوصل علي إلى أبي بكر في مسجد الشجرة على مقربة من مكّة وأحد المواقيت المعروفة لحجّ التمتع والعمرة وأبلغه أمر رسول الله، فتألم أبوبكر من ذلك وعاد إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ: «أَنَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ؟».

فقال له النبي ﷺ: «لا، إلّا أنّي أُمِرْت أنْ أُبَلِّغَهُ أنا أو رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتي»[١].

والخلاصة أنه يستفاد من هذه الروايات أن تغيير الشخص المأمور بإبلاغ هذه الآيات لم يكن من جهة النبي بل إنّ الله تعالى هو الذي أمره بذلك، وعلى أيّة حال فإنّ هذه المهمة والمسؤولية قد أُلقيت على عاتق أميرالمؤمنين ﷺ وبذلك تحرك الإمام نحو أداء هذه المأمورية وأراح النبي من القلق الذي كان يساوره في مورد الحجّ حيث أشرنا إليه سابقاً وبذلك تهيّأت مقدّمات سفر النبي ﷺ إلى مكّة للإتيان بحجّة الوداع.

الشرح والتفسير

الإنذار الهام للمشركين

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وبذلك تمّ إلغاء جميع العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين والتي لم يكن لها مدّة زمنية محددة.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

سؤال: لماذا نقض رسول الله عهوده مع المشركين، وهل يشمل هذا النقض جميع معاهدات النبي؟

---

١. خصائص النسائي: ص ٢٨ نقلاً عن التفسير الامثل: الآية مورد البحث.

الجواب: يستفاد من الآيات التالية أن مسألة إلغاء العهود كانت في موارد العهود التي ليست لها مدّة أو انتهت مدّتها، وكذلك العهود التي لم تنته مدّتها ولكنّ المشركين نقضوا العهد وتعاونوا مع أعداء الإسلام والمسلمين كما حصل في حرب الأحزاب وأمثالها. وأما العهود التي لم تنته مدّتها ولم يتخلف أصحابها عن مضمون العهد ولم يساعدوا أعداء الإسلام بشيء فإنّ مثل هذه العهود باقية على قوّتها وفاعليتها إلى انتهاء المدّة المقررة كما ورد ذلك في الآية الرابعة من سورة التوبة لأن العهد محترم جداً في نظر الإسلام حتّى لو كان مع العدو، فلو اقتضت المصلحة أن يكون للمسلمين عهد وميثاق مع الكفّار فيجب أن يحترم المسلمون هذا العهد ويلتزموا به.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

بالنسبة إلى «الحجّ الأكبر» وردت تفاسير مختلفة وأفضلها هو أن المراد من الحجّ الأكبر هو «حجّ التمتع» الذي يتضمّن في مناسكه الوقوف في عرفات والمشعر الحرام ومنىً والهدي ورمي الجمرات وأمثال ذلك، والمراد من الحجّ الأصغر هو «عمرة التمتع»[١]، وعلى أيّة حال فلابدّ من دراسة هذا الإعلان الإلهي في حجّ التمتّع للسنة التاسعة للهجرة وماذا كان مضمونه ومحتواه؟ وتستمر الآيات الشريفة بالقول:

﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ولهذا فإنّ جميع المعاهدات ملغيّة بعد إعلان براءة الله ورسوله من المشركين، وعلى هذا الأساس فإنّ أمام المشركين والكفّار طريقان لا أكثر: الأوّل هو أن يتوبوا إلى الله ويتركوا الشرك ويدخلوا في الإسلام.

﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنّ ذلك يؤمن لهم الأمن في الدنيا والسعادة في الآخرة من خلال العمل بتعليمات الإسلام وأداء الواجبات وترك المحرمات.

الثاني: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلو أصرّوا على الشرك والحرب مع الحقّ فإنهم لا يستطيعون الخروج من دائرة القدرة الإلهية ومضافاً إلى أن العذاب الإلهي الأليم بانتظارهم.

---

١. وقد ورد في معنى «الحجّ الأكبر» أنه «يوم عرفة» و«يوم الأضحى»، وللمزيد من الإطلاع انظر: مجمع البيان: ج ٢، ص ٥، وتفسير الكشاف: ج ٢، ص ٢٤٤.

هل تعدّ هذه المهمة فضيلة؟

سؤال: طبقاً لما تقدّم آنفاً إنّ الامام علي ﷺ أصبح مأموراً من قبل النبي ﷺ بـإبلاغ الآيات الأُولى من سورة التوبة إلى المشركين في أيّام الحجّ، وقد كانت هذه المأمورية بعهدة أبي بكر في البداية إلّا أن رسول الله أخذها منه ودفعها إلى علي ابن أبي طالب ﷺ فهل يعدُّ ذلك فضيلة للإمام علي ﷺ ؟

الجواب: إنّ بعض المتعصبين تحركوا على مستوى تهميش هذه الفضيلة والتقليل من أهميّتها فقالوا: إنّ علّة تبديل هذه المأمورية هو ما كان من التقاليد الرسمية والأعراف بين العرب، لأن العرب كانوا عندما يريدون إرسال رسالة إلى شخص معين يقوم صاحب الرسالة نفسه أو يختار واحداً من أهل بيته وأرحامه لأداء هذه الرسالة وايصالها إلى الطرف الآخر، ولهذا عزل النبي الأكرم ﷺ أبابكر وأرسل علي ﷺ مكانه، وعليه فإنّ هذه المأمورية المذكورة لا تعدُّ فضيلة للإمام علي ﷺ[1].

ولكنّ الإنصاف أن هذا الكلام بعيد جداً عن الحقيقة لأنه:

أوّلاً: من أين ثبت أن التقاليد العربية كانت كذلك ؟ وأيُّ كتاب ذكر هذه القضية ؟ وهل يمكن إلغاء فضيلة مهمة لمجرد احتمال غير ثابت ؟

ثانياً: على فرض وجود مثل هذا العرف بين العرب في ذلك الوقت فإنّ تغيير المؤدي لهذه الرسالة المهمة لا يرتبط بتقاليد العرب وأعرافهم لأن النبي الأكرم ﷺ كما ورد في الروايات المذكورة آنفاً قد تلقى الأمر بذلك من الله تعالى.

وعلى هذا الأساس فلا شكّ في أن هذه المهمة والمأمورية تعدّ فضيلة كبيرة للإمام علي ﷺ، ومع الإلتفات إلى هذا المطلب فلو أن الله تعالى أراد أن ينصب خليفة على المسلمين بعد رسول الله فلابدّ أن يكون هذا الإنسان هو الأفضل وله فضائل أكثر، وإذا أراد الناس انتخاب شخص لهذا الغرض فلابدّ أن يكون هو الأفضل بمقتضى العقل.

---

١. الكشّاف: ج ٢، ص ٢٤٤.

ارتباط آية الأذان والمؤذّن

إنّ المثوبات والعقوبات في الآخرة هي في الحقيقة انعكاس للأعمال الإنسان في الدنيا، ويتّضح هذا المطلب أكثر بالإلتفات إلى كيفية ارتباط هذه المثوبات والعقوبات الأُخروية بأعمال الإنسان في حركة الحياة الدنيوية.

عندما يحشر الإنسان المرابي في عرصات المحشر في حالة من الإضطراب في السلوك وكأنه سكران لا يقدر على الحركة ويترنح ويسقط بين الحين والآخر إلى الأرض كلّ ذلك يحكي عن سلوكه في الحياة الدنيا حيث كان بعمله القبيح يتحرك من موقع الإخلال الإقتصادي في المجتمع وإثارة الأزمات الإجتماعية بعمله وأكله الربا فيزلزل أساس المجتمع الإسلامي ويثير فيه الإرتباك والخلل، إذن فعدم تعادله في المشي يوم القيامة يحكي عن واقع دنيوي بهذا المعنى بسبب ارتكابه لهذا الذنب الكبير، فهو في الحقيقة إنعكاس لأعماله في الدنيا[1].

وإذا كان الظالم في الآخرة يواجه الظلمات ويسير كالأعمى في عرصات المحشر فذلك بسبب أنه كان يحوّل الدنيا في نظر المظلومين إلى ظلام بحيث لا يرون كلّ شيء في حياتهم الدنيوية يعبّر عن الخير والسعادة والهناء، إذن فالظلمات التي تحيق بالظالم في الآخرة هي انعكاس ونتيجة للظلمات التي كان يقدمها للمظلوم في حياته الدنيوية.

وإذا قرأنا في النصوص الدينية أن المؤمن يحشر يوم القيامة ومعه نور بين يديه وفي أيمانه يقوده إلى رضوان الله ومغفرته فإنما ذلك بسبب أن الكثير من الأشخاص قد اهتدوا بنور إيمانه في الدنيا وسلكوا طرق الحقّ والحقيقة وابتعدوا عن خطّ الباطل والإنحراف.

والخلاصة أن جميع المثوبات والعقوبات في عالم الآخرة هي انعكاس لأعمال الإنسان في الدنيا.

ومع الإلتفات إلى هذا المطلب فإذا كان الإمام علي عليه السلام هو المؤذّن للنبي في دار الدنيا والمبلغ رسالته إلى المشركين في مكّة وفقاً لما ورد في الآية الثالثة من سورة التوبة فإنه

---

١. وتفصيل الكلام في هذا الموضوع المتعلق بالربا مذكور في كتابنا «الربا والبنك الإسلامي».

سيكون في الآخرة هو «المؤذّن» الذي يوصل النداء الإلهي إلى أهل النار ويخبرهم بأن اللعنة الإلهية قد شملتهم بسبب ظلمهم الذي ارتكبوه في الدنيا.

إذا كان الإمام علي عليه السلام في الآخرة هو المؤذن والشخص الذي يختم الحوار الدائر بين أهل الجنّة وأهل النار فانّ ذلك بسبب كون كلامه في الدنيا فصل الخطاب بين الحقّ والباطل وقد أبلغ المشركين الكلام الأخير والإنذار النهائي، فهل هذه فضيلة قليلة؟

هل هناك شخص آخر غير الإمام علي من المسلمين أو من أتباع الأديان الإلهية الأُخرى يتمتع بمثل هذه الفضيلة؟

الحكمة في تغيير المأمور بإبلاغ آيات سورة البراءة

سؤال: تقدّم أن جميع المفسّرين من الشيعة وأهل السنّة أتفقوا على أن رسول الله صلى الله عليه وآله أرسل في البداية أبابكر لابلاغ آيات سورة التوبة ثمّ عزله ونصب الإمام علي مكانه، فهل ندم رسول الله صلى الله عليه وآله على عمله الأوّل بحيث تحرّك على مستوى تغييره وتبديله، أو أن كلا الأمرين كان بتعليم الوحي وبأمر إلهي؟ والخلاصة أنه ما هي الحكمة في هذا التبديل والتغيير؟

الجواب: وجواب هذا السؤال واضح فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان مدركاً لما يفعله في كلا الحالين وكان هدفه هو إعلام الناس وإخبارهم بالشخص الأفضل وإلفات نظرهم إلى هذه الحقيقة ليخرجوا تصورهم الساذج عن الأفضل الموهوم وليهديهم ويرشدهم إلى الأفضل الحقيقي والواقعي، ولهذا الغرض قام في البداية بتسليم هذه المأمورية إلى أبي بكر ثمّ عزله ونصب علياً مكانه ليفهم الناس بأن الإمام علي عليه السلام أفضل من أبي بكر ومن جميع المسلمين.

ولم تكن هذه أوّل مرّة يقوم النبي صلى الله عليه وآله بهذا العمل بل سبق ذلك موارد أُخرى من هذا القبيل كلّها تصب في هذا الهدف المهم.

مثلاً نرى أن النبي صلى الله عليه وآله في واقعة خيبر قد أعطى الراية إلى أبي بكر ليقود جيش الإسلام ويفتح قلعة خيبر ولكنه استمر به الحال إلى العصر وهو يسعى جاهداً أن يتغلب على العدو ويفتح الحصن ولكنه لم يوفق بذلك، وفي اليوم الثاني سلّم رسول الله صلى الله عليه وآله الراية إلى عمر بن

الخطّاب ولكنه فشل في هذه المأمورية كصاحبه، وفي الليلة الثالثة قال رسول الله ﷺ:

«لأعطين الراية غداً لرجل يحبّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه». قال له أصحابه: إذا كان مقصودك هو علي بن أبي طالب فإنه أرمد.

فدعاه النبي ﷺ إليه فلما رآه أرمداً يشكو من عينيه تفل في عينه فانفتحت وشفي من ذلك المرض فأعطاه رسول الله ﷺ الراية وكان الفتح على يديه.

فلماذا أعطى رسول الله ﷺ الراية في البداية إلى إثنين من أصحابه ثمّ أعطاها للإمام علي عليه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح فإنّ النبي الأكرم ﷺ يريد أن يبيّن للناس عملاً أفضلية الإمام علي عليه السلام.

وهكذا في معركة الأحزاب عندما جاء عمرو بن عبد ود بطل المشركين وعبر الخندق وطلب البراز فلم يبرز له أحد سوى الإمام علي عليه السلام، ولكنّ رسول الله ﷺ امتنع في البداية، وفي المرّة الثانية طلب عمرو بن عبد ود البراز فلم يقم له إلّا علي عليه السلام، ومرة أخرى طلب منه النبي ﷺ أن يجلس.

وفي المرّة الثالثة طلب عمرو البراز أيضاً وأخذ يرتجز ويقول:

ولقد بححت من النداء في جمعكم هل من مبارز...

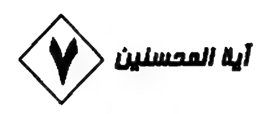
إنكم تقولون بأن قتلاكم يذهبون إلى الجنّة أليس فيكم من يشتاق إلى الجنّة؟

وفي هذه المرّة أيضاً لم يبرز له سوى علي ابن أبي طالب عليه السلام.

وهنا أذن له رسول الله بالبراز والتوجه إلى ميدان القتال وقد كتب الله النصر على يديه أيضاً واستطاع قتل عمرو بن عبدود العامري[١] وهنا نرىٰ أيضاً أن النبي الأكرم ﷺ قام بهذه المناورة لاثبات أفضلية الإمام علي عليه السلام على مستوى العمل ليثبت للمسلمين مكانته ومنزلته الإجتماعية.

---

١. فروغ أبدية: ج ٢، ص ١٣٥ فصاعداً.



﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

«سورة الزمر / الآيات ٣٢ ـ ٣٤»

أبعاد البحث

تحدّثت هذه الآيات من سورة الزمر عن طائفتين من الناس: الأُولى أظلم الناس والثانية أصدق الناس، ثمّ استعرضت عقوبات الظالمين ومثوبات الصادقين، والموضوع المهم الذي يجب دراسته والتأمل فيه في هذه الآيات هو: من هو أصدق الناس والذي عبّرت عنه الآية الشريفة بالمحسن؟

الشرح والتفسير

أظلم الناس!

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ فهنا نرى نحوين من الكذب:

١ ـ الكذب على الله. ٢ ـ الكذب على رسول الله، ولاشكّ أن جميع أنواع الكذب يُعتبر رذيلة أخلاقية ومن الذنوب الكبيرة ولكن من الواضح أن الكذب على الله وعلى رسوله

أقبح وأخطر أنواع الكذب وقد تترتب عليه إفرازات رهيبة ومعطيات مشؤومة.

سؤال: ما هو الكذب الذي كان المشركون ينسبونه إلى الله ورسوله ﷺ؟

الجواب: إنّ بعض أشكال الكذب للمشركين هو:

ألف) إنهم كانوا يرون أن الملائكة بنات الله.

ب) كان البعض منهم يعتقدون بأن الله تعالى راض عن عبادة الأوثان ويرون أن الأوثان واسطة بينهم وبين الله تعالى لتشفع لهم عنده.

ج) بعض المشركين كانوا يعتقدون بأن لله تعالى ولداً ويذهبون إلى أن المسيح ابن الله.

د) أحياناً يحرّمون بعض الأشياء ويحللون أخرى وينسبون ذلك إلى الله تعالى كذباً وزوراً.

هذه الأمور وأمثالها من الأكاذيب كانوا ينسبونها إلى الله عزّوجلّ، وبما أنها تتزامن مع عدم التصديق بالرسالات الإلهية والأنبياء الإلهيين والتحرّك في حياتهم الدنيوية على مستوى التصدّي للدعوة السماوية ومحاربة أهل الحقّ الذين أرسلهم الله تعالى لهداية البشر فإنّ عملهم هذا يفضي في النهاية إلى تكذيب الأنبياء وإنكار دعوتهم الإلهية، ولذلك كان هؤلاء الأفراد هم أظلم الناس ليس لأنفسهم فحسب بل ظلم لجميع الناس ولجميع الرسالات السماوية والكتب الإلهية.

أمّا ظلمهم لأنفسهم لأنهم أوصدوا أبواب السعادة والفلاح على أنفسهم بتكذيبهم هذا وسلكوا بأقدامهم في خطّ الضلالة والإنحراف والباطل متجهين إلى جهنم.

وأما ظلمهم للناس فذلك لأنهم عملوا على إضلالهم وقادوهم نحو وادي الشقاء والضلالة، فحالهم حال أهل البدع الذين قد تستمر بدعتهم وآثار عملهم القبيح آلاف السنين وأحياناً إلى يوم القيامة بحيث إنهم لا يستطيعون جبران ما صدر منهم وإصلاح الخلل حتّى في صورة الندم.

أما ظلمهم للآيات الإلهية والرسالات السماوية فكما ورد في الآية الشريفة ١٠٣ من سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وطبقاً لصريح هذه الآية الشريفة فإنّ عدم قبول الآيات الإلهية وإنكار الكتب السماوية ومعجزات الأنبياء يعدّ نوعاً من الظلم لهذه الآيات الإلهية لأنّ الإنسان عندما يتحرك لمنع الشيء القابل لهداية الناس من التأثير والفاعلية، في الحقيقة إنه يرتكب ظلماً بحقّه، مضافاً إلى أنه ظلم الناس حقّهم في الإستفادة منه، وعليه فإنّ الأشخاص الذين يعملون على تشويه سمعة الإسلام أو يقومون بالإساءة إلى الإسلام من خلال أعمالهم القبيحة أو يتحركون على مستوى تفسير وتأويل قوانين الإسلام حسب رأيهم وأفكارهم فكلٌ ذلك من أشكال الظلم للإسلام.

والخلاصة هي أن أظلم الناس هو الشخص الذي يكذب على الله وعلى رسوله، وعقوبة مثل هذا الشخص شديدة جدّاً كما وردت في الآية الشريفة:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ فإنّ مصير مثل هذا الإنسان الظالم الذي ظلم نفسه ومجتمعه والآيات الإلهية هو جهنم، فهي مثوىً للكافرين، فهنا نرىٰ أن الآية الشريفة لا تصرّح ببيان عاقبة أظلم الناس بل طرحت المسألة على شكل سؤال واستفهام، وهذا بنفسه تعبير دقيق ويحتاج إلى التأمل حيث إنّ مثل هذا المصير ومثل هذه العقوبة لهؤلاء الأشخاص تكون متوقعة لدى جميع الناس.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

أما الطائفة الثانية فتقع في النقطة المقابلة للطائفة الأُولى فهم الذين يصدّقون بمن جاء بالنبوّة الصادقة ويصدّقون كذلك برسالتهم فهؤلاء هم المتّقون، فرغم أن الآية الشريفة لا تذكر مفردة «أتقى» ولكننا يمكننا أن نفهم بدليلين أن هاتين الفئتين هم أتقى الناس: أحدهما بقرينة المقابلة مع الطائفة السابقة وهم أظلم الناس، أي أن الآية عندما تجعلهم في مقابل المكذّبين لله ورسوله وفي مقابل أظلم الناس فإنّ هؤلاء المصدّقين بالله ورسوله هم أتقىٰ الناس حتماً، والآخر إنّ جملة «هم المتقون» تدلُّ على الحصر، وتعني أن هؤلاء هم أهل التقوى فقط وهم المتقون الحقيقيون، وعلى هذا الأساس فإنّ المثوبات المقررة لهؤلاء المتقين في القرآن الكريم تختص بهؤلاء الأشخاص الذين أشارت إليهم هذه الآية الشريفة مضافاً إلى ما يناله المتقون في الجنّة من النعم والمواهب العامّة التي ينالها جميع المؤمنين من أهل الجنّة

فإنّهم يختصون بمواهب خاصّة ورد ذكرها في الآية التي بعدها:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِم ذٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهكذا نرىٰ أن درجات ومقامات هؤلاء المتقين في الآخرة إلى درجة من العظمة والسمو بحيث إنهم ينالون من المواهب ما لا يعدّ ولا يحصىٰ فكلّ ما يريدون ويطلبون فإنهم سيحصلون عليه، وهذه النعمة لا يمكن أن يتصور فوقها شيء.

من هو «الذي جاء بالصدق» ومن «صدّق به»؟

سؤال: ما هو المراد من جملة ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ وجملة ﴿الَّذِي صَدَّقَ بِهِ﴾ ؟

الجواب: إنّ المراد من الجملة الأُولى هو النبي الأكرم ﷺ، والمراد من الجملة الثانية هو الإمام علي عليه السلام، رغم أن الجملة الثانية تشمل جميع المؤمنين برسالة النبي ﷺ الذين آمنوا وصدّقوا برسالته ولكن بلاشكّ أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو المصداق الأكمل والأتم لهذه العبارة.

وقد ورد هذا المعنى في الكثير من كتب الشيعة وأهل السنّة، ونكتفي بالإشارة إلى بعض منها:

١ ـ نقل «ابن المغازلي» وهو من أساطين علماء أهل السنّة في كتابه المعروف بـ«المناقب» عن المفسّر المعروف «المجاهد» قوله:

«فِي قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: رَسُولُ اللهِ وَ ﴿الَّذِي صَدَّقَ بِهِ﴾ عَلِيٌّ»[1].

٢ ـ ونقل «ابن عساكر» هذه الرواية أيضاً[2].

٣ ـ وكذلك العلّامة «الگنجي» في «كفاية الطالب» نقل هذه الرواية من بعض العلماء[3].

٤ ـ وصرّح «القرطبي» بهذا المطلب في تفسيره[4].

١. المناقب: نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٧.

٢. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٧.

٣. كفاية الطالب: ص ١٠٩ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ١٧٧.

٤. الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥، ص ٢٥٦ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣ ص ١٧٨.

٥ ـ واختار «أبو حيّان الأندلسي» هذا التفسير أيضاً[1].

٦ ـ وذهب «السيوطي» في تفسيره «الدرّ المنثور» إلى هذا الرأي[2].

٧ ـ وذهب «الترمذي» صاحب كتاب «المناقب المرتضوية» إلى هذا الرأي أيضاً[3].

٨ ـ «الآلوسي» ذهب في تفسيره «روح المعاني» إلى اختيار هذا التفسير من بين جملة علماء أهل السنّة[4].

الفخر الرازي المخالف الوحيد

فعلى رغم كلّ هؤلاء المفسّرين والرواة الذين فسّروا الآية الشريفة مورد البحث بالنبي ﷺ والإمام علي عليه السلام فإنّ الفخرالرازي رفع لواء المعارضة والمخالفة وزعم: «أن المراد من الجملة الثانية هو أبوبكر لأنه هو الملقّب بالصدّيق».

وأجابه القاضي نورالله التستري بجواب قاطع وقال:

«لم يرد هذا المطلب الذي ذكره الفخر الرازي في أي كتاب قبله، ونعلم أن الفخر الرازي لم يكن من أصحاب النبي، إذن فكلامه في تفسير هذه الآية لا يقوم على أساس متين».

وعليه فإنّ بطلان هذا الرأي لا يحتاج إلى زيادة بيان وتوضيح[5].

---

١. البحر المحيط: ج ٧، ص ٤٢٨ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٨.

٢. الدرّ المنثور: ج ٥، ص ٣٢٨ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٨.

٣. المناقب المرتضوية: ص ٥١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٨.

٤. روح المعاني: ج ٣٠، ص ٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٧٨.

٥. مضافاً إلى وجود العديد من الروايات في مصادر أهل السنّة والشيعة تخصّ الإمام علي بصفة «الصدّيق» و«الفاروق» كما ورد عن رسول الله ﷺ قوله «لكلّ أمّة صدّيق وفاروق، وصدّيق هذه الأمّة وفاروقها عليّ بن أبي طالب» وقد وردت هذه الروايات في بحار الأنوار: ج ٣٨، ص ١١٢ ـ ٢١٢ ـ ٢١٣ ـ ٢١٦ ـ وفي أجزاء أخرى منه، وورد مضمون الرواية المذكورة آنفاً في العشرات من كتب أهل السنّة (انظر الغدير: ج ٢، ص ٣١٣ فصاعداً).



﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ «سورة التوبة / الآية ١٠٠»

أبعاد البحث

بالرغم من أن الآية الشريفة أعلاه تتحدّث عن ثلاثة طوائف من المؤمنين وتبشّر السابقين من كلّ طائفة منهم ببشارات عظيمة ولكن من بين السابقين هؤلاء يوجد سابق يقع في الصف الأوّل، وهو أوّل شخص من السابقين، وطبقاً للروايات الكثيرة التي ستأتي لاحقاً إنّ هذا الشخص الذي حمل راية الصدق ليس هو إلّا عليّ ابن أبي طالب عليه السلام.

الشرح والتفسير

السابقون في الإسلام

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ في هذه الآية الشريفة يحدّثنا القرآن عن ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: «المهاجرون» وهم المسلمون الذين أسلموا في مكّة المكرمة وواجهوا ضغوطاً كبيرة من المشركين وأعداء الدين، وعندما هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة هاجروا معه

لإنقاذ أنفسهم من تلكم الضغوط وأشكال الأذى والتعذيب ولغرض تقوية الدين الجديد، فتركوا بيوتهم وأموالهم وأراضيهم وأقوامهم وقبيلتهم والخلاصة تركوا كلّ شيء وهاجروا إلى المدينة بأيدي خالية، وهناك واجهتهم أخطار كثيرة، فمن جهة خطر المشركين في مكّة الذين كانوا بصدد الإنتقام منهم وقتلهم، ومن جهة أُخرى عدم وجود العمل المناسب وكذلك حالة الغربة وأجواء الوحدة والبعد عن القوم والوطن وأمثال ذلك من الأخطار والتبعات المترتبة على الهجرة، ولكنّ هؤلاء المسلمين الحقيقيين استقبلوا هذه الأخطار وهاجروا إلى المدينة، وقد كان البعض منهم يمر بحالة اقتصادية سيئة للغاية بحيث كانوا ينامون في «الصفّة» إلى جانب مسجد النبي وهم المعروفون بأصحاب الصفّة حيث كانوا يقضون ليلهم ونهارهم في ذلك المكان ولم يكن لديهم ممّا يقيم أودهم إلّا القليل جدّاً ومع ذلك كانوا على استعداد دائم لتقديم الخدمات للإسلام متى حلّت الحاجة إليهم.

الطائفة الثانية: «الأنصار» وهم المسلمون الذين دخلوا الإسلام في المدينة واستجابوا لدعوة الرسول إلى الإسلام ودعوه ليهاجر إليهم وأبدوا استعدادهم لبذل كلّ إمكاناتهم في سبيل الإسلام، هؤلاء استقبلوا المهاجرين الذين هاجروا إليهم من مكّة ووضعوا بيوتهم وكلّ ما يملكون تحت اختيارهم وتعاملوا معهم كأُخوة لهم، وطبعاً هؤلاء بذلوا كلّ جهدهم وآثروا المهاجرين على أنفسهم رغم أن الوضع المالي لبعضهم لم يكن على ما يرام.

الطائفة الثالثة: «التابعون» وهم المسلمون الذين جاءوا إلى الدنيا بعد المهاجرين والأنصار وسلكوا مسلكهم وتحركوا مثلهم في خطّ الإيمان والرسالة، وهؤلاء هم الذين يسمّون بـ«التابعين»[1] أي الذين اتبعوا الطائفتين السابقتين، وعليه فطبقاً لهذا التفسير يكون التابعون هم النسل الثاني للمسلمين ويشمل جميع المسلمين إلى يوم القيامة في كلّ عصر ومكان، أي أن المسلمين في الزمان الحاضر الذين تحركوا في خطّ نصرة الإسلام والهجرة نحو رضا الله تعالى يصدق عليهم عنوان «التابعين» الذين ورد ذكرهم في هذه الآية

---

١. مصطلح «التابعين» في لسان أهل الحديث يطلق على الأشخاص الذين لم يدركوا رسول الله ﷺ ولكنهم أخذوا علومهم ومعارفهم من الصحابة. وهذا المعنى أضيق دائرة من المراد بالتابعين بصورة عامّة وهم كلّ من لم يدرك الرسول ﷺ إلى زماننا هذا.

الشريفة، لأنه كما تقدّم سابقاً أنّ الهجرة لا تختصّ بالمسلمين في أوائل البعثة بل هي ممكنة في كلّ زمان ومكان، وتعني الهجرة من أجواء الذنوب إلى أجواء الطاعة، ومن دائرة الرذائل إلى دائرة الفضائل، ومن الظلمات إلى النور.

سؤال: ماذا تعني مفردة «بإحسان» التي وردت في الآية الشريفة لوصف «التابعين»؟

الجواب: هنا يوجد احتمالان في تفسير هذه المفردة:

الأوّل: أن لا يكون إتّباع المهاجرين والأنصار بالكلام فقط بل ينبغي أن يتجسّد في الواقع العملي في حركة الإنسان، وبعبارة أُخرى أن يتّبع المسلم المهاجرين والأنصار بشكل جيّد ودقيق.

الإحتمال الثاني: أن يتّبع الإنسان المهاجرين والأنصار في أعمالهم الحسنة لا في جميع الأفعال والسلوكيات الأُخرى، لأنه كان بين المسلمين الأوائل بعض الأشخاص الذين كانوا يتحركون في حياتهم الفردية والإجتماعية على خلاف تعليمات النبي ﷺ وأحكام الإسلام.

وخلافاً لما يراه أهل السنّة من عدالة وعصمة جميع صحابة النبي[1] فنحن نعتقد أن الصحابة ليسوا معصومين جميعاً، والآية الشريفة أعلاه يمكنها أن تكون دليلاً جيّداً على

---

١. في سفري الأخير إلى مكّة المكرمة (عام ١٤٢٢ هـ.ق) اقترح عليّ بعض علماء أهل السنّة في مكّة المكرمة أن نعقد جلسة للحوار بيننا، ومن جملة البحوث التي طرحت في تلك الجلسة بحث عدالة الصحابة حيث قلت لهم: إنكم تعتقدون بأن جميع الصحابة عدول ومنزّهون عن ارتكاب الذنوب في حين أنّ الصحابة هم الذين اشعلوا نار حرب الجمل والتي ذهب ضحيتها أكثر من ١٧ ألف من المسلمين، فمن المسؤول عن كلّ هذه الدماء؟ وإذا كان سفك دم مسلم واحد يوجب دخول النار فكيف بدماء ١٧ ألف إنسان؟

وقد أجاب بعض علماء أهل السنّة: إن طلحة والزبير وعائشة بالرغم من كونهم السبب الأساس في اشعال نار الحرب، إلّا أنهم انسحبوا قبل بدء القتال ولم تتلوث أيديهم بدماء المسلمين!!

فقلت في جوابهم: على فرض صحة هذا الإدعاء، فهل يكفي لمن اشعل نار الحرب أن ينسحب من الميدان وينقذ نفسه ويترك الآخرين يحترقون بنارها؟ أو يجب عليه السعي لإطفاء نار الحرب والفتنة؟! ثمّ سألتهم: لقد قتل في حرب صفين حوالي مائة ألف نفر من المسلمين، فمن هو المسؤول عن ذلك؟

قالوا: إن معاوية اجتهد فأخطأ ولا مسؤولية عليه. فقلت: إذا كانت دائرة الإجتهاد واسعة إلى هذه الدرجة، إذن فلا ينبغي أن يطال العقاب أي مذنب أو مجرم لأنه أخطأ في اجتهاده، فهل يقبل العقلاء هذا الكلام؟!

مقولة الشيعة، وعليه فإنّ التابعين يجب أن يتبعوا المهاجرين والأنصار في الأعمال الحسنة والأفعال الصالحة لا في جميع الأفعال والأقوال حتّى لو كانت على خلاف مسير الحقّ.

﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجرِي تَحْتَهَا الأَنْهارُ خالِدينَ فيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهكذا نرى أن الله تعالى بعد أن ذكر هذه الطوائف الثلاث من السابقين في الإسلام أثنىٰ عليهم ومدحهم وبشّرهم بالثواب العظيم المادي والمعنوي.

أمّا الثواب المعنوي فهو عبارة عن رضا الله تعالى عنهم ورضوانهم عن الله تعالى أيضاً، أما رضا الله عنهم فواضح لأنهم تحركوا في خطّ نصرة الإسلام والمسلمين وسلكوا طريق الهجرة والطاعة والعبودية لله تعالى، وهذه الأُمور تستوجب رضا الله عنهم، والمراد من رضاهم عن الله تعالى هو أن الله في عالم البرزخ ويوم القيامة يعطيهم كلَّ ما يريدون ويطلبون ويتحقّق بذلك رضاهم عنه.

وأمّا المثوبات المادية لهؤلاء فهي الجنّات التي تتصف بصفتين: أحدهما أن المياه تجري تحت أشجارها دائماً، والأُخرى أن أهل الجنّة يمكثون فيها أبداً فليس هناك خوف من انتهاء النعيم بل هم مخلدون فيها، وبلا شك فإنّ رضا الله عنهم ورضاهم عن الله تعالى وتمتعهم بالجنّات التي تجري من تحتها الأنهار تعدّ ثلاث مواهب عظيمة لأهل الجنّة بحيث لا يتصور فوز فوق هذا الفوز.

أوّل رجل مسلم

سؤال: يستفاد من الآية ١٠٠ من سورة التوبة أن السابقين هم ثلاث طوائف ولكنّ السؤال الذي يثار هنا هو: من هو الأسبق من هؤلاء؟ ومن هو أوّل شخص من المسلمين استجاب لدعوة النبي الأكرم ﷺ إلى الايمان وآمن به؟

الجواب: هناك روايات كثيرة وردت في ذيل هذه الآية الشريفة تقرر أن أوّل مسلم من الرجال اعتنق الإسلام هو عليّ بن أبي طالب ؑ، وأوّل امرأة اعتنقت الإسلام هي السيّدة خديجة ؑ.

وهذا الرأي متفق عليه بين جميع علماء الإسلام من الشيعة وأهل السنّة ويعدّ من

الواضحات لديهم حتّى أن بعض علماء أهل السنّة ادّعوا الإجماع على هذا الرأي ومن ذلك:

١ ـ يقول ابن عبدالبر العالم السنّي المعروف:

اتّفقوا على أن خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقته فيما جاء به، ثمّ عليٌّ بعدها[١].

٢ ـ ويقول أبوجعفر الإسكافي المعتزلي أُستاذ ابن أبي الحديد المعتزلي الذي توفي في سنة ٢٤٠ عن أوّل من أسلم واستجاب لدعوة النبي ﷺ:

قد روى النّاس كافة افتخار عليّ بن أبي طالب بالسّبق إلى الإسلام[٢].

٣ ـ ويقول الحاكم النيشابوري في «مستدرك الصحيحين» الذي يعدّ رديفاً لصحيح البخاري وصحيح مسلم:

لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أوّلهم إسلاماً وإنّما اختلفوا في بلوغه[٣].

ومضافاً إلى ما تقدّم آنفاً من إدعاء الإجماع على أسبقية الإمام علي عليه السلام لاعتناق الإسلام يروي العلّامة الأميني ٢٥ رواية من الأئمّة المعصومين عليهم السلام ويذكر ٦٦ قولاً من أكابر علماء الإسلام والشعراء المتقدمين في هذا المجال، وقد ذكر بعض علماء الشيعة ١٠٠ حديثاً من منابع أهل السنّة في هذا المجال، ويعتبر هذا العدد كثيراً جداً[٤].

---

١. الإستيعاب: ج ٢، ص ٤٥٧ نقلاً عن الغدير: ج ٣، ص ٢٣٨.

٢. الغدير: ج ٣، ص ٢٣٧.

٣. المستدرك على الصحيحين: كتاب المعرفة، ص ٢٢ نقلاً عن الغدير: ج ٣، ص ٢٣٨.

٤. وينبغي الإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أن وصول كلّ هذه الروايات الكثيرة عن فضيلة واحدة من فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام في كتب ومصادر أهل السنّة أشبه بالمعجزة، لأن بيان فضائل ومناقب أميرالمؤمنين عليه السلام لم يكن ممنوعاً في عصر حكومة بني أمية فحسب وكان يعدّ جرماً أيضاً، بل إن عشرات الآلاف من المنابر في مختلف بقاع البلاد الإسلامية الواسعة كانت معدّة لسبّ أميرالمؤمنين (العياذ بالله) وهتك حرمته بحيث إنّ الكثير من الناس انخدعوا بهذا الإعلام المسموم وكانوا يرون في إسم (علي) ظلماً وجريمة، فقد جاء رجل إلى الحجاج بن يوسف الثقفي المجرم المعروف في تاريخ الإسلام وقال له: لقد ظلمتني أمّي وأنا اشتكي إليك منها. فقال الحجاج: وبماذا ظلمتك؟ قال: لقد سمتني علياً!! وعلى هذا الأساس لبقاء روايات المناقب

تلي

أجل، إنّ هذه المسألة تعتبر في المستويات العُليا من الإتقان والإعتبار ولذلك فالشيعة يفتخرون بها، ولابدّ لنا نحن الشيعة أن نفتخر ونقدر هذه النعمة العظيمة نعمة التشيّع علينا والتي تعلّمناها من والدينا وأرشدنا إليها علماؤنا، ولابأس بالإشارة إلى بعض الروايات في هذا الصدد:

١ ـ يروي أنس خادم النبي ﷺ أنه:

نُبّئ النّبي يوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثّلثاء. (وفي رواية أُخرى) بعث رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلّى عليٌّ يوم الثّلثاء[1]».

سؤال: هل أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لم يسجد لصنم قطّ ولم يعتقد بغير التوحيد؟

الجواب: إنّ عليّ ابن أبي طالب وبشهادة التاريخ لم يسجد حتّى لحظة واحدة أمام صنم ولم يختر ديناً غير دين التوحيد[2]، وعليه فإنّ معنى الرواية أعلاه هي أن الإمام علي عليه السلام أسلم بعد يوم واحد من البعثة المباركة ولا ينافي هذا أنه كان قد عانق الإسلام بقلبه قبل ذلك.

٢ ـ ويقول سلمان الفارسي الصحابي المعروف بالنسبة إلى أوّل الناس إسلاماً:

أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب[3].

⇦ لأميرالمؤمنين عليه السلام في ذلك العصر الذي يخاف المؤمن فيه من ذكر فضيلة واحدة من فضائل الإمام عليه السلام ويسعى العدو لطمس وتحريف الحقائق، كان أقرب ما يكون إلى المعجزة، وما أجمل مقولة الشاعر الذي يحكي عن الحالة في ذلك الزمان:

أعلى المنابر تعلنون بسبّه ... وبسيفه نُصبت لكم أعواده

وعندما يفكر الإنسان في تلك الأجواء المظلمة من التاريخ الإسلامي، ومن جهة أُخرى يجد أكثر من مائة رواية تتحدث عن فضيلة من فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام في كتب أهل السنّة يخرج بهذه النتيجة، وهي أن الله تعالى أراد لهذه الفضائل والمناقب أن تبقى إلى يوم القيامة وتنتشر في كلّ مكان ويكون الشيعة سعداء وأعزاء في كلّ مكان ويشكرون الله تعالى على هذه النعمة العظيمة جداً.

١. فرائد السمطين: باب ٤٧ نقلاً عن الغدير: ج ٣، ص ٢٢٤.

٢. يقول المقريزي في الإمتاع ص ١٦: «وأما علي بن أبي طالب فلم يشرك بالله قط». (الغدير: ج ٣، ص ٢٣٨).

٣. مجمع الزوائد: ج ٩، ص ١٠٢ نقلاً عن الغدير: ج ٣، ص ٢٢٧.

وكما سبق وأن ذكرنا أن المثوبات الأُخروية هي إنعكاس لأعمال الإنسان في الدنيا، وبما أن الإمام علي عليه السلام كان أوّل مسلم في الدنيا، إذن فهو أوّل شخص يرد الحوض على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يوم القيامة.

٣ـ ويعترف الخليفة الثاني عمر ابن الخطّاب بهذه الحقيقة كما يروي عبدالله بن عبّاس الصحابي المعروف وتلميذ أميرالمؤمنين عليه السلام ويقول:

كنت أنا ونفر من المسلمين عند عمر بن الخطّاب وتحدّثنا عن أوّل من أسلم، فنقل لنا عمر حديثاً وقال:

أمّا عليٌّ فسمعت رسول الله يقول: فيه ثلاث خصال لوددت أن تكون لي واحدة منهن، وكانت أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس كنت أنا وأبوعبيدة وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبيّ صلى الله عليه وآله على منكب عليٍّ فقال يا علي: «أَنْتَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنينَ إيماناً، وَأَوَّلُ الْمُسْلِمينَ إسْلاماً، وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ».[1]

سؤال: هل أن جملة «أوّل المسلمين إسلاماً» عبارة أُخرى عن «أوّل المؤمنين إيماناً» أو لها معنى آخر؟

الجواب: إنّ الإيمان يتعلق بالإعتقادات القلبية والباطنية لدى الإنسان، بينما الإسلام هو إبراز هذه الإعتقادات وإظهارها على اللسان، وعليه فإنّ الإمام علي عليه السلام كما أنه أوّل من آمن بقلبه برسول الله، فكذلك هو أوّل شخص أبرز وأظهر ذلك الإيمان على لسانه.

قيمة الإيمان قبل البلوغ

سؤال: هل كان عليّ ابن أبي طالب عليه السلام بالغاً عندما تشرّف بدين الإسلام؟ فلو لم يكن قد وصل سنّ البلوغ فهل يعتبر إيمانه في هذه السنّ فضيلة ليقال أنه أوّل المسلمين إسلاماً؟

الجواب: وفي الجواب على هذا السؤال ينبغي تقديم نقطتين:

الأولى: إذا لم يكن الإنسان قد وصل إلى سنّ البلوغ ولكنه مع ذلك يعتبر صبيّاً ذكيّاً وعاقلاً ومميّزاً بين الخير والشر والحسن والقبيح، فبنظرنا أن إيمان مثل هذا الشخص مقبول،

---

١. الغدير: ج ٣، ص ٢٢٨.

وليس فقط أنه مقبول على مستوى الايمان، بل كما يقول الفقهاء أن عبادات هذا الصبي المميّز صحيحة وصلاته، صومه، حجّه وعمرته وسائر العبادات التي قد يأتي بها مراعياً لجميع الشروط والأركان صحيحة ومقبولة.

وبتعبير فقهاء الإسلام إنّ عبادات هذا الشخص شرعيّة لا تمرينية[١]، وعليه فعندما تكون عبادات الصبي غير البالغ صحيحة وشرعية فإيمانه مقبول بطريق أولى، والنتيجة هي أن إيمان الصبي المميّز قبل البلوغ مقبول.

ومضافاً إلى ذلك فنحن نعتقد أن مثل هؤلاء الصبية المراهقين مسؤولون في مقابل الذنوب والمعاصي ولا يمكن صرف هذه المسؤولية عنهم لمجرد عدم بلوغهم سنّ التكليف وإعطاءهم الضوء الأخضر لارتكاب الذنوب، ولهذا فلو أنّ الصبي المميّز الذي لم يبلغ سنّ التكليف كان يعلم جيّداً أن قتل إنسان بريء هو عمل قبيح فارتكب هذا العمل وقتل بريئاً فإنه يضمن ديّته وهو مسؤول أمام الله تعالى.

النتيجة هي أن الشخص غير البالغ إذا كان عاقلاً ومميّزاً فإنّ إيمانه مقبول، وعليه فإنّ البلوغ ليس شرطاً لقبول الإسلام والايمان.

الثانية: لقد وصل بعض الأنبياء الإلهيين في سنّ الطفولة إلى مقام النبوّة، فكيف لا يكون البلوغ شرطاً في مقام النبوّة الذي هو أعلى كثيراً من قبول مجرد الايمان، ولكنه يكون شرطاً في قبول الإسلام؟ ونكتفي بذكر مثالين لنيل مقام النبوّة في مرحلة الطفولة:

١ ـ النبي يحيى عليه السلام وصل إلى النبوّة في سنّ الطفولة، وقد ذكر الله تعالى ذلك في الآية ١٢ من سورة مريم وقال:

﴿يا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾.

٢ ـ النبي عيسى عليه السلام أيضاً وصل مرتبة النبوّة في سنّ الطفولة كما يحدّثنا القرآن الكريم في الآية ٣٠ من سورة مريم على لسان هذا النبي ويقول:

﴿قالَ إِنّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾.

---

١. وقد أشار السيّد اليزدي إلى هذه المسألة في كتاب «العروة الوثقى»: ج ٢، ص ٢١٧.

وعندما يؤكد هذا النبي الكريم على أنه عبدالله فمن أجل أن النصارىٰ لا يتخذونه بعد ذلك إبناً لله تعالى، وعندما يقول «جعلني» ولم يقل «يجعلني» فإنّما ذلك لأنه نال هذه المرتبة السامية، أي مرتبة النبوّة في مرحلة الطفولة.

وقد ورد عن بعض الأنبياء أنهم نالوا هذا المقام أيضاً في مرتبة الطفولة[١].

والخلاصة أنه عندما لا يشترط في النبوّة سنّ خاصّ وهي ذلك المقام الرفيع فبطريق أولىٰ لا يشترط في الايمان وقبول الإسلام سنٌّ خاصّ كالبلوغ.

الثالثة: إنّ النبي الأكرم ﷺ كان مأموراً في أوّل البعثة ولمدّة ثلاث سنوات أن يدعو عشيرته الأقربين ويعرض الإسلام عليهم، أي بعد أن دعاهم إلى الإسلام في هذه السنوات الثلاث بصورة خفية وسريّة[٢] وآمن أفراد قلائل به، أُمر النبي الأكرم ﷺ بتبليغ الرسالة بصورة علنية، ولذلك أمر النبي عليّاً عليه السلام أن يهيّئ مقدمات الضيافة لقومه وأمره أن يهيّئ طعاماً مناسباً بمعونة غيره من المسلمين ودعا رؤساء قومه وعشيرته إلى ذلك المجلس، فحضر الضيوف وتناولوا الطعام وبعد الانتهاء من تناول الطعام قام النبي الأكرم ﷺ وعرض دينه الجديد عليهم وأخبرهم بأنه رسول من الله تعالى إليهم ثمّ قال: «أيّكم يؤازرني على هذا الأمر ويكون أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي» فأحجموا كلّهم ولم يستجب أحد لطلبه غير علي عليه السلام وكرر النبي دعوته لهم ثلاثاً وفي كلّ مرّة لم يستجب له غير علي عليه السلام فقال النبي ﷺ لهم:

«إِنَّ هٰذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ».[٣]

---

١. يقول العلّامة المجلسي نقلاً عن أهل السنّة: إن النبي سليمان ودانيال بعثا للنبوة في مرحلة الطفولة. (بحار الأنوار: ج ٣٨، ص ٢٣٦).

٢. الأشخاص الذين يعترضون على الشيعة في مسألة التقيّة ما هو تفسيرهم للدعوة السرية للنبي الأكرم ﷺ ولمدّة ثلاث سنوات؟ ألا يعد سلوك النبي في تلك المدّة من التقية ليزداد قوّة وأنصاراً؟ وعلى هذا الأساس فالتقية تعني تغيير في الأسلوب لحفظ وتقوية رجال الدعوة ريثما تحين الفرصة المناسبة، وهذا هو الذي تقوله الشيعة وقد ورد هذا المعنى في النصوص الدينية وسيرة النبي ﷺ.

٣. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٢؛ تاريخ الكامل: ج ٢، ص ٤٠؛ مسند أحمد: ج ١، ص ١١١ نقلاً عن فروغ أبدية: ج ١، ص ٢٥٩.

وطبقاً لنظر ورأي من يعتقد بأن عليّ بن أبي طالب كان له من العمر عندما أسلم عشر سنوات ولهذا فإنّ إيمانه غير معتبر وليس له قيمة، فهذا يعني أن الإمام كان له من العمر في هذه الواقعة ثلاثة عشر سنة، فلو لم تكن قيمة لإيمان عليّ بن أبي طالب في هذا السنّ إذن فلماذا قال في حقّه النبي الأكرم ﷺ هذه العبارات الجذّابة واعتبره خليفة له؟!

إنّ من يشك في هذه الفضيلة فهو في الحقيقة يشك في اعتبار قول النبي ﷺ وفعله، ولو قيل أن مثل هذا الكلام يكون له اعتبار فيما لو كان الإمام له من العمر ثلاثة عشر سنة، فيجب أن نقبل هذه الحقيقة وهي أن إيمان علي حتّى لو كان في سنّ العاشرة من العمر فهو ذو قيمة واعتبار.

الرابعة: ومضافاً إلى ما تقدّم لا نرىٰ أن مسألة عدم بلوغ الإمام علي عليه السلام في هذه الواقعة حقيقة مسلّمة وقطعية، بل هناك اختلاف بين علماء الإسلام في هذه المسألة، كما ذكر صاحب مستدرك الصحيحين مشيراً إلى هذا المطلب في الأبحاث السابقة، ولابأس باستعراض بعض نظرات وآراء علماء الإسلام في هذه المسألة:

الف: يقول ابن عبدالبر في كتاب «الإستيعاب» المجلد ۲، الصفحة ٤٧١:

أوّل من أسلم بعد خديجة عليّ بن أبي طالب وهو ابن خمس عشر سنة أو ستّ عشر سنة[1].

ب: ويذكر صاحب كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» في المجلد ٤، الصفحة ١٧ ثلاث نظريات في هذا المجال، وطبقاً لإحدىٰ هذه النظريات أن عمر الإمام في ذلك الوقت كان خمسة عشر سنة.

ج: ويتعرض العلّامة المجلسي أيضاً إلى هذه المسألة وينقل سبعة أقوال حولها[2].

وعلى هذا الأساس فإنّ عدم بلوغ الإمام علي عليه السلام حين تشرّفه بالإسلام لا يعتبر مسألة قطعية ومسلّمة بل هناك اختلاف في وجهات النظر بين علماء الإسلام.

---

١. وقد ذكر في الإستيعاب ثمانية أقوال في عمر الإمام علي عندما تشرّف بالإسلام، والكلام المذكور أعلاه يشير إلى قولين من هذه الأقوال.

٢. بحار الأنوار: ج ٣٨، ص ٧ و ٢٣٦.

والخلاصة هي أن الروايات الكثيرة والمتواترة تشهد على أن الإمام علي عليه السلام أوّل رجل اعتنق الإسلام وآمن بالرسول صلى الله عليه وآله وبذل النصرة وعلى فرض قبول عدم بلوغه في ذلك الوقت فإن ذلك لا يقلل شيئاً من هذه الفضيلة.

أوّل المؤمنين، امتياز كبير

ولعلّ البعض يتصور بأن «أوّل المؤمنين» لا يعدُّ امتيازاً وفضيلةً لأميرالمؤمنين ولا يختلف الحال بين من سبق الناس إلى الإيمان وبين من التحق بالإسلام بعده، ولكنّ الإنصاف هو وجود تفاوت كبير وبون شاسع بينهما، ولأجل توضيح هذا المطلب نستعرض قصة «سحرة فرعون»:

يذكر القرآن الكريم أن فرعون أمر بأن يجمعوا له جميع السحرة من سائر بلاد مصر لمواجهة النبي موسى عليه السلام، وفي اليوم الموعود أحضرهم جميعاً وبذل لهم الوعود الكثيرة ومنها أن يكونوا من المقرّبين إلى البلاط الفرعوني ﴿قال نعم وإنكم إذن لمن المقرّبين﴾[1].

وقد هيّأ فرعون جميع مستلزمات النصر والغلبة في ذلك اليوم بحيث كان مطمئناً إلى انتصاره في مواجهة موسى وهارون وحلّ ذلك اليوم، وألقى السحرة في البداية عِصيّهم وحبالهم وسحروا أعين الناس وانقلبت هذه العصي والحبال إلى أفاعي وثعابين مخيفة.

ثمّ إنّ موسى عليه السلام ألقى عصاه بأمر من الله تعالى نحو سحر السحرة فانقلبت العصى إلى ثعبان عظيم وبدأ يلتقم حبالهم وعِصيّهم وحطّم بذلك سحرهم ومكيدتهم، فأدرك السحرة أن هذا الشخص ليس بساحر وأنه مؤيّد من قبل الله تعالى ولذلك سجدوا جميعاً وقالوا: ﴿آمَنّا بِرَبِّ العالَمينَ﴾[2].

وكان إيمان هؤلاء السحرة الذين جمعهم فرعون لغرض مواجهة موسى، مؤثراً بشدّة في تقوية ودعم جبهة الحقّ ويعدّ ضربة قاصمة إلى فرعون والملأ، لأن الناس عندما شاهدوا

---

١. سورة الأعراف: الآية ١١٤.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٢١.

أن السحرة أنفسهم آمنوا وصدّقوا بموسى وميّزوا بين «المعجزة» وبين «السحر» كان ذلك دافعاً ومحرّكاً لهم على الإيمان بموسى وبالرسالة السماوية، وعندما شاهد فرعون هذه الظاهرة العجيبة شرع بالحديث مع السحرة من موقع التهديد والإرعاب وقال لهم:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [1].

ولكنّ نور الإيمان جعل من تعذيب فرعون لهؤلاء السحرة سهلاً ويسيراً ولذلك أعلنوا استعدادهم لتقبّل كلّ أشكال التعذيب والقتل على التخلّي عن اعتقادهم وإيمانهم:

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2].

ويستفاد من هذه الآيات الشريفة أن «أوّل المؤمنين» يعدّ امتيازاً كبيراً للإنسان بحيث إنه يعتبر كفّارة لجميع الذنوب السابقة، والعلّة في ذلك واضحة، لأنه ليس كلُّ شخص مستعداً لأن يكون أوّل المؤمنين ويتقبّل الأخطار والأضرار وجميع التبعات والتحدّيات التي يفرضها الواقع المخالف عليه، ولذلك فإنّ ثواب «أوّل المؤمنين» يمتاز عن سائر أشكال المثوبات الأخرى.

الإمام علي عليه السلام كان أوّل المؤمنين بين المسلمين جميعاً ولذلك يعدُّ امتيازاً خاصّاً وفضيلة مهمّة له حيث يعبر ذلك عن شجاعته وشهامته عندما لبّىٰ نداء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشخّص الحقّ من الباطل وأن هذه الدعوة هي دعوة إلهيّة، ولذلك لم يتردد لحظة في الإستجابة لدعوة النبي وحظىٰ بمنزلة «أوّل المؤمنين إيماناً».

الإنسان الشيعي ينبغي عليه أن يتحلّى بهذه الخصلة والفضيلة أيضاً وعندما تشيع الفحشاء وتسود المفاسد في المجتمع عليه أن يكون أوّل من يتقدّم لكسر حاجز الصمت والتصدّي لهذه المفاسد والقبائح على المستوى الفكري والأخلاقي ويكون أوّل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعلى الإخوان الأعزاء الذين يشتركون في مجالس الفرح والسرور فيما لو شاهدوا أن المجلس قد تلوّث بالذنوب والمعاصي ولا أحد من الحاضرين

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٢٤.

٢. سورة الشعراء: الآية ٥١.

يتصدّى للنهي عنها فلا ينبغي أن يكون حاله كحال بقية الناس، ففي ذلك تكمن الفضيحة والمشاركة في الإثم، بل يجب عليه ترك هذا المجلس وأن يتقبّل جميع أشكال اللوم والذمّ من الحاضرين من طيب خاطر وفي سبيل الله.

إنّ الشيعي الصادق لأميرالمؤمنين عليه‌السلام لا ينبغي له أن يخاف ويستوحش من الوحدة في مسير الحقّ وفي حركته في خطّ الإمام علي، لأنه عليه‌السلام يقول:

«لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ»[١].

والخلاصة أن مقام «أوّل المؤمنين» يحتاج إلى شجاعة أكثر ومعرفة أوسع وقدرة نفسيّة على تحطيم القيود والتقاليد السائدة في المجتمع المتخلّف وهذه أُمور قد اجتمعت في الإمام علي عليه‌السلام.

إنّ سحرة فرعون بإيمانهم بالنبي موسى ونيلهم لمرتبة أوّل المؤمنين به فإنهم ليس فقط تخلّصوا من أجواء الظلم والكفر والشرك بل أصبحوا في صفّ الشهداء، أجل فإنهم في صباح ذلك اليوم كانوا في صفّ الفراعنة وأنصار فرعون وفي تلك الليلة أمسوا في صفّ الشهداء[٢] لأن فرعون جسّد تهديده بقتلهم وصلبهم فكان أن استشهدوا جميعاً في تلك الليلة.

ومن الجدير بالذكر أن إيمان الأشخاص في المراحل البعدية يعدّ ثمرة لإيمان الأوائل، ولهذا فإنّ القسم الأعظم من أصحاب وأتباع النبي موسى قد آمنوا به بسبب إيمان وشهادة هؤلاء السحرة، وهذه إحدى الآثار الكثيرة لدماء الشهداء.

❊❊❊

توصية الآية

معرفة الفضائل مقدّمة للعمل!

عندما نتحدّث عن فضائل الإمام علي عليه‌السلام أو سائر أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام فلا ينبغي أن

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠١.

٢. يقول العلّامة الطبرسي في مجمع البيان ج ٣، ص ٤٦٤: «كانوا أوّل النهار كفّاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة».

نكتفي بمجرد الكلام والإستماع، بل يجب بعد معرفة هذه الفضائل أن نتحرّك على مستوى الممارسة والعمل لتجسيد هذه الفضائل والمناقب في حياتنا وأفعالنا وأقوالنا، وتأسيساً على هذا فإذا رأينا أن الآيات الكريمة تتحدّث عن أميرالمؤمنين عليه السلام من موقع المدح والثناء وأنه «صادق ومصدق» فلابدّ أن يكون الشيعي كذلك أيضاً في تأييد كلام الحقّ والصدق وأن يبعد عن نفسه المؤثرات العاطفيّة والمزاجيّة، واللطيف أن المؤمن إذا سمع كلام الحقّ حتّى من الشيطان نفسه فعليه أن يستمع له ويصدّق بكلام الحقّ كما أمر الله تعالى نبيه نوح بأن يستمع لكلام الشيطان عندما نصحه حتّى لو كانت النصيحة من الشيطان نفسه[1].

وهنا نلفت نظر المؤمنين الصادقين والمصدّقين إلى حديثين شريفين في هذا المجال:

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

لاٰ تَنْظُرُوا إِلىٰ كَثْرَةِ صَلاٰتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْـمَعْرُوفِ وَطَـنْطَنَتِهِمْ بِـاللَّيْلِ، وَلٰكِنِ انْظُرُوا إِلىٰ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدٰاءِ الْأَمٰانَةِ.[2]

والخلاصة هي أنه طبقاً لهذا الحديث النبوي الشريف أن الملاك والمعيار في تقييم الإنسان هو صدقه وأمانته.

٢ ـ قال الإمام علي عليه السلام:

اَلْإِيمٰانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكِذْبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ.[3]

فطبقاً لهذا الحديث الشريف فإنّ مقتضى الإيمان هو ملازمة الصدق والحقّ وأن المؤمن لا يمكن أن يكون كاذباً.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتحلّين بالإيمان والسائرين على خطى أميرالمؤمنين عليه السلام وأن نقتبس من فضائله ومناقبه وخاصّة فضيلة الصدق والتصديق بالحقّ والحقيقة.

ﮋﮊ

---

١. نصائح الشيطان للنبي نوح مذكورة في كتاب «الشيطان عدو الإنسان» ص ٦٧، وكتاب «مواعظ الأنبياء» ص ٤٢ فصاعداً.

٢. ميزان الحكمة: ج ٥، ص ٢٨٨، الباب ٢١٩٢، ح ١٠٩٥.

٣. نهج البلاغة: الكلمات القصار، الرقم ٤٥٨.



آية المحبة

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (٩٦)

«سورة مريم / الآية ٩٦»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة وبشهادة كتب أهل السنّة ومصادرهم نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام حيث تذكر الروايات الشريفة أن الإمام علي عليه السلام هو المصداق الأكمل والأتم لهذه الآية الشريفة، وقد ذكرت لهذه الآية بحوث متنوّعة منها: ارتباط الايمان والعمل الصالح بالمحبّة في القلوب، وكذلك آراء ونظريات علماء أهل السنّة في شأن نزول هذه الآية، ومباحث أُخرى أيضاً من هذا القبيل سيأتي تفصيلها لاحقاً.

التوغّل والنفوذ في القلوب أهم رأس مال القادة

إنّ أهم رأس مال للقادة السياسيين والإجتماعيين في مختلف المجتمعات البشرية هو ما يتمتعون به من محبّة في قلوب الناس، بحيث إنّ المشاريع والاطروحات الإجتماعية المهمّة لا تتحقق بدون وجود هذه العاطفة والإنجذاب نحو القائد في عرصات المجتمع وعلى مستوى الجمهور.

ولهذا فإنّ مشاركة الناس في الأُمور الإجتماعية والسياسية والثقافية وحتّى العسكرية

يعدّ أمراً ضرورياً جداً في عملية الإصلاح الإجتماعي أو نجاح الحكومة، ومن أجل تحصيل هذه الغاية فلابدّ من النفوذ إلى قلوب الناس وجذب مودّتهم وكسب حبّهم، وعندما نرىٰ أن النبي الأكرم ﷺ قد نجح في مدّة قصيرة أن ينشر دعوته السماوية إلى شرق العالم وغربه ويوحّد قلوب المسلمين ويزيل عنهم الأحقاد والتعصّبات القديمة ويشكّل جيشاً موحّداً وقويّاً استطاع بواسطته أن يوصل دعوته الإلهية إلى شتّىٰ بقاع المعمورة فإنّ ذلك كان بسبب أخلاقه السامية ونفوذه العجيب في قلوب الناس من المسلمين وغير المسلمين كما يحدّثنا القرآن الكريم عن هذه الحقيقة ويقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.[1]

وهكذا بالنسبة إلى النبي إبراهيم عليه السلام عندما هاجر بأمر من الله تعالى إلى مكّة وأسكن زوجته وطفله الرضيع في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا غذاء ومن دون زاد ومتاع إلى جانب بيت الله الحرام، رفع يديه للدعاء وقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[2]

فكان إبراهيم عليه السلام يعلم أن النفوذ إلى القلوب هو أعظم رأس مال للإنسان ولهذا طلب من الله تعالى أن يجعل محبّة أهل بيته في قلوب الناس.

الإمام الخميني رحمه الله بدوره لم يكن لديه منذ بداية الثورة ولآخر يوم من أيامها سلاحاً مهمّاً من الأسلحة المتعارفة ليواجه بها أعوان الشاه وجيشه المسلّح، ولكنه كان يمتلك سلاحاً أقوى فاعليّة وأمضىٰ قوّة من جميع الأسلحة المتطورة لطاغوت زمانه، وهو المحبّة في قلوب الناس وتعاطف الجماهير مع دعوته الإلهية، والخلاصة أن عنصر النفوذ في القلب يعدّ أهم رأس مال للقادة والمصلحين في سائر المجتمعات البشرية.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

الشرح والتفسير

إرتباط الإيمان والعمل الصالح بمسألة النفوذ في القلوب

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

في هذه الآية الشريفة نرى ارتباطاً بين الايمان والعمل الصالح من جهة والنفوذ إلى قلوب الناس من جهة أُخرى، حيث يقرر الله تعالى في هذه الآية الشريفة المحبّة في قلوب الناس نتيجة الايمان والعمل الصالح، ومعنى هذه العبارة هي أنه من الممكن أن يتسلط الانسان بقوّة السلاح والسيف على الناس بأجسادهم وأبدانهم، ولكنه لا يستطيع إطلاقاً أن يتسلط على قلوبهم وأرواحهم ويفتح طريقاً إلى أعماق وجدانهم بالقوّة والقهر.

سؤال: إذن ما هي حقيقة العلاقة بين الايمان والعمل الصالح من جهة وبين النفوذ إلى قلوب الناس والمقبولية العامة في أوساط المجتمع من جهة أُخرى؟ هل يمكننا أيضاً تحصيل هذه النعمة الكبيرة من خلال الايمان والعمل الصالح؟

الجواب: بالإمكان تصوير هذه العلاقة الثنائية على نحوين:

الأوّل: أن يكون هذا الإرتباط المعنوي والإلهي وفقاً لحكمة الله تعالى التكوينية كما هو الحال في المحبّة التي جعلها الله تعالى لموسى عليه السلام في قلب فرعون وزوجته في حال طفولة موسى، حيث إن فرعون أمر بأن يقتل جميع الأطفال الذكور من بني إسرائيل في مصر بهدف القضاء على العدو المحتمل، ولكن الله تعالى قد قذف في قلبه حبّ موسى وجعله يربّي موسى في بيته وقصره، ومن هنا أراد الله تعالى أن يظهر قدرته الفائقة لفرعون والفراعنة بأنهم لا يمكنهم التصدّي لإرادة الله ومشيئته ولا يمكن لأي قدرة أن تقف مانعاً وحائلاً دون إرادة الله فيما لو تعلقت بشيء من الأشياء، فمثل هذه العلاقة العاطفية والمحبّة القلبية لا تكون اكتسابية بل هي موهبة من الله تعالى.

الثاني: العلائق العاطفية العاديّة القابلة للتحليل المنطقي، فإنّ العمل الحسن والصالح يتمتع بجاذبيّة، وحتّى الأشخاص المنحرفين والفاسدين ينجذبون نحو حسن الأعمال وجمالها الأخلاقي.

مثلاً «الأمانة» تعتبر من الأعمال الصالحة، والإنسان الأمين يعدّ إنساناً صالحاً ومورد

قبول الناس وحبّهم واحترامهم، فحتّى اللصوص وقطّاع الطرق يحبّون من يتمتع بهذه الفضيلة ويعتمدون عليه على مستوى الإرتباط الاجتماعي وقد يضعون أموالهم المسروقة أمانة ووديعة عنده، وعليه فإنّ العمل الصالح وكذلك الايمان لهما جاذبية لقلوب الناس، والثمرة المترتبة على ذلك هي النفوذ إلى قلوب الناس، والشخص الذي يرغب في أن تكون له مكانة ومحبّة في قلوب الناس يكفي أن يكون إنساناً مؤمناً صالحاً، فإذا أدرك الناس ذلك منه فإنّ قلوبهم ستتجه نحوه ولا حاجة إلى عمل خاص في هذا السبيل.

الطهارة والعفّة هي الأُخرىٰ أحد الأعمال الصالحة ذات القيمة الأخلاقية العالية، وهذه الفضيلة إلى درجة من الأهمّية بحيث إنّ الأشخاص الذين يعيشون التلوّث في الخطيئة يعشقونها فعندما يريدون الزواج وتشكيل أُسرة يتوجهون إلى العوائل الشريفة ويخطبون النساء العفيفات ويجتنبون الزواج من الملوّثات، والملفت للنظر أن الإمام علي عليه السلام وهو مورد البحث في هذه الآية قد وصل في معراجه المعنوي وتكامله الإنساني إلى أعلى درجة من حيث الايمان والعمل الصالح من جهة ونفوذه في قلوب الناس من جهة أُخرى.

شأن نزول آية المحبّة

بالرغم من أن مفهوم الآية الشريفة مورد البحث عام وشامل لكلّ مؤمن يعمل الأعمال الصالحة حيث ينتج هذا الايمان والعمل الصالح المحبّة في قلوب الناس، ولكن بلا شك أن المصداق الأكمل والأدق لهذه الآية الشريفة هو أميرالمؤمنين عليه السلام، كما ورد التصريح بذلك في كتب أهل السنّة المختلفة رغم سعي البعض لإنكار هذه الحقيقة الواضحة.

ويقول العلّامة الحلّي في كتاب «احقاق الحقّ»[1] في شأن نزول الآية المذكورة أنها نزلت

---

١. يعتبر كتاب «إحقاق الحقّ» من الكتب القيّمة والمهمّة جداً لدى الشيعة، ويحتوي على أربعة أقسام، ومؤلفه العلّامة الحلّي، وقد كتب القاضي روزبهان من علماء أهل السنّة رداً على هذا الكتاب ثمّ ادرجه ضمن الكتاب، ثمّ إن القاضي نورالله التستري كتب رداً على ما ذكره القاضي روزبهان وأيّد العلّامة الحلّي وتم ادراج ردّه أيضاً ضمن الكتاب، وأخيراً قام آية الله العظمى المرعشي النجفي وبمساعدة بعض الفضلاء من أصحابه بإضافة هوامش مفيدة على هذا الكتاب وتم طبعه ونشره بصورة نهائية.

في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن القاضي روزبهان من علماء أهل السنّة يردّ على كلام العلّامة هذا ويقول:

ليس هذه الرواية في تفسير أهل السنّة، وإن صحت دلّت على وجوب محبّته وهو واجب بالاتّفاق[1].

والملفت للنظر أن المحققين من الشيعة ذكروا في هامش الكتاب المذكور «احقاق الحقّ» نقلاً عن ١٧ كتاب من كتب أهل السنّة أن روايات تتعلق بالإمام علي عليه السلام في هذا المورد، من بين هذه الكتب ستة منها من كتب التفسير، فكيف يبرر مثل هذا التناقض في كلمات علماء أهل السنّة؟ هل أن القاضي روزبهان لم يقرأ هذه الكتب، أو أنه قرأها ولكن حجاب التعصّب والعناد منعه من قبول هذه الروايات؟

وعلى أيّة حال فالكتب المذكورة هي ما يلي:

١ ـ تفسير الثعلبي[2].

٢ ـ تفسير الكشّاف لمؤلفه الزمخشري المفسّر المعروف لدى أهل السنّة[3].

٣ ـ تفسير العلّامة النيشابوري والذي ورد في هامش تفسير الطبري[4].

٤ ـ السيوطي في الدرّ المنثور[5].

٥ ـ العلّامة الشوكاني في تفسيره[6].

٦ ـ الآلوسي في روح المعاني[7].

ونكتفي في ذكر روايتين من هذه الكتب المذكورة:

الف: ما أورده «روح المعاني» أن البراء بن عازب الصحابي المعروف قال:

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٧.

٢. تفسير الثعلبي: ص ١٥١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٢.

٣. الكشّاف: ج ٢، ص ٤٢٥ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٣.

٤. تفسير الطبري: ج ١٦، ص ٧٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٤.

٥. الدرّ المنثور: ج ٤، ص ٤٨٧ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٥.

٦. تفسير الشوكاني: ج ٣، ص ٣٤٢ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٦.

٧. روح المعاني: ج ١٦، ص ١٣٠ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٨٦.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ تَعالىٰ وَجْهَهُ: «قُلِ اللّهُمَّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْداً وَاجْعَلْ لِي فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ وُدّاً» فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحانَهُ هٰذِهِ الآيَةَ.

وَكانَ مُحَمَّدُ بْنُ الحنفيّة ﷺ يَقُولُ: لا تَجِدُ مُؤْمِناً إلّا وَهُوَ يُحِبُّ عَلِيّاً كَرَّمَ اللهُ تَعالىٰ وَجْهَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ[1].

سؤال: ما هو المراد من العهد المذكور في هذه الرواية؟

الجواب: يحتمل أن يكون هذا العهد هو ما ورد في آية سابقة قبل هذه الآية محل البحث، أي الآية ٨٧ من سورة مريم حيث ورد فيها:

﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾.

وعليه فالمراد من العهد هو الشفاعة، فالنبي الأكرم يقول للإمام علي ﷺ: أُطلب من الله تعالى أن تنال مقام الشفاعة وأن يجعل محبّتك في قلوب المؤمنين وهي المحبّة التي وردت في دعاء إبراهيم الخليل واستمرت إلى زمان نبي الإسلام ﷺ وستبقى إلى يوم القيامة.

ب: ويذكر العلّامة الشوكاني نقلاً عن الطبراني عن ابن عبّاس إنه قال:

نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ...﴾ قالَ مَحَبَّةٌ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ[2].

وعلى أيّة حال فقد رأينا أن هذه الآية الشريفة تقرر وجود رابطة وثيقة بين الإيمان والعمل الصالح من جهة والمحبّة في قلوب الناس من جهة أُخرى، وطبقاً للروايات الواردة فإنّ المصداق الأكمل لها هو أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

التفاسير الأخرى للآية مورد البحث

ومضافاً إلى التفسير المتقدم فهناك تفاسير أُخرى للآية المذكورة ومنها:

الف) إن المراد من الآية الشريفة ليس هو أن المحبّة توجد في قلوب المسلمين والمؤمنين

---

١. احقاق الحق: ج ٣، ص ٨٦.

٢. نفس المصدر السابق.

جميعاً اتجاه فرد معيّن أو أفراد بالخصوص، بل المراد أن الايمان والعمل الصالح يورثان المحبّة في قلوب جميع المؤمنين بالنسبة إلى بعضهم البعض، وبعبارة أُخرى إنّ المحبّة في قلوب المؤمنين متوجهه لجميع المؤمنين لا إلى فرد بالخصوص.

ب) إنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى يوم القيامة فإنّ الله تعالى في ذلك اليوم يجعل المحبّة في قلوب المؤمنين بحيث يحبُّ بعضهم بعضاً، وعليه فهذه الآية لا تتعلق بما نحن فيه.

ج) إنّ المراد من الآية الشريفة هو الامام علي عليه السلام فقط ولا تشمل أي مؤمن آخر، وما ورد في العبارة من صيغة الجمع لا يثير مشكلة، لأن صيغة الجمع تأتي أحياناً لغرض الإحترام[1].

ولكن الانصاف أن جميع التفاسير هذه غير متنافية فيما بينها وبالامكان الجمع فيما بينها في المفهوم من الآية الشريفة والتي تستوعب جميع المؤمنين الذين يعملون الصالحات رغم أن المصداق الأكمل والأتم هو أميرالمؤمنين عليه السلام، كما هو الحال في اختلاف الأنوار شدة وضعفاً من قبيل: نور الشمعة، المصباح، القمر، الشمس، ولكن بلا شكّ أن نور الشمس هو المصداق الأكمل والأتم لمفهوم النور.

توصية الآية الشريفة

الشيعة بمثابة السراج المنير

تقدّم أن قلنا أكثر من مرّة إنه ينبغي على الشيعة وأتباع أميرالمؤمنين عليه السلام السعي لمعرفة فضائل ومناقب الامام علي وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام ولكن بلا شك لا ينبغي الإكتفاء بهذا المقدار بل يجب التحرّك بعد معرفة هذه الفضائل في خطّ العمل بها وتجسيدها على مستوى الواقع النفسي والاجتماعي والسعي في طريق النجاة والفلاح وإرشاد الناس إلى هذا الطريق أيضاً، يجب على شيعة الامام علي عليه السلام أن يكونوا قدوة وأُسوة في الايمان والعمل الصالح لكي

---

١. الإحتمالات الثلاثة واحتمالات أُخرى مذكورة في مجمع البيان: ج ٣، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

يهتدي الناس بنور إيمانهم إلى خطّ الصلاح والتقوى والإنفتاح على الله، وهذا المعنى هو الذي يبعث المحبّة لهم في قلوب الآخرين وبالتالي يستوجب رضا أهل البيت عليهم السلام عنهم وسرورهم بمثل هؤلاء الأتباع، لا أن يتحرك الشيعة بشكل يبعث على خجل هؤلاء الأولياء من أعمالهم[١].

مباحث أخرى

١ ـ نفوذ المحبّة في قلوب الجميع

إنّ ظاهر الآية الشريفة هي أن الايمان والعمل الصالح لا يستوجبان فقط نفوذ المحبّة في قلوب المؤمنين بالنسبة إلى ذلك الشخص بل إنّ شعلة هذه المحبّة تسري إلى قلوب غير المؤمنين وتعمل على تسخيرها ولهذا فإنّ أعداء الإمام علي عليه السلام أيضاً يشعرون بالمحبّة له رغم أن أهواءهم النفسانية لا تسمح لهم بإظهار هذا الحبّ ولكن قد يفلت من كلماتهم هذا الأمر.

وهذا ما ورد في كتب التاريخ مراراً من أن معاوية كان يسأل من بعض شيعة الإمام علي عليه السلام عند ملاقاتهم به عن حالات أميرالمؤمنين وأفعاله، وبعد أن يستمع لما يذكرونه من ثناء ومدح لأميرالمؤمنين يؤيدهم في ذلك[٢].

وأما عمرو بن العاص وهو الرجل الثاني من قادة العصيان والتمرد والإنحراف والذي يعدّ الشريك الأوّل لجرائم معاوية بل إنّ معاوية كان يأتي بالدرجة الثانية في المكر والحيلة والإفساد بعد عمرو بن العاص، هذا الشخص يقول في قصيدته المعروفة باسم «الجلجلية»[٣]

---

١. وقد ورد هذا المعنى في الروايات الشريفة أيضاً، ومن ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً» (بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٢٨٦) ومثله ما ورد عن الإمام الرضا والإمام الحسن العسكري عليهما السلام. (بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٣٤٨ و ٣٧٢).

٢. وقد أوردنا نماذج من هذه المحاورات في كتاب «١١٠ قصة من حياة الإمام علي» الفصل الخامس.

٣. إن السبب الذي دفع عمرو بن العاص إلى إنشاد هذه القصيدة أن معاوية عندما ولّاه على مصر كان المفروض أن يرسل بعض خراجها إلى الحكومة المركزية في الشام كما هو السائد في الإمارات في ذلك الزمان، تلي

يعترف فيها بالجرائم التي ارتكبت في زمن معاوية وكذلك في فضائل الإمام علي عليه السلام ويقول:

مُـعَاوِيَةُ الْـحَالَ لا تَـجْهَلِ ... وَعَـنْ سُـبُلِ الْـحَقِ لا تَـعْدِلِ
وَكِـدْتُ لَـهُمْ اَنْ اَقَامُوا الرِّمَاحَ ... عَـلَيْهَا الْـمَصَاحِفَ فِـي الْـقَسْطَلِ
نَسِـيتَ مُـحَاوَرَةَ الْاَشْـعَرِي ... وَنَـحْنُ عَـلَى دُومَـةِ الْـجَنْدَلِ؟
خَـلَعْتُ الْـخِلافَةَ مِـنْ حَـيْدَرٍ ... كَـخَلْعِ النِّـعَالِ مِـنَ الْاَرْجُـلِ
وألبستها فـيك بـعد الأيـاس ... كـلبس الخـواتـيم بـالأنمل
وكـم قـد سـمعنا مـن الْـمُصْطَفَى ... وَصَـايَا مُـخَصَّصَةً فِـي عَـلِيٍّ؟
وَفِـي يَـوْمِ خُـمٍّ رَقَـى مِـنْبَراً ... يُـبَلِّغُ والرَّكْبُ لَـمْ يَـرْحَلِ
وَفِـي كَـفِّهِ كَـفُّهُ مُـعْلِناً ... يُـنَادِي بِـأَمْرِ الْـعَزِيزِ الْـعَلِيِّ
وَقَـالَ فَـمَنْ كُـنْتُ مَـوْلىً لَـهُ ... فَـهٰذا لَـهُ الْـيَوْمَ نِـعْمَ الْـوَلِيِّ
وَاِنَّـا وَمَـا كَـانَ مِـنْ فِـعْلِنَا ... لَـفِي النَّـارِ فِـي الدَّرْكِ الْاَسْفَلِ[1]

٢ ـ مفهوم العمل الصالح في القرآن

إنّ العمل الصالح في نظر الإسلام في دائرة المفاهيم القرآنية أمر مهم جدّاً بحيث إنّ سبعين آية من آيات القرآن الكريم بحثت هذا المعنى والمفهوم، والعمل الصالح له مفهوم واسع وشامل لكلّ عمل يصبُّ في دائرة رضا الله تعالى، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف ما يوضح سعة دائرة هذا المفهوم للعمل الصالح:

اَلْأِيمَانُ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ (بِسْتُّونَ خ ل) شُعْبَةً أَعْلاٰهَا شَهَادَةُ اَنْ لاٰ اِلٰـهَ اِلَّا اللهُ وَاَدْنٰـاهَا إِمَاطَةُ الْأَذٰى عَنِ الطَّرِيقِ[2].

إلّا أن عمرو بن العاص أبى ذلك، فأرسل إليه معاوية كتاباً يوبّخه فيه فاضطر عمرو إلى إرسال بعض خراج مصر إلى معاوية، ولكنه لما رأى أن معاوية قد نسى خدماته الجليلة له وإنقاذه لحكومة الشام في ظروف صعبة ومواقف حرجة، كتب إلى معاوية هذه القصيدة، وعندما قرأها معاوية فكأنه ندم على ما صدر منه تجاه عمرو بن العاص وأمر بأن يترك لحاله ولا يؤخذ من خراج مصر شيئاً.

١. الغدير: ج ٢، ص ١١٤.

٢. عوالي اللئالي: ج ١، ص ٤٣١ والرواية المذكورة وردت في صحيح مسلم مع اختلاف يسير، في كتاب ←

هذه الرواية الشريفة مضافاً إلى أنها تشير إلى سعة دائرة العمل الصالح فإنها تقرر هذه الحقيقة وهي أن الإسلام يهتم بأدنى وأصغر مسائل الحياة الفردية والإجتماعية للمسلمين ويوصي المسلمين بالإهتمام حتّى بالأُمور الجزئية.

۞

الإيمان، الباب ١٢، ح ٥٨، وهو: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستّون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الاذىٰ عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» وقد وردت الرواية هذه في مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٧٩ أيضاً مع اختلاف يسير.



﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)﴾

«سورة الواقعة / الآيات ١٠ ـ ١٢»

أبعاد البحث

هذه الآيات الشريفة تستعرض فضيلة أُخرى من فضائل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً والتي اعترف بها علماء السنّة بصورة واسعة، فنقرأ في هذه الآيات الشريفة التي تتحدّث عن طوائف ثلاث من الناس يوم القيامة، تعليمات راقية ومطالب مهمة تتعلق بسيرة الإنسان في حركة الحياة الدنيوية، وسيأتي تفصيل البحث لاحقاً.

مضمون سورة الواقعة

إنّ سورة الواقعة كسائر سور القرآن الكريم تتضمن مفاهيم عميقة ومواضيع مثيرة للغاية، والأصل والمحور في مواضيع آيات هذه السورة المباركة هو الحديث عن المعاد والحياة الأُخروية، فالآيات الأُولى من هذه السورة تستعرض علائم وآثار يوم القيامة حيث يبدأ هذا اليوم بانقلاب كبير في عالم الوجود كما هو الحال في الإنقلاب والإنفجار الذي حدث في بداية ظهور الأرض والمجرّات والسماوات، وعليه فإنّ الدنيا بدأت بإنفجار مهيب وستنتهي أيضاً كذلك، فعندما تقوم القيامة تهتزّ الأرض بشدّة وتتحطم الجبال العظيمة

وتتلاشىٰ في الفضاء نتيجة اصطدامها فيما بينها في الفضاء بحيث تتحول إلى غبار منثور، وبعد ذلك يقوم الله تعالى بخلق عالم الآخرة على خرائب وأطلال عالم الدنيا ويخلق أرضاً وسماءاً جديدة، وفي ذلك اليوم تدبُّ الحياة في الأموات ويبعثون من قبورهم مرّة ثانية ويكونون على ثلاث طوائف:

۱ ـ «أصحاب الميمنة» وهم السعداء والمفلحون في ذلك اليوم.

۲ ـ «أصحاب المشئمة»[1] وهم الأشخاص الذين يواجهون الشقاء والمصير السيىء وتقدّم إليهم صحيفة أعمالهم بيدهم الشمال.

۳ ـ ﴿السّابِقُونَ السّابِقُونَ﴾ وهذه الطائفة من الناس هم أسعد حظاً من الطائفة الأُولى وهم الذين ينالون وسام مقام القرب من الله تعالى بحيث لا يدانيهم في هذا المقام والمنزلة أحد من المؤمنين.

وبهذا التقسيم القرآني لطوائف الناس في ذلك اليوم تشرع الآيات الكريمة باستعراض أنواع المثوبات والعقوبات المقرّرة لأفراد هذه الطوائف الثلاث، المثوبات التي تثير الوجد والفرح في قلوب المؤمنين، والعقوبات الرهيبة التي تثير الفزع والخوف لدى كلّ إنسان.

وتتحدّث الآيات ۱۱ إلى ۲٦ عن المثوبات المقرّرة للسابقين والمقرّبين، وهي المثوبات غير القابلة للتصور أحياناً، وتتحدّث الآيات ۲۷ إلى ٤۰ عن مثوبات أصحاب اليمين، ومن الآية ٤۱ فما بعد يتحدّث القرآن الكريم عن عقوبات أصحاب الشمال بصورة مفصلة.

الشرح والتفسير

من هم السابقون؟

﴿وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ﴾ وهم الذين ينبغي أن يكونوا أُسوة

---

۱. «الميمنة» و«المشئمة» يمكن تفسيرهما بمعنيين:

أحدهما: أن يكون المراد منهما هو اليُمن والبركة في الأولى، والشؤم والشر في الثانية، والآخر أن يكون المراد هو اليد اليمنى واليسرى، حيث استخرج منهما هاتان الكلمتان للدلالة على أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ولكن يمكن القول بأن المعنى الأوّل أقرب إلى أجواء الآيات من خلال التقابل الموجود بينهما في سياق الآيات، وكذلك يمكن القول بالثاني بلحاظ ما يرد في هذه الآيات من إعطاء كتاب الأعمال للصالحين بأيديهم اليمنى، وإعطاء كتاب الأعمال للمجرمين بأيديهم الشمال.

وقدوة لجميع أفراد البشر في حركتهم المعنوية وسيرهم التكاملي في خطّ الايمان والرسالة.

سؤال: من هم هؤلاء السابقون الذين ينالون مقام القرب من الله تعالى؟

الجواب: لقد ذكرت تفاسير مختلفة للمقصود من هذه العبارة:

١ ـ السابقون في الايمان.

٢ ـ السابقون في الجهاد.

٣ ـ السابقون في العبادة والصلاة اليومية.

٤ ـ السابقون في التوبة.

٥ ـ السابقون في طاعة الله.

٦ ـ السابقون في دخول الجنّة.

٧ ـ السابقون في الهجرة.

٨ ـ السابقون في أعمال الخير.

وهناك تفاسير أُخرى أيضاً[١].

ولكننا نرى عدم وجود منافاة بين هذه التفاسير المذكورة للآية الشريفة، وعليه فلا ينبغي أن نقيّد الآية بأحد الموارد المذكورة بل نرى أن المفهوم منها يستوعب جميع ما ورد لها من هذه التفاسير. وعلى أيّة حال فالسابقون يتّسمون بفضائل جمّة ويختصّون بخصائص مهمّة ترتفع بهم في عالم الملكوت، وأسمىٰ مقام لهم هو مقام القرب الإلهي، وبلاشك أن اللذّة التي يعيشها هؤلاء السابقين في هذا المقام العظيم ترتفع عن كلّ لذّة أُخرى.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وهذا التعبير بصيغة الجمع يشمل كافة النِعم المادية والمعنوية في الجنّة، وقد يشير أيضاً إلى أن بساتين الجنّة هي محل النعيم الحقيقي لا غير خلافاً لبساتين الدنيا التي قد تكون سبباً للتعب والشقاء، وهكذا بالنسبة إلى حال المقرّبين وتفاوت مقامهم في الآخرة بالنسبة إلى الدنيا لأنّ مقامهم الدنيوي كان مقترناً مع تحمل المسؤوليات

١. هذه الإحتمالات وردت أيضاً في التفسير الامثل ذيل الآية مورد البحث، وتفسير التبيان: ج ٩، ص ٤٩٠، ومجمع البيان: ج ٥، ص ٢١٥.

والأتعاب والمشاكل في حين أن مقامهم الأُخروي هو التنعم الخالص بالمواهب الإلهية في الجنّة.

فهل تليق هذه المواهب والمثوبات الإلهية لغير السابقين؟

نسألك اللّهمّ بلطفك وكرمك أن تحشرنا مع هذه الطائفة وتجعلنا من المقرّبين عندك.

الإمام علي عليه السلام المصداق الأتم والأكمل للسابقين

كما تقدّم آنفاً فإنّ مفهوم الآية الشريفة شامل وعام في دائرة السابقين ويستوعب في مضمونه جميع الأشخاص الذين سبقوا الآخرين في الإيمان والجهاد والصلاة والتوبة والمسير في خطّ الطاعة والعبودية والدخول إلى الجنّة وأمثال ذلك، ولكن طبقاً لما ورد في الروايات الشريفة أن الإمام علي عليه السلام هو أسبق السابقين في هذه الموارد والمصداق الأتم والأكمل لهذه الآية الشريفة، وهنا نلفت النظر إلى بعض ما ورد في هذه الروايات:

الف) ما ورد عن المفسّر والراوي المعروف ابن عبّاس المقبول لدى السنّة والشيعة أنه قال:

سابِقُ هٰذِهِ الأُمَّةِ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ[1].

ب) وقال ابن عبّاس أيضاً في رواية أُخرى:

يُوشَعُ بْنُ نُونٍ سَبَقَ إلىٰ مُوسىٰ، وَمُؤْمِنُ آلِ يَاسِين سَبَقَ إلىٰ عِيسىٰ، وَعَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ سَبَقَ إلىٰ مُحَمَّدٍ[2].

ج) عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله إجراء عقد الزواج بين الإمام علي عليه السلام وابنته فاطمة الزهراء عليها السلام قال مخاطباً لابنته:

زَوَّجْتُكِ بِأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِي وَعَرَفَنِي وَسَاعَدَنِي[3].

أجل، فطبقاً لهذه الروايات والروايات الأُخرى التي لم نذكرها هنا رعاية للاختصار فإنّ

---

١. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٤.

٢. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٥.

٣. روضة الأحباب: ج ٣، ص ١٠ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٧.

الإمام علي ﷺ هو أسبق السابقين من جميع المسلمين، فهل من اللائق مع وجود مثل هذا الإمام اختيار شخص آخر لخلافة النبي؟

وما أجمل ما قاله الشاعر العربي:

أَلَـيْسَ أَوَّلُ مَـنْ صَـلَّى بِقِبْلَتِهِمْ وَأَعْـلَمُ النَّـاسِ بِـالْقُرْآنِ وَالسُّـنَنِ[1]

إذن فلماذا مع وجود عليّ بن أبي طالب ﷺ واعترافهم بأفضليته وأسبقيته يتم اختيار شخص آخر وترجيحه عليه؟

الروايات المذكورة آنفاً وردت في منابع متعددة لدى أهل السنّة ونكتفي هنا بذكر ١٠ مصادر ومنابع منها:

١ ـ إبن المغازلي في المسند[2].

٢ ـ السبط ابن الجوزي في التذكرة[3].

٣ ـ ابن كثير الدمشقي[4].

٤ ـ محيي الدين الطبري في الرياض النضرة[5].

٥ ـ السيوطي في الدرّ المنثور[6].

٦ ـ ابن حجر في الصواعق المحرقة[7].

٧ ـ العلّامة الشوكاني في فتح القدير[8].

٨ ـ مير محمّد صالح الترمذي في المناقب المرتضوية[9].

---

١. الشعر من خزيمة بن ثابت.

٢. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٤.

٣. التذكرة: ص ٢١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٥.

٤. تفسير ابن كثير: ج ٤، ص ٢٨٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٥.

٥. الرياض النضرة: ص ١٥٨ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٥.

٦. الدرّ المنثور: ج ٦، ص ١٥٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٦.

٧. الصواعق المحرقة: ص ١٢٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٦.

٨. فتح القدير: ج ٥، ص ١٤٨ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٧.

٩. المناقب المرتضوية: ص ٤٩ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٧.

٩ ـ الآلوسي في روح المعاني[١].

١٠ ـ القندوزي في ينابيع المودّة[٢].

ومع الإلتفات إلى كثرة هذه الروايات الواردة في شأن الإمام علي عليه السلام في ذيل الآية الشريفة فهل يعقل أن الله تعالى يختار شخصاً آخر للخلافة مع وجود الإمام علي عليه السلام وفضائله الكثيرة؟

تفسير السابقين على لسان النبي صلى الله عليه وآله

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«السَّابِقُونَ إِلىٰ ظِلِّ الْعَرْشِ طُوبىٰ لَهُمْ».

قيلَ: يا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ هُمْ؟ قال:

١ ـ «الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقَّ إِذَا سَمِعُوهُ»

إنّ السابقين يتّصفون بأنهم يذعنون للحقّ أياً كان ومن أي شخص سمعوه حتّى لو كان من عدو أو صبي صغير فلا يجدون في أنفسهم حرجاً ولا تعصباً أو تكبّراً على الحقّ، فعندما يدرك الإنسان خطأه وتتضح له آفاق الحقيقة فيجب عليه أن يتحرك من موقع الشجاعة والشهامة ويعترف بخطئه ويقبل بالحقّ وليعلم أن ضرر الإعتراف بالخطأ أقلّ بكثير من ضرر العناد والإصرار على الخطأ وعدم الإعتراف به.

٢ ـ «وَيَبْذُلُونَهُ إِذا سَأَلُوهُ»

فلا يحقُّ للسابقين كتمان الحقّ، لأن كتمان الحقّ من الذنوب الكبيرة، ولذلك لا يقولون أننا قد نتعرض للضرر من قول الحقّ أو قد يتألم والدنا أو والدتنا أو زوجتنا أو صديقنا وجارنا من قول الحقّ، فهم يعلمون أن الواجب يحتم عليهم أن يشهدوا بما يعلمون أنه الحقّ والصواب كما ذكر الله تعالى ذلك في الآية الشريفة ٢٨٣ من سورة البقرة وقال:

﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

---

١. روح المعاني: ج ٢٧، ص ١١٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٨.

٢. ينابيع المودّة: ص ٦٠ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١١٨.

٣ـ «وَيَحكُمُونَ لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ»[١].

الخصوصيّة الأُخرى للسابقين هي أنهم يحبّون لغيرهم ما يحبّون لأنفسهم ولا يحكمون لغيرهم إلّا بما يرونه صلاحاً لأنفسهم، وبعبارة أُخرى أنهم يرون منافعهم ومنافع الآخرين بعين واحدة، وبلاشك إنّ هذه المرتبة الأخلاقية لا تتيسر لكلّ شخص وليس من اليسير أن ينظر الإنسان لمصالح الآخرين كما يرآها لنفسه ويذعن للحقّ من دون أن تتدخل في ذهنه عناصر الأنانية، وبذلك ينال مرتبة السابقين.

إذا عمل الإنسان المعاصر بهذه التعليمات النبوية الثلاث فإنّ العالم سوف يتبدل إلى جنّة، ولكن مع الأسف فإنّ تعامل دعاة حقوق الإنسان مع الشعوب الأُخرى من موقع الإنتهازية والرياء حوّل المجتمع البشري إلى كيانات مهزوزة وبدّل العالم إلى جهنم محرقة ولم يبق من حقوق الإنسان في أذهان البشر سوى أوهام خاوية وتوهمات زائفة، فعندما يسمع أبناء البشر إدعاءات هؤلاء المدّعين والمنادين لحقوق الإنسان يتبادر إلى أذهانهم مفاهيم جديدة وهي «حفظ منافع السلطات الإستكبارية بأي قيمة وبأي شكل كان».

௵

---

١. نوادر الراوندي: ص ١٥ نقلاً عن بحار الأنوار: ج ٦٦، ص ٤٠٢.



١١ آية أذن واعية

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

«سورة الحاقة / الآيات ١١ و ١٢»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة «آية أُذن واعية» من الآيات الأُخرى التي تتحدّث عن فضائل أميرالمؤمنين ﷺ، وطبقاً للروايات الواردة في ذيل هذه الآية الشريفة فإنّ النبي الأكرم ﷺ قد دعا الله تعالى أن يكون علي ابن أبي طالب من جملة الأشخاص الذين يتمتعون بالأُذن الواعية وقد استجاب الله تعالى له هذا الدعاء، وسيأتي شرح وتفصيل هذه الروايات وتفسير الآية مورد البحث والمفهوم من عبارة «أُذن واعية» في البحوث اللاحقة.

الشرح والتفسير

قصة الأنبياء

لقد بحث القرآن الكريم قصص الأنبياء في هذه السورة «سورة الحاقة» بل في غيرها من السور القرآنية الكريمة من زوايا مختلفة ومتنوعة.

سؤال: لماذا تطرّق القرآن الكريم لبيان تاريخ الأُمم والأقوام السالفة واستعرض قصص الأنبياء السابقين، فهل أن القرآن كتاب تاريخ؟

الجواب: القرآن كتاب لتهذيب الإنسان، والتاريخ البشري له دور مهم في تعليم وتربية الإنسان في حركة حياته الفردية والإجتماعية، والخلاصة أن الإنسان يعيش التجربة والحوادث المتنوعة في هذه الحياة وما أحسن أن يستفيد الإنسان من تجارب الآخرين على مستوى العبرة والسلوك العملي لا أن يتمنّى كما يقول بعض الشعراء أن يعيش ويحيى مرتين ويجعل إحدى الحياتين لممارسة التجارب والثانية للاستفادة من تلكم التجارب الماضية.

يقول تبارك وتعالى في الآية ١١١ من سورة يوسف:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

ويشير أيضاً في بداية سورة الحاقة إلى قصص الأنبياء والسابقين مع أقوامهم حيث سنتعرض هنا إلى شرح وتفسير هذه الآيات المباركة:

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾.

إنّ فرعون والأقوام التي سبقته أي قوم شعيب، عاد، ثمود وأقوام أُخرى وكذلك المدن المؤتفكة أي المنقلبة والمدمّرة بسبب تلوّث أهلها بالخطيئة والذنوب الكبيرة، «المؤتفكات» جمع «مؤتفكة» وتشير إلى قصة قوم لوط عندما نزل عليهم العذاب الإلهي وأصابهم الزلزال المهيب ودمر بيوتهم ومنازلهم بحيث إنّ الرائي لها يحسبها قد انقلبت رأساً على عقب وبعد الزلزال نزل عليهم مطر من الشهب والأحجار الموسومة ودمّر ما تبقّى من آثارهم، والسبب في نزول هذا العذاب هو ممارستهم الخطيئة والإصرار على الذنوب حيث أشارت الآية إلى هذا المعنى «بالخاطئة».

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

إنّ الأقوام السالفة تحرّكوا في سلوكياتهم مقابل دعوة الأنبياء من موقع العناد والإبتعاد عن الحقّ ولذلك أنزل عليهم الله تعالى العذاب الشديد، والتعبير بقوله «ربّهم» إشارة إلى أنّ الله تعالى أراد تهذيبهم وصلاحهم بإرساله الأنبياء إليهم ولكنّ بعض الناس أصرّوا على معتقداتهم الزائفة ولم يستجيبوا لدعوات الأنبياء وتعاليمهم الإلهية والصادرة من ولي أمرهم ومربّيهم ولذلك استحقوا العذاب والعقاب الشديد.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

وتشير هذه الآية إلى قصة نوح عندما أمطرت السماء بأمر الله تعالى بماء منهمر وتفجّرت الأرض بالعيون الفوّارة وجرى السيل المهيب بحيث لم يستغرق سوى مدّة قليلة حتّى عمّ الماء أرض المعمورة ولم تسلم من الطوفان حتّى الجبال ولذلك أمر الله تعالى نوح ومن معه من المؤمنين بركوب السفينة لينقذوا أنفسهم من الغرق، ولكن الوثنيين والمشركين ومنهم ابن نوح الذين أصرّوا على سلوك خطّ الباطل والشرك والإنحراف غرقوا جميعاً في هذا الطوفان، هؤلاء كانوا يسخرون يوماً من النبي نوح عليه السلام لصنعه السفينة بعيداً عن البحر بل اتهموه بالجنون أيضاً وعندما حدث الطوفان وأمطرت السماء ذلك المطر العجيب وجدوا أنفسهم في معرض العقاب الإلهي وهلكوا جميعاً بسوء أفعالهم.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

فالقرآن الكريم يشير هنا إلى أن استعراض قصص الأقوام السالفة والأنبياء الإلهيين ليس بهدف بيان وقائع تاريخية محضة بل الهدف والغاية من ذلك هو كسب العبرة واستيحاء التجارب من أحداث التاريخ الغابر والإستفادة منها لممارسات الحاضر ولا يتدبّر في هذه الأمور ويستفيد منها إلّا من كانت له أُذن واعية ونفس متذكرة لتحفظ هذه الحوادث والقصص التاريخية، «وعى» بمعنى حفظ الشيء في القلب وفي المصطلح الجديد تطلق هذه الكلمة «الوعي» على من يتعامل مع الأحداث بذهنية متحركة وفكر جيّد، وعليه فعبارة «أُذنٌ واعية» تعني الشخصية التي تستوعب الحدث وتحفظه لتستفيد منه على مستوى التطبيق والممارسة ولا تتركه في طيّات النسيان كما هو الحال في المثال المعروف «يسمع من هذه الأذن ويخرجه من أُذنه الأُخرى» فالإنسان الواعي لا يتعامل مع مستجدات الواقع بهذه الصورة بل يسمع بكلا أُذنيه ويحفظ ما سمعه في قلبه ليكون صاحب الأُذن الواعية، والعين البصيرة، والقلب السليم، والعقل المتفكّر.

من هو صاحب الأُذن الواعية؟

بالرغم من أن الآية الشريفة لها مفهوم واسع وشامل لجميع الأفراد الذين يتّسمون بهذه السمة «الأُذن الواعية» ولكن طبقاً لما ورد في الروايات الكثيرة في تفسير هذه الآية فإنّ

المصداق الأتم والأكمل للأذن الواعية هو الإمام علي ﷺ.

وقد ورد في بعض الروايات أنه عندما نزلت هذه الآية الشريفة قال النبي الأكرم ﷺ مخاطباً للإمام علي ﷺ:

«سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ يا عَلِيُّ».

ويقول الإمام علي ﷺ: بعد هذه الواقعة كنت إذا سمعت شيئاً من النبي أحفظه ولا أنساه.

وقد ورد في روايات أُخرى أيضاً أن النبي الأكرم ﷺ دعا بهذا الدعاء أوّلاً ثمّ نزلت الآية الشريفة.

أما الرواية المذكورة آنفاً فقد وردت في مصادر متعددة لأهل السنّة وكنموذج على ذلك نشير إلى بعضها:

١ ـ القرطبي في الجامع لأحكام القرآن[1].

٢ ـ العلّامة المتقي الهندي في منتخب كنز العمّال[2].

٣ ـ العلّامة الآلوسي في روح المعاني[3].

٤ ـ العلّامة الواحدي النيشابوري في أسباب النزول[4].

٥ ـ أبو نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء[5].

٦ ـ الطبري في تفسيره[6].

٧ ـ الزمخشري في الكشّاف[7].

٨ ـ الثعلبي في تفسيره[8].

---

١. الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨، ص ٢٦٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥١.

٢. منتخب كنز العمّال: ج ٥، ص ١٤٨ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥١.

٣. روح المعاني: ج ٢٩، ص ٤٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥٣.

٤. أسباب النزول: ص ٣٣٩ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٨.

٥. حلية الأولياء: ج ١، ص ٦٧ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٨.

٦. تفسير الطبري: ج ٢٩، ص ٣١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٧.

٧. الكشّاف: ج ٤، ص ١٣٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٩.

٨. نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٩.

٩ ـ العلّامة الأُندلسي المغربي في البحر المحيط[١].

١٠ ـ الگنجي في كفاية الطالب[٢].

ورغم أن الفخر الرازي يتحرك في مباحث الإمامة والولاية من موقع التعصّب الكبير إلّا أنه نقل حديثاً طريفاً ذيل الآية الشريفة، فبعد أن ذكر دعاء النبي للإمام علي عليه السلام حول نزول هذه الآية قال نقلاً عن أمير المؤمنين:

«فَما نَسيتُ بَعْدَ ذٰلِكَ وَما كَانَ لِي أنْ أنْساهُ»[٣].

أي أن قلب الإمام علي أصبح خزانة الوحي الإلهي ومركز الكلمات النبويّة بعد دعاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله له.

التناقض في كلام الشيخ روزبهان

وقد ذكر الشيخ روزبهان في ردّه على العلّامة الحلّي عندما وصل إلى هذه الآية الشريفة وقال:

لمّا نزلت هذه الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام سألت الله تعالى أن يجعلها أُذنك، قال علي: «فَما نَسيتُ بَعْدَ هٰذَا شَيئاً». وهذا يدلُّ على علمه وحفظه وفضيلته.

وذكر الشيخ روزبهان بعد نقله لهذا الحديث الشريف: إنّ هذه الرواية تدلُّ على علم الإمام علي وحافظته القوية وفضيلته السامية.

ولكنه بعد أن ذكر الرواية الشريفة وما عقّب عليها من عبارات في ذيلها في مدح علي قال: ولكنّ هذه الأُمور لا تدلُّ على إمامته وخلافته بعد الرسول مباشرة[٤].

والجواب على هذا الكلام واضح، لأن أحد دعائم الإمامة وأركانها هو العلم والمعرفة، وبما أن الإمام هو خليفة الرسول فيجب أن يستوعب الشريعة وتعليمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

---

١. البحر المحيط: ج ٨، ص ٣٢٢ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥١.

٢. كفاية الطالب: ص ١١١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥٠.

٣. التفسير الكبير: ج ٣٠، ص ١٠٧ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٤٩.

٤. احقاق الحقّ: ج ٣، ص ١٥٤.

كاملاً ويكون بالتالي حلّالاً لمشكلات الناس ومن البديهي أن اللازم للإمامة والخلافة هو أن يكون الخليفة بمستوىً كبير ومرتبة عالية من العلم والمعرفة ليكون مستحقاً للخلافة وأهلاً لقيادة الأُمّة إلى ساحل النجاة، ولذلك نقول إنّ عليّ ابن أبي طالب وباعترافكم أعلم وأفضل من جميع من يدعي الخلافة بعد رسول الله، فأيُّ عاقل يبيح لنفسه أن يختار شخصاً آخر للخلافة مع وجود مثل هذه الشخصية العظيمة ؟

وعلى هذا الأساس فكيف تدلُّ هذه الآية الشريفة على علم الإمام علي عليه السلام وتقواه العظيمة ولا تدلُّ على خلافته وإمامته ؟ أليس هذا من التناقض ؟

ملاحظة ظريفة من الفخر الرازي

الفخر الرازي في تفسيره لكلمة «أُذنٌ واعية» يطرح هذا السؤال :

لماذا وردت «أُذنٌ واعية» بصورة المفرد والنكرة ولم ترد بصيغة الجمع والمعرفة ؟

ثمّ يجيب على هذا السؤال بثلاث أُمور :

١ ـ «للايذان بأنّ الوعاة فيهم قلّة» فإنّ الله تعالى يريد بهذا التعبير إفهام المخاطبين بأن أصحاب الأُذن الواعية قليلون وغير معروفين بين الناس.

٢ ـ «لتوبيخه الناس بقلّة من يعي منهم» فأراد الله تعالى بهذه العبارة توبيخ الناس وذمّهم على قلّة من يأخذ الأُمور من موقع الوعي والفهم السليم.

٣ ـ «للدّلالة على أنّ الاذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السّواد الأعظم عند الله وأنّ ما سواه لا يلتفت إليهم»[1] فصاحب الأُذن الواعية يعادل جمع غفير من الناس في واقع الأمر.

ومع الإلتفات إلى هذا البيان وكذلك ما ورد في الروايات من أن المراد بالأُذن الواعية هو علي بن أبي طالب عليه السلام، تكون النتيجة أنّ مصداق هذه الآية الشريفة هو أميرالمؤمنين عليه السلام وهذا المطلب يؤيد ما ورد في شأن النزول ومن دعاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام.

---

١. التفسير الكبير : ج ٣٠، ص ١٠٧.

علي مع الحقّ والحقّ مع علي

ومن أجل توضيح الأبعاد المختلفة من شخصية الإمام علي ﷺ وامتيازات وخصائص خليفة رسول الله ﷺ بالحقّ نلفت نظر القارئ الكريم إلى ثلاث روايات وردت في مصادر أهل السنّة:

١ ـ ينقل الطبراني عن أمّ سلمة زوجة الرسول عن رسول الله ﷺ أنه قال:

عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ لاٰ يَفْتَرِقانِ حَتّىٰ يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ[1].

سؤال: عندما يقول النبي «علي مع القرآن والقرآن مع علي» فماذا يقصد بذلك؟ هل يقصد أن الإمام علي كان يحمل معه القرآن دائماً، أو أن مراده هو أنه ﷺ حافظ للقرآن، أو مراده شيء آخر؟

الجواب: إنّ مراده من هذه الجملة هو أن تفسير القرآن والعلم بآياته ومعارفه موجود لدى عليّ بن أبي طالب ﷺ ولا يفترق عنه وكذلك العمل بمضامينه ودستوراته فإنها تتجسد في سلوكيات أميرالمؤمنين فهو العالم والعامل بالقرآن الكريم، فالعلم في القرآن والعمل به لا ينفكّان عن الإمام علي ﷺ، وهذا في الحقيقة امتياز كبير وفضيلة عظيمة لم ترد في حقّ أي واحد من أصحاب النبي ﷺ.

دعاء النبي ﷺ في حقّ علي ﷺ

٢ ـ وقد أورد الحاكم النيشابوري في كتاب «مستدرك الصحيحين» بسند صحيح ومعتبر عن الإمام علي ﷺ أنه قال:

قالَ: بَعَثَني رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ بَعَثْتَنِي وَأَنَا شابٌّ أَقْضِي بَيْنَهُم وَأَنَا لاٰ أَدْرِي مَا الْقَضاءُ، فَضَرَبَ صَدْرِي ثُمَّ قالَ ﷺ: «اللّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ وَثَبِّتْ لِسانَهُ» فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ[2] ما شَكَكْتُ فِي قَضاءٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ بَعْدُ[3].

---

١. نور الأبصار: ص ٨٩.

٢. يعدّ هذا القَسَم مهماً جداً، ولذا ورد ذكره بكثرة في روايات المعصومين، فعندما تنفتح الحبّة عن نبتة زاهرة

لِي

فطبقاً لهذه الرواية الشريفة فإن الإمام علي عليه السلام كان يقضي بالحقّ دائماً ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وآله له ولم يتفق له أن يشك أو يتردد في مورد من الموارد.

علي عليه السلام أفضل القضاة!

٣ـ جاء شخص إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

عن الصادق عن أبيه عليه السلام: إنّ ثوراً قتل حماراً على عهد النبي صلى الله عليه وآله فرفع ذلك إليه وهو في أناس من أصحابه فيهم أبوبكر وعمر، فقال: يا أبابكر اقض بينهم، فقال: يا رسول الله بهيمة قتلت بهيمة ما عليها شيء. فقال صلى الله عليه وآله: يا عمر اقض بينهم. فقال مثل قول صاحبه. فقال: يا علي اقض بينهم. فقال: نعم يا رسول الله، إن كان الثور دخل على الحمار في مستراحه ضمن أصحاب الثور، وإن كان الحمار دخل على الثور في مستراحه فلا ضمان عليهم. فرفع النبي صلى الله عليه وآله يده إلى السماء فقال: الحمد لله الذي جعل مني من يقضي بقضاء النبيين[4].

فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تأييداً لقضاء الإمام علي عليه السلام في هذا المورد:

«أَقْضاكُمْ عَلِيٌّ»[5].

إن قضاء الإمام علي عليه السلام في هذه الواقعة هو المصداق لما ورد في فقه الشيعة كقاعدة كلية وهي «عندما يكون السبب أقوى من المباشر فالسبب ضامن» وفي القصة المذكورة آنفاً كانت البقرة هي المباشرة للقتل وصاحب البقرة الذي تركها حرة ولم يربطها هو المسبب للقتل، وبما أن السبب أقوى لمكان العقل والشعور وليس للحيوان ذلك العقل والشعور ولهذا فالسبب هو الضامن[6].

من بطن الأرض يكون حالها حال الجنين الذي يخرج من بطن أمّه، فجميع القوانين الحاكمة على ظاهرة ولادة الجنين، حاكمة كذلك على خروج النبتة من الحبّة.

٣. مستدرك الصحيحين (نقلاً عن نور الأبصار: ص ٨٨) حيث نقل الرواية المذكورة عن مستدرك الصحيحين: ج ٣، ص ١٣٥، ولكن مع تفاوت يسير.

٤. قضاء أميرالمؤمنين: ص ١٩٣.

٥. نور الأبصار: ص ٨٨.

٦. كما هو الحال فيما لو دعى صاحب البيت شخصاً لضيافته، وكان في البيت كلب هارٍ يهجم على الغرباء ولم

وطبقاً لما تقدّم فصاحب «الأُذن الواعية» هو الإمام علي عليه السلام الذي لا يفترق عن القرآن الكريم وأعلم المسلمين بأمر القضاء وأفضل الصحابة وأعرفهم بكتاب الله، ومع الأخذ بنظر الإعتبار ما تقدّم فإن الله تعالى إذا أراد أن ينصب شخصاً للخلافة والإمامة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فهل يعقل أن ينصب شخصاً آخر لهذا المقام غير الإمام علي عليه السلام ؟ ولو قلنا بأن هذا المقام يتم باختيار الناس فهل يقرر العقلاء وأصحاب الفكر مع وجود الإمام علي عليه السلام بكلّ هذه الفضائل والصفات السامية، انتخاب غيره لهذه المهمة ؟

نرىٰ أن من اللازم أن نتوجه مرّة أُخرى إلى الله تعالى ونرفع أيدينا بالشكر والثناء من صميم القلب على هذه النعمة العظيمة وهي أن وفقنا لاتباع مثل هذا الإنسان الكامل والعظيم وجعلنا من شيعة الإمام علي عليه السلام وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام ونشكر كذلك آباءنا وأُمهاتنا الذين عرّفونا بالإمام علي عليه السلام وعملوا على تربيتنا بحبّ هذا الإنسان العظيم وولايته ونشكر أيضاً جميع المعلمين والأساتذة والعلماء على طول التاريخ على ما تحمّلوا من أتعاب ومشقّات لكي يرفعوا لواء الولاية في هذا البلد الإسلامي العريق «ايران» ونطلب من الله تعالى أيضاً:

إلهنا، أرزقنا العشق والمودّة الدائمة لهذا الإمام العزيز واحيي قلوبنا وأرواحنا بهذه الولاية والمحبّة واجعل نسلنا وذريتنا إلى يوم القيامة من شيعة الإمام علي عليه السلام الحقيقيين.

ربّنا، اغثنا في اللحظات الحرجة وساعات الإحتضار ومواقف الحشر والقيامة بالإمام علي وأهل بيته الطاهرين.

إلهنا وفّقنا إلى أن نكون في أعمالنا وأقوالنا من أتباع أهل البيت عليهم السلام بحيث ننال بذلك رضاك والمنزلة عندك.

٭٭٭

يخبر صاحب البيت ضيفه بأمر هذا الكلب ولم يهتم لدفع الخطر عن الضيف، فلمّا دخل الضيف إلى البيت هجم عليه الكلب وجرحه، فهنا يضمن صاحب البيت، لأن الكلب وإن كان هو المباشر، وصاحب البيت هو السبب، إلّا أن السبب هنا أقوى من المباشر، فيكون الضمان عليه.



إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ «سورة التحريم / الآية ٤»

أبعاد البحث

الآية الشريفة المذكورة آنفاً هي الآية المعروفة بآية «صالح المؤمنين» وهي من جملة الآيات التي تدلّ باعتراف الشيعة وأهل السنّة على فضيلة أُخرى من فضائل الإمام علي عليه السلام الكثيرة، والحديث عن دلالة هذه الآية على فضيلة أميرالمؤمنين عليه السلام وارتباطها بمسألة الولاية والإمامة سيأتي في الأبحاث اللاحقة بالتفصيل.

شأن النزول

هذه الآية هي الآية الرابعة من آيات سورة التحريم، وقد وردت روايات عديدة في أسباب نزول هذه السورة في كتب الحديث والتفسير والتاريخ عن الشيعة والسنّة انتخبنا أشهر تلك الروايات وأنسبها وهي:

كان رسول الله يذهب أحياناً إلى زوجته (زينب بنت جحش) فتبقيه في بيتها حتّى «تأتي إليه بعسل كانت قد هيّأته له صلى الله عليه وآله ولكن لمّا سمعت عائشة بذلك شقّ عليها الأمر، ولذا قالت: إنّها قد اتّفقت مع «حفصة» إحدى «أزواج الرسول» على أن يسألا الرسول بمجرّد أن

يقترب من أي منهما بأنّه هل تناول صمغ «المغافير»[١] وفعلاً سألت حفصة الرسول ﷺ هذا السؤال يوماً وردّ الرسول بأنّه لم يتناول صمغ «المغافير» ولكنه تناول عسلاً عند زينب بنت جحش، ولهذا أقسم بأنّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرّة أُخرى، (خوفاً من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذّت على شجر صمغ «المغافير») وحذّرها أن تنقل ذلك إلى أحد (لكي لا يشيع بين الناس أنّ الرسول قد حرّم على نفسه طعاماً حلالاً فيقتدون بالرسول ويحرّمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زينب وينكسر قلبها وتتألّم لذلك).

لكنها أفشت السرّ فتبيّن أخيراً أنّ القصة كانت مدروسة ومعدّة فتألّم الرسول ﷺ لذلك كثيراً فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضّح الأمر وتنهى من أن يتكرر ذلك مرة أُخرى في بيت رسول الله ﷺ[٢].

وجاء في بعض الروايات أنّ الرسول ابتعد عن زوجاته لمدّة شهر بعد هذا الحادث[٣]، انتشرت على أثرها شائعة أنّ الرسول عازم على طلاق زوجاته، الأمر الذي أدّى إلى كثرة المخاوف بينهنّ[٤] وندمن بعدها على فعلتهن.

الشرح والتفسير

أصحاب وأنصار النبي ﷺ

نرى من اللازم في تفسير الآية مورد البحث إلقاء نظرة إجمالية على الآيات السابقة لها لتوضيح المراد منها.

بلا شك أن شخصية كبيرة مثل شخصية النبي الأكرم ﷺ لا تتعلق بذاته وشخصه

---

١. «مغافير» صمغ يؤخذ من أشجار الحجاز باسم «عرفط» له رائحة كريهة.

٢. أصل هذا الحديث مذكور في صحيح البخاري: ج ٦، ص ١٩٤، والتوضيحات المذكورة بين الأقواس مقتبسة من مصادر أُخرى (اظر التفسير الامثل: ج ١٨، ص ٤٤٠).

٣. تفسير القرطبي: ذيل الآيات مورد البحث.

٤. تفسير (في ظلال القرآن): ج ٨، ص ١٦٣.

كواحد من الناس بل تتعلق بجميع أفراد المجتمع الإسلامي والمجتمع البشري أيضاً. وعليه فلو واجه مؤامرة في بيته ومن أقرب الناس إليه فإنّ هذه المؤامرة رغم كونها خاصّة ومحدودة بدائرة صغيرة إلّا أن ذلك لا يعني أن تمرّ عليها مرور الكرام ومن موقع عدم الإهتمام فإنّ حيثية النبوّة وهذا المقام العظيم لا ينبغي أن يكون «والعياذ بالله» اُلعوبة بيد هذا وذاك. فلو فُرض أن واجه النبي مثل هذه الحال فلابدّ أن يتعامل مع هذا الموقف بجدية وقاطعيّة لئلّا يسري الأمر إلى موارد اُخرى.

الآيات الاُولى من سورة التحريم في الحقيقة تتضمن أمراً قاطعاً من الله تعالى لنبيّه الكريم أن يتّخذ موقفاً صارماً من هذه الحادثة، ومن أجل حفظ كرامة النبي وحيثيته تقول الآية:

﴿يا أيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾.

ومعلوم أن هذا التحريم لم يكن تحريماً شرعياً بل كما سيأتي توضيحه في الآيات اللاحقة أنه كان بمثابة قَسَم من النبي الكريم ﷺ، ونعلم أن القسم على ترك بعض المباحات لا يعدُّ من الذنوب، وعليه فإنّ جملة «لِمَ تحرّم» لم ترد بعنوان عتاب وتوبيخ بل هو نوع من الشفقة واللطف، كما يقال لمن يتعب نفسه كثيراً في خدمة الآخرين ومن دون أن يعود عليه إلّا بالنفع القليل: لماذا تتعب نفسك كثيراً وتعمل كلّ هذه الأعمال ولا تنتفع منها إلّا القليل؟

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ثمّ إنّ الله تعالى يختم الآية الشريفة بالغفران والرحمة للزوجات اللواتي سببّن وقوع هذه الحادثة فيما لو صدقن في التوبة إلى الله تعالى، أو هي إشارة إلى أنّ الأفضل للنبي الكريم ﷺ أن لا يقسم مثل هذا القسم بحيث يحتمل أن يتسبب في إقدام بعض زوجاته على مستوى الجرأة والجسارة.

وتضيف الآية التالية ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾ وبهذا جعل الله تعالى كفّارة القسم ليتحرر الإنسان من قَسَمه ولا يتورط في الذنب في الموارد التي يكون ترك العمل مرجوحاً «من قبيل الآية مورد البحث» في هذه الصورة يجوز حنث اليمين ولكن لأجل حفظ حرمة اليمين فالأفضل دفع كفّارة.

﴿وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وهو الذي بيّن لكم طريق النجاة والتخلّص من

هذه الأيمان وفتح لكم أبواب حلّ المشكل بحكمته، ويستفاد من الروايات الشريفة أن النبي الأكرمﷺ بعد نزول هذه الآية أعتق رقبة وتحرر من القسم الذي حرّم بواسطته ما كان حلالاً له.

وتتحرّك الآية التي بعدها على مستوى شرح وبيان الواقعة بتفصيل أكثر وتقول:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾.

فهنا تتحدّث الآية الشريفة عن حديث النبي ﷺ لبعض أزواجه في سرّ معيّن ولكنّ هذه الزوجة لم تحفظ السرّ بل أفشته وأعلنت عنه، ولكن ماذا كان هذا السرّ ومن هي الزوجة التي تحدّث النبي معها وأطلعها على هذا السرّ فسوف يأتي في بحث شأن النزول لاحقاً.

ويتّضح من مجموع هذه الآيات القرآنية أنّ بعض نساء النبي ﷺ مضافاً إلى توجيه الإساءة إليه بكلامهنّ فإنّهنّ لم يحفظنّ السرّ معه والذي يعتبر أهم العناصر في العلاقات الزوجية بأن تكون الزوجة وفيّة لزوجها وتحفظ أسراره، ولكننا نرى خلاف ذلك في بيت النبوّة، ومع ذلك فنلاحظ أن سلوك النبي الأكرم ﷺ مع كلّ هذه التعقيدات والمواقف السلبية من بعض زوجاته إلّا أنه لم يكن مستعداً للكشف عن جميع السرّ الذي أفشته زوجته ويوبّخها على ذلك بل اكتفى بالإشارة إلى بعضه فقط «عرّف بعضه وأعرض عن بعض» ولذا ورد في الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين ؑ أنه قال:

ما اسْتَقْصىٰ كَريمٌ قَطُّ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ[1].

ثمّ تتوجه الآية بالخطاب إلى الزوجتين مورد البحث وتقول:

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فلو انتهيتا من إساءة النبي ﷺ وتبتا إلى الله فإنّ ذلك يعود عليكما بالنفع لأنّ قلوبكما قد انحرفت بهذا العمل عن خطّ الحقّ وتلوثت بالذنب.

والمراد بهاتين الزوجتين كما صرّح به المفسّرين من الشيعة والسنّة: «حفصة» بنت عمر

---

١. الميزان: ج ١٩، ص ٣٣٨.

بن الخطّاب و«عائشة» بنت أبي بكر[1]، وبما أن مثل هذه الحالات السلبية تعتبر ظاهرة خطيرة في بيت النبوّة فيما لو تكررت في المستقبل فإنّ الله تعالى يحذّرهما في هذه الآية من الإستمرار في سلوك هذا الطريق الشائن ويقول:

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وهذا التعبير يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن هذه الواقعة قد أضرّت بالنبي الأكرم ﷺ كثيراً وآلمت قلبه الطاهر إلى درجة أن الله تعالى يهبُّ للدفاع عنه، ورغم أن القدرة الإلهية كافية في عملية الدفاع عن النبي إلّا أن القرآن الكريم أضاف إليها حماية جبرئيل والمؤمنين الصالحين والملائكة في دفاعهم عن رسول الله.

من هو صالح المؤمنين؟

إنّ ما يلفت النظر في الآية المذكورة ويقع في البحث هو أنه: ما المراد من عبارة «صالح المؤمنين»؟ هل يقصد بها شخص معيّن، أو أن هذا التعبير شامل لجميع المؤمنين الصالحين؟

بلاشك أن «صالح المؤمنين» له معنى شامل وعام بحسب الظاهر حيث يستوعب جميع المؤمنين الصالحين والمتقين رغم أن كلمة «صالح» قد وردت في هذه الجملة بصيغة المفرد لا الجمع، ولكن بما أنها استعملت بمعنى الجنس فيستفاد منها المفهوم العام، ولكن لاشكّ أن مفهوم «صالح المؤمنين» له مصداق أتمّ وأكمل، ويستفاد من خلال الروايات المتعددة أن هذا المصداق الأكمل والفرد الأتم هو «أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام» وهذا المعنى ذكره الكثير من علماء أهل السنّة في كتبهم ومن ذلك:

١ ـ العلّامة الثعلبي[2].

---

١. يقول ابن عبّاس: «سألت عمر: من اللتان تظاهرتا على النبي من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة. قال: فقلت والله إن كنت لأُريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم فاسألني فإن كان لي علم أخبرتك به، قال: ثمّ قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ النساء أمراً حتّى أنزل الله فيهنّ ما أنزل وقسّم لهنّ ما قسّم.(صحيح البخاري: ج ٦،ص ١٩٥،سورة التحريم).

٢. العمدة لابن بطريق: ص ١٥٢ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١١.

٢ ـ العلّامة الكنجي في كفاية الطالب[١].

٣ ـ أبوحيان الأندلسي[٢].

٤ ـ السبط ابن الجوزي[٣].

٥ ـ السيوطي في الدرّ المنثور[٤].

٦ ـ الآلوسي في روح المعاني[٥].

٧ ـ الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل[٦].

٨ ـ العلّامة البرسوي في روح البيان[٧].

٩ ـ ابن حجر في الصواعق[٨].

١٠ ـ علاء الدين المتقي في كنز العمّال[٩].

وقد ذكر الحاكم الحسكاني الحنفي في ذيل هذه الآية الشريفة «ثمانية عشر رواية» من طرق مختلفة تؤكد على أن المراد بكلمة «صالح المؤمنين» هو علي بن أبي طالب، ونكتفي هنا بذكر ثلاث روايات منها:

١ ـ تقول اسماء بنت عميس إنّني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ[١٠].

٢ ـ وينقل ابن عبّاس عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

---

١. كفاية الطالب: ص ٥٣ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١١.

٢. البحر المحيط: ج ٨، ص ٢٩١ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١٢.

٣. التذكرة: ص ٢٦٧ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١٢.

٤. الدرّ المنثور: ج ٦، ص ٢٤٤ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١٣.

٥. روح المعاني: ج ٢٨، ص ١٣٥ نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٣١٤.

٦. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٥٤ بعد.

٧. روح البيان: ج ١٠، ص ٥٣.

٨. نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٢٩٩.

٩. نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٢٩٩.

١٠. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٥٦، ح ٩٨٢.

هُوَ صالِحُ الْمُؤْمِنينَ[١].

٣ـ ويقول عمّار ابن ياسر إنّي سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

أَلا أُبَشِّرُكَ؟ قُلْتُ: بَلىٰ يا رَسُولَ اللهِ وَما زِلْتَ مُبَشِّراً بِالْخَيْرِ! قالَ: قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فيكَ قُرآناً. قُلْتُ: وَما هُوَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: قُرِنْتَ بِجَبْرَئيلِ ثُمَّ قَرَأَ: وَجِبريلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنينَ...[٢]

وخلاصة الكلام أن الروايات الواردة في هذا المورد كثيرة وقد ذكر المفسّر المعروف «البحراني» في تفسيره «البرهان» بعد أن ذكر رواية في هذا المجال عن محمّد بن عبّاس أنه نقل ٥٢ حديثاً وروايةً حول هذا الموضوع من طرق الشيعة وأهل السنّة ثمّ نقل بعض هذه الأحاديث.

والنتيجة هي أن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يعتبر أفضل ناصر ومعين لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد الله تعالى وجبرئيل الأمين، وعليه فمن يكون مؤهلاً لمقام الخلافة والإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله غيره؟ ألا تعتبر هذه الروايات دليلاً على أن علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل أفراد الأمّة وأعلاهم شأناً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وإذا كان هكذا وأراد الله تعالى أن ينصب شخصاً لمقام الخلافة والإمامة بعد النبي الأكرم فهل تسمح الحكمة الإلهية بأن يختار الله تعالى شخصاً آخر غيره لهذا المقام؟ وإذا أراد الناس والعقلاء أن يختاروا لهم شخصاً لحيازة هذا المقام المهم فهل يسمح العقل السليم أن يختاروا شخصاً غير من كان أفضل ناصر ومعين لنبي الإسلام بعد الله وجبرئيل؟

أجل، فإنّ الإمام علي عليه السلام كان يعيش النصرة الدائمة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في جميع المواقف والأحداث والميادين وأنه الأولى بحيازة مقام الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

١. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٥٨، ح ٩٨٧.

٢. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٥٩، ح ٩٨٩.

توصية الآية

نستوحي من عبارة «صالح المؤمنين» أن الآية الشريفة توصي الجميع بالايمان والصلاح والخير، وتوصي جميع أتباع أميرالمؤمنين أن لا يتوقفوا على عتبة «قبول الإسلام» بل يتحركوا من موقع تعميق الايمان بالله وباليوم الآخر وأن يمتد هذا الايمان إلى أعماق وجدانهم وقلوبهم ويتجسد على مستوى الجوارح وممارسة الأعمال الصالحة ليكونوا من صالح المؤمنين.

ﮔﮕ



١٣ آية الإنذار والهداية

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ «سورة الرعد / الآية ٧»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة أيضاً من الآيات المتعلّقة بولاية وإمامة أميرالمؤمنين عليه السلام حيث بحث فيها العلماء والمفسّرون أبحاثاً متنوعة، ويستفاد من الروايات أنها تدلُّ مضافاً إلى ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام ولاية وإمامة جميع الأئمّة المعصومين عليهم السلام كما سيأتي تفصيل ذلك في الأبحاث القادمة.

الشرح والتفسير

ذرائع مختلفة

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ والظاهر من هذه الآية الشريفة أن الكفّار طلبوا هذه المرّة أمراً منطقياً لأنّ كلّ نبي لابدّ له لإثبات حقانيّته وأنه مرسل من الله تعالى من معجزة يثبت فيها هذا الإدعاء، وهنا طلب الكفّار معجزة من نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ويجيبهم الله تعالى على طلبهم المعقول هذا بقوله:

﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾.

تناسب صدر الآية وذيلها

سؤال: هل هناك تناسب وانسجام بين صدر الآية الشريفة وذيلها؟ وهل أن الجواب على طلب المشركين من النبي بأن يأتيهم بآية ومعجزة هو «إنّما أنت منذر...»؟

الجواب: لأجل العثور على الترابط بين صدر الآية وذيلها لابدّ من مراجعة الآيات الأُخرى التي تتحدّث عن طلب الكفّار للمعجزة من النبي الكريم ﷺ.

ويحدّثنا القرآن الكريم في الآيات ٩٠ ـ ٩٣ من سورة الإسراء على لسان المشركين:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ هنا يقول الكفّار بإننا لن نؤمن لما تقول حتّى تأتينا بمعجزة، ثمّ طلبوا منه سبع معاجز كما نريد ونشتهي، أي أن المعجزات التي تأتي بها من دون أن تكون مطابقة لميلنا ورغبتنا فلا فائدة فيها، بل لابدّ أن تكون المعجزة حسب رغبتنا وميلنا[١].

ويستفاد من ظاهر الآية أنهم ذكروا سبع معاجز في دائرة طلبهم وتوقعهم من النبي، والظاهر أن هذا الطلب صدر من أشخاص متعددين كلٌّ واحد منهم طلب معجزة معيّنة:

١ ـ ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ فأوّل معجزة طلبوها من النبي الأكرم ﷺ هو أن يفجر لهم في أرض الحجاز وصحراءها المحرقة عيناً تفيض بالماء الزلال وتفور بالمياة العذبة ليشرب منها الناس ودوابهم ويسقون مزارعهم.

٢ ـ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً﴾ وهذه المعجزة أيضاً لها بعد في إحياء الأراضي الميّتة وعمران المنطقة من خلال إيجاد بساتين مليئة بأشجار العنب والنخيل وتجري من خلالها المياه.

٣ ـ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ وهنا نرى طلباً غير معقول وهو أنهم أرادوا من النبي أن يدعو الله تعالى لإنزال العذاب عليهم على شكل مطر من الأحجار السماوية لهلاكهم، وهذا الطلب إذا تحقّق فإنهم سيؤمنون ويذعنون لدعوة النبي.

٤ ـ ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ وهكذا نرى إنّ الإنسان عندما يصل به العناد واللجاجة إلى أعلى المراتب لا يلتفت إلى ما يقول، فهؤلاء لم يقولوا: إذهب بنا إلى الله

---

١. انظر تفصيل شأن النزول لهذه الآيات في التفسير الامثل: ج ٧ ذيل الآية.

والملائكة بل طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي إليهم بالله والملائكة ويحضرهم عندهم.

٥ ـ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ والطلب الخامس لإثبات النبوّة أنهم أرادوا أن يبني النبي لنفسه قصراً مجللاً بالذهب والزخارف والنقوش، لأن سكّان مكّة كانوا فقراء غالباً فلو أنك كنت تملك مثل هذا القصر العظيم والجذّاب فهذا يدلُّ على أنك مرسل من الله تعالى.

٦ ـ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ والذريعة السادسة هي أنهم طلبوا من النبي لإثبات صدق دعواه أن يطير في السماء أمام أعينهم ليذعنوا للحقّ ويؤمنوا بدعوته.

٧ ـ ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ وتمادى بعض الكفّار في عنادهم ولجاجتهم وطلبوا من النبي مضافاً إلى طيرانه في السماء أمام أعينهم عليه أن يأتيهم بكتاب من الله إليهم ليقرؤوه.

وكما ترون أن هذه المعاجز السبعة المذكورة في الآية الشريفة تتعلّق بعضها بعمران وإحياء الأرض، وبعض آخر تتضمن الهلاك والموت لهؤلاء المعاندين والمغرورين، والقسم الثالث يتضمن أعمال غير معقولة وغير منطقية، والقسم الرابع لا يتعدّىٰ أن يكون مجرد ذريعة واهية وليس طلباً حقيقياً.

لو كان الأنبياء يتحرّكون في تعاملهم مع أقوامهم من موقع القبول لكلّ مقترحاتهم والإتيان بالمعجزات كما يرغبون فإنّ بعض الجهلاء والمعاندين والمتذرّعين سيطلبون كلّ يوم معجزة من نبيّهم وسيكون الدين الإلهي ملعبة بأيديهم، ولهذا فإن الله تعالى كان يعطي لكلّ نبي من الأنبياء معجزة أو معجزات عديدة لبيان حقّانيته وإثبات رسالته ولا يهتم لمطالبات مثل هؤلاء الأشخاص اللجوجين.

ومع الإلتفات إلى هذا المقدمة المطوّلة نعود إلى الآية الشريفة حيث تقول الآية ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

وفي الجواب على هذا الطلب المعقول حسب الظاهر يمكن القول: إنّ نبي الإسلام قد أتىٰ بالمعجزة من الله تعالى بحيث عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثلها كما تصرّح الآية ٨٨ من هذه السورة:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

فعندما جاء النبي ﷺ لهم بمعجزة من الله تعالى لن يتمكنوا من الإتيان بمثلها مضافاً إلى معجزات أُخرى، فلا معنى لطلبهم معجزة أُخرى من النبي الكريم، ولذلك أمر الله تعالى أن يقول في جوابهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فمسؤوليتك هي الإنذار والتحذير وليست الإتيان بالآية والمعجزة فإننا نحن الذين نقرر شكل المعجزة وكيفيتها، ولكلّ قوم شخص يهديهم إلى الحقّ.

وعلى هذا الأساس يتّضح التناسب والإنسجام بين صدر الآية وذيلها.

من هو المنذر والهادي؟

ولغرض توضيح معنى هاتين المفردتين يمكننا البحث في هذا الموضوع من طريقين:

الأوّل: تفسير الآية بدون ملاحظة الروايات

فهل تعني هذه الآية الشريفة أن النبي الأكرم ﷺ هو «المنذر» وهو «الهادي»؟ أو أنه منذر فقط والهادي شخص آخر؟

وهنا توجد ثلاث نظريات في تفسير هاتين الكلمتين:

١ ـ يرى البعض أن هاتين الكلمتين تعودان كلاهما إلى النبي الأكرم ﷺ، فهو المنذر وهو الهادي في نفس الوقت.

ولكن الإنصاف إن هذا القول مجانب للصواب ولا ينسجم مع ظاهر الآية ولا يتناسب مع أجواء الفصاحة والبلاغة في اللغة العربية، لأنّ هاتين الكلمتين لو كانتا تعودان على شخص واحد فمقتضى الفصاحة والبلاغة أن تقول الآية:

﴿أَنتَ لِكُلِّ قَوْمٍ مُنذِرٌ وَهَادٍ﴾ لا أن تكون كلمة «هادٍ» في جملة مستقلة ومنفصلة عن الجملة الأولى، وعليه فإنّ الظاهر من الآية أن تكون كلمة «هادٍ» متعلّقة بشخص آخر غير نبي الإسلام ﷺ حيث ينبغي استكشافه من خلال القرائن والشواهد الأُخرى.

٢ ـ وذهب آخرون إلى أن «المنذر» يعود إلى النبي الأكرم ﷺ بينما «الهادي» يعود إلى الله تعالى، فالنبي هو المنذر للناس، والله تعالى هو الهادي لكلّ قوم إلى الصراط المستقيم وطريق الحقّ.

ولكن يمكن أن يقال في مقام الجواب أن هذه النظرية أيضاً لا تنسجم مع ظاهر الآية الشريفة لأن كلمة «هادٍ» وردت في هذه الآية «نكرة» في حين أن الله تعالى هو أعرف المعارف وأجلى ما يكون عن الخفاء والتنكير، مضافاً إلى أن ظاهر الآية يدلُّ على وجود «هادٍ» لكلّ قوم من الأقوام السالفة لا أن الهادي لجميع الأقوام هو شخص واحد، وعليه فإنّ هذا التفسير لا يتناسب مع أجواء الآية الشريفة.

٣ـ هو أن يقال بأن الهادي شخص آخر غير الله تعالى وغير نبيّه الكريم، فهل يمكن أن يكون المقصود بهذه الكلمة هم العلماء من كلّ قوم وطائفة ؟ كلا، لا يمكن أن يكون المقصود هو العالم من كلّ قوم، لأن كلمة «هادٍ» وردت نكرة كما تقدّم، والنكرة تدلُّ على الوحدة، أي أن لكلّ قوم وطائفة هادٍ واحد من الناس، فمن هو هذا الشخص الهادي للأُمّة الإسلامية ؟

ومع الأخذ بنظر الإعتبار بمجموع ما تقدّم من أبحاث في تفسير هذه الآية يمكن القول في شرح معناها والمراد منها كما يلي:

«أيُّها النبي: أنت المنذر والمؤسس للرسالة الإسلامية والدين الإسلامي ولكلّ دين هناك شخص بمثابة الحافظ والحارس لهذا الدين والذي يأخذ بعهدته هداية الناس إلى الله تعالى وسوقهم إلى الحقّ».

ومن جهة أُخرى فإنّ اتحاد السياق يقتضي أن يكون تعيين هذا الهادي ونصبه من قبل الله تعالى، كما أن المنذر وهو النبي الأكرم ﷺ معيّن ومنصوب من الله تعالى.

وعلى هذا الأساس فإنّ الهادي لا يقصد به الله تعالى أو النبي أو علماء الأُمّة بل يجب أن يكون شخصاً آخر معيّناً ومنصوباً من قبل الله تعالى.

ومن جهة ثالثة فإنّ الشخص الوحيد الذي ورد في حقّه نصٌّ صريح من رسول الله ﷺ على ولايته وإمامته هو الإمام علي عليه السلام ولا يوجد نصٌّ في هذا الشأن لغيره من الصحابة، وحتّى أن علماء أهل السنّة لم يدّعوا مثل هذا الإدعاء، وعليه فلو قلنا أنّ «المنذر» هو رسول الله و «الهادي والإمام» هو الإمام علي عليه السلام المنصوب لهذا المقام من قبل الله تعالى وبواسطة نبيّه الكريم فإنّ هذا المعنى يتناسب مع أجواء الآية الشريفة.

الطريق الثاني: تفسير الآية بملاحظة الروايات الشريفة

وهناك روايات عديدة ناظرة إلى بيان المراد من هذه الآية الشريفة حيث نشير هنا إلى خمسة نماذج منها، ثلاثة منها من مصادر وكتب أهل السنّة ورواية واحدة من مصادر الشيعة، أما الرواية الخامسة فمذكورة في كتب الفريقين.

١ ـ يقول ابن عبّاس الراوي والمفسّر المعروف:

لَمّا نَزَلَتْ ﴿أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَىٰ صَدْرِهِ، فَقالَ: أَنَا الْمُنْذِرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ عَلَىٰ مِنْكَبِ عَلِيٍّ، فَقالَ: أَنْتَ الْهادِي يا عَلِيّ، بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ مِنْ بَعْدِي[1].

هذه الرواية الشريفة مذكورة في مصادر أهل السنّة وهي صريحة على أن المقصود بـ«الهادي» هو علي ابن أبي طالب عليه السلام.

٢ ـ وجاء في كتاب «شواهد التنزيل»[2] و«الدرّ المنثور» عن أبي برزة الأسلمي أنه قال:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ صَدْرِ نَفْسِهِ، ثُمَّ وَضَعَها عَلَىٰ صَدْرِ عَلِيٍّ وَيَقُولُ ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾[3].

وهذه الرواية أيضاً مذكورة في كتابين من الكتب المعتبرة لدى أهل السنّة، وقد رواها شخص آخر غير ابن عبّاس ونجد أنها تصرّح بأن «الهادي» هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣ ـ وجاء في كتاب «مستدرك الصحيحين» المعروف لدى علماء أهل السنّة، رواية في تفسير الآية المذكورة عن الإمام علي عليه السلام نفسه:

عَنْ عَلِيٍّ: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ قالَ عَلِيٌّ: رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُنْذِرُ وَأَنَا الْهادِي[4].

وطبقاً لهذه الرواية المذكورة في كتاب آخر من كتب ومصادر أهل السنّة المعروفة أن الإمام علي عليه السلام هو الهادي.

---

١. الدرّ المنثور: ج ٤، ص ٤٥.

٢. شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٩٨.

٣. الدرّ المنثور: ج ٤، ص ٤٥.

٤. مستدرك الصحيحين: ج ٣، ص ١٢٩.

سؤال: من المعلوم في علم الدراية والحديث أن الراوي لو روىٰ حديثاً يتضمن مدحه والثناء عليه فإنّ هذه الرواية لا تكون مقبولة، فكيف يمكن الإستدلال بالرواية المذكورة آنفاً على المطلوب والحال أن الراوي هو الإمام علي عليه السلام نفسه؟

الجواب: إنّ هذا الكلام صحيح بالنسبة إلى غير المعصومين، ولكن بالنسبة إلى المعصومين الذين لا يتصور في حقّهم الخطأ والذنب فغير صادق، والإمام علي عليه السلام باعتقاد جميع الشيعة معصوم، وكذلك يرى أهل السنّة أن الأحاديث والروايات الواردة عن جميع الصحابة وأحدهما الإمام علي عليه السلام، حجّة ودليلاً شرعياً، وعليه فالإشكال المذكور مردود وغير وارد لدى كلا الفريقين.

٤ ـ ما ورد في مصادر الفريقين العامّة والخاصّة من حديث الإسراء حيث رواه أهل السنّة عن ابن عبّاس[١] ورواه علماء الشيعة عن ابن مسعود، ويروي هذان عن رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الرواية، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

لَمّا أُسْرِيَ بي إلَى السَّماءِ لَمْ يَكُنْ بَيْني وبَيْنَ رَبّي مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا حاجَةٌ سَأَلْتُ إلّا أَعْطاني خَيْراً مِنْها، فَوَقَعَ في مَسامِعي ﴿إنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ فَقُلْتُ: إلٰهي أَنَا الْمُنْذِرُ، فَمَنِ الْهادي؟ فَقالَ: يا مُحَمَّد ذاكَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ غايَةُ الْمُهْتَدينَ، إمامُ الْمُتَّقينَ، قائِدُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلينَ[٢]، وَمَنْ يَهْدي مِنْ أُمَّتِكَ بِرَحْمَتي إلَى الْجَنَّةِ[٣].

هذه الرواية الجذّابة والشيقة تبيّن بجلاء تطبيق الآية محل البحث على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام في السماء.

---

١. شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٩٦.

٢. جملة «قائد الغرّ المحجلين» ورد في روايات عديدة. و«الغرّ» جمع «أغرّ» وهو الأبيض النوراني، ويقال للشخص ذي الوجه النوراني «أغرّ»، وأما «محجّل» فمن «حَجَل» وهو نوع من الطير الأبيض، ثمّ اطلق على الفرس الأبيض، ثمّ على كلّ شخص ذي سمعة طيبة ومكانة مرموقة في المجتمع، وعليه فيكون معنى الجملة «قائد الوجهاء والشخصيات الراقية في المجتمع».

٣. تفسير فرات الكوفي: ص ٧٨.

توصيات آية الولاية والإنذار

هذه الآية الشريفة لا تقتصر على بيان بعض البحوث الإعتقادية والتاريخية، بل تتضمن توصيتان لجميع المسلمين والشيعة في عصرنا الحاضر وتفتح لهم أبواب الحياة الكريمة والعقيدة السليمة في هذا الزمان وجميع الأزمنة وبإمكانها فيما لو جسّدها الإنسان على مستوى الممارسة والعمل أن تحلّ كثيراً من مشكلاته في حركة الحياة:

١ ـ التعصّب هو الحجاب والمانع !

يستفاد من المقطع الأوّل لهذه الآية الشريفة أن الإنسان لا يمكنه أن يصل بأدوات التعصّب واللجاجة إلى أي مرتبة من مراتب المعرفة والكمال الإنساني، فلو أراد الإنسان أن يدرك الحقّ والحقيقة فينبغي عليه أن يتحرّك في خطّ الحقّ من موقع التسليم والإذعان لا من موقع التفسير بالرأي وتحكيم الآراء المسبقة وإتّباع الأهواء النفسية، ولهذا نرى أن الآيات القرآنية والروايات الشريفة قد نهت بشدّة عن «الجدال بالباطل» وحذّرت من عاقبة إتّباع هذا الطريق المنحرف للوصول إلى الحقّ، حيث يقول القرآن الكريم في الآية الثالثة من سورة الحجّ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾.

فالمجادلة بالباطل في هذه الآية الشريفة قد جعلت رديفاً لإتباع الشيطان المريد، وهذا يعني أن الإنسان إذا صار في خطّ الجدل والمراء وتعامل في حواره مع الآخرين بلغة التعصّب والإبتعاد عن المنطق فإنه يكون قرين «الشيطان المريد».

ونقرأ في الروايات الإسلامية ما يؤكد هذا المضمون من أن أحد الحجب والموانع المهمة للإيمان والوصول إلى مرتبة اليقين هو الجدال بالباطل والمناقشة مع الطرف المخالف بلغة الإتهام وعدم التمسك بالبرهان المنطقي والعقلاني، فقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ قوله:

«ما ضَلَّ قَوْمٌ إلّا أَوْثَقُوا الْجِدالَ»[1].

---

١. بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٣٨.

فطبقاً لهذه الرواية الشريفة أن العامل الوحيد للضلالة والإبتعاد عن الحقّ هو البحث غير المنطقي والجدال من موقع الخصومة والتعصّب المذهبي.

سؤال: لماذا كانت جميع أسباب وعوامل الضلالة والزيغ تمتد بجذورها إلى الجدال بالباطل؟

الجواب: لأن الإنسان لو وجد في نفسه إذعاناً وتسليماً للحقّ فإنّ الدعاة إلى الحقّ كثيرون في هذه الدنيا وبإمكان الإنسان أن يجد طريق الهداية والإيمان الصحيح بيسر وسهولة، وقد ورد أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في جوابه لهارون الرشيد عندما طلب منه الموعظة والنصيحة قال:

«مَا مِنْ شَيءٍ تَرَاهُ عَيْنَاكَ إلاّ وَفِيهِ مَوْعِظَةٌ»[1].

أي أن جميع ما في الأرض من كائنات ومخلوقات وظواهر طبيعية هي في الحقيقة موعظة لمن فتح قلبه على الله والحقّ، فالسماء بكلّ ما تحوي مجرّات عظيمة وشموس منيرة ما هي إلاّ موعظة، ظاهرة الزمان والمكان موعظة، الحوادث المفرحة والمرّة موعظة، أجل فكلّ هذه الأمور تكون موعظة بشرط أن يتمتع الإنسان بأُذنٍ واعية وعينٍ بصيرة وفؤاد حيّ.

وتأسيساً على هذا فإنّ الحقّ لا يخفى على طلّاب الحقّ وعشّاق الحقيقة، ومن وقع في وادي الضلالة والإنحراف فإنه يعاني من مشكلة في واقعه النفساني قبل كلّ شيء وبالتالي يعيش مرض الجدال بالباطل.

وقد أتّضح ممّا تقدّم أنه لا تفاوت بين المباحث والمواضيع الدينية والأخلاقية والسياسية وأمثال ذلك، فمثلاً ما نقرأه في الصحف والإعلام حول المسائل السياسية يتدخل فيه هذا العنصر بالذات، أي أن كلّ طرف من الأطراف المتنازعة لا يريد أن يذعن ويسلّم للحقّ بل يريد أن يحكّم رأيه ويفرض نظره على الآخرين بعيداً عن معايير الحقّ والإنصاف، وإلاّ فإنّ تشخيص الحقّ في المسائل السياسية لا يكون مشكلاً وعسيراً أيضاً، ولكن عندما تتدخل المسألة في إطار التعصّب المذهبي والمنافع الشخصية والحزبية فإنّ

---

١. ميزان الحكمة: باب ٤١٢٠، ح ٢١٧١١.

الإنسان يبتعد عن أجواء الحقّ وسيختفي نور الحقّ بغشاوة سميكة من ظلمات الأهواء النفسانية.

ونقرأ في رواية أُخرى عن أميرالمؤمنين ومولى المتقين أنه قال:

«اَلْجَدَلُ فِي الدِّينِ يُفْسِدُ الْيَقِينَ»[1].

لأن الإنسان عندما يعيش حالة الجدل الدائم مع الآخرين فتدريجياً يطرح رغباته وميوله وأفكاره الشخصية المستوحاة من الأهواء النفسية في لباس الدين والمذهب ويتصور أن هذا الرأي ما هو إلّا قراءة سليمة للدين وللمفاهيم القرآنية.

والخلاصة أنه ورد النهي الشديد والأكيد في الآيات والروايات الشريفة عن الجدل بالباطل، وأما الجدل بالحقّ والحوار المنطقي والهادف والذي يقوم على أساس الأدلّة والبراهين العقليّة ويكون الهدف منه هو إيضاح الحقيقة واستجلاء كوامن الحقّ من دون أن تكون رغبة لدى الطرفين في الإستعلاء والغلبة والتفوق على الخصم فإنّ مثل هذا الجدال والحوار ليس فقط لا إشكال فيه بل هو مأمور به من قبل الله تعالى، حيث نقرأ في الآية ١٢٥ من سورة النحل قوله:

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢ ـ الإقتداء بالهادي

والتوصية الثانية للآية الشريفة والتي تستفاد من المقطع الثاني لها هي أن المسلمين لو أرادوا الهداية إلى الله تعالى والسير في خطّ التقوى والايمان فلابدّ أن يتّخذوا الإمام علي عليه السلام قدوة وعلى أساس من كونه «هادياً» للمسلمين.

الإمام علي عليه السلام في أخلاقه وسلوكياته وأقواله وكتبه المشحونة بالمعارف العالية والمفاهيم السامية وكلماته القصار المليئة بالموعظة والحكمة، وتاريخ حياته المليء بالدروس والعبر، وآداب معاشرته وأخلاقه الجذّابة مع الآخرين، ومديريته القوية والرصينة،

---

١. ميزان الحكمة: باب ٤٩٢، ح ٢٢٨٥.

وأسلوب تعامله وتفاعله مع الأحداث والأشخاص والأقوام من الداخل والخارج، وأخيراً إرشاداته وتعلياته الإنسانية كلّها يمكن أن تكون أُسوة وقدوة لجميع المسلمين في حركتهم الدنيوية وسلوكهم المعنوي في خطّ التكامل الأخلاقي والإلهي.

ونحن الذين ندّعي الولاية لهذا الإمام العظيم وندّعي أننا من أتباعه فما هو مقدار الفاصلة بين حياتنا وتعاملنا وأفكارنا مع حياة ذلك الإمام وأفكاره وأخلاقه؟ لنرىٰ طعام الإمام علي ﷺ كم كان زهيداً وبسيطاً، ولباسه في أوج اقتداره وحكومته كم كان رخيصاً وساذجاً، فهل أن زخارف الدنيا وتجملاتها استطاعت أن تقيّد الإمام علي ﷺ وهو في أعلى مواقع القدرة بحبائلها وأن تؤسره بأسلاكها، بل نقرأ في التواريخ أن تشييع الإمام ومراسم تكفينه ودفنه كانت بسيطة للغاية، ولكن مع الأسف أنّ بعض من يدّعي أنه شيعة علي ﷺ يعيش في عالم الزخارف الدنيوية البرّاقة وقد أصبح أسيراً لاحابيلها الموهومة، بل إنّ المراسم التي تجرى لهم بعد وفاتهم من بذل الطعام ومجالس الفاتحة والعزاء مليئة بالمظاهر البرّاقة ومشحونة بعناصر الهوىٰ والفخفخة بحيث لا نجد شبهاً بينها وبين مجالس العزاء الحقيقية بل قد تنفق في هذه المجالس ملايين الدنانير من دون أن تكون الدوافع سليمة والغايات إلهية.

وقد سمعت قبل مدّة خبراً قد يكون مفرحاً من جهة ومثيراً للقلق من جهة أُخرى، وهو:

«مات أحد الأشخاص فقرر أولياء الميت وأبناؤه أن ينفقوا مصارف مجلس العزاء ومراسم الفاتحة على الأُمور الخيرية، فجلسوا لمحاسبة نفقات مجلس العزاء هذا فتبيّن أنه قد يصل إلى خمسة ملايين تومان، فقرّر هؤلاء الأبناء أن ينفقوا هذا المبلغ على البنات من العوائل الفقيرة لكي يأمّنوا لهم جهاز العرس وأثاث البيت الزوجي بدلاً من صرفه على مجلس العزاء والفاتحة، فكان هذا المبلغ يكفي لتجهيز عشرة بنات، أي يكفي لتكوين عشر عوائل جديدة ومحتاجة».

هذا الخبر هو مقلق ومثير للتشويش من جهة المبالغ الطائلة التي تصرف على مجالس العزاء هذه، ومن جهة أُخرى مفرح ومثير للإرتياح والإنبساط بأن يقوم أولياء الميت وورثته بخطوة مهمة مستوحاة من العقل والوجدان ويقرّروا إنفاق ذلك المبلغ الكبير على أُمور خيرية وإنسانية.

ما المانع من أن يقوم المسلم بإنفاق مثل هذه المبالغ الكبيرة على أُمور إنسانية وموارد خيرية بدلاً من بذلها لمظاهر خاوية وتشريفات زائفة؟

عزيزي القارئ: إنّ توفير مقدّمات الزواج للشباب المحتاجين ليست وظيفة وتكليف الوالدين فقط بل هو تكليف عام لجميع المسلمين كما تقول الآية الشريفة:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[١].

فهذه الوظيفة في الحقيقة تتعلق بجميع أفراد المجتمع، ولا يقتصر الحال على مسألة الزواج بل سائر المشكلات والمعضلات التي تواجه الشباب والفتيات في مجتمعاتنا الإسلامية حيث ينبغي أن نمدُّ لهم يد العون ونسعى في حلّ مشاكلهم والتخفيف من آلامهم وهمومهم في حركة الحياة من قبيل مشكلة «العطالة» التي تمثل العامل المهم لكثير من المفاسد الإجتماعية، وكذلك مشكلة «المسكن» ومشكلة «التحصيل الدراسي» وأمثال ذلك.

ينبغي علينا وبالإلهام من سيرة أميرالمؤمنين عليه السلام أن نتحرر من قيود وأسر التشريفات والظواهر البرّاقة والإبتعاد عن منزلقات الزخارف الدنيوية ونعيش البساطة والطهارة والنقاء في الحياة الفردية والإجتماعية بل يجب على الحكومة الإسلامية مضافاً إلى توفير المناخ المناسب لمثل هذه السلوكيات والقيم الأخلاقية والثقافية لجميع أفراد المجتمع أن يقوم المسؤولون أنفسهم بالعمل بهذا المبدأ المقدّس لكي يمكنهم في حال إصلاح هذه الأزمة الإجتماعية والإدارية، إصلاح قسم مهم من الفساد الإقتصادي والتخلف الإجتماعي الذي تعاني منه البلدان الإسلامية وبالتالي يتسنّى للمسلمين التخلص من التبعية للأجنبي والإستعمار الذي لا يفكر إلّا في مصالحه الشخصية ومنافعه المادية، ونستطيع إن شاء الله ببركة ذلك الإمام الهمام أن نحفظ عزّة وكرامة الأمّة الإسلامية ونحلّ مشكلاتها.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاستماع قول الحقّ ويرزقنا أُذناً واعية لفهم هذه التعليمات المهمة الواردة في دائرة المفاهيم القرآنية ثمّ يوفقنا لتجسيد هذه المفاهيم على مستوى العمل والتطبيق والإستفادة من ثمراتها الكثيرة وبركاتها العميمة إنه أرحم الراحمين... آمين يا ربّ العالمين.

---

١. سورة النور: الآية ٣٢.



إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

«سورة البيّنة / الآية ٧ و ٨»

أبعاد البحث

هذه الآية الشريفة أيضاً من الآيات التي تتعلّق بموضوع الإمامة والخلافة، وتدلّ بدقائق عباراتها الظريفة على أحقيّة مقام الإمامة والخلافة للإمام علي عليه السلام، ولا يوجد فيها اختلاف على مستوى السياق والمدلول «خلافاً للآيات السابقة» وأما كيفية الإستدلال بهذه الآية لإثبات الولاية والإمامة فيحتاج إلى دقّة وتدبّر خاصّ كما سيأتي بيانه لاحقاً.

الشرح والتفسير

أفضل المخلوقات وشرّها

من أجل إيضاح المراد من الآية الشريفة «آية خير البريّة» واستجلاء المفهوم منها نرى من الضروري أن نشرع بشرح الآية السادسة من سورة البيّنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين لم يقبلوا بالإسلام وكذلك المشركون وعبادة الأوثان يشتركون في العاقبة والمصير الأُخروي فجميعهم يردون جهنم خالدين فيها.

﴿أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

وهذا هو السبب في أنهم مخلّدون في نار جهنم، وكأن هذه الجملة وردت في مقام الدليل لبيان سبب خلود هؤلاء في نار جهنم[1].

ويستفاد من الآيات السابقة لهذه الآية الشريفة أن هؤلاء ليسوا من الكفرة العاديين بل هم طائفة من الكفّار الذين فهموا الرسالة الإلهية واتّضحت لديهم الحجّة والبيّنة وعلموا بحقّانيّة الإسلام والرسالة السماوية ولكنّهم مع ذلك أصرّوا على عنادهم ولجاجتهم وانطلقوا في عداءهم مع الحقّ والعدل من موقع الخصومة والعدالة، وعليه فإنّ هذه الآية لا تشمل كلُّ الكفّار والمشركين وأهل الكتاب حتّى لو تحرّكوا في خطّ الباطل والكفر من موقع الجهل والغفلة، فالخطأ الذي ينطلق من موقع الغفلة والإندفاع العفوي ليس كالخطأ الذي ينطلق من موقع التمرّد والجحود مع وعي الموقف ووضوح الرؤية.

وبعد أن ذكرت الآية الشريفة شرّ المخلوقات تحرّكت الآية التي بعدها لبيان أفضل المخلوقات وقالت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

فقد ذكرت هذه الآية الشريفة لأفضل مخلوقات الله ثلاث صفات وخصوصيات:

١ ـ «الَّذِينَ آمَنُوا» فالخصوصية الأولى لهؤلاء هي إيمانهم بالله تعالى والنبي الأكرم ﷺ ويوم القيامة، وعليه فإنّ المشركين وجميع الأشخاص الذين لا يدينون بدين الإسلام خارجون عن هذه الدائرة ولا يتّصفون بهذه الصفة الكريمة.

---

١. عبارة «أُولئك هم شرّ البريّة» عبارة قارعة مثيرة، وتعني أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أقل وأسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحقّ وإتمام الحجّة وساروا في طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿إنّ شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون﴾ الأنفال: ٢٢. وكذلك في قوله سبحانه يصف أهل النار: ﴿أُولئك كالأنعام بل هم أضلّ أُولئك هم الغافلون﴾ الأعراف: ١٧٩. وهذه الآية مورد البحث تذهب في وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا تذهب إليه غيرها، لأنها تصفهم بأنهم شرّ المخلوقات. (التفسير الامثل: ج ٢٠، ص ٣٦٤، ذيل الآية).

٢ ـ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخصوصية الثانية للأشخاص الذين هم «خير البريّة» هو أنهم يتحرّكون في واقعهم الإجتماعي من موقع العمل الصالح الذي يستوحي مقوّماته من الايمان والإعتقاد في عالم القلب والروح.

«العمل الصالح»[1] يتضمن معنىً عاماً وشاملاً، وقد ورد في الروايات الشريفة أن أدنىٰ مرتبة له هو «إِمَاطَةُ الْأَذىٰ عَنِ الطَّرِيقِ» وأعلى مرتبة له هو اعتناق دين الحقّ والشهادة بالتوحيد «وَأَعْلاٰهَا شَهَادَةُ أَنْ لاٰ إِلٰهِ إِلّا اللّٰه»[2].

والخلاصة أن الصفة الثانية لهؤلاء هي أنهم يعملون الأعمال الصالحة.

٣ ـ ﴿ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ الخصوصية الثالثة لهؤلاء الأشخاص هي أنهم يتمتعون بمقام «الخشية» من الله تعالى، فضافاً للإيمان والعمل الصالح فإنهم يعيشون حالة الخشية والخضوع والإذعان للحقّ تعالى والتسليم لأوامره وتعليماته.

سؤال: هل أن «الخشية» هي شيء آخر غير الايمان والعمل الصالح؟

الجواب: نعم، إنّ الخشية مرتبة أعلى من الايمان والعمل الصالح، والظاهر أنها تعني الإحساس بالمسؤولية، فتارةً يعيش الإنسان الايمان والعمل الصالح ولكن ذلك لا يعني أنه يتحلّى بعنصر الإحساس بالمسؤولية ولا يكون إيمانه وعمله الصالح مسترفداً من إحساسه بالمسؤولية بل بسبب العادة والتربية وأجواء الأُسرة والمحيط الإجتماعي، وتارةً أُخرى يتحرّك الإنسان في إيمانه وعمله الصالح على أساس من أحساسه بالمسؤولية، فمثل هذا الإنسان يتعامل مع الأحداث والأشخاص والمواقف المختلفة من منطلق إحساسه بالمسؤولية ويكون سلوكه وممارساته في حركة الحياة الفردية والإجتماعية قائمة على هذا الدافع النفساني والوجداني.

والنتيجة هي أن «خير البريّة» هم الذين يتمتعون بثلاث صفات: الايمان، العمل الصالح، الإحساس بالمسؤولية.

---

١. لبيان أهمية العمل الصالح يكفي أن نعلم أن هذه العبارة وردت في القرآن الكريم سبعين مرّة تقريباً.

٢. عوالي اللئالي: ج ١، ص ٤٣١، والرواية أعلاه وردت في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الباب ١٢، ح ٥٨، مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٧٩.

وبعد ان تنتهي الآية الشريفة من تعريف «خير البريّة» وتبيين صفاتهم وخصائصهم تتعرض كذلك لبيان أجرهم وثوابهم عند الله وتقول:

﴿جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾.

إنّ ثواب «خير البريّة» في الدار الآخرة يتضمن الثواب المادي والمعنوي على السواء، لأن الإنسان مركّب من جسم وروح، فجسمه يطلب الثواب المادي، وروحه تشتاق إلى الثواب المعنوي.

أما الثواب المادي لهؤلاء الصالحين فهو عبارة عن الجنّة الخالدة والبساتين اليانعة التي تجري من تحت أشجارها الأنهار[1] والمياة العذبة بصورة دائمة.

البساتين على نحوين:

١ ـ البساتين التي تردُّ إليها المياه من خارجها ويتمُّ سقي أشجارها بالماء بين كلِّ حين وآخر وعلى فواصل زمنيّة معيّنة، فالمياه لا تجري دائماً في جداولها وسواقيها.

٢ ـ البساتين التي تتوفر فيها المياه بصورة دائمة وتجري في سواقيها وبين أشجارها، وبلاشك أن مثل هذه البساتين تنعم أشجارها بطراوة خاصّة ومشهد جذّاب ولا يخشى عليها الجفاف والذبول، فبساتين الجنّة التي تقدّم وصفها في الآية الشريفة هي من النوع الثاني، فهي خضراء يانعة دائماً.

﴿خالِدينَ فِيها أَبَداً﴾ فكما أن الكفّار والمشركين وأهل الكتاب الذين وقفوا من الرسالة الإلهية موقف المعاند والعدو مخلدون في نار جهنم، وكذلك المؤمنون الذين يعيشون الإحساس بالمسؤولية ويترجمون إيمانهم وإحساسهم هذا على مستوى الممارسة والأعمال الصالحة هم مخلدون في الجنّة أيضاً.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وتشير هذه الجملة إلى الثواب المعنوي لهؤلاء المؤمنين، وهو أن الله تعالى ينعم عليهم بالمواهب الأُخروية العظيمة إلى درجة أنهم يعيشون الرضا والسرور الفائق، ومن جهة أُخرى فإنّ لطف الله تعالى ورحمته بهؤلاء يبلغ إلى الحدّ الذي يرضى الله عزّوجلّ عنهم.

---

١ . صفة «الخلود» يمكن استفادتها من كلمة «عدن» بمعنى الخالدة، ويقال «معدن» للأشياء المعدنية الثابتة والمستقرة في ذلك المكان بصورة دائمية.

فما أعظم هذا المقام الشامخ، وما أعظم هذه المرتبة السامية التي لا تتصور فوقها مرتبة في عالم الكمال والنعمة والسعادة.

والنتيجة التي نستخلصها من هذه الآيات الشريفة الثلاث أنها ذكرت خصوصيّات «شرُّ البريّة» وعقوباتهم في الدار الآخرة، وكذلك صفات وخصوصيّات «خير البريّة» وأجرهم وثوابهم عند الله في يوم القيامة.

خير البريّة في الروايات

سؤال: هل أن المفهوم من هذه الآية الشريفة عام أو خاصّ؟

وبعبارة أُخرى: هل أنّ «خير البريّة» يشمل جميع المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أو يتحدد بفئة خاصّة منهم؟

الجواب: ومن أجل التوصل إلى جواب هذا السؤال نرىٰ من اللازم الرجوع إلى الروايات الواردة في شأن نزول هذه الآيات الكريمة:

طبقاً للروايات الكثيرة الواردة في مصادر وكتب الشيعة وأهل السنّة أن النبي الأكرم ﷺ ذكر في تفسير «خير البريّة» أنهم: عليّ وشيعته، وقد وردت هذه الروايات في كتب مختلفة، منها:

١ ـ «شواهد التنزيل» لمؤلفه الحاكم الحسكاني[1].

٢ ـ «الصواعق المحرقة» تأليف ابن حجر الهيثمي[2]

٣ ـ «الدرّ المنثور» للسيوطي[3].

٤ ـ «نور الأبصار» لمحمّد الشبلنجي[4].

---

١. الحاكم الحسكاني النيشابوري من علماء أهل السنّة في نيشابور، و«حسكان» قرية من قرى نيشابور، ويعتبر من العلماء المعتدلين والبعيدين عن التعصّب، وقد سعى لجمع جميع الروايات الواردة في شأن نزول آيات القرآن الكريم في كتابه.

٢. الصواعق المحرقة: ص ٩٦ نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٢٦١.

٣. الدرّ المنثور: ج ٦، ص ٣٧٩ نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٢٦٠.

٤. نور الأبصار: ص ٧٠ و ١١٠ نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩، ص ٢٦١.

٥ ـ «تفسير الطبري»[١].

٦ ـ «روح المعاني» للآلوسي[٢].

٧ ـ «المناقب» للخوارزمي[٣].

٨ ـ «فتح الغدير» للعلّامة الشوكاني[٤].

وقد أورد صاحب كتاب «شواهد التنزيل» في كتابه هذا أكثر من عشرين رواية في ذيل آية خير البريّة، وقد اخترنا منها ثلاث روايات كنموذج لتقرير المطلوب، وهي كالتالي:

الف) يقول جابر بن عبدالله الأنصاري الصحابي المعروف: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ وجماعة من أصحابه عند الكعبة، وإذا بعليّ قد ظهر لنا من بعيد، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه:

«قَدْ أَتاكُمْ أَخي، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقالَ وَرَبِّ هٰذِهِ الْبَنِيَّةِ! إِنَّ هٰذا وَشِيعَتَهُ هُمُ الفائِزونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنا بِوَجْهِهِ، فَقالَ: أَما وَاللهِ إِنَّهُ أَوَّلُكُمْ إِيماناً بِاللهِ، وَأَقْوَمُكُمْ بِأَمرِ اللهِ وَأَوفاكُم بِعَهْدِ اللهِ وَأَقْضاكُمْ بِحُكْمِ اللهِ وَأَقْسَمُكُمْ بِالسَّوِيَّةِ وَأَعْدَلُكُمْ فِي الرَّعِيَّةِ وَأَعْظَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ مَزِيَّةً. قالَ جابِرُ فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا... خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾ فَكانَ عَلِيٌّ إِذا أَقْبَلَ قالَ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ: قَدْ أَتاكُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ»[٥].

ويستفاد من العبارة الواردة في ذيل هذه الرواية الشريفة أنها كانت مشهورة بين المسلمين في صدر الإسلام، وعليه فإنّ الرواة لها لا يقتصرون على ابن عبّاس وجابر بن عبدالله وأبو برزة.

ب) ويقول جابر في رواية أُخرى: أنه عندما نزلت آية خير البريّة، التفت النبي

---

١. تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٧١.

٢. روح المعاني: ج ٣٠، ص ٢٠٧.

٣. المناقب الخوارزمية: ص ٤٢١، طبعة طهران نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٨٩.

٤. فتح الغدير: ج ٥، ص ٤٦٤، طبعة مصر نقلاً عن احقاق الحقّ: ج ٣، ص ٢٩١.

٥. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٦٢.

الأكرم ﷺ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وقال:

«هُمْ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ، تَرِدُ عَلَيَّ وَشِيعَتُكَ رَاضِينَ مَرْضِيِّينَ»[1].

ج) يقول أبو برزة الأسلمي: عندما نزلت آية خير البريّة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب:

«هُمْ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيّ، وَمِيعَادُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْحَوْضُ»[2].

د) ويروي ابن عساكر في شرح هذه الآية الشريفة «آية خير البريّة» عن عائشة رواية طريفة، (ورغم أن عائشة لم تكن على علاقة جيّدة مع علي بن أبي طالب وقد قامت بوجهه في حرب الجمل) قال:

«وفي رواية لعائشة عن عطاء قال سألت عائشة عن علي فقالت: ذاك خير البشر لا يشك فيه إلّا كافر»[3].

والنتيجة أنه طبقاً للروايات الكثيرة الواردة في تفسير آية خير البريّة أن المراد من «خير البريّة» هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

سؤال: ويطرح الآلوسي في روح المعاني سؤالاً بهذه الصورة:

إذا كان المراد من خير البريّة هو علي بن أبي طالب عليه السلام فهل أنه أعلى مقاماً من رسول الله ﷺ؟ لأنّ كلمة «خيرالبريّة» في الآية الشريفة وردت بشكل مطلق، ومفهومها أن المصداق لها هو أفضل من جميع الناس.

الجواب: لو تدبرنا في مضمون الآية الشريفة لأتضح الجواب عن هذا السؤال، لأنه كما تقدّم أن أحد الشروط التي لابدّ أن تتوفر في «خير البريّة» هو الايمان، أي الايمان بالله والرسول وسائر مبادئ وأحكام الإسلام، وعليه فإنّ الإمام علي من جهة اعتقاده وإيمانه العميق بالله تعالى ورسوله الكريم هو خير البريّة، فكيف يمكن أن يكون الإمام علي وبسبب اعتقاده وإيمانه برسول الله هو خير البريّة وفي نفس الوقت يكون أعلى مرتبة من

---

١. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٦٠.
٢. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٥٩.
٣. احقاق الحقّ: ج ٢، ص ٢٨٨.

رسول الله ﷺ نفسه ؟ وهذا السبب ورد في رواية جابر بن عبدالله الأنصاري المذكورة في منابع أهل السنّة أنّ عليّ بن أبي طالب خير البريّة بعد رسول الله.

سؤال آخر: ما هي العلاقة بين الآية الشريفة وبين مسألة الإمامة والخلافة لأميرالمؤمنين عليه السلام ؟ وعلى فرض أن يقبل أهل السنّة بأن علي بن أبي طالب هو خير البريّة كما ورد في رواياتهم، ولكن كيف يمكن الإستدلال بهذه الآية على إمامته وخلافته بعد رسول الله ﷺ ؟

الجواب: بالنسبة إلى طريقة تعيين الخليفة بعد النبي هناك اختلاف بين الشيعة وأهل السنّة، فالشيعة يرون أن الخليفة والإمام بعد رسول الله يجب أن يكون منصوباً ومعيّناً من قبل الله تعالى[١]، إذن فتعيين الخليفة في نظر الشيعة هو أمر انتصابي لا انتخابي، ولكنّ أهل السنّة يرون أن تعيين الخليفة بعد النبي هو أمر انتخابي ويجب أن يختاره الناس إماماً وزعيماً لهم، فإذا حظي بموافقة الناس وانتخابهم له صار خليفة لرسول الله.

وطبعاً إنّ هذا الإختلاف في مفهوم وطريقة تعيين الخليفة لا يؤثر في المفهوم من الآية الشريفة لأنه لو كانت الخلافة انتخابية أو انتصابية فإنّ الإمام علي هو الوحيد اللائق لهذا المقام، لأنه لو كانت انتصابية كما يعتقد الشيعة فمع وجود الإمام علي الذي هو خير البريّة وأفضل مخلوقات عالم الوجود فإنّ الله الحكيم لا يختار شخصاً آخر غيره لهذا المقام وإلّا لكان منافياً لمقتضيات الحكمة الإلهية، ولو كانت المسألة انتخابية فهل يعقل مع وجود أفضل الناس وأعلمهم أن يختار العقلاء شخصاً آخر لهذا المقام؟

من الواضح أن ما يعتذر به البعض من أنّ المسلمين في ذلك الزمان لم يكونوا يعرفون الأفضل والأعلم هو عذر غير مقبول مع وجود كل هذه الروايات الكثيرة التي مرّت سابقاً ومع اشتهار مقام الإمام علي عليه السلام ومناقبه وفضائله بعنوان إنه «خير البريّة».

ومع الإلتفات إلى ما تقدّم يتّضح جيّداً ارتباط الآية الشريفة مع مسألة الولاية والإمامة.

---

١ . لأنّه كما تقدّم سابقاً لابدّ أن يكون خليفة رسول الله ﷺ معصوماً، وملكة العصمة لا يدركها سوى الله تعالى، إذن فيجب أن يكون تعيين الخليفة المعصوم من قبل الله تعالى.

السؤال الثالث: إنّ الأفضل عادةً يكون شخصاً واحداً لا أكثر، وعليه كيف يكون الإمام علي وشيعته هم الأفضل؟

الجواب: إنّ مقام أفضل الخلق له مراتب، فيمكن أن يكون أحد الأشخاص على رأس الهرم في سلسلة الأفاضل، وهناك أشخاص آخرون يقعون في المراتب التي تلي هذه المرتبة، وهناك طائفة ثالثة أدنىٰ منها وهكذا، وعليه فإنّ الإمام علي يقف على رأس الهرم في الأفضلية ويأتي شيعته في المراحل الدانية.

والنتيجة لجميع هذه الأبحاث أن «خير البريّة» ومن يحوي الصفات الثلاثة: الإيمان، العمل الصالح والإحساس بالمسؤولية، هم علي وشيعته.

توصيات آية خير البريّة

إنّ هذه الآية الشريفة والروايات الواردة في تفسيرها تتضمن توصيات مختلفة، منها:

١ ـ نظام القيم في الإسلام

إنّ قيمة كلّ دين أو مذهب تكمن في منظومة القيم لذلك الدين أو المذهب، وببيان أوضح: إنّ كلّ دين أو مدرسة فكرية وفلسفية تدور حول محور أساسي، وذلك المحور يكون بمثابة النظام القيمي والمعيار الذي ترسل فيه معالم ذلك الدين والمدرسة الفكرية، وكمثال على ذلك:

الف: ذكرت الآيات الكريمة في حديثها عن منظومة القيم الأخلاقية للمجتمع الفرعوني الطاغوتي كما ورد ذلك في الآية ٥١ من سورة الزخرف على لسان فرعون:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

هنا نرى أن فرعون يفتخر بتسلطه على مصر واستلامه زمام الأمور في حكومة مصر، تلك الحكومة المستبدة والديكتاتورية، وهذا السياق القرآني يعبّر في الحقيقة عن نظام القيم في حكومة فرعون، وعلى هذا الأساس فالإنسان الجيّد في نظر فرعون والفراعنة هو الحاكم

والمتسلط على الناس حتّى لو كان متوغلاً في الفساد والجريمة والظلم. أما الإنسان السافل والساقط فهو من يعيش بعيداً عن أجواء السلطة والحكومة حتّى ولو كان من الناحية الأخلاقية يتّصف بأفضل الصفات والفضائل الأخلاقية، ولهذا اعترض فرعون على موسى ودعواه النبوّة والرسالة من الله تعالى وقال:

﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[1] (ليؤيدوا كلامه من كونه مرسل من الله تعالى).

أي أن موسى عليه السلام وطبقاً لرؤية الفراعنة ونظامهم الأخلاقي كان يعيش بعيداً عن أجواء القدرة والثروة والحكومة إذن فلا يستحق مقام النبوّة والرسالة.

والنتيجة هي أن المعيار الأخلاقي في النظام الفرعوني هو القدرة والثروة والزينة.

ب: وهناك بعض الأنظمة الأخلاقية في بعض المجتمعات والمذاهب الأُخرى تعتبر أن كثرة الأموال والأولاد والثروة هي المعيار، كما ورد في الآية الشريفة ٣٥ من سورة سبأ:

﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

فهؤلاء يعيشون بنظام من القيم الأخلاقية التي تدور حول محور القوى الإنسانية والإقتصادية، وطبقاً لهذه العقيدة وهذه الرؤية فإنّ الإنسان الجيّد والمحترم هو من يتمتع بأموال كثيرة وثروة طائلة وأبناء كثيرين وخاصّة إذا كان هؤلاء الأبناء ذكور كما هو حال العرب في زمن الجاهلية حيث كانت العائلة السعيدة هي التي يتوفر فيها كثرة في الأولاد الذكور، لأن ذلك يمنحهم القدرة على القتال والغارة وعمليّات السلب والنهب أو ينتفع الأب من معونتهم في أعماله الشخصية والإجتماعية.

والخلاصة أن مثل هذا النظام الأخلاقي يعتمد بالدرجة الأُولى على مبدأ القوّة البشرية والكثرة في الأموال والأولاد.

وأمّا بالنسبة إلى الرؤية الإسلامية ومنظومة القيم في دائرة المفاهيم القرآنية فإنها تختلف عمّا تقدّم من النظم والمعايير الثقافية، فكلُّ ذلك لا يعدّ في نظر الإسلام معياراً وقيمةً ذات

---

١. سورة الزخرف: الآية ٥٣.

أهميّة على مستوى حياة الإنسان الأخلاقية والمعنوية رغم أنها قد تنفع أحياناً في كونها وسيلة وأداة للتوصل بها إلى الأهداف المقدسة والغايات الدينية فتكون مطلوبة وإيجابية حينئذٍ.

القرآن الكريم يردُّ على ما ذكرناه آنفاً من النظام القيمي للطائفة الأخيرة ويقول:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[1].

فهذه الآية الشريفة وضمن رفضها للنظام الأخلاقي الذي يستوحي مقوماته من القوّة البشرية والإقتصادية تطرح النظام الأخلاقي والمعيار القيمي في دائرة المفاهيم الإسلامية وتذكر «الايمان» و«العمل الصالح» كمفردات معيارية للنظام الأخلاقي في الإسلام، لأن هذه الأُمور هي التي توصل الإنسان إلى معراج الكمال المعنوي وتقوده في حركته الصاعدة نحو الله تعالى لا المال والأولاد والأُمور الدنيوية الأُخرى.

ويقول تبارك وتعالى في الآية ١٣ من سورة الحجرات ضمن اعتبار التقوى محور آخر من محاور النظام الأخلاقي في الإسلام ويخاطب الناس كافة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

عندما جاء الإسلام بنظام أخلاقي جديد يقوم على الايمان والعمل الصالح والتقوى فإنه استبدل القيم الجاهلية القديمة بهذه القيم السماوية والإنسانية وخلق بذلك تحولاً عظيماً في هيكلية المجتمع البشري وقدّم إلى البشرية أشخاصاً مثل «أبي ذرّ» و«سلمان» و«ميثم التمّار» بدلاً من «أبي جهل» و«أبي لهب» و«أبي سفيان».

إنّ آية «خير البريّة» تقرر إنّ منظومة القيم في الإسلام تقوم على أساس «الايمان» و«العمل الصالح» و«الإحساس بالمسؤولية» وتقرر بأن أفضل الناس هم الذين يتميّزون بهذه السمات الأخلاقية والدينية الثلاث، ولكننا نرى مع الأسف في عالمنا المعاصر أن قيم

---

١. سورة سبأ: الآية ٣٧.

الجاهلية عادت لتحكم من جديد فالإنسان الأفضل هو الذي يمتلك دولارات أكثر أو يتمتع بقدرة اقتصادية أعظم أو يمتلك قوّة عسكرية أكبر، ولكن كلّ هذه الأمور لا تعدّ معياراً أساسياً في منظومة القيم والمفاهيم الإنسانية.

٢ ـ تاريخ ظهور الشيعة

يتصور البعض أو يلقّن نفسه بهذا المفهوم الزائف عن الشيعة، وهو أن الشيعة ظهرت إلى الوجود كمذهب وتيار إسلامي منذ زمن الصفويين أو بعد ذلك وليس لهم امتداد تاريخي في القرون السابقة.

ولكن يتضح بطلان هذا التصور بمجرّد إلقاء نظرة عابرة على ما ورد في الروايات الإسلامية وكتابات المؤرّخين ومن ذلك ما ورد في الروايات الشريفة في ذيل آية «خير البريّة» والتي تقدّم ذكرها وأن كلمة «الشيعة» ذكرت لأوّل مرّة على لسان الرسول الأكرم ﷺ وأراد منها أتباع علي بن أبي طالب ﷺ، وعلى هذا الأساس فإنّ تاريخ ظهور الشيعة يتزامن مع تاريخ ظهور الإسلام وقد سبق ظهور هذا المذهب جميع المذاهب الإسلامية الأُخرى.

ومع الأخذ بنظر الإعتبار هذا الأمر يتّضح جيّداً أن بعض الأشخاص الذين يتحركون من موقع الغفلة أو التغافل أو العناد على مستوى اتهام الشيعة والتعريض بهم بما تقدّم، هم بعيدون عن الحقّ والصواب ومشمولون لقول الشاعر:

وَإِن كُنْتَ لا تَدْري فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْري فَالْمُصيبَةُ أَعْظَمُ

أي أن بعض العلماء من الفرق الإسلامية إذا لم يكونوا يعلمون بهذه الأحاديث والروايات وغير مطّلعين عليها فهذه مصيبة (بحيث إنّ الإنسان الذي يدّعي العلم يجهل هذه الروايات).

وإذا كانوا مطّلعين عليها ولكنهم ينكرونها ويتغافلون عنها من موقع العناد والتعصّب فمصيبتهم أعظم وأكبر.

إلهنا أحفظنا من التورط في منزلقات التعصّب الأعمى وأبعدنا عن آثاره المشؤومة وعواقبه الوخيمة.

٣ ـ ماذا تعني كلمة الشيعة ؟

سؤال : إنّ الروايات الواردة في هذا البحث تصف شيعة الإمام علي عليه السلام كأنهم أفضل من خلق الله تعالى، ومع الإلتفات إلى هذا المقام السامي للشيعة، نريد أن نعرف من هم هؤلاء الشيعة ؟

الجواب : وفي المقام الجواب على هذا السؤال لابدّ من استعراض معنى كلمة «الشيعة» والبحث فيها من ثلاث جهات :

في البداية نبحث المعنى اللغوي لهذه الكلمة، ثمّ موارد استعمالها في القرآن الكريم، في الثالثة نستعرض بعض الروايات التي تتعرض لوصف الشيعة الحقيقيين.

الف : الشيعة في اللغة : إنّ هذه الكلمة «الشيعة» تعني في اللغة «الإنتشار مع القدرة»، فالشيء الذي يمتد وينتشر في مناطق مختلفة مع القدرة والقوّة يطلق عليه «شيعة» والنتيجة أن الشيعة في اللغة تطلق على الفئة والجماعة المنتشرة والقوية في نفس الوقت.

ب : الشيعة في القرآن : وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في أربعة موارد، أحداها ما ورد في شأن النبي إبراهيم عليه السلام في سورة الصافات، الآية ٨٣ و ٨٤:

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

هذه الآية الشريفة وصفت إبراهيم بأنه من شيعة النبي نوح عليه السلام، أي أنه استمرار لخطّ النبي نوح عليه السلام، والآية الثانية ترسم معالم التوفيق الذي ناله إبراهيم في هذا المجال حيث توجه إلى خالقه وربّه بقلب سليم[1] من أدران الشرك وتلوثات الخطايا.

والآية الأُخرى التي وردت فيها كلمة الشيعة هي الآية ١٥ من سورة القصص حيث

---

١ . ورد في تعريف القلب السليم في الروايات أنه القلب الذي لا يوجد فيه غير الله، أي حتّى الأُمور التي يريدها الإنسان من المقام والثروة والمرأة والأطفال والصحّة والأمان فإنما يريدها للتقرب إلى الله تعالى، ولو أرادها الإنسان بصورة مستقلة ووقعت في قلبه من دون غاية التقرب إلى الله فإن مثل هذا القلب لا يكون سليماً، وقد وردت عبارة «القلب السليم» في القرآن مرتين، أحداهما في سورة الشعراء: الآية ٨٩، والأُخرى في سورة الصافات: الآية ٨٤ (وللمزيد من التفاصيل في معنى القلب السليم يراجع التفسير الامثل، ذيل تفسير هاتين الآيتين).

تتعرض هذه الآية إلى قصة موسى عليه السلام وتقول:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ...﴾.

كلمة «شيعة» في هذه الآية الشريفة أُطلقت على أتباع النبي موسى عليه السلام ويمكننا أن نستوحي من هذا التعبير أن النبي موسى كان قد شكّل جماعة له قبل النبوّة وربّاهم على طريق الحقّ والايمان.

والنتيجة هي أن كلمة شيعة في الآيات أعلاه وردت في حقّ بعض الأنبياء وأتباعهم.

ج: الشيعة في الروايات: لقد وردت كلمة «شيعة» في الروايات الشريفة بشكل واسع ومستفيض، ونكتفي هنا بذكر ثلاث نماذج منها:

١ ـ ما ورد في خطاب الإمام علي لأحد أصحابه ويدعى «نوف البكالي» قال:

«أَتَدْري يا نَوْفُ مَنْ شيعَتِي؟»

فقال نوف: لا وَالله.

فشرع الإمام يبين له أوصاف الشيعة الحقيقيين ومن ذلك أنه قال: «رُهْبانٌ بِاللَّيْلِ وَأُسْدٌ بِالنَّهارِ»[١] فيعيشون في الليل الشوق والمناجاة والتبتل إلى الله تعالى، وفي النهار يتحركون في دفاعهم عن الإسلام وخدمة المسلمين من موقع الإخلاص والشجاعة الفائقة ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم.

٢ ـ وورد في رواية أُخرى في أوصاف الشيعة:

«إِنَّما شيعَتُنا أَصْحابُ الأَرْبَعَةِ الأَعْيُنِ: عَيْنانِ فِي الرَّأْسِ وَعَيْنانِ فِي الْقَلْبِ»[٢]

أي أن الشيعي ينبغي أن يكون شخصاً قوياً، شجاعاً، واعياً، يقظاً، فاهماً وعالماً لا أن يكون ساذجاً وسطحياً ويتعامل مع الأحداث من موقع الهويات والأوهام الهشة والمطلقات الخاوية.

٣ ـ وقال شخص للإمام الباقر عليه السلام: «الحمد لله على كثرة شيعتكم».

---

١. بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٢٨.

٢. الكافي: ج ٨، ص ٢١٥.

فنظر إليه الإمام نظرة ذات مغزى وقال له: إنما تقوله عن شيعتنا:

هَلْ يَعْطِفُ الْغَنِيُّ عَلَى الْفَقِيرِ؟ وَيَتَجاوَزُ الْمُحْسِنُ عَنِ الْمُسِيءِ وَيَتَواسَوْنَ؟

قُلْتُ: لا.

قالَ: لَيْسَ هؤُلاءِ الشّيعَةُ، الشّيعَةُ مَنْ يَفْعَلُ هكَذا[1].

أجل، فإنّ الشخص الشيعي يجب أن يكون قائم الليل يقظ وعامل في النهار ويتعامل مع الواقع والأحداث بمنطق العقل والفهم السليم ويساعد الفقراء والمساكين ويعفو عن المسيئين ويشارك الناس في همومهم ويواسيهم في غمومهم.

١. بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٣١٣.



آية الحكمة

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ «سورة البقرة / الآية ٢٦٩»

أبعاد البحث

بلاشك إنّ الإسلام له دور هام وأساسي في ترويج العلم وتشويق الناس إلى سلوك طريق المعرفة أكثر من جميع الأديان الإلهية والشرائع السماوية، ولذلك فلو قيل عن الإسلام بأنه دين العلم والمعرفة فلايعدُّ هذا الكلام جزافاً، والآية مورد البحث من جملة الآيات التي عبّرت عن «الحكمة والمعرفة» بأنها «خير كثير»، أما ما هي علاقة الآية الشريفة بفضائل أميرالمؤمنين عليه السلام؟ فسيأتي في الأبحاث اللاحقة ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من جملة هؤلاء الأشخاص الذين رزقوا الحكمة وأدركوا حقائق الأمور، آمين يا ربّ العالمين.

الشرح والتفسير

الحكمة هي الخير الكثير!

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكروا للحكمة معاني كثيرة من قبيل: «أن الحكمة عبارة عن معرفة أسرار عالم الوجود» و«العلم بحقائق القرآن» و«الوصول إلى الحقّ على مستوى القول

والعمل» وأخيراً «الحكمة هي معرفة الله»[١] ويمكن جمع هذه المعاني كلّها بمعنى ومفهوم واسع.

وبما أن القرآن الكريم تحدّث في الآية السابقة (الآية ٢٦٨ من سورة البقرة) أن الله تعالى وعد أن يبارك على الإنفاق وأن يغفر لمن ينفق في سبيل الله وحذّره من وسوسة الشيطان وتخويفه من الفقر، ففي هذه الآية الشريفة أشار إلى هذه الحقيقة القرآنية وهي أن «الحكمة» هي الأداة والوسيلة للتمييز بين «الإلهي» و«الشيطاني» وبذلك يستطيع الإنسان أن يتخلص من وساوس الشيطان ويبعد نفسه عن الوقوع في مصائده وفخاخه.

وأما في عبارة «من يشاء» فلا تتضمن أن الله تعالى يرزق الحكمة والمعرفة بدون مبرر وبطريقة عشوائية بل إنّ مشيئة الله وإرادته مقرونة دائماً مع الحكمة، أي أنه لا يعطي الحكمة لمن لا يستحق ولا يليق بها، بل يؤتي الحكمة ويروي عطش الإنسان لها فيما لو كان الإنسان قابلاً لها ومستعداً لتقبلها.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾.

وبالرغم من أن الله تعالى هو الذي يؤتي الحكمة لعباده إلّا أن هذه الآية لم تذكر الفاعل لهذا العطاء، بل اقتصرت على القول «ومن يؤتَ الحكمة» وهذا التعبير يشير إلى أن الحكمة والمعرفة بذاتها حسنة وجيّدة من أي مكان حصل عليها الإنسان فلا يختلف حالها في الحسن باختلاف مصدرها، والملفت للنظر أن الآية الشريفة تقرر هذه الحقيقة، وهي أن كلّ من رزق العلم والمعرفة والحكمة فقد رزق الخير الكثير لا «الخير المطلق» لأنّ الخير المطلق أو السعادة المطلقة لا تكمن في العلم والحكمة فقط بل إنّ العلم والحكمة هي أحد أدوات الخير والسعادة.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ «تذكّر» يعني حفظ العلوم والمعارف في واقع النفس والروح و«الألباب» جمع «لُب» وبما أن لُب الشيء هو أهم جزء من أجزائه وأفضل أقسامه ولذلك اطلق على العقل كلمة «لُب» لأنه أفضل أجزاء الإنسان، فالآية الشريفة تقول: إنّ أصحاب العقل والمعرفة هم فقط الذين يدركون هذه الحقائق، ويتذكرونها وينتفعون منها،

---

١. وردت الإحتمالات الأربعة مع ستة احتمالات أُخرى في «مجمع البيان»: ج ٢، ص ٣٨٢.

ورغم أن جميع الناس يتمتعون بالعقل «سوى المجانين» ولكنّ أُولوا الألباب لا يقال لجميع العقلاء بل المراد الأشخاص الذين يستخدمون عقولهم ويتحركون في سلوكهم العملي من موقع الإستفادة من نور العقل وضياء الحكمة ويتدبّرون في اُمورهم.

الإمام علي عليه السلام صاحب الحكمة

إنّ آية الحكمة هذه تدلُّ على أن «كلُّ من رُزق الحكمة فقد رُزق الخير العميم والكثير» ولكنها ساكتة عن مصداق هذا المفهوم العام ولا تقرر من هو هـذا الشـخص في الواقـع الخارجي، ولكن الروايات العديدة المذكورة في طرق الشيعة وأهل السـنّة ذكرت بأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو المصداق لها وهو الذي يتمتع بالحكمة الإلهية. وهنا نستعرض بعض هذه الروايات:

١ ـ ذكر «الحاكم الحسكاني» العالم السنّي المعروف نقلاً عن «ربيع بن خيثم» أنه ذكر علي عليه السلام عنده فقال:

لَمْ أَرَهُمْ يَجِدُونَ عَلَيْهِ فِي حُكْمِهِ وَاللهُ تَعالىٰ يَقُولُ: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً»[١].

٢ ـ ويقول ابن عبّاس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلىٰ إِبْراهِيمَ فِي حِلْمِهِ وَإِلَىٰ نُوحٍ فِي حِكْمَتِهِ وَإِلىٰ يُوسُفَ فِي إِجْتماعِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ[٢].

ونفس هذه الرواية وردت بشكل آخر عن «ابن الحمراء» حيث يقول: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء علي بن أبي طالب عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلىٰ آدَمَ فِي عِلْمِهِ وَنُوحٍ فِي فَهْمِهِ وَإِبْراهيمَ فِي خُلُقِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ[٣].

٣ ـ وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس يقول:

---

١. شواهد التنزيل: ج ١، ص ١٠٧، ح ١٥٠.
٢. شواهد التنزيل: ج ١، ص ١٠٦، ح ١٤٧.
٣. شواهد التنزيل: ج ١، ص ٧٩، ح ١١٦.

«كنت عند رسول الله ﷺ فسئل عن علي، فقال:

قُسِّمَتِ الْحِكْمَةُ عَشَرَةَ أَجْزَاء، فَأُعْطِيَ عَلِيٌّ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ وَأُعْطِيَ النَّاسُ جُزْءاً وَاحِداً»[١].

هذه المضامين الواردة في الروايات الشريفة توضح بصورة جيّدة أن الشخص الذي رُزق الحكمة والمعرفة في الأُمّة الإسلامية بعد رسول الله هو علي بن أبي طالب عليه السلام وأنه لا يصل إليه أحد من الصحابة في العلم والمعرفة، وبما أن أهم ركن من أركان الإمامة هو العلم والحكمة والمعرفة فإنّ أجدر الناس لهذا المقام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

سعة علم الإمام علي عليه السلام وحكمته

إنّ دائرة علم علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمته واسعة إلى درجة أن شعاع نور علمه بلغ مبلغ اعترف به حتّى مخالفيه ولم يقدروا على إنكاره بل كانوا يرجعون إليه في قضاياهم وما تشتبك عليهم من الأُمور، فكان مرجعاً علمياً لهم حيث كان الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه يرجعون إليه في كثير من التعقيدات العلميّة والمشاكل الفقهيّة أيّام المحنة والسكوت الطويل، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ صدر الإسلام ونكتفي هنا بذكر نماذج منها:

١ ـ المرجعية العلمية للإمام علي عليه السلام

يقول أنس ابن مالك خادم رسول الله ﷺ: إنّ رسول الله قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام:

«أَنْتَ تُبَيِّنُ لِأُمَّتِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بَعْدِي»[٢].

وأحد وظائف الإمامة والولاية المهمة هي حفظ حريم القرآن وخزانة العلوم النبوية ونقلها بصورة صحيحة إلى العلماء والفقهاء، وشرح ما أشكل عليهم من مفاهيم وأحكام إلهية، وتتّضح أهمية هذا الدور والوظيفة للإمامة فيما لو علمنا أن الكثير من الأُمم والبلدان التي حققت انتصارات على أُمم أُخرى كبيرة ولكنها عجزت في نفس الوقت عن التصدّي

---

١. شواهد التنزيل: ج ١، ص ١٠٥، ح ١٤٦.

٢. مستدرك الصحيحين: ج ٣، ص ١٢٢، وكنز العمّال: ج ٦، ص ١٥٦، والمرحوم التستري في إحقاق الحقّ: ج ٦، ص ٥٢ و ٥٣، إضافة إلى المصدرين المذكورين وردت هذه الرواية في أربعة كتب أُخرى أيضاً.

للثقافة الأجنبية وبالتالي لم تستطع حفظ ثقافتها ودينها وغلبت أخيراً على أمرها كما هو الحال في هجوم المغول على البلاد الإسلامية وانتصارهم في ميادين القتال والحرب على المسلمين إلّا أنهم سرعان ما غُلبوا في مقابل القرآن والإسلام واعتنقوا بذلك الإسلام بل أصبحوا من المدافعين عنه والمروّجين له.

الإمام علي عليه السلام اهتم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الأمر المهم جدّاً «الثقافة الإسلامية» وشرع بجمع القرآن وأقسم على أن لا يرتدي رداءه ويخرج من البيت قبل إتمام هذه المهمة إلّا أن يكون خروجه للصلاة[1]، ثمّ شرع بتعليم وتفسير القرآن الكريم في ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وظاهره وباطنه، إلى أولاده وتلاميذه كالإمام الحسن والحسين عليهما السلام وابن عبّاس وابن مسعود وأمثالهم كما تعلّمها من رسول الله صلى الله عليه وآله وليكون ذلك حصناً ثقافياً للأمّة الإسلامية أمام الغزو الثقافي والعقائدي الذي قد يتعرض له علماء الإسلام في ظلّ الفتوحات الكثيرة واختلاط الحضارات والثقافات السائدة بين الأقوام البشرية حينذاك وليأمن حاجة المسلمين الفقهية والحقوقية من هذه المعارف الإلهية ويبيّن الأصول العقائدية والأحكام الفقهية وغيرها من المسائل الثقافية بأفضل وجه وأحسن صورة للمسلمين.

٢ ـ الإمام علي عليه السلام باب مدينة العلم

وقد ورد في صحيح الترمذي أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَنَا دَارُ الْحِكْمَةِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»[2].

ومن المسلّم أن كلٌّ من أراد الدخول في الدار فعليه أن يردها من بابها كما ورد في الآية الشريفة ١٨٩ من سورة البقرة ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وعليه فكلٌّ من أراد العلم والمعرفة والوصول إلى خزائن الحكمة لدى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فعليه أن يبدأ مساره من الإمام علي عليه السلام فهو مفتاح هذه الخزائن ويطلب منه العلم والمعرفة.

---

١. الإستيعاب: ص ١١٠٩ والاحتجاج للطبرسي: ص ٢٣٩.

٢. صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٧ (نقلاً عن نفحات القرآن: ج ٩) وهنالك روايات كثيرة بهذا المضمون، ولكن بما أن الرواية أعلاه ذكرت كلمة (الحكمة) فقد أوردناها خاصة، والروايات الأخرى من قبيل «أنا مدينة العلم وعلي بابها» مستفيضة وقد أورد منها في البحار: ج ٤٠، ١٢ رواية في هذا المعنى.

٣ ـ الإمام علي ﷺ وتفسير القرآن

مع مراجعة سريعة إلى تفاسير القرآن الكريم يتّضح جيّداً أن الإمام علي ﷺ كان على قائمة المفسّرين وأئمّة التفسير كما ذكر ذلك السيوطي حيث قال: «إنّ أكثر ما ورد في التفسير من الخلفاء هو من علي بن أبي طالب»[1].

ويعدّ ابن عبّاس على رأس المفسّرين في صدر الإسلام وكان في ذلك تلميذاً للإمام علي ﷺ وعندما قيل له: ما علمك إلى علم ابن عمّك؟ قال: كالقطرة بالنسبة إلى البحر[2]. وهكذا نقرأ في كتب التاريخ أن تلامذة الإمام علي ﷺ في مكّة والمدينة والكوفة كان لكلٍّ منهم مدرسة للتفسير.

٤ ـ الإمام علي ﷺ واضع علم النحو

لقد أمر الإمام علي ﷺ لغرض صيانة القرآن من التحريف اللغوي والأدبي أبا الأسود الدؤلي أن يكتب قواعد علم النحو كما علّمه أُصوله ومبادئه، ثمّ إنّ أبا الأسود الدؤلي وبالإستفادة من علم النحو هذا عمل على إعراب القرآن الكريم[3].

٥ ـ الإمام علي ﷺ وعلم الكلام

يقول ابن أبي الحديد في مقدمة شرح نهج البلاغة: إنّ علم الكلام هو أشرف العلوم وقد اقتبسه العلماء من الإمام علي ﷺ[4].

ويقول الأربلي في كشف الغمّة إنّ أئمّة الكلام يعني الأشاعرة، المعتزلة، الشيعة والخوارج، كلُّهم ينتسبون إلى ذلك الإمام[5].

---

١. الاتقان: نوع ٨٠، طبقات المفسّرين.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١، ص ١٨ و ١٩.
٣. طبقات النحويين: ج ٧، ص ١٤.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١، ص ١٧.
٥. كشف الغمّة: ج ١، ص ٢١.

٦ ـ الإمام علي ﷺ وعلم الفقه

مضافاً إلى فقهاء الإمامية الذين أخذوا فقههم من الإمام علي ﷺ نرى أن أحمد ابن حنبل أخذ فقهه من الشافعي، والشافعي أخذ فقهه من محمّد بن الحسن ومالك، ومحمّد بن الحسن تعلم الفقه من أبي حنيفة، وتعلّم كلٌّ من مالك وأبو حنيفة الفقه على يد الإمام الصادق ﷺ، وفقه الإمام الصادق ﷺ ينتهي إلى جدّه علي بن أبي طالب ﷺ [١].

٧ ـ الإمام علي ﷺ وعلم الباطن

يقول الدكتور أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني أُستاذ جامعة القاهرة وشيخ الطريقة في مقدّمته على كتاب «وسائل الشيعة»: «إنّ المشايخ وأصحاب الطريقة كالرفاعي، البدوي، الدسوقي، الكيلاني وهم من أجلّة علماء أهل السنّة يصلون بطريقتهم إلى أئمّة أهل البيت ﷺ ومنهم إلى الإمام علي ﷺ ومنهم إلى النبي الأكرم ﷺ لأنّ النبي ﷺ قال: «انا مدينة العلم وعليّ بابها»[٢] وهذه الحقيقة لدى العرفاء والتي تسمّى بعلم المكاشفة وعلم الباطن لم يملكها أحد سوى الإمام علي ﷺ[٣]، وهناك شواهد كثيرة في أكثر كتب أهل السنّة على اختصاص الإمام علي ﷺ بهذا العلم، وكمثال على ذلك نرى أن عمر بن الخطّاب عندما أراد استلام الحجر قال: أُقبّلك وإنّي لأعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع ولكن كان رسول الله بك حفياً، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

فقال له الإمام علي ﷺ: بلى، والله إنه ليضرّ وينفع، قال: وبمَ قلت ذلك يا أباالحسن؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال: أشهد أنك لذو علم بكتاب الله تعالى، فأين ذلك من الكتاب؟ قال: قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾... فلمّا أقروا له بالربوبية كتب أسماءهم في رقّ وأودعه هذا الحجر ثمّ قال له: اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة... فقال عمر: لا عشتُ في أمّة لست فيها يا أباالحسن (بتلخيص).

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١، ص ١٨.

٢. تفصيل الكلام فيما يتعلق بعالم الذر في التفسير الامثل: سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

٣. كيهان فرهنگي: الرقم ١٨٤، ص ١٦.

٨ ـ الإمام علي عليه السلام وخلافة النبي صلى الله عليه وآله

لقد اتّضحت من خلال الأبحاث السابقة للقاريء الكريم هذه الحقيقة، وهي: أن الشخص الذي يعترف الجميع (الموافقون والمخالفون والأصدقاء والأعداء) أنه أعلم الناس وأفضلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو اللائق لمقام الخلافة والإمامة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا غير، ولهذا ورد أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ذكر في خطبته الغرّاء في غدير خمّ هذين المطلبين (المرجعيّة العلميّة والخلافة) وقال:

«مَعَاشِرَ النَّاسِ ا هٰذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَوَاعِي عِلْمِي وَخَلِيفَتِي»[1].

والتأمّل والتفكّر بهذه الخصوصيات الأربع المذكورة في هذا الحديث الشريف تبيّن حقائق كثيرة لطلّاب الحقيقة:

١ ـ «أخي»: فلو أن الإنسان أراد إظهار احترامه وتقديره لمن يكبره في السنّ فإنه يعبّر عنه بكلمة «أبي» وعندما يريد إظهار المحبّة والعاطفة بالنسبة إلى من هو أصغر منه سنّاً فيقول عنه «ابني» وعندما يريد إظهار العلاقة والمحبّة لمن يكون رديفه في السنّ فإنه يعبّر عنه بأنه «أخي» لأن الأخوة المعنوية تعني الإرتباط الروحي القريب بين شخصين على أساس المساواة، وعليه فإنّ عبارة «أخي» في الحديث الشريف تتضمن حقيقة كبيرة، وهي أن الإمام علي عليه السلام في واقعه وشخصيته يساوي النبي صلى الله عليه وآله أو أن شخصيته تقترب إلى حدٍّ كبير إلى شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبعبارة أخرى إنّ كلمة «أخي» تتضمن المفهوم والمعنى الذي ورد في آية المباهلة «أنفسنا وأنفسكم».

٢ ـ «وصيّي»: طبقاً لعقيدة أهل السنّة فإنّ الأنبياء لا يورثون، وعليه فإنّ الإمام علي عليه السلام لا يكون وصيّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في مجال الأموال والثروة، ونعلم أن النبي لم يخلف من ذريته عند وفاته سوىٰ فاطمة الزهراء عليها السلام ولذلك لا معنى لأن يكون الإمام علي عليه السلام وصيّاً على أبنائه وذريته، وعلى هذا الأساس فإنّ الإمام علي عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله في المسائل المتعلقة بالدين، أجل إنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولغرض تكميل واستمرار الدعوة

---

١. الغدير: ج ٣، ص ١١٧.

السماوية والدين الإلهي جعل من الإمام علي عليه السلام وصيّاً له على هذا الأمر.

٣ ـ «واعي علمي»: «وعى» على وزن «سعى» ويراد بها كما ذكر أهل اللغة: حفظ الشيء في القلب، أي أن يتفكر الإنسان في شيء معين ويحفظه في قلبه ويجعله نبراساً له ومصباحاً يضيء طريق حياته، وعليه فإن الإمام علي عليه السلام قد وعى جميع العلوم النبوية والمعارف الإلهية وجعلها تحت اختيار المسلمين ليستضيئوا بنورها ويسلكوا في خطّ الهدى والعقيدة والرسالة بضوءها.

فهل يصحّ مع وجود مثل هذه الشخصية الممتازة أن نقلد أُمور الخلافة وزمام تدبير الأُمّة بيد شخص آخر؟

٤ ـ «وخليفتي على من آمن بي»: وفي الحقيقة إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الجملة ـ التي تعتبر نتيجة منطقية للجملات الثلاث المتقدمة ـ لم يدع ذريعة واحدة للمخالفين، وأعلن بصريح العبارة للعالم أجمع استخلافه للإمام علي عليه السلام من بعده، فلم يكتف صلى الله عليه وآله بكلمة «خليفتي» لئلّا يقول أهل البدع والأهواء «إن مراد النبي هو الوصاية على الأهل والأولاد لا الخلافة على المسلمين»، فقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله بصريح العبارة وبأفضل بيان خلافة وإمامة الإمام علي عليه السلام وأولاده على جميع المسلمين إلى قيام القيامة.

النتيجة: انه بالرغم من أن الضروري هو التأكيد على مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام العلميّة وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام، إلّا أنّ فصل مسألة الإمامة عن الخلافة أمر خطير وخطأ كبير ويترتب عليه لوازم سلبية كثيرة لا يلتزم بها أحد.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين»

انتهى

الفهرس

الفصل الأول
آيات الخلافة والولاية على المسلمين

الفصل الثاني
آيات لفضائل أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثالث

آيات الفضائل الخاصّة بالإمام عليّ ﷺ